« رَوْضَة الناظِر ونُزهة الخاطر »

الجزاء من جنس العمل

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور سيد حسين العفاني

قدم له



الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ محمد إسماعيل المقدم

الشيخ أبو إسحاق الحويني

الشيخ عائض بن عبد الله القرني

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة
هاتف ٥٨٦٤٢٤٠

توزيع
دار ماجد عسيري
للنشر والتوزيع - جدة

الطبعــة الأولـى
١٤١٥ هـ

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

المنـاقـب


بسم الله الرحمن الرحيم

□ المناقب □

قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ [الواقعة : ١٠] .

من صفا صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدِّرَ عليه .

قال الحسن وقتادة : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ ؛ أي من كل أمة .

وقال ابن سيرين : الذين صلوا للقبلتين .

وقال مجاهد : هم الأنبياء عليهم السلام .

وقال عثمان بن أبي سودة : أولهم رواحًا إلى المسجد ، وأولهم خروجًا في سبيل الله .

قال ابن كثير :

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمِروا ، كما قال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾[1] .

يقول ابن القيم في صفة أول زمرة تدخل الجنة :

هذا وأول زمرة فوجوههمْ كالبدر ليل الست بعد ثمان
السابقون هُمُ وقد كانوا هنا أيضًا أولي سبق إلى الإحسان

وهؤلاء هم السابقون الذين سبقوا في الدنيا إلى الخيرات ، وسبقوا في الآخرة إلى الجنات ، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا[2] .

قربت قلوبهم من بساط المعرفة ، وإلى الحق في دار الدنيا ، فقال الله عنهم : ﴿ أولئك المقربون ﴾ . النعيم الأكبر والأسنى ؛ نعيم القرب ، وجنات النعيم

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٤٩٠ - ٤٩١) .(٢) شرح النونية (٢/٣٤٢-٣٤٣) .

تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

اليوم جنان العرفان ، وغدًا جنان الرضوان .

يقول قائلهم : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها القلب طربًا ، وأقول : إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا العيش إنهم لفي عيش طيب .

لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبدًا في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبدًا لهم القرب والزلفى ، لا حجاب لهم عنها .

والسابقون السابقون إنهم هم هم وكفى ، فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا .

السابقون بصدق القدم، وعلو الهمم **﴿ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾**.

يقول ابن كثير :

وقد اختلفوا في المراد بقوله : **﴿ الأولين ﴾** و **﴿ الآخرين ﴾** .

فقيل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ، رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير .

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يُقابَلَ مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم .

فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله : **﴿ ثلة من الأولين ﴾** ؛ أي من صدر هذه الأمة ، و **﴿ قليل من الآخرين ﴾** ؛ أي من هذه الأمة .

قال الحسن : **﴿ ثلة من الأولين ﴾** ثلة ممن مضى من هذه الأمة .

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : **﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾** : كانوا يقولون – أو يرجون أن يكونوا – كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول

كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم ، كل أمة بحسبها . ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .... »[١] .

أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل أمتي مثل المطر . لا يدرى أوله خير أم آخره»[٢] ، فهذا الحديث - بعد الحكم بصحة إسناده - محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى مَنْ بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في آخرها ، وتثبت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم . وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ، والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة ؛ لشرف دينها ، وعظم نبيها ﷺ[٣] .

ومن البشارة العظيمة لهذه الأمة استمرار العاملين بأحكام الله في كل قرن، وأما قوله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ [فاطر: ٣٢]

---

(١) ورد الحديث بلفظ « خير الناس قرني » رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن حبان وأحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد عن عمار ، وأحمد والترمذي عن أنس ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وعن ابن عمرو . والطيالسي ، وابن حبان ، وأبو نعيم في الحلية . ومعنى الحديث كما قال الرامهرمزي : إن الخير شامل لها ، وإن كان معلومًا أن القرن الأول خير من القرن الثاني.وقال الشاعر يذكر امرأة أعجبه منها بيانها وطرفها وثغرها :

أشارت بأطراف لطافٍ وأجفنٍ مراض وألفاظ تنعم بالسحر
فوالله ما أدري أفي الطرف سحرها أم السحر منها في البيان وفي الثغر

يريد أن السحر في جماعتها اهـ .

(٣) تفسير ابن كثير (ج٧ / ٤٩٣) .

ليس خاصًّا بقرنٍ دون قرن ، بل هو عامّ في كل العصور حتى تقوم الساعة[١].

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « في كل قرن من أمتي سابقون »[٢] .

○ المهاجـرون ○

قال ابن القيم : عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه .

لما ترك المهاجرون ديارهم لله ، وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم ؛ أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا ، وملّكهم شرق الأرض وغربها[٣] .

بل هم في الآخرة أسبق الناس دخولا للجنة .

ورحم الله القائل مبيّنًا إحسان الله وجزيل عطائه :

من وقعت عليه غبرة في طريقهم ؛ لم تقع عليه قترة فراقهم .

من خطا خطوة إليهم ، وجد حظوة لديهم .

من رفع إليهم يدًا ؛ أجزلوا له رغدًا .

من التجأ إلى سدة كرمه ؛ آواه في ظل نعمه .

من شكا فيهم غليلًا ؛ مهدوا له في دار فضلهم مقيلًا .

طلّق الصحابة الدنيا ؛ فاشتاقت إليهم الجنان . وصبروا على شَظَفِها ؛ فغدًا لهم رغد العيش ، وسعادة الجَدِّ ، وكمال الرفد ، يلبسون حلل الوصل ، ويتوجون بتاج القرب ، ويحملون على المباسط ، ويتكئون على الأرائك ، ويشمون رياحين الأنس والجنة ، يقيمون في مجال الزلفة ، ويسقون شراب المحبة .

---

(١) السلسلة الصحيحة (٥ / ٢) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وعزاه السيوطي في « الجامع » للحكيم الترمذي فقط ، ورواه الذهبي في تذكرة الحفاظ من طريق أبي نعيم وقال : حديث غريب جدًا ، وإسناده صالح. وقال الألباني: إسناده جيد، انظر السلسلة الصحيحة (٥/٧) الحديث رقم ٢٠٠١.

(٣) روضة المحبين (ص٤٤٣) .

نعم الثواب ثوابهم ، نعم الرب ربهم ، نعم الدار دارهم ، نعم الجار جارهم ؛ نعم الحال حالهم .

○ الصديق الأكبر رضي الله عنه ○

قال صاحب الاستيعاب : وسمي الصديق لبداره إلى تصديق رسول الله ﷺ في كل ما جاء به[١] .

أنا مولايَ إمامٌ ضحكتْ   من ثنايا فضله آيُ الزمرْ

وقال أبو محجن الثقفي :

وسُمّيت صِدِّيقًا وكلُّ مهاجر   سواك يُسمى باسمه غير منكرِ

وكان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يحلف بالله أن الله عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء « الصديق » .

وقال علي في رثائه لأبي بكر : صدّقت رسول الله ﷺ حين كذّبه الناس ، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، سمّاك الله في تنزيله صديقًا فقال : ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ ليلة أسري به لجبريل : « إن قومي لا يصدّقوني ، فقال له جبريل : يصدقك أبو بكر ، وهو الصديق »[٢] .

﴿ **ثاني اثنين** ﴾ : قال الزجاج : نصره الله أحد اثنين ؛ أي نصره منفردًا إلا من أبي بكر . وهذا معنى قول الشعبي : عاتب الله أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر[٣] .

أقسم بالله يمينًا صادقًا   لو فاضلَ الأملاكَ بالصدق فضَلْ

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٢ / ٢٣٥ – ٢٣٧) .
(٢) التبصرة (١ / ٣٣٨ – ٤٠٢) .
(٣) التبصرة (١ / ٣٩٦) .

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن إسحق :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد أذِن لي في الخروج والهجرة » قالت عائشة : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ؟ قال : « الصحبة » قالت : فوالله ما شعرت قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي .

وقال ابن كثير :

روى أبو القاسم البغوي عن ابن أبي مليكة أن النبي ﷺ لمّا خرج هو وأبو بكر إلى ثور ، فجعل أبو بكر يكون أمام النبي ﷺ مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : إذا كنت خلفك خشيت أنْ تُؤتَى من أمامك ، وإذا كنتُ أمامك خشيت أن تُؤتى من خلفك ، حتى إذا انتهى لغار من ثور . قال أبو بكر : كما أنت حتى أُدخِل يدي فأحسه وأقصه ؛ فإن كانت فيه دابة أصابتني قبلك .

قال نافع : فبلغني أنه كان في الغار جحر فألقم أبو بكر رجله ذلك الجحر ؛ تخوفًا أن يخرج منه دابة أو شيء يؤذي رسول الله ﷺ .

وهذا مرسل ، وقد ذكرنا له شواهد أُخر في سيرة الصديق - رضي الله عنه - .

يقول ابن القيم :

هذا وأمة أحمد سبّاق با ... قي الخلق عند دخولهم بجنانِ

وأحقهم بالسبق أسبقهم إلى الـ ... إسـلام والتـصديق بالقـرآنِ

وكذا أبو بكر هو الصديق أسْـ ... ـبقهمْ دخولًا قولَ ذي برهانِ[1]

لمّا وفى الصدّيق حُلى الإيمان فيدعى يوم القيامة من كل أبواب الجنان .

قال ابن القيم عن أبواب الجنة :

ولسوفَ يُدعى المرءُ من أبوابها ... جَمْعًا إذا وفّى حُلَى الإيمانِ

منهم أبو بكر هو الصدّيق ذا ... ك خليفة المبعوث بالقرآنِ

---

(١) النونية لابن القيم (٢ / ٣٥٠) .

ولكل نوع من الأعمال الصالحة باب من أبواب الجنة ، يدخل منه أهله المبرزون فيه ، وقد يدعى المرء من الأبواب كلها إذا وفّى جميع شعب الإيمان ، ومن هؤلاء صديق هذه الأمة ، وأفضل الناس جميعًا بعد النبيين أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ . فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله ؛ دُعي من أبواب الجنة : يا عبد الله ، هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريّان ، ومنْ كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة » قال أبو بكر : هل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[١] .

يقول علي بن أبي طالب في رثاء الصديق : آسيتَه حين بخلوا ، وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم ، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها ، فلهذا جلبت نفقته عليه « ما نفعني مال ، ما نفعني مال أبي بكر »[٢] .

روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة ، ما نفعني مال أحد قط ، ما نفعني مال أبي بكر » فبكى أبو بكر وقال : فهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟ »[٣] .

وقال ﷺ : « أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار »[٤] .

لما طُبعَ رسول الله ﷺ على أشرف الخلائق ، كان منها الكرم ، فأعطى غنمًا بين جبلين ، فلمّا سار في فيافي الجود تبعه صديقه فجاء بكل ماله ، فقال له : « ما أبقيت ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

تعب في المكاسب فنالها حلالًا ، ثم أنفقها حتى جعل في الكساء خِلالًا ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وأحمد في مسنده ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .
(٢) الفوائد (٧٢) . (٣) التبصرة (٣٩٩/١). (٤) رجاله ثقات .

قال له الرسول أسلم ، فكان الجواب نَعَم ، بِلا لَا ، أما سمعت الفاروق يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا بلالًا .

أبو بكر حبا في الله مالا فأعتق في محبته بِلَالَا
وقد واسى النبيَّ بكل فضل وأسرع في إجابته بِلا لا
لو أن البحر يقصده ببعض لما ترك الإله به بِلَالَا[١]

كانت تحفة ﴿ ثاني اثنين ﴾ مدخرة للصديق دون الجميع .

قال ابن حجر : فَضْلُ أبي بكر الصديق ؛ لأنه انفرد بهذه المنقبة ، حيث صاحب رسول الله ﷺ في تلك السفرة ، ووقاه بنفسه[٢] .

فهو الثاني في الإسلام ، وفي بذل النفس ، وفي الزهد ، وفي الصحبة ، وفي الخلافة ، وفي العمر ، وفي سبب الموت ؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم ، وأبو بكر سُمَّ فمات . كان عُمْر الصديق يوم توفي ثلاثًا وستين سنة ، للسن الذي توفي رسول الله ﷺ قاله ابن القيم في الفوائد . وقد كان الصديق - رضي الله عنه - ثاني اثنين في العريش يوم بدر .

وقد جمع الله بينهما في التربة كما جمع بينهما في الحياة[٣] .

انظر إلى سر الاقتران ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ لفظًا وحكمًا ومعنى ، إذ يقال : رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فلما مات قيل : خليفة رسول الله ، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته ، فقيل : أمير المؤمنين[٤] .

فكانت المفخرة العظمى ما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : « إنّ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقى في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر » .

نطقت بفضله الآيات والأخبار ، فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار ، كلما

---

(١) التبصرة (١ / ٤٠٤) .
(٢) الفتح (٧/ ١٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٨/٤).
(٤) الفوائد (٧٢) .

تُليت فضائله علا عليهم الغبار ، أترى لم يسمع الروافض الفجار ﴿ **ثاني اثنين إذْ هُما في الغار** ﴾ ؟

من كان قرين النبي في شبابه ؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه ؟ مَنْ ذا الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه ؟ من أول مَنْ صلّى معه ؟ منْ آخر مَنْ صلّى به ؟ مَن الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه ؟

استوحش الصديق من خوف الحوادث ، فقال الرسول : ما ظنك باثنين والله الثالث .

والله ما أحببناه لهوانا ، ولا نعتقد في غيره هوانا ، ولكن أخذنا بقول عليّ وكفانا : رضيك رسول الله لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا[1] .

وانظر رحمك الله إلى تصديق الصديق – رضي الله عنه – للنبي ﷺ في المواطن التي يعز فيها تصديقه :

قال الحافظ في الفتح :

ومن حديث أبي الدرداء : « إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي » ؟ مرتين، فما أوذي بعدها[2] .

قال ابن كثير :

انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فأصبح يخبر قريشًا بذلك ، فذكر أنه كذّبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد إسلامها ، وبادر الصديق إلى التصديق ، وقال : إني لأصدقه في خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه في بيت المقدس[3] ؟!!.

قال ابن حجر :

روى البيهقي في الدلائل عن أبي سلمة قال : افتتن ناس كثير – يعني عقب الإسراء – فجاء ناس إلى أبي بكر ، فذكروا له ، فقال : أشهد إنه لصادق ،

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٨٤ – ٨٥ . طبع منشورات دار مكتبة الحياة .
(٢) فتح الباري (٧ / ٢٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ١٠٨ .

فقالوا : وتصدقه أنه أتى الشام في ليلة واحدة ، ثم رجع إلى مكة ؟! قال : نعم ، إني أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء . قال : فسمي بذلك الصديق .

أما يوم الحديبية فتجلى في صدق الصديق بأوضح صورة ، حتى إن كلماته لعمر هي نفس كلمات النبي ﷺ لعمر .

ففي حديث المسور ومروان : دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ . فقال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال : فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا . فقال النبي ﷺ : « فأجزه لي » .. قال : ما أنا بمجيزه لك . قال ﷺ : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟ ألا تَرَوْن ما قد لقيت؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألست نبي الله حقًّا ؟ قال : « بلى » . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » . قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ » قال : قلت : لا . قال : « فإنك آتيه ومطوّف به » . قال : فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقًّا ؟ قال : بلى . قال : قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا ؟ قال : أيها الرجل ، إنه لرسول الله ﷺ ، ليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه[1]، فوالله إنه لعلى الحق . قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي

(١) فاستمسك بغرزه : أي اعتلق به ، وأمسكه ، واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز ، كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره (اللسان ٥ / ٣٢٣٩) .

البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ، ومطوف به . قال عمر : فعملت لذلك أعمالًا[(١)] .

وعند أحمد : ما زلت أصومُ وأتصدق وأعتق من الذي صنعت ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكوَن خيرًا .

وعند أحمد: أنه أتى أبا بكر أولًا، فقال: يا أبا بكر ، أو ليس برسول الله ﷺ ، أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الذلة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان ، فإني أشهد أنه رسول الله .

ختام مسك :

ونختم بختام مسك من مواقف الصديق في قصة الإفك .

يقول سيد قطب :

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه ، يلذعه الألم وهو يُرمىٰ في عرضه ، في ابنته - زوج محمد - صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل ، لا يطلب دليلًا من خارجه .. وإذا الألم يفيض على لسانه ، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم ، فيقول : والله ما رمينا بهذا في الجاهلية ، أفنرضى به في الإسلام ؟! وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل . حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة : أجب عني رسول الله- ﷺ- قال في مرارة هامدة : والله ما أدري ما أقول لرسول الله- ﷺ-[(٢)] .

وأنزل الله براءة عائشة - رضي الله عنها - فحلف الصديق ألَّا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال . ونزل قول الله تعالى : ﴿ **ولا يأتلِ أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ [النور : ٢٢] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الشروط .. حديث الحديبية .

(٢) الظلال (٤ / ٢٤٩٨) .

قال ابن كثير :

نزلت في الصديق حين حلف ألَّا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه . شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر - رضي الله عنه - وكان من المهاجرين في سبيل الله . وقد دَلَق دَلْقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق- رضي الله عنه- معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ أي : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك ، وكما تصفح نصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا ، ثم رجَعَ إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا ، في مقابلة ما قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا ، فلهذا كان الصديق هو الصديق(١).

يقول سيد قطب :

وهنا نطلع على أفق عالٍ من آفاق النفوس الزكية ، التي تطهرت بنور الله أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحي : ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله ، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق ، يقول : بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٣١) .

أنزعها منه أبدًا . ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًّا مشرقًا بالنورِ[١] ..

○ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ○

وهذا الفاروق ، الذي تطيب المجالس بذكره ، يصدق فيه : أن من خاف الله أخاف الله منه كل شيء والجزاء من جنس العمل .

فقد كان يسمع القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعا إلى منزله ، فيعاد أيامًا ، ليس به مرض إلا الخوف .

وقد بلغ من خوفه أن حفرت الدموع خطين أسودين في وجهه من كثرة بكائه .

وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « والذي نفسي بيده ، ما لَقِيكَ الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك ».

وقال ﷺ : « إن الشيطان ليفرَقُ منك يا عمر »[٢].

ويرحم الله حافظًا لما قال :

قد فرّ شيطانها لما رأى عمرًا   إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

وقال ﷺ : « من تواضع لله رفعه »[٣].

انظر يا أخي إلى عمر وحاله عند فتحه لبيت المقدس .

قال ابن كثير :

عن أبي العالية قال : قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء ، على

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

(٢) صحيح على شرط مسلم : رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن حبان عن بريدة انظر صحيح الجامع (١٦٥٠) والسلسلة الصحيحة (١٦٠٩) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وهو جزء من حديث عند مسلم ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة .

جمل أورق تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وِطاؤه كساءٌ انبجاني ذو صوف هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبة نمرة أو شملة محشوة ليفًا ، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه . فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصي وخيّطوه وأعيروني ثوبًا أو قميصًا . فأتي بقميص كتان فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان . قال : وما الكتّان ؟ فأخبروه . فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه . فقال له الجلومس : أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئًا غير هذا ، وركبت برذونا لكان ذلك أعظم في أعين الروم . فقال : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب بغير الله بديلًا . فأتي ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه بها فقال : احبسوا احبسوا ، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتي بجمله فركبه .

ولله در حافظ إبراهيم حين يقول في عمريته :

يا منْ صدفتَ عن الدنيا وزينتها ... فلمْ يغرك من دنياك مُغْرِيها
ماذا رأيت بباب الشام حين رأوْا ... أن يُلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه ... خيلٌ مطهَّمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالًا براكبه ... وفي البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت: يا قوم، كادِ الزهو يقتلني ... وداخلتني حَالٌ لستُ أدريها
وكاد يصبو إلى دنياكم عمرٌ ... ويرتضي بيع باقيها بفانيها
ردوا ركابي فلا أبغي به بدلًا ... ردوا ثيابي فحسبي اليوم باليها

وعن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشامَ عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ، ونزع موقيه فأمسكهما بيد ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا . قال : فصك في صدره . وقال :أَو لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقلَّ الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العز

بغيره يذلكم الله[١] .

رضي الله عنك يا بن الخطاب .. لما قدم الشام تلقاه أبو عبيدة ورءوس الأمراء ، فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر ، فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر ، فهمّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة ، فكف أبو عبيدة فكفّ عمر[٢] .

قال ابن كثير : عن عمر لما فتح بيت المقدس :

ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه ، ونقل المسلمون معه في ذلك . وسخر أهل الأردن في نقل بقيتها ، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة ؛ لأنها قبلة اليهود ، حتى إن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة ، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة ، وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب ، فجعلوا يلقون على قبره القمامة .

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي ، وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة ، حتى وصلت إلى محراب داود ، قال لهم : إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد ، كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا ، ثم أمروا بإزالتها فشرعوا في ذلك ، فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون ، فأزالها عمر بن الخطاب[٣] .

اتخذ النصارى مكان قبلة اليهود مزبلة ، في مقابلة ما صنعوا في قديم الزمان وحديثه . فيأتي الفاروق ، ويزيل ما على الصخرة من كناسة ، ويكنسها بردائه .

وانظر الأعاجيب في تواضع عمر :

قال طلحة بن عبد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل فدخل بيتًا ،

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٦١) .
(٢) السابق (٤ / ٥٧) .
(٣) البداية والنهاية (٤ / ٥٧) .

فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقلت لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى . فقلت لنفسي : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبع[1]؟ .

فكيف كان جزاء تواضعه النبيل :

عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب »[2] .

وعن عبد الله بن حنطب قال : قال رسول الله ﷺ : « هذان السمع والبصر » يعني : أبا بكر وعمر[3] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أبو بكر وعمر من هذا الدين ، كمنزلة السمع والبصر من الرأس »[4] .

أي رفعة بعد هذه الرفعة ، لمّا تواضعا لله والجزاء عند الله من جنس العمل .

بل صح عن رسولنا ﷺ أنه قال :«هذان سيِّدَا كهول أهل الجنة ؛ من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا علي » يعني : أبا بكر وعمر[5] .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ١٣٩ - ١٤٠) .

(٢) حسن : رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عقبة ، والطبراني في الكبير عن عصمة بن مالك ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٦٠ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٢٧ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٨١ .

(٤) حسن : أخرجه الطبراني والخطيب في تاريخ بغداد ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٨١٥ .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٢٢ .

وانظر إلى قصته مع الهرمزان بعد هزيمة الفرس .

أتى وفد المسلمين وفيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان ومعهم الخُمس من الغنائم ، فدخلوا المدينة ، فتيمموا منزل أمير المؤمنين عمر فلم يروا أحدًا فرجعوا ، فإذا غلمان يلعبون فسألوهم عنه فقالوا : إنه نائم في المسجد متوسدًا برنسًا له ، فرجعوا إلى المسجد فإذا هو متوسد برنسًا له كان قد لبسه للوفد ، فلما انصرفوا عنه توسد البرنس ونام وليس في المسجد غيره ، والدرة معلقة في يده . فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الناس يخفضون أصواتهم لئلا ينبهوه ، وجعل الهرمزان يقول : وأين حجّابه ؟ أين حرسه ؟ فقالوا : ليس له حجاب ولا حرس ، ولا كاتب ولا ديوان . فقال : ينبغي أن يكون نبيًّا . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء[1] .

يقول حافظ إبراهيم :

وراعَ صاحبَ كسرى أنْ رأى عمرًا	بين الرعية عطْلًا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أنَّ لها	سورًا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقًا في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملًا	ببردة كاد طول العهد يبليها
فهانَ في عينه ما كان يُكْبره	من الأكاسرِ والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلًا	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أَمِنْتَ لما أقمت العدل بينهمُ	فنمتَ نومَ قرير العين هانيها

والجزاء من جنس العمل .

وهو القائل - رضي الله عنه - أيها الناس ، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا أمر دنياكم .

---

(١) البداية والنهاية (٤ / ٨٩) .

○ ذو النورين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ○

عن سعيد بن العاص أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثا أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على ذلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف. قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: « اجمعي عليك ثيابك ». فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال رسول الله ﷺ: « إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إنْ أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إليّ في حاجته ».

وقال ليث: وقال جماعة من الناس: إن رسول الله ﷺ قال لعائشة: « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة »[1].

وعن حفصة بنت عمر - رضي الله عنها - قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ ذات يوم، فوضع ثوبه بين فخذيه، فجاء أبو بكر يستأذن فأذن له ورسول الله على هيئته، ثم جاء عمر يستأذن فأذن له، ورسول الله على هيئته، وجاء ناس من أصحابه فأذن لهم، وجاء علي يستأذن فأذن له، ورسول الله على هيئته، ثم جاء عثمان بن عفان فأستأذن فتجلل ثوبه ثم أذن له. فتحدثوا ساعة ثم خرجوا، فقلت: يا رسول الله، دخل عليك أبو بكر وعمر وعلي وناس من أصحابك وأنت في هيئتك لم تحرّك، فلما دخل عثمان تجلّلت ثوبك؟ قال: « ألا أستحيي ممن تستحي منه الملائكة »[2].

---

(١) إسناده صحيح: رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة رقم ٧٩٣، ٧٤٧؛ والحديث في مسلم من طريق ليث، مثله.

(٢) إسناده صحيح: ورواه أحمد في فضائل الصحابة المجلد الثاني حديث رقم ٧٤٨،=

قال عثمان – رضي الله عنه – : ما من عامل يعمل عملًا إلّا كساه الله رداء عمله .

وقال يحيى بن معاذ : من استحيى من الله مطيعًا ، استحيى الله منه وهو مذنب .

وقال ﷺ : « عثمان حيي تستحي منه الملائكة »[1] .

قال المناوي في فيض القدير (٤ / ٣٠٢) :

مقام عثمان مقام الحياء ، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده ويعظم قدره ، مع نقص يجده في النفس ، فكأنه غلب عليه إجلال الحق تعالى ، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير ، وهما من جليل خصال العباد المقربين ، فعلت رتبة عثمان كذلك ، فاستحيت منه خلاصة الله من خلقه ، كما أن من أحب الله أحب أولياءه ، ومن خاف الله خاف منه كل شيء .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « عثمان أحيى أمتي »[2] .

أكثرها حياءً والحياء منشأ الآداب ، قيل : لم يضع يمينه على فرجه منذ بايع النبي ﷺ ، قيل :

فلا وأبيك ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاءُ

وقال آخر :

إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له ... ولا أمانةَ وسط القوم عريانًا

= وهو في المسند مثله سندا ومتنًا ، وله شاهدٌ من حديث عائشة أخرجه مسلم وأحمد .

(١) صحيح : رواه ابن عساكر عن أبي هريرة ، وصحح الحديث الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٣ .

(٢) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٨٧٢ .

○ علي بن أبي طالب ○

كيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية اجتماع شياطين قريش في دار الندوة في يوم الزحمة ، وحكى ما كان بينهم وبين إبليس الذي تبدّى لهم في صورة الشيخ النجدي ، واستقر رأيهم على ما قاله أبو جهل بن هشام.

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتًى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا ، ثم نعطي كل فتًى منهم سيفًا صارمًا ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له . فأتى جبرائيل رسول الله ﷺ فقال له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : « نَمْ على فراشي ، وتسبَّج ببردي هذا الحضرمي الأخضر ، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » . وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذ ينام .

ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآيات : ﴿ **يس . والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ [يس : ١ - ٩] . ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمدًا . قال خيّبكم الله ، قد والله ، خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، وانطلق لحاجته ،

أفما ترون ما بكم ؟ قال : فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون ، فيرون عليًّا على الفراش متسجيًا ببرد رسول الله ﷺ فيقولون : والله ، إن هذا لمحمدٌ نائمًا على برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله ، لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

حمى المغوار حيدرة[1] الدعوة في شخص نبيها ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرّت بها الدعوة ، رجل ينام في الفراش وهو يعلم أن على الباب رجالًا لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش ، فلما قلق به الفراش ليلة من أجل نبيه ، أسعد الله فراشه بفاطمة بنت نبيه ﷺ التي تجلببت في جلباب كمالها . وأعطاه الرسول ﷺ الأهل والمرحب ، وأصدقه درعه الحُطَمِيّة ، فأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوها ليف ، وقربة ومنخل وقدح ورحَى وجرابان . ودخلت عليه وما لها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل وتعْلف عليه الناضح بالنهار ، وكانت هي خادمة نفسها .

تالله ، ما ضرها ذلك .

وفي الصحيحين . أن رسول الله ﷺ قال لها : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين » .

وفي الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » .

عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي وعمّار وسلمان »[2] . ونعم الجزاء ..

---

(١) هو اسم علي بن أبي طالب قال :

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

وحيدرة هو : الأسد .

(٢) حسن : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٤ .

عليّ بن أبي طلب لما بكت الدنيا عليه ، اشتاقت وضحكت الآخرة إليه .

كان يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب[١] .

هذا الذي كان يقف وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول : يا دنيا أبي تعرّضت ؟! أم بي تشوّفت ؟! هيهات غرّي غيري ، قد بتتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشكِ حقير ، وخطركِ كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ووحشة الطريق .

رضي الله عن علي فقد حمى الدعوة أيما حماية .

ففي الصحيح من مناقب علي : قال الحسن بن علي : يأيها الناس ، لقد فارقكم أمسِ رجلٌ ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون ، لقد كان رسول الله ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية ، فما يرجع حتى يفتح الله عليه ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره - يعني عليًّا - رضي الله عنه - ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا[٢] .

وقال رسول الله ﷺ في قتال علي للخوارج : « إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله » فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر - فقال : « لا ، ولكنه خاصف النعل » . يعني عليًّا رضي الله عنه[٣] .

وهو الذي قاتل الخوارج وقتلوه ، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « طوبى لمن قتلهم وقتلوه »[٤] .

---

(١) ما غلظ .

(٢) صحيح : أخرجه ابن حبان وأحمد والبزار والطبراني في الكبير ، والنسائي في الخصائص ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٩٦ .

(٣) صحيح : رواه أبو سعيد الخدري ، وأخرجه النسائي في خصائص علي ، وابن حبان والحاكم وأحمد وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٤٨٧ .

(٤) إسناده حسن : رواه ابن أبي عاصم في السنة عن عبد الله بن أبي أوفى وأخرجه أحمد.

« لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود »(١) .

« الخوارج كلاب النار »(٢) .

« لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قُضِي لهم على لسان نبيهم لاتكلوا عن العمل »(٣) .

« إن في قتلهم أجرًا عظيمًا عند الله لمن قتلهم »(٤) .

وفي ليلة خيبر قال رسول الله ﷺ : « لأعطين الراية غدًا رجلًا يحبه الله ورسوله »(٥) . فأعطاها لعلي ، وقتل عليّ مرحب فارس خيبر .

فرضي الله عمن قال له النبي ﷺ :« ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ »(٦) .

وكان أخًا لنبي الهدى … وخُصّ بذاك فلا يُكْذَبِ
وفي ليلة الغار وافى النبيَ … عشاءً إلى الفلق الأشهبِ
وباتَ دُوَيْنَهُ في الفراش … مُوَطِّنَ نفسٍ على الأصعبِ
وعمرو بن وُدّ وأحزابه … سقاهم حِسا الموت في يثربِ
وسل عنه خيبر ذات الحصونِ … تُخَبِّركَ عنه وعَنْ مَرْحَبِ
وسِبْطاهُ جدهما أحمدٌ … فَبَخْ بَخْ(٧) بجدهما والأبِ

لطيفة :

في قوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا** ﴾ [الإنسان : ٨]

---

(١) صحيح . وقد ورد في الصحيح أيضًا « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبي أوفى ، وأحمد والحاكم عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : أخرجه النسائي في خصائص علي ، ورواه عبد الله بن أحمد في السنة .

(٤) صحيح : أخرجه ابن ماجة وأحمد والترمذي عن ابن مسعود .

(٥) صحيح : أخرجه مسلم عن سعد وأبي هريرة ، والترمذي ، والطبراني .

(٦) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، والترمذي، وأحمد وأبو يعلى، والبزار والطبراني .

(٧) كلمة تقال عند الإعجاب والفخر .

على قول من قال : إنها نزلت في علي وفاطمة[١] .

قال ابن الجوزي :

وعجبًا ذكر في هذه الآيات نعيم الجنات من الملبوس والمشروبات والمطعومات ، والأرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهُنّ غاية اللذات ، احتراما لفاطمة أشرف البنات ، ومَنْ يصف فاطمة الزهراء لا يذكر حورًا ﴿ إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا ﴾[٢] [الإنسان : ٢٢] .

قال الألوسي في روح المعاني :

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين ، وإنما صرّح عز وجل بولدان مخلدين ، رعاية لحرمة البتول ، وقرة عين الرسول[٣] ﷺ.

إلاَمَ أُلامُ وحتّى متى ... أعاقب في حب هذا الفتى

وهل زُوّجت غيره فاطم ... وفي غيره هلْ أتى هلْ أتى

○ جعفر الطيّار ○

لجعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – قصة يظهر فيها بوضوح كيف أن الجزاء من جنس العمل .

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال ﷺ : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

فمضوا إلى أرض البلقاء من أرض الشام حتى نزلوا معانا من أرض الشام، وبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة.

ثلاثة آلاف من الأبطال والشجعان ، من حملة القرآن ، أمام عبدة الصلبان ، عليهم لعائن الرحمن ، في ذلك الزمان ، وفي كل أوان .

فالتقى الناس فاقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى

(١) حكم بالوضع الترمذي وابن الجوزي وأطال في إبطالها القرطبي ورد متعقبًا الألوسي وغيره .

(٢) التبصرة ١ / ٤٥٤ . (٣) الألوسى ٢٩/٣٠ ص١٥٧، ١٥٨.

شاط في رماح القوم ، ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قتل .

اقتحم جعفر عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ؛ فكان جعفر أول المسلمين عَقَرَ في الإسلام[١] ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إنْ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام :

وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء .

روى البخاري عن عبد الله بن عمر : كنت فيهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا في جسده بضعًا وتسعين من ضربة ورمية . تفرّد به البخاري .

ومن أفراد البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر بن أبي طالب يومئذ وهو قتيل ، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره[٢] .

مما يشهد لكون الجزاء من جنس العمل ، ويشهد أيضًا لما ذكره ابن هشام من قطع يمينه وهي ممسكة اللواء ثم شماله – ما رواه البخاري عن عامر قال : كان

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ٢٤٤) استدل من جواز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، كما يقول أبو حنيفة في الأغنام إذا لم تتبع في السير ويخشى من لحوق العدو وانتفاعهم بها أنها تذبح وتحرق ليحال بينهم والله أعلم .
قال السهيلي : ولم ينكر : أحد على جعفر فدل على جوازه إلا إذا أمن أخذ العدو له ، ولا يدخل في ذلك في النهي عن قتل الحيوان عبثًا .

(٢) وجه الجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أن ابن عمر اطلع على هذا العدد ، وغيره اطلع على أكثر من ذلك ، وأن هذه في قبله أصيبها قبل أن يقتل ، فلما صرع إلى الأرض ضربوه أيضًا ضربات في ظهره ، فعد ابن عمر ما كان في قبله وهو في وجوه الأعداء قبل أن يقتل رضي الله عنه .

ابن عمر إذا حيّى ابن جعفر قال : السلام عليك يابن ذي الجناحين .

قال ابن كثير :

لأن الله تعالى عوّضه عن يديه بجناحيه في الجنة[١] .

عن ابن عباس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكىء على سريره»[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جعفر ابن أبي طالب مَلَكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين »[٣] .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جعفر بن أبي طالب مَلَكًا في الجنة ، مضرجة قوادمه بالدماء ، يطير في الجنة »[٤] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مرَّ بى جعفر الليلة في ملأ من الملائكة ، وهو مخضّب الجناحين بالدم ، أبيض الفؤاد »[٥] .

وقال عبد الله بن جعفر قال لي رسول الله ﷺ : « هنيئًا لك !! أبوك يطير مع الملائكة في السماء »[٦] .

وعن ابن عباس مرفوعًا : « إن جعفرًا يطير مع جبريل وميكائيل ، له جناحان عوّضه الله من يديه »[٧].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٥٦) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك وابن عدي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٥٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٢٢٦ .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٥٩ .

(٤) أخرجه الحاكم عن ابن عباس وصححه ، وكذلك هو في الاستيعاب ، وقال الحافظ في الفتح أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس ، وإسناده جيد .

(٥) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم .

(٦) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : أخرجه الطبراني بإسناد حسن .

(٧) قال الحافظ في الفتح (٧ / ٩٦) : وإسناد هذه جيد .

والجزاء من جنس العمل .

يقول حسان يبكي جعفرًا :

فلا يبعدنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهمْ ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعًا وأسباب المنية تخطرُ
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهمْ ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ
أغرّ كضوء البدرِ من آل هاشمٍ ... أبيٌّ إذا سيم الظلامة مجسرُ
فطاعنَ حتّى مال غير موسّدٍ ... بمعتركٍ فيه القنا متكسِّرُ
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضرُ
وكنا نرى في جعفرٍ من محمد ... وفاءً وأمرًا حازمًا حين يأمرُ
وما زال في الإسلام من آل هاشمٍ ... دعائم عزّ لا يزلن ومفخرُ

○ زيد بن حارثة ○

الأمير الشهيد النبوي المسمى في سورة الأحزاب ، أبو أسامة المحمدي ، سيد الموالي وأسبقهم إلى الإسلام ، وحب رسول الله ﷺ وأبو حِبّه ، وما أحب رسول الله ﷺ إلا طيبًا ، ولم يسم الله تعالى في كتابه صحابيًا باسمه إلا زيد بن حارثة .

مَنْ ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن آثر رسول الله ﷺ على أمه وأبيه ، آثره الله وذكر اسمه فَحُقّ له أن يفتخر ويتيه .

فيا صاحبي قف بي مع الحق وقفةً ... أموت بها وجدًا وأحيا بها وجدًا
وقُلْ لملوكِ الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يُهدىٰ

سُبِيَ وهو غلام صغير نحو الثامنة من عمره ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة تبتغي زيارة قومها بني مَعْن ، وكانت تصحب معها غلامها زيد بن حارثة ، فما كادت تحل في ديار قومها حتى أغارت عليهم خيل لبني الْقَيْن فأخذوا المال ، واستاقوا الإبل ، وسبوا الذراري وكان في جملتهم زيد ، وبيع في سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام ، وأهداه لعمته خديجة ، وأهدته - رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ وكان أبوه يتحراه في كل أرض ، ويسأل عنه كل ركب ، ويصوغ حنينه إليه شعرا حزينًا تتفطر له الأكباد حيث يقول :

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل؟
فوالله ما أدري ، وإني لسائلٌ ... أغالَكَ بعدي السهلُ أم غالك الجبلْ؟
تذكرنيه الشمسُ عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفلْ
سأعمل نصّ العيسِ في الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التَّطوافَ أو تسأم الإبلْ
حياتي أو تأتي عليّ منيتي ... فكل امرئٍ فان وإن غرّه الأجلْ

ولمّا علم أهله بعد طول بحث أنه عند محمد بن عبد الله - ﷺ - أتوْه وقالوا : هذا ابننا فردّه علينا . فقال : « أعرض عليه ، فإن اختاركم فخذوا بيده » . فبعث إلى زيد وقال : « هل تعرف هؤلاء ؟ » . قال : نعم ، هذا أبي ، وهذا أخي ، وهذا عمي ، فقال له النبي ﷺ : « فأي صاحب كنت لك ؟ » . فبكى وقال : لم سألتني عن ذلك ؟ . قال : « أخيرك ، فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق ، وإنْ أردت أن تقيم فأنا مَنْ قد عرفت » فقال : ما أختار عليك أحدًا . فقال له أبوه : ويحك يا زيد !! أتختار العبودية على أبيك وعمك . فقال : إني رأيت من هذا الرجل شيئًا ، وما أنا بالذي يفارقه أبدًا . إي والله ، العبودية عند محمدٍ أحب إليّ من أن أكون عندكم .

فخرج به الرسول ﷺ إلى الحِجْر على ملأٍ من قريش وقال: « يا معشر قريش، اشهدوا أن هذا ابني يرثني وأرثه». فكان يُدعى زيد بن محمد، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أول من آمن به ، وهل فوق هذه الأولية أوليّة يتنافس فيها المتنافسون.

وبعد البعثة أيضًا أراد أخوه منه أن يلحق بأهله فأبى .

قال جبلة بن حارثة : قدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، ابعث معي أخي زيدًا ، قال : « هو ذا ، فإنِ انطلق لم أمنعه » فقال زيد : لا والله ، لا أختار عليك أحدًا أبدًا ، قال : فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي[1] .

عن سالم عن أبيه قال : ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ،

---

(١) أخرجه الترمذي عن جبلة بن حارثة وحسنه ، وأخرجه الحاكم (٣/٢١٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وذكره الحافظ في الإصابة في ترجمة جبلة بن الحارث ، وزاد نسبته إلى أبي يعلى انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٥) .

فنزلت : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ [الأحزاب : ٥][(١)] .

ويلوح الجزاء من جنس العمل ، وإن زاد زيادة تقوم لها الدنيا ، فلما أحب زيد النبي ﷺ ، وآثره على أمه وأبيه ، فقد أحبه الرسول الكريم ﷺ ، وخلطه بأهله وبنيه ، وكان أحبَّ الناس إليه ، عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « يا زيد ، أنت مولاي ومني وإليّ وأحبّ القوم إليّ »[(٢)].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ أمَّر أسامة على قوم ، فطعن الناس في إمارته ، فقال : « إن تطعنوا في إمارته ، فقد طعنتم في إمارة أبيه ، وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة ، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ ، وإنّ ابنه هذا لأحبّ الناس إليّ بعده »[(٣)] .

وفيه عن سالم عن ابن عمر: «وإن كان [لأحب الناس كلهم إليّ] قال سالم : ما سمعت أبي يحدث بهذا الحديث قط إلّا قال : والله ما حاشا فاطمة[(٤)].

وعن عائشة قالت : ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقي بعده استخلفه[(٥)] .

قال ابن عمر : فرض عمر لأسامة بن زيد أكثر مما فرض لي ، فكلمته في ذلك فقال : إنه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك ، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك[(٦)] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والبيهقي .

(٢) أخرجه أحمد وابن سعد ورجاله ثقات ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ في الإصابة (٤ / ٥٠) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي .

(٤) رجاله ثقات .

(٥) أحمد وابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة والنسائي بإسناد حسن . وقال ابن كثير : إسناده جيد . قوي على شرط الصحيح (٣ / ٢٥٤) من البداية .

(٦) ذكره الحافظ في الإصابة وقال : صحيح .

قال القرطبي[١]:

قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي - رضي الله عنه - كان يقال: زيد بن محمد حتى نزل: ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ فقال: أنا زيد بن حارثة - وحُرِّم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد، فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعُلِمَ وحشته من ذلك؛ شرفه بخصيصة لم يكن يخصّ بها أحدًا من أصحاب النبي ﷺ وهي أنه سمّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿ **فلما قضى زيدٌ منها وطرًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني: من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم، حتى صار قرآنا يُتلى في المحاريب، نوّه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له، وعِوَضٌ من الفخر بأبوّة محمد ﷺ له، ألا ترى إلى قول أبيّ بن كعب حين قال له النبي ﷺ: « إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا ». فبكى وقال: أوَ ذُكرتُ هنالك؟، وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره: فكيف بمن صار اسمه قرآنا يُتلَى مُخلدًا لا يبيد، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدًا، لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورًا على الخصوص عند رب العالمين، إذِ القرآن كلام الله القديم وهو باقٍ لا يبيد، فاسم زيد في الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضًا من الله تعالى له مما نزع عنه، وزاد في الآية أنه قال: ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه** ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي بالإيمان فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى عن بريدة أن رسول الله ﷺ، قال: « **دخلتُ الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة** »[٢].

---

(١) تفسير القرطبي (٨ / ٢٧٦).

(٢) إسناده حسن: ذكره صاحب الكنز، ونسبه إلى الروياني والضياء في المختارة، وابن عساكر، وقال الذهبي: إسناده حسن، انظر سير أعلام النبلاء (١ / ٢٣٠).

○ مناقب الأنصار ○

الإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا ، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرًا ، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديمًا وحديثًا .

الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ حين طردته القبائل وحاربه قومه ، آووه وبايعوه حين كان يأتي الناس يدعوهم إلى الله ، فتقول القبائل : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، فقالت الأنصار : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟ قال رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية للأنصار : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » يقول جابر : فقمنا إليه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة فقال : رويدًا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم ، وتعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله قالوا : أبط عنا يا سعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدًا .

وفي رواية أخرى :

قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء ابن معرور بيده وقال : نعم ! فوالذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، ورثناها كابرًا عن كابر . فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهَيْثَم بن التَّيهَان، فقال: يارسول الله ،

إن بيننا وبين الرجال حبالًا ، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم » .

وفي رواية أخرى :

قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

أخرج البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ دعا الأنصار أن يُقطِع لهم البحرين . فقالوا : لا ، إلّا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقوني ؛ فإنه سيصيبكم بعدي أثرة»[١] .

يقول ابن القيم : الأنصار هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله : **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾** [الحشر : ٩] .

فتأمل سر التقدير ، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم إخوانَهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس . فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ، ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم[٢] .

---

(١) البخاري - كتاب مناقب الأنصار .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣) .

وكان جزاؤهم في الدنيا عند رسول الله ﷺ من جنس عملهم . فإنه بعد فتح مكة رجع رسول الله ﷺ مع الأنصار إلى المدينة ، قال ﷺ للأنصار : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو أن الناس سلكوا واديًا أو شِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم » . فعلا نحيب الأنصار وبكاؤهم ، وقالوا : رضينا برسول الله حظًّا ونصيبًا ، يقول رسول الله ﷺ : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبي إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا؛ لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار[١]، والناس دثار[٢]، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا ، حتى تلقوني على الحوض »[٣].

وقال ﷺ : « لكل نبي تركة وضيعة[٤]، وإن تركتي وضيعتي الأنصار ، فاحفظوني فيهم »[٥] .

وقال ﷺ : « الأنصار كرشي وعيبتي[٦] ... »[٧] .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو أيوب الأنصاري ○

السيد الكبير خالد بن زيد الخزرجي النجاري البدري، الذي خصّه رسول الله ﷺ بالنزول في بيته إلى أن بُنيت له حجرة أم المؤمنين سودة وبُني المسجد الشريف ، وكان نزوله ﷺ في بيت أبي أيوب منقبة عظيمة لأبي أيوب خاصَّة ولبني النجار عامة .

---

(١) ما كان على الجسد من الثياب . (٢) اللباس الذي يكون على الثياب .
(٣) رواه البخاري وأحمد . (٤) العيال .
(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس ، والنسائي عن أسيد بن حضير .
(٦) بطانته وموضع سره .
(٧) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد .

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « خير دور الأنصار بنو النجار ، ثم بنو عبد الأشهل ، ثم بنو الحارث بن الخزرج ، ثم بنو ساعدة ، وفي كل دور الأنصار خير » . وقد رفع الله في الخافقين ذكره ، وأعلى في الأنام قدره ، حين اختار بيته دون بيوت المسلمين جميعًا ؛ لينزل فيه النبي الكريم ﷺ لمّا حلّ في المدينة مهاجرًا وحسبه بذلك فخرًا .

ولنزول الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب قصة يحلو تردادها ، ويلذّ تكرارها،ذلك أن النبي ﷺ حين بلغ المدينة تلقته أفئدة أهلها بأكرم ما يُتلقى به وافد ، وتطلّعت إليه عيونهم تبثه شوق الحبيب إلى حبيبه ، وفتحوا له قلوبهم ليحلَّ منها في السويداء ، وأشرعوا له أبواب بيوتهم لينزل فيها أعزّ منزل ، وكانت الأنصار قد اجتمعوا فمشوا حول ناقته ، لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة ؛ شُحًّا على كرامة رسول الله ﷺ ، وتعظيمًا له ، وكُلّما مرّ بدار من دور الأنصار دَعَوْه إلى المنزل ، وكانوا يعترضون الناقة سيدًا إثر سيِّد :

عتبان بن مالك ، وعبّاس بن عبادة في رجال من بني سالم : يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، فقال ﷺ: «خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة».

فلما وازت دار بني بياضة : تلقّاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله هَلُمّ إلى العدد والعُدّة والمنعة ، قال : « خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة » وكذا الأمر دار بني ساعدة وسيدهم سعد ابن عبادة ، ودار بني الحارث بن الخزرج وسيدهم سعد بن الربيع، ودار عدي ابن النجّار وسيدهم سليط بن قيس ... حتى أتت دار أبي أيوب فقال الرسول ﷺ : « دعوها ، فإنها مأمورة ، فإنما أنزلُ حيث أنزلني الله » . فلما انتهت إلى دار أبي أيوب بركت به على الباب .

قال ابن إسحٰق : لمّا بركت الناقة برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وثبت ، فسارت غير بعيد ، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ،

ثم التفتت خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تحلحلت ورزمت[١] ، ووضعت جرانها[٢] ، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله فوضع في بيته[٣] .

حمل رحل النبي ﷺ وكأنما يحمل كنوز الدنيا كلها .

وروى البيهقي عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل عليه ، فنزل في السفل ، وأبو أيوب في العلو ، فانتبه أبو أيوب فقال : نمشي فوق رسول الله ﷺ ، فتنحوْا فباتوا في جانب ، ثم قال للنبي ﷺ – يعني في ذلك – فقال : « السفل أرفق بنا » ، فقال : لا أعلو سقيفة أنت تحتها ، فتحول رسول الله ﷺ إلى العلو .

وانظر – رحمك الله – إلى أدب أبي أيوب ، وقوله : لرسول الله ﷺ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل .

أيكون رسول الله ﷺ أسفل ونحن أعلى منه ؛ أنمشي فوق رسول الله ﷺ ؟! أنصير بين النبي والوحي إنا إذًا لهالكون .

وانْحازا إلى جانب العِلِّيّة الذي لا يقع فوق رسول الله ﷺ ، والتزماه لا يبرحانه هو وزوجه ، إلا ماشييْن على الأطراف ، متباعدين عن الوسط ، فلما أصبح أبو أيوب قال للنبي ﷺ : والله ما أغمض لنا جفن في هذه الليلة . لا أنا ولا أم أيوب . فقال النبي ﷺ : « ومم ذاك يا أبا أيوب ؟ » . قال : ذكرت أني على ظهر بيت أنت تحته ، ثم إني غدوت بينك وبين الوحي .

وعن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل ، وكنت في

---

(١) أي بركت .

(٢) جرن البعير : برك ووضع أثقاله .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ١٩٧) .

الغرفة ، فأهريق ماء في الغرفة ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء ، ونزلت فقلت : يا رسول الله ، لا ينبغي أن نكون فوقك ، انتقل إلى الغرفة ، فأمر بمتاعه فنُقل ، ومتاعه قليل . قلت : يا رسول الله : كنت ترسل بالطعام فأنظر ، فإذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدي[1] .

وعند ابن إسحٰق عن أبي أيوب : لقد انكسر حبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء ، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه ، وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه فإذا ردّ علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع أصابعه ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة .

فهل كان جزاء أبي أيوب من جنس عمله ؟

عن حبيب بن أبي ثابت أن أبا أيوب قدم على ابن عباس البصرة ، ففرغ له بيته ، وقال : لأصنعن بك كما صنعت برسول الله ﷺ ، كم عليك ؟ قال : عشرون ألفًا . فأعطاه أربعين ألفًا وعشرين مملوكًا ومتاع البيت[2] .

وعند ابن كثير : لما قدم أبو أيوب البصرة ، وكان ابن عباس نائبًا عليها من جهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فخرج له ابن عباس عن داره حتى أنزله فيها ، كما أنزل رسول الله ﷺ في داره ، وملّكه كل ما أغلق عليه بابها ، ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس عشرين ألفًا وأربعين عبدًا[3] .

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد والطبراني ، ونسبه الحافظ في الإصابة إلى أبي بكر بن أبي شيبة وابن أبي عاصم والحاكم ، وقال : حديث على شرط مسلم . وأقره الذهبي ، وأخرج مسلم نحوه .

(٢) الطبراني ورجاله ثقات ، والحاكم (٣ / ٤٦١ ، ٤٦٢) وصححه ، ووافقه الذهبي ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (٢ / ٤١٠) ومجمع الزوائد وأسد الغابة .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ٢٠٠ - ٢٠١) .

○ عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ○

حمي الدبر(١)

هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب . كان ممن أبلى وجالد يوم أحد .

وقد كان له مع سلافة بنت سعد شأن أي شأن ؛ فقد خرجت مشركة مع زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: مسافع ، والجُلَّاس ، وكلاب إلى أحد ، وبعد أن اشتد وطيس الحرب رأتهم مُمَددين على سفوح أحد .

أمّا مسافع وكلاب ، فكانا قد فارقا الحياة ، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء .

أكبّت سلافة على ابنها الذي يعالج سكرات الموت ، ووضعت رأسه في حجرها ، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه ، وقد يبس الدمع في عينيها من هول الكارثة ، ثم أقبلت عليه وهي تقول : من صرعك يا بني ؟ فهمّ أن يجيبها ، لكن حشرجة الموت منعته ، فألحت عليه بالسؤال ، فقال : صرعني عاصم بن ثابت ، وصرع أخي مسافعًا و ... ثم لفظ آخر أنفاسه .

جن جنون سلافة بنت سعد ، وجعلت تعول وتنشج ، وأقسمت باللات والعزّى ألا تهدأ لها لوعة ، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم ابن ثابت ، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر(٢) .

قال أبو جعفر الطبري :

وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ، وشاع خبر نذرها في قريش ، وجعل

---

(١) الدَّبر بالفتح : جماعة النحل والزنابير ، ولذلك كان يقال : حمي الدبر ، وكأن ذلك صار مثلًا .

(٢) صورة من حياة الصحابة ٢٢ - ٢٦ .

كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة ، حتى كان يوم الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة ...

ولندع محمد بن إسحق - الذي قال فيه الشافعي : من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق - يقصُّ علينا .

قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلامًا ، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، فبعث رسول الله ﷺ نفرًا ستة من أصحابه وهم : مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب .

قال ابن إسحٰق : وهو أمير القوم[1] ، وخالد بن البكير الليثي حليف بني عدي ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف ، وخبيب ابن عدي ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق .

قال ابن إسحٰق :

فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - ماء لهذيل بناحية الحجاز من صدور الهدأة - غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا ، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلّا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم ، فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم ، فأما مرثد وخالد بن البكير

---

(١) عند البخاري : بعث النبي ﷺ سرية عينًا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم : بنو لحيان ، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلًا نزلوه ، فوجدوا فيه نوى تمرٍ تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد - مكان مرتفع - وجاء القوم فأحاطوا بهم ، فقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألّا نقتل منكم رجلًا . فقال عاصم : أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا رسولك . فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا .

وعاصم فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا ، وقال عاصم بن ثابت :

ما علتي وأنـا جَلْدٌ نابـلُ
والقوس فيها وترٌ عنابـلُ
تزلّ عن صفحتها المعابـلُ
الموت حقّ والحياة باطـلُ
وكل ما حمّ الإلهُ نازلُ
بالمـرء والمـرءُ إليه آيـلُ
إن لم أقاتلكم فأمي هابـلُ

وقال عاصم أيضًا :

أبو سليمان وريش المقعدِ
وضالة مثل الجحيم الموقدِ
إذا النواحي افترشت لَمْ أُرْعدِ
ومجنأ من جلد ثورٍ أجردِ
ومؤمـن بمـا عَلَى محـمَّدِ

وقال أيضًا :

أبو سليمان ومثلي راما
وكان قومي معشرًا كراما

قال : ثم قاتل حتى قتل ، وقتل صاحباه[1] .

تذكر عاصم نذر سلافة الذي نذرته ، وجرّد سيفه وهو يقول : اللهم ، إني أحمي لدينك وأدافع عنه ، فاحم لحمي وعظمي ، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله[2].

اللهم إني حميت دينك أول النهار فاحم جسدي آخره . قال ابن إسحٰق : فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد ، فمنعته

(١) البداية والنهاية (٣/٦٤-٦٧). (٢) صور من حياة الصحابة (٦/٢٩).

الدَّبْر ، فلمّا حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب به . وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يَمَسّ مشرك ولا يَمَسّ مشركًا أبدًا تنجّسًا . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه آن الدَّبْر منعته : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ، ولا يمسّ مشركًا أبدًا في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع في حياته[1].

والجزاء عند الله من جنس العمل .

يقول ابن سيد الناس في المقامات العلية في الكرامات الجلية : أعطى الله عهدًا أن لا يمسّ مشركًا .

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا عَنْ أن يُنالَ براحةٍ أو أصبعِ
بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه في مصرعٍ أُكْرِمْ به من مصرعِ[2]

أخذه السيل بعيدًا بعيدًا ، ومضى به إلى حيث لا يعلمون .

وصان الله رأس عاصم الكريمة من أن يشرب في قحفها الخمر .

حمى دينه ، فحُمي جسده .

لم يمسّ مشركًا في دنياه ، فلم يمسه مشرك بعد موته .

يقول حسان بن ثابت يهجو بني لحيان :

إنْ سرّك الغدر صرفًا لا مزاج له فأتِ الرجيع فسل عن دار لحيانِ
قوم تواصوْا بأكل الجارِ بينهم فالكلب والقرد والإنسان مثلانِ
لو ينطق التّيسُ يومًا قام يخطبهم وكان ذا شرف فيهم وذا شان

وقال أيضًا :

لعمري لقد شانت هذيل بن مدرك أحاديثُ كانت في خبيب وعاصمِ
أحاديث لحيانٍ صُلُوا بقباحها ولحيان جرّامون شرَّ الجرائم
أناس همُ من قومهمْ في صميمهمْ بمنزلة الزمعان[3] دبر القوادمِ

---

(١) البداية والنهاية (٣ / ٦٧) .

(٢) المقامات العلية ص ٧٢ .

(٣) الرعاع أو سفلة القوم .

هُمُ غادرو يومِ الرجيع وأسلمت أمانتهم ذا عفة ومكارمِ
رسولَ رسولِ الله غدرًا ولم تكن هذيل توقّى منكرات المحارمِ
فسوف يرون النصر يومًا عليهمُ بقتل الذي تحميه دون الجرائمِ
أبابيلُ دَبْرٌ شمَّسٌ دون لحمه حمتْ لحم شَهَّادٍ عظيم الملاحمِ
لعل هذيلًا أن يروا بمصابه مصارع قتلى أَوْ مقامًا لمأتمِ
ونوقع فيها وقعةً ذات صولةٍ يوافي بها الركبانُ أهلَ المواسمِ(١)

○ سعد بن معاذ سيد الأوس ○

السيد الشهيد الذي وفّى لله ، فوفّى الله له .. الذي اهتزّ لموته عرش الرحمن .

عن جابر - رضي الله عنه - قال : رمي سعدٌ يوم الأحزاب ، فقطعوا أكحله ، فحسمه النبي ﷺ بالنار ، فانتفخت يده ، فتركه فنزفه الدم ، فحسمه أخرى ، فانتفخت يده ، فلما رأى ذلك ، قال : اللهم ، لا تخرج نفسي حتى تقرَّ عيني من بني قريظة ، فاستمسك عِرْقُه ، فما قطرتْ منه قطرة حتى نزلوا على حكم سعد ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ ، فحكم أن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذراريهم ، قال : وكانوا أربعمائة ، فلما فرغ من قتلهم ، انفتق عرقه(٢).

رضي الله عن سعد كم وفّى لربه .

قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلَّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر على بركة الله .

قال ابن إسحق :

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ،

---

(١) البداية والنهاية (٣/٧٠) .

(٢) إسناده حسن: رواه أحمد وابن سعد والدارمي.

فإن الله وعدني إحدى **الطائفتين،** والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »[١].

رمي سعد يوم الخندق بسهم قطع منه الأكحل .

قال ابن إسحق :

رماه ابن العَرِقة ، فلما أصابه قال : خذها مني وأنا ابن العرقة ، فقال : عرّق الله وجهك في النار ، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها ، فإنه لا قوم أحبّ إليّ مِنْ أن أجاهدهم فيك من قوم آذوْا نبيك وكذّبوه وأخرجوه ، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فاجعلها لي شهادة ، ولا تمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة[٢] .

عن محمود بن لبيد قال : لما أصيب أكحل سعد فثقل ، حوّلوه عند امرأة يقال لها : رُفيدة تداوي الجرحى ، فكان النبي ﷺ إذا مرّ به يقول : كيف أمسيت ، وكيف أصبحت ؟ فيخبره حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها وثقل ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ﷺ ، فقيل : انطلقوا به ، فخرج وخرجنا معه ، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا ، وسقطت أرديتنا ، **فشكا** ذلك إليه أصحابه ، فقال : « إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة ، فتغسله كما غسّلت حنظلة » فانتهى إلى البيت ، وهو يُغسّل ، وأمه تبكيه وتقول : ويل أم سعدٍ سعدًا ، حزامة وجدًّا . فقال : « كل باكية تكذب إلا أم سعد » ثم خرج به ، قال : يقول له القوم : ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخفّ علينا منه . قال : « ما يمنعه أن يخفّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قبل يومهم ، قد حملوه **معكم »**[٣] .

أمّا عن حكمه في بني قريظة ، فروى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - إن أناسًا نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فجاء على حمار ، فلما بلغ قريبًا من المسجد قال النبي ﷺ : « قوموا إلى خيركم -

(١) البداية والنهاية (٣ / ٢٦١) .

(٢) رجاله ثقات ، وهو في سيرة ابن هشام ، وأخرجه أحمد بنحوه أطول من هذا .

(٣) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد ، انظر تخريج سير أعلام النبلاء (١ / ٢٨٧) .

أو سيدكم - » فقال : « يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ». قال : فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، قال : «حكمت بحكم الله أو بحكم الملك » .

دعا سعد بن معاذ ربه ألا يميته حتى يُقرَّ عينَه من بني قريظة قَبْل أن يحكم فيهم ، فلما حكم فيهم ، وأقرّ الله عينه أيّ قرار ، دعا ثانيًا بهذا الدعاء ، فجعلها الله له شهادة رضي الله عنه وأرضاه .

عن عبد الله بن شداد : دخل رسول الله ﷺ على سعد وهو يكبد نفسه، فقال : «جزاك الله خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزنك الله ما وعدك »[١].

والجزاء من جنس العمل .

وقال رسول الله ﷺ عن سعد بن معاذ : « لقد حكم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات »[٢] .

وعن البراء - رضي الله عنه - أهديت للنبي ﷺ حلة حرير ، فجعل أصحابه يمسونها ، ويعجبون من لينها ، فقال : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين »[٣] .

وعن جابر - رضي الله عنه - سمعت النبي ﷺ يقول : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ »[٤] .

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : « اهتز العرش لموت سعد ابن معاذ »[٤] .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ورجاله ثقات .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن سعد .

(٣) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وأحمد وأبو نعيم .

(٤) رواه البخاري ، عن جابر ، وأحمد وابن سعد . والحاكم عن أبي سعيد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

قال النضر بن شميل – وهو إمام في اللغة – : اهتز : فرح ، كما يقوله الذهبي في سير أعلام النبلاء[١] .

وعن ابن عمر يرفعه : « اهتز العرش لحب لقاء الله سعدًا »[٢] .

من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ، طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشوق .

ونعاه جبريل إلى النبي ﷺ .

عن جابر قال : جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات ؟ فُتِحَتْ له أبواب السماء ، وتحرّك له العرش . فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد . قال : فجلس على قبره ...[٣] الحديث .

وما اهتز عرش الله من موت هالك   سمعنا به إلا لسعدٍ أبي عمرو

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا العبد الصالح الذي تحرّك له العرش ، وفتحت أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ... ولقد ضمّ ضمة ثم أفرج عنه »[٤] . يعني سعدًا .

عن أنس قال : لمّا حُملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون : ما أخفّ جنازته . فقال النبي ﷺ : « إن الملائكة كانت تحمله »[٥] .

قال ابن حجر :

واهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه ، يُقال لكل من خرج بقدوم قادم عليه : اهتز له ، ومنه اهتزت الأرض بالنبات إذا اخضرّت وحسنت[٦] اهـ.

قال المناوي :

قال ابن القيم : كان سعد في الأنصار بمنزلة الصدِّيق في المهاجرين ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وخُتم له بالشهادة ، وآثر **رضا** الله ورسوله على **رضا** قومه وحلفائه ، ووافق حكمه حكم الله من فوق سبع سمٰوات ، ونعاه جبريل

---

(١) (١ / ٢٩٣) .   (٢) رواه ابن سعد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .
(٣) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد.   (٤) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد.
(٥) صححه الترمذي، انظر الفتح (٧/١٥٥).   (٦) فتح الباري (٧ / ١٥٥) اهـ .

عليه السلام يوم موته ، فحق له أن يهتز العرش له[١] . وهذا متواتر .

قال الذهبي :

والعرش خلْق الله مسخر،إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله ، وجعل فيه شعورًا لحب سعد ، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أحد يحبه النبي ﷺ ، وقال تعالى: **﴿يا جبال أوبي معه﴾** [سبأ : ١٠] .وقال : **﴿ تسبح له السموات السبع والأرض﴾**[الإسراء: ٤٤]، ثم عمم فقال: **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾** [الإسراء: ٤٤] . وهذا حق[٢] .

يقول حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ ، رضي الله عنه :

لقد سجمتْ[٣] من دمع عيني عبرةٌ	وحقَّ لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل سوى في معرك فجعت به	عيون ذواري الدمع دائمة الوجدِ
على ملة الرحمن وارث جنة	مع الشهداء وفدها أكرم الوفدِ
فإن تكُ قد ودعتنا وتركتنا	وأمسيت في غبراءَ مظلمة اللحدِ
فأنت الذي يا سعد أُبتَ بمشهدٍ	كريمٍ وأثواب المكارم والمجدِ
بحكمك في حيّ قريظة بالذي	قضى اللهُ فيهم ما قضيت على عمدِ
فوافق حكم الله حكمك فيهمُ	ولم تعفُ إذ ذكِّرتَ ما كان من عهدِ
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى	شروا هذه الدنيا بجناتها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقين إذا دُعوا	إلى الله يومًا للوجاهة والقصدِ[٤]

○ عبد الله بن حذافة السهمي ○

أحد السابقين ، هاجر إلى الحبشة ، ونفَّذه النبي ﷺ رسولًا إلى كسرى ، وهو من البدريين .

انظر إلى صحابة رسول الله ﷺ ترَ العجب العجاب .

عن أبي رافع قال: وجه عمر جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة،

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٦٤) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١ / ٢٩٧) .
(٣) سالت .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٣٢/٣).

فذهبوا به إلى ملكهم ، فقالوا : إن هذا من أصحاب محمد ، فقال : هل لك أن تَتَنَصَّر وأعطيك نصف ملكي ؟. قال : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ملك العرب ، ما رجعت عن دين محمد طرفةَ عين . قال : إذًا أقتلك . قال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب . وقال للرماة : ارموا قريبًا من بدنه ، وهو يعرض عليه ويأبى ، فأنزله ودعا بقدر ، فصب فيها ماء حتى احترقت ، ودعا بأسيرين من المسلمين ، فأمر بأحدهما فألقي فيها ، وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ثم بكى ، فقيل للملك : إنه بكى . فظن أن قد جزع . فقال : ردُّوه . ما أبكاك ؟ قال : قلت : هي نفس واحدة تُلْقى الساعةَ فتذهب ، فكنت أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفس تُلْقى في النار في الله .

فقال له الطاغية : هل لك أن تُقبل رأسي وأخلي عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع الأسارى ؟ قال : نعم ، فقبّل رأسه ، وقدم بالأسارى على عمر ، **فأخبره خبره فقال عمر : حُقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس ابن حذافة ، وأنا أبدأ . فقبل رأسه**[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وعن مالك بن أنس : أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة ، فأمر به ملكهم ، فجرب بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثًا لا يأكل ، فاطلعوا عليه ، فقال للملك : قد انثنى عنقه ، فإن أخرجته وإلا مات . فأخرجه ، وقال : ما منعك أن تأكل وتشرب ؟ قال : إن الضرورة قد أحلتها لي ، ولكن كرهتُ أن أشمتك بالإسلام . قال : فقبل رأسي وأخلي لك مائة أسير . قال : أما هذا فنعم ، فقبل رأسه فخلى له مائة وخلى سبيله .

وعند ابن عائذ: أطلق له ثلثمائة أسير ، وأجازه بثلاثين ألف دينار ، وثلاثين وصيفة ، وثلاثين وصيفًا[2] .

---

(١) ابن عساكر في تاريخه والحافظ في الإصابة ، وله شاهد من حديث ابن عباس ، وابن الأثير .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢ / ١٤ - ١٥) .

○ المستضعفون ○

قال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطًا** ﴾ [الكهف : ٢٨] .

قال ابن كثير :

يقال : إنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء(١) .

وفي مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنَّا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذيل وبلال ، ورجلان لست أسمِّيهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، **فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... ﴾ الآية** . [الأنعام : ٥٢](٢) .

﴿ **اصبر نفسك** ﴾ لا تملَّ ولا تستعجل ﴿ **مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾ [الكهف: ٢٨] فالله غايتهم، يتوجهون إليه بالغداة والعشي، لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ١٤٨) .

(٢) انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري .

اصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلّمهم ، ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تكون الدعوات ، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها ؛ لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبتغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا ، إنما تبتغي وجهه ، وترجو رضاه .

﴿**ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا**﴾ [الكهف: ٢٨] ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه زينة الحياة الدنيا ، لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالي الذي يتطلع إليه من يدعون إلى ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه .

لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرءوس أمام الله ، فلا تفاضل بينها . بمال ولا نسبٍ ولا جاه فهذه قيم زائفة ، وقيم زائلة ، إنما التفاضل بمكانها عند الله ، ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها وتجردها له ، وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والضلال[١] .

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس أعمالهم :

لما صبروا على ذكر الله ، أمر الله رسوله بالصبر معهم .

لما أرادوا وجه الله ، أمر الله نبيه بألا يرفع بصره عنهم .

﴿ **يريدون وجهه** ﴾ يشير إلى دوام دعائهم ربهم بالغداة والعشي ، وكون الإرادة على الدوام ، فآويناهم في دنيانا بعظائمنا ، وفي عقباهم بكرائمنا .

لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمر الله رسوله ﷺ بألا يرفع بصره عنهم ، ولا يقلع عنهم نظره ، وهذا جزاء في **العاجل** .

---

(١) الظلال (٤ / ٢٢٦٨ - ٢٢٦٩) .

فجعل الله نظر الرسول اليوم إليهم ، ذريعة لهم إلى مولاهم ، وخلفا عما يفوتهم اليوم من نظرهم إليه .

لا تقطع اليوم عنهم نظرك ، فإنا لا نمنع غدًا نظرهم عنَّا .

هؤلاء النفر المتكبرون والسادة من كبراء قريش الذين ازدروا البدور الإيمانية ؛ لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، لو علموا قدر من ازدروهم لطامنوا من كبريائهم ، وخففوا من غلوائهم ، وخفضوا من تلك الهامات المتشامخة ، أمام عمار الذي استأذن على النبي ﷺ ، فقال : « من هذا ؟ » قال : عمار . قال : « مرحبًا بالطّيب المطيّب »[1]. وقال فيه ﷺ : « ملىء إيمانًا إلى مشاشه » يعني عمارًا[2] .

عن أنس مرفوعًا قال: «ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: علي وسلمان وعمار»[3].

وهو الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه ﷺ ، كما جاء في البخاري ، وهو الذي ثبت على الإيمان لما أكرهه المشركون على النطق بكلمة الكفر، فنزلت فيه الآية: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦].

○ بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ○

عن قيس : اشترى أبو بكر بلالًا وهو مدفون في الحجارة بخمس أواقٍ ذهبًا ، فقالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعناكه ، قال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته[4].

عن ذرٍ، عن عبد الله: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار ، وأمه سمية ، وبلال ، وصهيب ، والمقداد . فأما النبي ﷺ وأبو بكر

---

(١) أخرجه الترمذي عن علي ، وإسناده قوي ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البزار من حديث عائشة ، وقال الحافظ في الفتح (٩٢/٧): وإسناده صحيح . والمشاش جمع مشاشة ، وهي رؤوس العظام اللينة .

(٣) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية . وقال الذهبي : إسناده قوي.سير (٣٥٣/١) .

منعهما الله بقومهما ، [وأما] سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس ، فما منهم أحد إلا وأتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد[1] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

لما هانت عليه نفسه في الله ، عظم عند الله وعند سادة المؤمنين .

فعن جابر بن عبد الله قال: كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا؛ يعني بلالًا . وفي رواية : أبو بكر سيدنا أعتق بلالًا سيدنا [2] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر : « يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة » ، قال : ما عملت عملًا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهورًا في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطُهور ما كتب لي أن أصلي[3]. قال البخاري : دف نعليك يعني : تحريك . وعند مسلم : « خشف » أي : الحركة الخفيفة . وعند أحمد والترمذي من حديث بريدة : « خشخشة » وهو بمعنى الحركة أيضًا[4].

وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم : « حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام ، إني قد سمعت خشفة نعليك بين يدي في الجنة » . الخشفة : الحركة وزنًا ومعنًى ، وقال أبو عبيد : الخشفة: الصوت ليس بالشديد .

عن بريدة قال : أصبح رسول الله ﷺ ، فدعا بلالًا ، فقال : « بم سبقتني إلى الجنة ؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي ، إني دخلت الجنة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ؛ والذهبي في سير أعلام النبلاء ، وإسناده حسن .
(٢) أخرجه البخاري ، وابن سعد ، وأبو نعيم ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو عند الطبراني .
(٣) البخاري ومسلم .
(٤) فتح الباري (٣/٤٢) .

البارحة ، فسمعت خشخشتك أمامي ، وأتيت على قصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر » . فقال بلال : ما أذنت قط إلا صليت ركعتين ، وما أصابني حدث إلا توضأت ، ورأيت أن لله علي ركعتين أركعهما . فقال : « بهما »[١].

لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ ، فاتفق مثله في الجنة .

ولا يلزم من ذلك دخول بلال الجنة قبل النبي ﷺ لأنه في مقام التابع ، وكأنه أشار ﷺ إلى بقاء بلال على ما كان عليه حال حياته ، واستمراره على قرب منزلته ، وفيه منقبة عظيمة لبلال[٢] .

قال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر بلال قال :

غدًا نلقى الأحبه * محمدًا وحزبه

قال : تقول امرأته : واويلاه ، فقال : وافرحاه[٣] .

○ خُبيب بن عدي ○

لما أخذ بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا أسيرًا ، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر – فلبث خبيب عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارس موسى يستحد بها ، فأعارته فدرج بنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مجلسه في فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب . فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك . **قالت** : والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده وهو موثق بالحديد ، وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : **إنه لرزق** رزقه الله **خبيبًا**[٤] ،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي ، والطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) فتح الباري (٣ / ٤٣) . (٣) سير أعلام النبلاء (١ / ٣٥٩) .

(٤) رواه البخاري رقم (٣٩٨٩) كتاب المغازي ، انظر الإصابة ترجمة معاوية .

وعند ابن إسحٰق : وما أعلم في الأرض حبة عنب .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

فلما حبست قدمه عن السعي في الرزق ، سيق إليه الرزق سوقًا .

والجزاء من جنس العمل .

○ أبو الدحداح ○

عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « رب عَذْق مُذللٍ لابن الدحداحة في الجنة »[1] .

وعن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « كم من معلق لأبي الدحداح في الجنة »[2] .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له**﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ ، قال : « نعم يا أبا الدحداح » ؛ قال : أرني يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، **وأم الدحداح فيه وعيالها،** قال: فجاء أبو الدحداح فنادى : يا أم الدحداح . قالت: لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[3].

وفي مفاتيح الغيب للفخر الرازي :

إن أبا الدحداح قال : يا رسول الله إن لي **حديقتين** ، فإني تصدقت بإحداهما ، فهل لي مثلاها في الجنة ؟ قال : «نعم» ، قال : وأم الدحداح معي ؟ قال : «نعم» ، قال : والصبية معي ؟ **قال: «نعم». فتصدق** بأفضل حديقتين ، وكانت تسمى الحنينة ، قال : فرجع أبو الدحداح إلى أهله ، وكانوا في الحديقة التي تصدق بها ، فقام على باب الحديقة وذكر ذلك لامرأته ، فقالت أم الدحداح:

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد عن ابن مسعود، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن سمرة .

(٣) أخرجه ابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٤٨٣ .

بارك الله فيما اشتريت فخرجوا منها وسلموها[١] .

فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله :

قال رسول الله ﷺ : « رب عذق مذلل لابن الدحداحة في الجنة » .

قال المناوي :

والعَذْق – بفتح العين وسكون الذال – النخلة بضبط المصنف ، وبالكسر العرجون بما فيه ، « مذلل » أي مسهل على من يجتني منه التمر ، مكافأة له على كونه تصدق بحائطه المشتمل على ستمائة نخلة لما سمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا** ﴾[٢] [البقرة : ٢٤٥] .

« وكم من عِذق » بكسر العين غصن من نخلة ، وأما بضمها فالنخلة بكمالها .

قال المناوي :

لأبي الدحداح جزاءً له على جبره لخاطر اليتيم الذي خاصمه أبو لبابة في نخلة فبكى ، فاشتراها أبو الدحداح من أبي لبابة بحديقة ، فأعطاها اليتيم ،**فبإيثاره** الباقي على الفاني جوزي بتكثير النخل في الجنة فوق ما لأمثاله ، والجزاء من جنس العمل[٣] اهـ.

وقال القرطبي :

قال زيد بن أسلم: لما نزلت: ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا**﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال أبو الدحداح : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، إن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض . قال : « نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة » . قال : فإني أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ولصبيتي الدحداحة معي الجنة ، قال : « نعم » . قال : ناولني يديك . فناوله رسول الله ﷺ يده ، فقال : إن لي حديقتين : إحداهما بالسافلة ، والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى . قال رسول الله ﷺ : « اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك » . قال : فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٣ / ٤٧٩) .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤/١٦).

(٣) فيض القدير للمناوي (٥/٤٩) .

ستمائة نخلة ، قال : « إذًا يجزيك الله به الجنة » . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أمّ الدحداح ، وهي مع صبيانها في الحديقة ، تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداكِ ربي سبلَ الرشادِ إلى سبيل الخير والسدادِ
بيني من الحائط بالودِادِ فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضته الله على اعتمادي بالطوع لا منٍّ ولا ارتدادِ
إلا رجاء الضِّعف في المعادِ فارْتحلي بالنفس والأولادِ
والبرُّ لا شك فخيرُ زادِ قدمه المرء إلى المعَادِ

قالت أم الدحداح : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، وأجابته أم الدحداح ، وأنشأت تقول :

بَشّركَ الله بخيرٍ وفرحْ مثلك أدى ما لديه ونصحْ
قد متّع الله عيالي ومنحْ بالعجوة السوداء والزّهو والبلحْ
والعبد يسعى وله ما قد كدحْ طول الليالي وعليه ما اجترحْ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها ، تُخرِج ما في أفواههم ، وتخرج ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر ، فقال النبي ﷺ : « كم من عذق ردَاح ودار فياح لأبي الدحداح »[١] .

تُرى أي نخيلٍ ظفر به أبو الدحداح !! ، إنه نخيل الجنة ، مغروس في تربة من مسك وزعفران ، من فضة بيضاء كأنها المرآة ، يسقى بخمرٍ ولبن وعسل مصفى وماء غير آسن ، ساقه من الذهب ، ما من شجرة في الجنة إلا وساقها من خالص الذهب ، سعفه ثياب أهل الجنة ، ثمره أشدُّ بياضًا من الثلج ، ألين من الزبد ، أحلى من العسل ، ليس فيه العجم .

يا نخل تحت ظلك الحبيب ياليت لي في الظل من نصيب

---

(١) تفسير القرطبي (٢ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧) .

○ السيدة خديجة بنت خويلد ○

رضي الله عنها

سيدة نساء العالمين في زمانها ، أم القاسم ، أم أولاد رسول الله ﷺ ، وأول من آمن به وصدّقه قبل كل أحد ، وثبتتْ جأشه ، ومضت به إلى ابن عمها ورقة . قال الزبير بن بكار : كانت خديجة تدعى في الجاهلية : الطاهرة .

ومناقبها جمة ، وهي ممّن كمل من النساء ، وكان النبي ﷺ يثني عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ، بحيث إن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة ؛ من كثرة ذكر النبي ﷺ **لها** .

قال ابن الأثير :

خديجة أوَّل خلق الله أسلم بإجماع المسلمين ، لما بعث رسول الله ﷺ وأتاه جبريل ، وقرأ عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[1] تقول السيدة عائشة : فرجع بها ترجف بوادره[2]، حتى دخل على خديجة. قال: «زملوني». فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوْع . فقال : « ما لي يا خديجة ؟ » . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلَّا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتعين على نوائب الحق ، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد ، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الخطّ العربي ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا قد عمي ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ما يقول . فقال : يا بن أخي ، ما ترى ؟ فأخبره ، فقال : هذا الناموس الذي أنزل على

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) جمع بادرة ، وهي لحمة بين المنكب والعنق ، وهي رواية البخاري في التفسير والتعبير ، ورواه في بدء الوحي بلفظ : فؤاده .

موسى[١] .

ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وجاءه منها عدة أولاد ، ولم يتزوج عليها قط ولا تسرّى إلى أن قضت نحبها ، فوجد لفقدها ، فإنها كانت نعم القرين ، وكانت تنفق عليه من مالها ، ويتجر هو ﷺ لها .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثنائه عليها واستغفاره لها ، فذكرها يومًا ، فحملتني الغيرة ، فقلت : لقد عوّضك الله من كبيرة السن ! قالت : فرأيته غضب غضبًا ، أُسقطتُ في خلدي . وقلت في نفسي : اللهم ، إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء . فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت . قال : « كيف قلت ؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، ورزقت منها الولد ، وحُرمتموه مني » ، **قالت : فغدا وراح علي بها شهرًا**[٢] .

عن عائشة: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة؛ مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها ، وما تزوّجني إلّا بعد موتها بثلاث سنين ، وقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[٣] .

قال أبو هريرة : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : هذه خديجة أتتك ، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي ، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب[٤] .

قال علي بن أبي طالب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها خديجة بنت خويلد ، وخير نسائها مريم بنت عمران »[٥].

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) إسناده حسن : نسبه الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٢/٢١٧-٢١٨) إلى كتاب : الذرية الطاهرة ، للدولابي .

(٣) رواه البخاري ومسلم . وأراد بالبيت : القصر،يقال : هذا بيت فلان ؛ أي قصره .

(٤) متفق عليه . (٥) رواه البخاري .

قال القرطبي :

الضمير عائد على غير مذكور ، لكنه يفسره الحال والمشاهدة . يعني به الدنيا ، والمعنى : أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها .

ومن حديث ابن عباس مرفوعا : « أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية »[١] .

قال ابن إسحٰق : كانت خديجة وزيرة صدق .

وعن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »[٢] .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « بشروا خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

وتعالَ معي أخي ، لنعرف معنى القصب ، ولماذا القصب بالذات جميع ألفاظ هذا الحديث ؟ وهل يدل هذا على كون الجزاء من جنس العمل ؟

قال ابن حجر : قَصَب بفتح القاف : قال ابن التين : المراد به لؤلؤة مجوّفة واسعة كالقصر المنيف . قلت : عند الطبراني في الأوسط من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى ؛ يعني : قصب اللؤلؤ . وعنده في الكبير من حديث أبي هريرة : « بيت من لؤلؤة مجوفة » . وأصله في مسلم ، وعنده في الأوسط من حديث فاطمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أين أمي خديجة ؟ قال : « في بيت من قصب » . قلت : أَمِنْ هذا القصب ؟ قال : «لا، من القصب المنظوم بالدرر واللؤلؤ والياقوت».

---

(١) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح ، قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (٧ / ١٠١) وصححه الحاكم في المستدرك (٣ / ١٨٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .
وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبي .
وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن إسحٰق وقد صرّح بالسماع .

قال السهيلي : النكتة في قوله : « من قصب » ولم يقل : من لؤلؤ؛أن في لفظ القصب مناسبة لكونها أحرزت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث[١] اهـ .

وفي القصب مناسبة أخرى من جهة استواء أكثر أنابيبه ، وكذا كان لخديجة من الاستواء ما ليس لغيرها ، إذ كانت حريصة على رضاه بكل ممكن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وأما قوله : « ببيت » ، فقال : أبو بكر الإسكاف : في فوائد الأخبار : المراد به بيت زائد على ما أعدّ الله لها من ثواب عملها ، ولهذا **قال:**« لا نصبَ فيه » أي لم تتعب بسببه .

قال السهيلي : لذكر البيت معنًى لطيف ؛ لأنها كانت ربة بيت في الإسلام منفردة به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها .

قال : وجزاء الفعل يذكر غالبا بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر اهـ .

قال المناوي :

البيت عبارة عن القصر، وتسميته الكل باسم الجزء معلوم في لسانهم اهـ .

ويلوح الجزاء من جنس العمل في قول الرسول ﷺ : « لا صخب فيه ولا نصب » ، فالصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت ، والنصب : التعب .

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين- أعني المنازعة والتعب- أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابته خديجة طوعًا، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها: اهـ[٢].

---

(١) فتح الباري (٧ / ١٧١ - ١٧٢) .
(٢) فتح الباري (٧ / ١٧٢) ، وفيض القدير للمناوي .

○ آسية بنت مزاحم زوج فرعون ○

عن أبي موسى قال رسول الله ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »(٢) .

يقول الله تعالى في شأنها : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ...** ﴾ [القصص : ٩] .

يقول ابن كثير :

لما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبًّا شديدًا ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ، ودفعت عنه وقالت : ﴿**قرة عين لي ولك**﴾ فقال لها فرعون : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . والبلاء موكل بالمنطق .

﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ . وقد أنالها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها بسببه جنته(٣) .

ويقول ابن كثير :

إن فرعون لما رآه همّ بقتله ؛ خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل . فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تحاجّ عنه ، وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت :

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب : قول الله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ .

(٢) رواه الترمذي وصححه ، وابن مردويه وابن عساكر .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٢٤) .

﴿ **قرة عين لي ولك** ﴾ فقال : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه[١] .

يقول الحافظ في الفتح : كانت فراستها في موسى عليه السلام صادقة حين قالت : ﴿ **قرة عين لي** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين** ﴾ [التحريم : ١١] .

قال الحافظ : ومن فضائل آسية امرأة فرعون:اختارت القتل على الملك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه[٢] .

قال ابن كثير : روى ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل:من غلب ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون . فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإنْ مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها[٣] .

انظر رحمك الله ، ها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، **في قصر فرعون، عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرّأت من قصر فرعون،** طالبة إلى ربها بيتًا في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون ، فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله ، مخافة أن يلحقها من عمله شيء ، وهي ألصق الناس به ، وتبرأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم . ﴿ **ونجني من القوم الظالمين** ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٣٢) .
(٢) فتح الباري (٦ / ٥١٦) .
(٣) تفسير ابن كثير (٣٩٣/٤ - ٣٩٤).

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلٌ للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره ؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي ، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته ، شرًّا ودنسًا وبلاءً ، تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عَقَابيله ، وتطلب النجاة منه ، وهي امرأة واحدة ، في مملكة عريضة قوية ، وهذا فضل آخر عظيم ؛ فالمرأة أشد شعورًا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته ، ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية والمقام الملوكي ، **في وسط** هذا كله ، رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي .

وهي نموذج عالٍ في التجرد لله من كل هذه المؤثرات ، وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوّقات، وكل هذه الهواتف، ومِنْ ثَمَّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد ، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون ، وهي تتنزل من الملأ الأعلى .

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم بنة عمران يدل على المكانة العالية ، التي جعلتها قرينة مريم في الذكر بسبب ملابسات حياتها[1] .

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا استعلت بإيمانها على بريق قصر فرعون، أبدلها الله به قصرًا[2] في الجنة.

استعلت على جِوَار فرعون وعنديته ، فأُبدلها الله به جواره وعنديته .

ومن فقهها طلبت الجار قبل الدار ، ولَبيتٌ في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار .

استعلت على جوار فرعون وهامان وعنديّة الندامة ، فكان لها عنـدية الزلفى والكرامة .

تركت الملك والدنيا وجنان فرعون ، فكانت لها الجنة .

إني لأحسد جارَكم لجوارِكم طوبى لمن أضحى لدارك جَارا

---

(١) الظلال (٦ / ٣٦٢١ - ٣٦٢٢) .

(٢) البيت يطلق على القصر ، كما مرَّ عند ذكر خديجة ، رضي الله عنها .

ياليت جارَك بَاعني من داره شِبْرًا لأعطيه بشبرٍ دَارا

وامرأة فرعون المتطهرة المؤمنة الصادقة القانتة يضربها اللهُ نموذجًا للمؤمنات من بَعْدُ في كل جيل .

○ مريم البتول رضي الله عنها ○

يقول الله تعالى في شأن الطيبة القانتة التي كملت : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررًا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبولٍ حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ [آل عمران : ٣٥ - ٣٧] .

يقول العلامة ابن جرير الطبري :

إن معناه : إني جعلت لك يارب نذرًا أن لك الذي في بطني محررًا لعبادتك، يعني بذلك: حبسته على خدمتك، وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كل شيء سواك ، مفرغة لك خاصة ، فتقبل مني ما نذرت لك يارب ، إنك أنت السميع لما أقول وأدعو ، العليم لما أنوي في نفسي وأريد ، لا يخفى عليك سرُّ أمري وعلانيته[١] .

يرحم الله حنة أم مريم ، فقد كانت وزوجها وابنتها أهل بيت من الله بمكان .

عن الشعبي : فرّغته للعبادة .

عن مجاهد : خالصًا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا .

وعن الربيع : كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها ، قال : وكانوا

---

(١) تفسير الطبري (٣ / ٢٣٥) .

إنما يحررون الذكور ، فكان المحرّر إذا حرّر جعل في الكنيسة لا يبرحها ، يقوم عليها ويكنسها .

وقال الضحاك : نذرت ولدها لله .

لمّا نذرتها وحررتها لله لم يكن للشيطان فيها نصيب .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد ، إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها »(٢) .

قال عكرمة : خرجت أم مريم بمريم في خرقها ، تحملها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى بن عمران ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فإني حررتها وهي ابنتي ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردها إلى بيتي . فقالوا : هذه ابنة إمامنا ، وكان عمران يؤمهم في الصلاة ، وصاحب قرباتهم ، فقال زكريا : ادفعوها إليّ فإن خالتها عندي . قالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا ، فاقترعوا بأقلامهم عليها ، بالأقلام التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

وعن ابن عباس : جعلها زكريا في محرابه ، قال الله عز وجلّ : ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وقال ابن جريج : الكاهن في كلامهم : العالم .

يقول ابن جريج : **آجرها فيها وأنبتها؛ نبتت في غذاء الله** .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) رواه مسلم .

قال ابن جرير : إن زكريا كان كلّما دخل عليها المحراب ، بعد إدخاله إياها المحراب ، وجد عندها رزقًا من الله لغذائها ، فقيل : إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء .

وعن ابن عباس : وجد عندها عنبًا في مِكْتَل في غير حينه . وعن سعيد مثله ومجاهد والضحاك وقتادة .

وعن ابن عباس : وجد عندها ثمار الجنة ، فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف .

وعن الحسن : كان زكريا إذا دخل عليها - يعني على مريم - المحراب وجد عندها رزقًا . من السماء من الله ، ليس من عند الناس ، وقالوا : لو أن زكريا كان يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه .

قال ابن جرير :

إن الله يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه ، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سَوْقُه ذلك إليه ، كذلك خزائنه ، ولا يزيد إعطاؤه إياه ومحاسبته عليه في ملكه فيما لديه شيئًا ، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه ، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه ، بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ، ومن كان جاهلًا بما يعطي على غير حساب[1] .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

يكفي أن نعرف أنها كانت مباركة ، يفيض من حولها الخير ، ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقًا . حتى ليعجب كافلها - وهو نبي - من فيض الرزق ، فيسألها : كيف ؟ ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه، واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله: ﴿**هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [آل عمران : ٣٧] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ، بتصرف (٣ / ٢٤٤ - ٢٤٧) .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، والتواضع، لا التَّنَفُّج به والمباهاة[١].

قال ابن الجوزي :

قال القدر : يا ملك التصوير ، صوِّر الحَمْلَ أنثى ، ليبين أثر الكرم ، في قبول الناقص ، فلما وضعتها وضعتها بأنامل الانكسار ، عن سرير السرور ، فإن لسان التلهف لما ألقى على الفايت ﴿ **إني وضعتها أنثى** ﴾ فجبر كسرها جابر ﴿ **فتقبلها** ﴾ وساق عنان اللطف إلى ساق زرعها . فَرَبَا في رُبَى ﴿ **وأنبتها** ﴾ وكفلها زكريا ، فأراه المسبب غناها عن السبب بآية ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ فرباها من رَبِّها ، فنشأت لا ترى إلا ربها[٢].

كيف كان جزاء مريم من جنس عملها ؟

لما حبست نفسها وقدمها عن السعي طلبًا للرزق ، وتفرّغت لخدمة ربها ، عوّضها الله برزق من عنده ؛ فمن ترك شيئًا لله عوضه الله عنه خيرًا منه .

قال البقاعي :

كان من كمال مريم – عليها السلام – خروج والدتها عنها ، وكان أصله من الأم التي لها الإشفاق ، فكان خروجها أكمل من خروج الولد ؛ لأنها لها في زمن الحمل والرضاع والتربية إلى أن يعقل الولد أباه ، فحينئذ يترقى إلى حزب أبيه ، ولذلك – والله سبحانه وتعالى أعلم – أُري إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذبح ، ذبح ولده عند تمييزه ، وخرجت امرأة عمران عن حملها ، وهو في بطنها ، حين ما هو أعلق بها ، ونذرته لله تعالى حال كونه ﴿ **محررًا** ﴾ وفي الإتيان بصيغة التكثير والتكرير إشعار بمضي العزيمة في قطع الولاية عنه بالكلية ، لتسلم ولايته لله تعالى : تخوّفت ألا يكون ما وضعته كفافًا لنذرها ، لما شهدت من ظاهر أنوثة ما وضعت ، فجعلها الله سبحانه وتعالى لها أكمل مما اشتملت عليه عزيمتها

---

(١) الظلال (١ / ٣٣٩) .

(٢) المدهش ١٠٩ .

من رتبة الذكورة التي كانت تعهدها ، فكانت مريم عليها السلام أتم من معهود نذرها مزيد فضل من ربها عليها ، بعد وفاء حقيقة مقصودها في نذرها .

إن غاية ما تعرفه من المنذرين أن يكونوا كأنبيائهم المقربين لحكم التوراة ، وهذه الأنثى ، مع ما لها من العلو في نفسها ، ستكون سببًا في السؤال في نبي هو أعظم أنبيائهم ، وتلد صاحب شريعة مستقلة ، ثم يكون مقررًا **لأعظم الشرائع .**

مريم : أي العَابدة بلسانهم . ماذا كان عملها ؟ وماذا كان جزاؤها ؟

قال البقاعي :

لما كانت محررة لله سبحانه وتعالى ، كان حقًّا أن يجري الله سبحانه وتعالى إعاذتها قولًا ، كما هو جاعلها معاذة كونًا من حيث هي له ، وما كان في حمى الملك لا يتطرق إليه طريدة ، فقالت : ﴿ **وإني أعيذها بك** ﴾ .

ولما كان مَنْ في حصن الملك ، وحرزه بجواره بعيدًا ممن أحرقه بنار البعد ، وأهانه بالرجم ، حُققت الإعاذة بقولها : ﴿ **من الشيطان الرجيم** ﴾ .

ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه ، فقال : ﴿ **فتقبّلها** ﴾ فجاء بصيغة التفعل ، مطابقة لقولها : ﴿ **فتقبّل** ﴾ ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر ، كأنه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه ، فيكون إعطاءً واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع . وجاء بالوصف المشعر بالإحسان مضافًا إليها ، إبلاغًا في المعنى، فقال: ﴿**ربها**﴾ وظهر سر الإجابة في **قوله** سبحانه وتعالى: ﴿ **بقبولٍ حسن** ﴾ حيث لم يكن بتقبل جريًا على الأول .

ولما أنبأ القبول عن معنى ما أوليته باطنًا أنبأ الإنبات عمّا أوليته ظاهرًا في جسمانيتها، وفي ذكر الفعل من أفعل في قوله: ﴿**وأنبتها**﴾ والاسم من فعل في قوله : ﴿ **نباتًا حسنًا** ﴾ إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب عن العيون ، وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين ، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر ، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسنًا .

فوقع الجواب ؛ لأنها عناية من الله سبحانه وتعالى بها على ما وقع سؤالها فيه ، فلقد ضلّ وافترى من قذفها وبهتها ، وكفر وغلا من ادعى في ولدها من الإطراء ما ادعى .

ولمّا كان الصغير لابدّ له فيما جرت به العادة من كبير يتولى أمره ، قال : ﴿ **وكفلها** ﴾ .

قال الحرالي : من الكفل وهو حياطة الشيء من جميع جهاته ، حتى يصير عليه كالفلك الدائر ﴿ **زكريا** ﴾ وفيه قراءة التشديد ﴿ **كفّلها** ﴾ إنباء بأن الله سبحانه وتعالى هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبلها، **وفيه استخلاص لزكريا** من حيث جعله يد وكالة له فيها .

ولمّا كان من شأن الكفيل القيام بما يعجز عنه المكفول ، بيّن سبحانه وتعالى أن تلك الكفالة إنما كانت جريًا على العوائد ، وأنه تبين أن تقبل الله لها أغناها عن سواه، فقال في جواب مَنْ لعله يقول: ما فعل في كفالتها؟ ﴿**كلما**﴾ أي كان كلما ﴿ **دخل عليها زكريا المحراب** ﴾ أي موضع العبادة .

وقال الحرالي : هو صدر البيت ومقدمه ، الذي لا يكاد يوصل إليه إلا بفضل منه وقوة وجهد حرب ﴿ **وجد عندها رزقًا** ﴾ وذلك كما وُجد عند خبيب ابن عدي الأنصاري – رضي الله تعالى عنه – قطف العنب ، وقبل ذلك كثير في هذه الأمة . وفي هذه العبارة من أولها إلاحة لمعنى حُسن كفالته ، وأنه كان يتفقدها عند تقدير حاجتها إلى الطعام ، بما تفيده كلمة كلما من التكرار ، فيجد الكفيل الحق قد عاجلها برزق من عنب ، بما هو سبحانه وتعالى المتولي لإنباتها ، ليكون نباتها من غيب رزقه ، فتصلح لنفخ روحه ، ومستودع كلمته ، ولا يلحقها بعد الإعاذة ما فيه مسّ من الشيطان الرجيم ، الذي أعاذها الله سبحانه وتعالى منه بكثرة الاختلاط في موجودات الأرزاق ، فكان من حفظها أن تولى الله سبحانه وتعالى إرزاقها من غيب ، إلا ما يطيبه من بادٍ ؛ ليكون حسن نباتها من أحسن رزق الله سبحانه وتعالى ، كما يقال : من غُذِّيَ بطعامِ قوم غُذِّيَ بقلوبهم ، **ومن غُذِّيَ بقلوبهم آل إلى منقلبهم. وكانت هي مثلما كفلها كافلها ظاهرًا. كفلته** باطنًا ، حتى أبدى الله سبحانه وتعالى له من أمره ما لم يكن قبل بدا له ، فكان

لمريم عليها السلام توطئة في رزقها، لما يكون كماله في حملها، فيكون رزقها بالكلمة ابتداء ، ليكون حملها بالكلمة . عند ذلك طلب زكريا عليه السلام نحو ما عاين لها من أن يرزقه الولد في غير إبانة ، كما رزق مريم الرزق من غير أوانه . وفي تعيين محلها بالمحراب ما يُلِيحُ . معنى ما ذكر من رجوليتها باطنًا ، من حيث إن محل النساء أن يتأخرن ، فأبدى الله سبحانه وتعالى في محلها ذكر المحراب ؛ إشارة لكمالها . والمحراب صدر البيت المتخذ للعبادة ، وفي لزومها المحراب في وقت تناول الرزق إعلام بأن الحبيس والمعتكف بيته محرابه ، ومحرابه بيته ، بخلاف من له متسع في الأرض ومحل من غير بيت الله .

إنما المساجد بيوت أهل الله ، المنقطعين إليه ، فهو محلهم في صلاتهم ، ومحلهم في تناول أرزاقهم ، ففيه إشعار بحضورها وحضور أهل العكوف حضور سواء في صلاتهم وطعامهم ، ولذلك أنمى حال العبد عند ربه بما هو عليه في حال تناول طعامه وشرابه ، فأهل الله سواء محياهم ومماتهم وأكلهم وصلاتهم . من غفل عند طعامه قلبه لم يستطع أن يحضر في صلاته قلبه ، ومَنْ حضر عند طعامه قلبه لم يغب في صلاته قلبه .

وفي ذكر الرزق سائغًا إشعار بأنها أنواع من أرزاق ، من حيث إنه لو اختص يخص بما هو أخصّ من هذا الاسم .

وكلمة ﴿ أنّى ﴾ تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة .

من جهة الزمان أنه ليس زمانه . ومن جهة المكان أنه ليس مكانه . ومِنْ جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله .

وفي ذكر الضمير في قوله : ﴿هو من عند الله﴾ إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق ، لا إلى أعيانه ، فهو إنباء عن رؤية قلب ، لا عن نظر عين ؛ لأن ﴿هوَ﴾ كلمة إضمار، جامعة لكل ما تفصلت صوره، مما اتحد مضمره . ولعلوّ رتبته عن الرتبة العادية جرى النبأ عنه مضافًا إلى الاسم العظيم الذي هو مسمى الأسماء كلها[1].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٤ / ٣٥٠ - ٣٦٢) .

قال تعالى : ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًّا قال إني عبد الله**﴾ الآية [مريم : ٢٩ - ٣٠]. لما سلمت لأمر الله واستسلمت لقضائه ، حين أمرت ألا تكلم أحدًا من البشر ، فكُفيت أمرها ، وقام ولدها الذي في المهد بحجتها ؛ والجزاء من جنس العمل .

○ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ○

قال الله تعالى : ﴿ **والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرّءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ [النور : ٢٦] .

جاء في البخاري في حديث الإفك: عن عائشة– رضي الله عنها– قالت عائشة: فبكيت يومي ذلك كله ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويومًا ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى إني لأظنُّ أن البكاء فالق كبدي ، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك ، دخل رسول الله ﷺ علينا ، فسلّم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، ولقد لبث شهرًا لا يُوْحَى إليه في شأني بشيء . قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد .. يا عائشة ، إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه » . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال . فقال أبي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال . قالت أمي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيرًا –: إني والله ، لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقونني، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ– والله يعلم أني منه بريئة– لتصدقني،

فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ **فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، والله يعلم أني حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكني والله ما كنت أظن أن الله تعالى منزل في شأني وحيًا يُتلى ، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه العرق مثل الجمان ، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فَسُرِّ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : « يا عائشة أما الله فقد برأك » . قالت : فقالت لي أمي:قومي إليه . فقلت : لا والله ، لا أقوم إليه ؛ فإني لا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم..** ﴾ العشر آيات [النور: ١١- ٢٢] ثم أنزل الله تعالى هذا في براءتي ... الحديث .

وفيها وفي طهرها يقول حسان بن ثابت -رضي الله عنه - :

حصان رَزَانٌ ما تُزَنّ بريبةٍ ... وتصبح غرثَى من لحوم الغوافلِ
عقيلة أصلٍ من لؤي بن غالبٍ ... كرام المساعي مجدهم غير زائلِ
مهذّبة قد طيّب الله خيمها ... وطهّرها من كل بَغْيٍ وباطلِ
فإن كان ما قد قيل عنيَ قلته ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وإن الذي قد قيل ليس بلائط ... بها الدهر بل قول امرىء متماحِلِ
فكيف وودّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافلِ
رأيتك - وليغفر لك الله - حرةً ... من المحصنات غير ذات الغوائلِ

فكيف كان جزاؤها من جنس عملها ؟

لمّا لم تدافع عن نفسها دافع الله عنها .

لمّا سكتت عن القول ببراءتها نطقت الآيات بطهارتها .

لمّا اتسمت بالتواضع كقولها : ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، فتكلم الله ببراءتها ، ومن تواضع لله رفعه .

فضائل عائشة كثيرة بعضها يكفيها ، وبحسبها أن الله أنزل آيات تتلى فيها ، إن كان رسول الله ﷺ يقول لها : « **ذاك جبريل ، وهو يقرئك السلام** » . **قالت :** وعليه السلام . فمَنْ هذه حالتها مع جبريل كيف يجوز عليها الزور والأباطيل ؟

أمّا أهل السنة فقلوبهم بالفرح عند ذكر عائشة طائشة ، وأما الرافضة فتأخذهم حُمّى نافضة .

سجع

هي اختيار العظيم العلي للنبي ﷺ ، ومذ طفولتها تعرَف بالعز الأبي ، ولها عقل الكبار في سنّ الصبي ، وهل يضرّها قول الجهول الغبّي ، أو يقدح في ريح المسك الذكيّ إلا بهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ [النور : ١١] .

ما تزوّج الرسول ﷺ بكرًا سواها ، ولا أحب زوجة كحبه إياها ، جاء بها المَلَكُ في سَرقة فجلّاها ، وتكلم الله ببراءتها سبحان من أعطاها ، وما يرمي الأصحاء بالسقم إلا سقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

واعجبًا لمبغضيها مَنْ هم ؟ إن فهمت قولي قلت : إنْ هُمْ ، ضرّهم والله ما صدر عنهم ، خفّت والله عقولهم ، والآفة تُهيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما خفي على حسّادها طهارة ذيلها ، غير أن الطباع الرديّة في ميلها ، هجمت عليها الأحزان بَرجْلِها وخيلها . فكانت طول نهارها وليلها ، تبكي بكاء اليتيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

مدّوا أبْوَاعهم إلى عرضها فما نالوا ، وأكثروا القول ظاهرًا وباطنًا واحتالوا . ونوَّعوا أسباب القذف وتكلموا وأطالوا ، وهي على طهارتها مما قالوا، في مقعد مقيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

تكلموا فيها بترّهات ، وراموا ذمَّ السماء وهيهات ، يا عائبها إن عرفت عيبًا فهاتْ ، كفانا الله شر عقوق الأمهات ، فإنه قبيح ذميم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

ما كان سوى غيم ثم تجلّى ، وانصرف الحزن وتولّى بالفرح الذي تولّى ، ولبس الممدوح أحسن الحليّ وتحلّى ، وحمل القاذف إثمًا وكلّا ، أيقدح العقلاء في أمهاتهم ، القادحون كلّا هي منهم عقيم . ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ . حُوشيت من ريب أو فجور ، إنما زيدت بما جرى في الأجور ، تنزهت أم العدول أن تجور ، إنما وقعت في أغباش ليل ديجورِ ، ثم بان النور في سورة النور ، فنزل في الكلام العظيم ﴿ **والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

○ أم إسماعيل عليه السلام ○

روى البخاري عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ الناس المنطق من قبل – أُمِّ إسماعيل ، اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : ياإبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء ؟. فقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذًا لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى كان عند الثنيّة حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات**

لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال : يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » ، فلما أشرفت على المروة فسمعت صوتًا فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمّعت فسمعت أيضًا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس:قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال : -لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا » . فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريًا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأمّ إسماعيل عند الماء فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت : نعم . ولكن لاحقّ لكم في الماء . قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم إسماعيل وهي

تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ... » الحديث .

فهل كان جزاء أم إسماعيل من جنس قولها وعملها ؟

يودعها إبراهيم - عليه السلام - هي وفلذة كبدها عند جبال فاران ، موضع مكة الآن ، حيث لا حسيس ولا أنيس ، وحيث المكان القفر الموحش ، وتقول : آلله أمرك بهذا ؟ فيقول : نعم . فتقول : إذًا فلن يضيعنا . وثقت بما عند الله عز وجل فما كان جزاؤها ؟

قال لها الملك : لا تخافي الضيعة . إن الله لا يضيع أهله . تركت وراءها كل شيء ، وفقدت كل شيء حتى الماء ، وجعلت تتروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرّة الملتهبة ، وهي تهرول بين الصفا والمروة ، وقد نهكها العطش ، وهدّها الجهد ، وأضناها الإشفاق على الطفل ، ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء وإذا هي زمزم ، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب .

تركت وراءها كل شيء فجاد الله عليها بكل شيء بزمزم وفيها كل شيء ، لقول رسولنا ﷺ « زمزم لما شرب له »[١] ، « وزمزم طعام طُعم ، وشفاء سقم »[٢] ومَنّ الله عليها بالأنس بعد ما فقدته .

ولكرامتها على الله لم يرسل أحدًا من عامّة الناس لحفر البئر وإنما الملك ، وسيد أهل السماء جبريل بعقبه أو جناحه . جبريل يحفر ، وإسماعيل يشرب ، ورسول الله ﷺ يتمنى أن يستسقي ، وصار السعي دينا ، وصار الشرب سنة ، وكل قطرة من زمزم قصة تروى ، وتحوي ظلّا وديعا يروّي هجير دنيانا ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) حديث صحيح : جمع فيه الحافظ ابن حجر جزءًا . انظر كتابي « الرياض النضرة في فضائل الحج والعمرة » .

(٢) حديث صحيح .

○ أم موسى عليه السلام ○

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص: ٧].

وقال تعالى: ﴿**وحرّمنا عليه المراضع من قبل ...**﴾ الآية [القصص: ١٢].

وثقت أم موسى التقية بما عند الله عز وجل ، إن الأم إذا خافت على ابنها ضمّته إلى صدرها ، يالله !! يا للقدرة !! يا أم موسى أرضعيه ، فإذا خفت عليه وهو في حضنك ، وهو في رعايتك ، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك فألقيه في اليم !!

وثقت وهي الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة بما عند الله ، وبإلهام الله ، ونزل الإلهام على قلبها المحرور بردًا وسلامًا .

فما كان جزاؤها ؟

حرّم الله على موسى المراضع إلا ثدي أمه ، جعلوا يبحثون له عن ظئرٍ ترضعه .

لما ألقته ثقة بما عند الله ، ردّه الله إليها ، وجعله من المرسلين ، وكذا هدية الملك ، فإن الشيء إذا ردّ وأتى من الكريم يأتي مضمخا بنواله وعطائه وكرمه ﴿**ولتصنع على عيني**﴾ [طه: ٣٩] ﴿**إنا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ [القصص : ٧] تلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

كانت قبل ذلك ترضعه على خوف من فرعون وملئه ، فالآن ترضعه على عين فرعون ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير ، انظر إلى أم موسى ونهاية يقينها وثقتها بما عند ربها وصبرها ، ترضع ولدها ، وتأخذ على ذلك أجرها .

لطيفة :

لمّا سعت بتابوته إلى البحر ارتعشت يد التسليم فأمسكها ، فصاح شجاع الشجاعة بملء فيه : اقذفيه فيه ، فصدرت بعد إلقائه بصدر قد لوى به لواعج الاشتياق ، لا يعلم قَدْر ما به إلّا مَنْ رمى به ، فتلقاها بالبشير بشير ﴿ **إنا**

رادّوه فلم تزل أمواج اليم تيمم به مسالك القدر ، فألقته في برية **﴿فالتقطه﴾** فلما فتحوا التابوت ، أسفر عن مسافر على نجيب النجابة ، قد جعل زاده في مزود **﴿ولتصنع﴾** ، ووشحت قلادة الحب ، قد رصعت بدرّ **﴿وألقيت﴾** ، فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله ، فخرجت آسية من كمين أتباعه تنطق على لسان **﴿ سبقت لهم ﴾** ، وتنادي في مخدع خديعة الحرب **﴿ قرة عين لي ولك ﴾** ، وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة الغدر **﴿ عسى أن ينفعنا ﴾** فلم يزل فرعون في أغباش غرور يذبح ، حتى طلع غرر صبح **﴿ ونريد أن نمنّ﴾**، فلمّا قصّ شوق أمه جناح صبرها، **﴿وقالت لأخته قصيه فبصرت به﴾** في حريم **﴿وحرّمنا﴾** فدنت ، فدندنت حول حلة الحيلة تجول **﴿هل أدلكم﴾**، فلما حفظت باب المكر بحارس **﴿ يكفلونه لكم ﴾** ، دخل طفيلي الوجد من باب **﴿وهم له ناصحون﴾**، فجاءت بأمها يؤمها دليل الطرب ، فكادت إذ حضرت تحضر في ميدان **﴿لتبدي به﴾**، فكبحها لجام **﴿لولا أن ربطنا﴾** فخافت لسان جهرها لما خافت . فسلّ من أيديهم إلى سلم تسليمها ، فقرّ في حجر **﴿ كي تقرعينها ﴾** ورُبي موسى في رُبا فرعون ، ونما بين نمارقه . إلى أن آن أوان مشاجرته .

○ أسماء ذات النطاقين ○

في حديث الهجرة من حديث عائشة الذي رواه البخاري : فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطته على فم الجراب ، فبذلك سميت : ذات النطاق . وفي رواية الكُشْميهنّي : النطاقين .

قال ابن حجر :

والنطاق : ما يشد به الوسط ، وقيل : هو إزار فيه تكة ، وقيل : هو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ، ثم ترسل الأعلى على الأسفل .

والمحفوظ أنها شقت نطاقها نصفين ، فشدت بأحدهما الزاد واقتصرت على الآخر ، ومن ثَمّ قيل لها : ذات النطاق ، وذات النطاقين[1].

وعند ابن سعد من حديث الباب : شقت نطاقها ، فأوكأت بقطعة منه الجراب ، وشدت فم القربة بالباقي فسميت : ذات النطاقين .

وعند البخاري عن أسماء رضي الله عنها : صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة ، فقلت لأبي : ما أجد شيئًا أربطه إلا نطاقي ، قال : فشقيه ، فقلت : فسميت : ذات النطاقين .

وعند ابن سعد عن أسماء قالت : صنعت سفرة للنبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به ، فقلت لأبي بكر : ما أجد إلا نطاقي . قال : شقيه باثنين ، فاربطي بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة . قال ابن حجر في الإصابة (٤ / ٢٢٤) : وسنده صحيح .

قال الزبير بن بكار في هذه القصة : قال لها رسول الله ﷺ : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة » فقيل لها : ذات النطاقين[1] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ابن عبد البر في الاستيعاب : لما بلغ ابن الزبير أن الحجاج يعيره بابن ذات النطاقين أنشد قول الهذلي متمثلًا :

وعيَّرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
فإن أعتذر منها فإني مكذب ... وإن تعتذر يردد عليك اعتذارها

ويرحم الله من يقول :

إذا ما محاسني التي أدلّ بها ... كانت عيوبي فقل لي كيف أعتذر؟

---

(١) الفتح (٧ / ٢٨٧) .
(٢) انظر الإصابة (٤/٢٢٤)، والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة (٤/٢٢٩).

○ أم أيمن رضي الله عنها حاضنة رسول الله ﷺ ○

عن عثمان بن القاسم قال : لمّا هاجرت أم أيمن أمست بالمتصرف دون الروحاء ، فعطشت وليس معها ماء ، وهي صائمة ، وجهدت ، فدُلّي عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، فشربت ، وكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش ، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت[1] .

والجزاء من جنس العمل .

وجاء في السيرة الحلبية[2] في الكلام على غزوة أحد : رأت أم أيمن فلول المسلمين يريدون دخول المدينة ، فأخذت تحثو في وجوههم التراب ، وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحى ، فرماها حِبان بن العرقة بسهم ، فوقعت وتكشفت ، فأغرق عدو الله في الضحك ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له ، وقال : « ارم به » . فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجزه، ثم قال : « استقاد لها سعد ، أجاب الله دعوته » .

والجزاء من جنس العمل .

○ أم سُلَيم الغميصاء « الرُّميصاء » رضي الله عنها ○

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خشفة فقلت : من هذا ؟ فقال :

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/٢٢٤) وعنه الحافظ في الإصابة (١٣/١٧٨) ورجاله ثقات ، لكنه منقطع .

(٢) (٢ / ٣٢) .

هذا بلال »[١] .

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : « دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يديّ فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان »[٢] .

خطبها أبو طلحة وكان مشركًا، فقالت: إني قد آمنت، فإن تابعتني تزوجتك، قال : فأنا على مثل ما أنت عليه ، فتزوجته أم سُليم ، وكان صداقها الإسلام .

عن أنس رضي الله عنه قال : تزوج أبو طلحة أم سليم ، فكان صداق ما بينهما الإسلام ، أسلمت أم سليم قبل أبي طلحة فخطبها ، فقالت : إني قد أسلمت فإن أسلمت نكحتك ، فأسلم فكان صداق ما بينهما[٣] .

عن أنس قال : خطب أبو طلحة أم سُليم فقالت : إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركًا ! أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان ، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت ؟ قال : فانصرف وفي قلبه ذلك ، ثم أتاها وقال : الذي عرضت عليّ قد قبلت ، قال : فما كان لها مهر إلا الإسلام[٤] .

قال ثابت : ما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم ؛ الإسلام ، فدخل بها فولدت له .

ولمّا كان مهرها الإسلام ، مهر عجيب غالٍ ، حدثت منها الأعاجيب وكان جزاؤها من جنس عملها .

عن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدخل بيتًا غير بيت أم سُليم فقيل له : فقال : « إني أرحمها ، قتل أخوها معي »[٥].

كان رسول الله ﷺ يقيل في بيتها .

عن ثابت عن أنس قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سُلَيم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال : فجاء فقربت إليه عشاء ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢ / ٣٠٩) وإسناده صحيح .
(٣) أخرجه النسائي، وسنده صحيح.
(٤) رواه ابن سعد في الطبقات، وإسناده صحيح.
(٥) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد .

فأكل وشرب فقال : ثم تصنّعت له أحسن ما كانت تَصَنّعُ قبل ذلك فوقع بها . فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها . قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهِم ؟ قال : لا .. قالت : فاحتسب ابنك. قال: فغضب. وقال: تركتني حتي تلطخت ثم أخبرتني بابني!! فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابرِ ليلتكما » . قال : فحملت . قال : فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معي ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقا ، فدنوا من المدينة فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يارب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذي كنت أجد انطلق ، فانطلقنا ، قال : وضربها المخاض حين قدما فولدت غلامًا .... [١] .

وهذا الغلام هو عبد الله بن أبي طلحة الذي حنّكه رسول الله ﷺ.قال عَباية بن رفاعة : لقد رأيت لذلك الغلام سبعَ بنين ، كلهم قد ختم القرآن[٢].

قال النووي : حملت بعبد الله بن أبي طلحة في تلك الليلة ، وجاء من ولده عشرة رجال علماء أخيار[٣].

فانظر كيف كان جزاؤها من جنس عملها .. لما صبرت على فقد ولدها ، واحتسبته عند ربها .

○ رِبْعِيُّ بن حراش ○

الإمام القدوة الوليّ الحافظ الحجة ، أبو مريم الغَطَفانيّ .

عن الحارث الغنوي قال : آلى ربعي بن حِراش أن لا تفتر أسنانه ضاحكًا حتى يعلم أين مصيره .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) أخرجه ابن سعد ورجاله ثقات .
(٣) شرح النووي على مسلم (٥/٣٢٢) . والغلام الذي مات هو أبو عُمير صاحب النغير .

قال الحارث الغنوي : فأخبر الذي غسّله أنه لم يزل متبسمًا على سريره - ونحن نغسله - حتى فرغنا منه ، رحمة الله عليه .

والجزاء من جنس العمل .

وكم لسادات العباد من هذه الأمة آي .

○ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله - ○

السيد الكبير من سادات أولياء الأمة المحمدية ، وشيخ المحدثين أبو عبد الله .

قال المروذي : سمعت أبا عبد الله يقول : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب ، فما أشتهيه .

وقال : وأراد أبو عبد الله أن يبول في مرضه الذي مات فيه ، فدعا بطست ، فجئت به ، فبال دمًا عبيطًا ، فأريته عبد الرحمن المتطبب فقال : هذا رجل قد فتّت الغم - أو قال الحزن - جوفه[1] .

الإمام الخائف الذي خاف ربه فهابته الخلائق .

قال محمد بن مسلم : كنا نهاب أن نردّ أحمد بن حنبل في الشيء ، أو نحاجّه في شيء من الأشياء ؛ لجلالته ولهيبة الإسلام الذي رُزِقه .

وقال الحسن بن أحمد - والي الجسر - : دخلت على إسحاق بن إبراهيم وفلان - ذكر السلاطين - ما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت إليه أكلمه في شيء ، فوقعت عليّ الرعدة حين رأيته من هيبته .

قال المروذي : ولقد طرقه الكلبي صاحب خبر السرّ ليلًا ، فمن هيبته لم يقرعوا عليه بابه ودقوا باب عمه .

قال عبدوس : رآني أبو عبد الله يومًا وأنا أضحك ، فأنا أستحييه إلى اليوم .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : جالست أبا يوسف ومحمد بن الحسن

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٥٣ .

ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي ، فما هبت أحدًا منهم ما هبت أحمد ابن حنبل[١].

ولقد كان الإمام أحمد ينهى عن كَتب كلامه ، ويكره ذلك .

قال أبو بكر المَرُّوذي : رأيت رجلًا خراسانيًّا قد جاء إلى أبي عبد الله ، فأعطاه جزءًا ، فنظر فيه أبو عبد الله ، فإذا فيه كلام لأبي عبد الله ، فغضب فرمى الكتاب من يده .

قال أحمد بن حنبل : القلانس من السماء تنزل على رءوس قوم يقولون برءوسهم هكذا وهكذا ، المعنى لا يريدها .

ومعنى الكلام أنهم لا يريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

وكذلك كان أحمد - رضي الله عنه - ينهى عن كتب كلامه تواضعًا ، وقدّر الله أن دون ورُتِّبَ وشاع[٢] .

يقول ابن القيم في أعلام الموقعين :

وكان رضي الله عنه- يعني الإمام أحمد- شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث ، ويكره أن يكتب كلامه ، ويشتد عليه جدًّا ، فعلم الله حسن نيته وقصده ، فكُتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفْرًا ، مَنّ الله سبحانه علينا بأكثرها ، فلم يفتنا منها إلا القليل . وجمع الخلّال نصوصه في الجامع الكبير ، فبلغ نحو عشرين سِفْرًا أو أكثر .

والجزاء من جنس العمل .

من أطاع الله أطاعته الخلائق :

روي أن الإمام أحمد كان جالسًا في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك ، لتدعو الله لها بالعافية ، فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ،

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص٢٥١ - ٢٥٢ .

وقال : اذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجني: يقول لك أحمد ، أيما أحب إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟.

فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية ، وجلس عند رأسها ، وقال كما قال له الإمام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . ثم خرج من الجارية ، فهدأت ، ورزقت أولادًا .

فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحبًا من أصحاب أحمد، فحضر ومعه ذلك النعل، وقال للمارد: اخرج وإلا ضربتك بهذه النعل. فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل ، فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته[1] . أو لقد مات من أطعناكم بسببه ، من قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء ، ومن أنس بالله أنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث ، من أطاع الله أطاعته الخلائق .

والجزاء من جنس العمل .

الإمام والمحنة :

انظر يا أخي ، لتعرف قدر سادات الرجال .

لولا سياط على ظهر ابن حنبل ما صار إمام أهل السنة .

يضرب في محنة خلق القرآن ، ويُعذب ، ويخرج منها ذهبًا خالصًا .

كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب ، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب ، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال ، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه ، لأنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « يبتلى الرجل على حسب دينه » . فسبحان مَنْ أيده وبصره وقواه ونصره .

قال ابن الجوزي : هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فيذلّها . قال بعض الجلادين : لقد بطل أحمد بن حنبل الشطار ، والله لقد ضربته ضربًا لو

---

(١) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٥١

أبرك لي بعير فضربته ذلك الضرب ، لنقبت عن جوفه .

وقال شاباص التائب : لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا ، لو ضربته فيلًا لهدّته .

قال أبو زرعة : لم أزل أسمع الناس يذكرون أحمد بن حنبل بخير ، ويقدمونه على يحيى بن معين وأبي خيثمة ، غير أنه لم يكن من ذكره ما صار بعد أن امتحن ، فلما امتحن ، ارتفع ذكره في الآفاق .

قال أبو غالب ابن بنت معاوية قال : ضرب أحمد بن حنبل بالسياط في الله ، فقام مقام الصديقين في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين .

قال محمد بن إبراهيم بن مصعب - وهو يومئذ على الشرط للمعتصم خليفة إسحق بن إبراهيم أنه قال : ما رأيت أحدًا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك أثبت قلبًا من أحمد يومئذ ؛ ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب .

قال الإمام : لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال : ائتوني بغيرها ، فأُتي بغيرها ، ثم قال للجلادين : تقدموا . قال : فجعل يتقدم إلّي الرجل فيضربني بسوطين، فيقول له- يعني المعتصم-: شد، قطع الله يدك! ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين ، وهو في كل ذلك يقول لهم : شدوا،قطع الله أيديكم . فلما ضربت تسعة عشر سوطا قام إليَّ - يعني المعتصم - فقال : يا أحمد ، علام تقتل نفسك ؟ إني والله عليك شفيق . قال : فجعل عُجَيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك ، الخليفة على رأسك قائم ؟ وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ، أنت صائم ، وأنت في الشمس قائم ! فقال لي : ويحك يا أحمد ، ما تقول ؟ فأقول : أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسول الله ﷺ أقول به . قال : ثم رجع فجلس ، ثم قال للجلاد : تقدم ، أَوْجِع ، قطع الله يدك ! ثم قام الثانية ، فجعل يقول : ويحك يا أحمد ، أجبني . فجعلوا يقبلون علي ويقولون : ويحك يا أحمد، إمامك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال:وجعل يقول- يعني المعتصم-:ويحك يا أحمد، أجبني

إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي . قال : فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله ﷺ حتى أقول به . قال : فرجع فجلس ، فقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى ، وهو في خلال ذلك يقول : شد،قطع الله يدك ! قال أبي : فذهب عقلي ، فأفقت بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر : إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ودُسناكَ ! قال أبي : فما شعرت بذلك ، وأتوني بسَوِيق فقالوا لي : اشرب وتقيأ ، فقلت : لست أفطر . ثم جيء بي إلى دار إسحق بن إبراهيم ، فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعة فصلّى ، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثعَبُ دمًا[1].

هذا الإمام العظيم الذي هانت عليه نفسه في الله ، عظم في أعين سادات أهل السنة والجماعة .

فَها هُوَ يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري يقبل جبهة أحمد ووجهه حين أخرج من الحبس . وسليمان بن داود الهاشمي يقبل جبهة أحمد ورأسه .

وقال علي بن المديني : أحمد بن حنبل سيدنا .

وقال أيضًا : اتخذت أحمد بن حنبل إماما فيما بيني وبين الله ، ومَنْ يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله .

وقال : إن الله عز وجل أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال يحيى بن معين : أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، لا أكون مثل أحمد أبدًا .

وقال إسحٰق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبَذْل نفسه لمَّا بذلها له ؛ لذهب الإسلام.

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص٤٠٦ - ٤٠٧ .

قال بشر بن الحارث : أدخل أحمد الكير ، فخرج ذهبًا أحمر ، فبلغ ذلك أحمد ، فقال : الحمد لله الذي رَضَّى بشرًا بما صنعنا .

وقالوا له : قد حُمل أحمد وحملت السياط ، وقد وجب عليك أن تتكلم . فقال : أتريدون مني مقام الأنبياء ؟ ليس ذا عندي حفظ الله أحمد بن حنبل من بين يديه ومن خلفه .

هانت عليه نفسه فعزّ عند الساده..،والجزاء من جنس العمل .

○ شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي ○

الإمام القدوة الحافظ الكبير شيخ خراسان ، من ذرية صاحب النبي ﷺ أبي أيوب الأنصاري .

لما قدم السلطان ألب أرسلان هراة في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ، ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزم أن نخرج ، ونسلم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك . وكانوا قد تواطئوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلوته ، ودخلوا على السلطان ، واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مُجسِّم ، وأنه يترك في محرابه صنمًا يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بَعَثَ السلطان الآن يجده ، فعظم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان من أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتد غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يعمل من الصُفْرِ شبه اللُّعبة . قال : لست عن ذا أسالك . قال : فَعَمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري : سبحانك ! هذا بهتان عظيم !! فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني ، وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامّة ،

فأردنا أن نقطع شرّه عنّا. فأمر بهم، ووكل بهم، وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم[١].

أرادوا الكيد لشيخ الإسلام ، فكاد الله لهم .

وقد كان- الشيخ- سيفًا مسلولًا على المتكلمين، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظمونه، ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طَوْدًا راسيًا في السنة لا يتزلزل ولا يلين رحمه الله[١].

○ الحافظ الإمام عبد الغني المقدسي ○

قال له الفقيه نجم بن عبد الوهّاب الحنبلي وقد حضر مجلسه : يا تقي الدين ، لقد حملت الإسلام ، ولو أمكنني ما فارقت مجلسك[٢] .

هذا الإمام الذي ما كان ينام من الليل إلا قليلًا ، بل يصلي ويقرأ ويبكي .

من هاب الله هابه كل شيء ، من خاف من الله خاف منه كل شيء ، والجزاء من جنس العمل،فتعال معي حتى ترى .

يروي الحافظ الذهبي : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلت لهم طنابير وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابير فكسرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمام كافور إذا قوم كثيرٌ معهم عصيّ ، فخففت المشي، وجعلت أقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فلما صرت على الجسْر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرتُ لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر . قال : فإذا فارس يركض فترجّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله له هيبة في النفوس[٣].

وكان إذا دخل على الملك العادل يقوم له ويلتزمه ، وكان يقول عن الحافظ : ما رأيت بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فخُيِّلَ إليّ أنه أسد .

وقال العادل : ما خفت من أحد ما خفت من هذا ، فقلنا : يأيها الملك ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/٥٠٩ ، ٥١٢) (٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٥٥) .

هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيّل إليّ إلا أنه سبع[١] .

○ شيخ الإسلام ابن تيمية ○

شيخ المسلمين، ودرة الموحدين، وبقية السلف العاملين، سيرته تحتاج لمجلدات ضخام، ولكن .

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجال من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق ، فأذن لهم فحضروا بين يديه . فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه وأجلسه وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم، وصين حريمُهم.

يقول الحافظ عمر بن البزار في الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية :

حدثني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنت حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكُليته ، مصغٍ لما يقول ، شاخص إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٤٥٥) .

في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه ، فأخبر بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدا فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت .

وسأله إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك . فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ وأستبدل به غيره .

فخرج من بين يديه مكرمًا معززًا ، قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين ؛ فبلغه ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم[١] .

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارى واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر . فقال ابن تيمية للقائد - بولاي - وكان قد التحق مع قازان : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : وقد أطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية: لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه، فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة. فقال: لو صححت لم تخف أحدًا .

---

(١) الأعلام العلية ص٦٩ - ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجل الذي يهاب ربه تهابه الملوك ، وجزاؤه من جنس عمله .

وقد قص أيضًا هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي ، وكان يوم قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لما تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لترجمانه : قل لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضٍ وإمام وشيخ – على ما بلغنا – فغزوتنا ، وبلغت بلادنا على ماذا ؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين ، وما غزوا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت . قال : وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونوب ، قام ابن تيمية فيها كلها لله ، وقال الحق ، ولم يخش إلا الله عز وجل . قال : وقرب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس . قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه : اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وأيده ، وملكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلزله ، ودمره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمن على دعائه ، ويرفع يديه .

قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره : كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا. فقال: وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عصبة ، وتأخر هو في خاصة نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه ، وكنت أنا من جملة من كان معه ، وأما أولئك الذين

أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر ، فشلحوهم عن آخرهم[١] .

والجزاء من جنس العمل .

ما ازداد عبد بعفو إلا عزّا :

أوغروا صدر السلطان على ابن تيمية ، وأشاروا إليه بسجنه وبقتله ، فرفعه الله فوقهم .

يقول ابن تيمية : إن السلطان لما جلس بالشباك ، أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله ، واستفتاه في قتل بعضهم .

قال : ففهمت مقصوده وأن عنده حنقًا شديدًا عليهم . قال ابن تيمية : فشرعت في مدحهم والثناء عليهم ، وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك ، أمّا أنا فهُمْ في حِلٍّ من حقي ومن جهتي ، وسكّنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زين الدين بن مخلوف – قاضي المالكية – يقول بعد ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا في السعي فيه . ولما قدر علينا عفا عنّا[٢] .

يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية شهروا به وسجنوه ، وقبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ، ولا ورقة ، ولا دواة ، ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بالفحم .

فكيف كان جزاؤه من جنس عمله ؟.

إنّ شيخ الإسلام ابتلي بلاءً شديدًا ، ولكن السجن لا يحجب نور الإيمان ، يقول ابن تيمية : لو يعلمون ما أسدوا إليّ من الجميل بسجنهم إياي في القلعة ، ما كافأتهم عليه بملء القلعة ذهبًا .

وجعل يردد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] .

---

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ – ٩٢) .

(٢) العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، للحافظ ابن عبد الهادي ص٢٨٢ – ٢٨٣.

وكان رحمه الله يقول: ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري ، أينما رحت فهي معي ، إن معي كتاب الله وسنة نبيه ، إن قتلوني فقتلي شهادة ، وإن نفوني فنفيي سياحة ، وإن سجنوني فأنا في خلوة مع ربي ، إن المحبوس من حبس عن ربه ، والأسير من أسره هواه .

وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين ، أو إحدى وثمانين ختمة ، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ [القمر: ٥٤-٥٥] ثم كملت عليه بعد وفاته، وهو مُسجًّى، ودخل عليه حفاظ الحديث لتغسيله ، ومنهم الحافظ المزي ، وازدحم الخلق على باب القلعة والطرقات ، وامتلأ جامع دمشق وصلوا عليه ، وحضرها نساء كثير حُزرن بخمسة عشر ألفًا . وأما الرجال فحزروا بستين ألفًا وأكثر إلى مائتي ألف ، وأغلق الناس حوانيتهم ، وكانت جنازته ثاني جنازة بعد جنازة إمام أهل السنة ، وصدق ابن حنبل حين قال : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز .

وما استطاع ساجنوه أن يخرجوا يوم موته ؛ خوفًا من بطش العامة بهم ، فصاروا هم السجناء في يوم موته ، يا لذلهم ويا لعزه !!

ويرحم الله من قال يوم موته يرثيه :

بكت السماء عليه يوم فراقه ... أسفًا وجاء الغيث والأمطارُ
وبكى الشام ، ومُدُنه ، وبقاعه ... حفّت به من ربه الأنوارُ
والناس من باكٍ عليه بَحَرّة ... ودموعهم فوق الخدود غزارُ
وهُم ألوف ، ليس يحصي جمعهم ... إلا إلــه غافــر ستــارُ[1]
ما كان إلا شامة في شامنا ... وعليه من تقوى الإله شعارُ

ويقول الشيخ مجير الدين الخياط الدمشقي في رثاء ابن تيمية :

---

(١) أسماء الله توقيفية ، ومن أسماء الله السّتير لا الستار .

خشعتْ لهيبة نعشك الأبصارُ　　لما عليه ِ تبدتِ الأنـوارُ
ولأمة الإسلام حول سريره　　سامٍ إلى رب السماء جُؤارُ
ولرحمة الرحمن ظل سَجْسَجٌ　　يغشاهـمُ وسكينـة ووقـارُ
كان الممات زفاف عرس حياته　　وبه النفوس مع الدموع تثارُ
قد كان مغناطيس أفئدة الورى　　أنسا ، ولكن في القليل نفارُ
والناس أمثال الجراد،لهم على التَّـابـوت منه تهافـتٌ ودوارُ
فكأنه يعسوب نحل نحوه　　حيًّا وميْتًا للفقوس مطـارُ
يفنى الزمان وينقضي وبأحمد　　وحديثه تتحدث السمَّـارُ

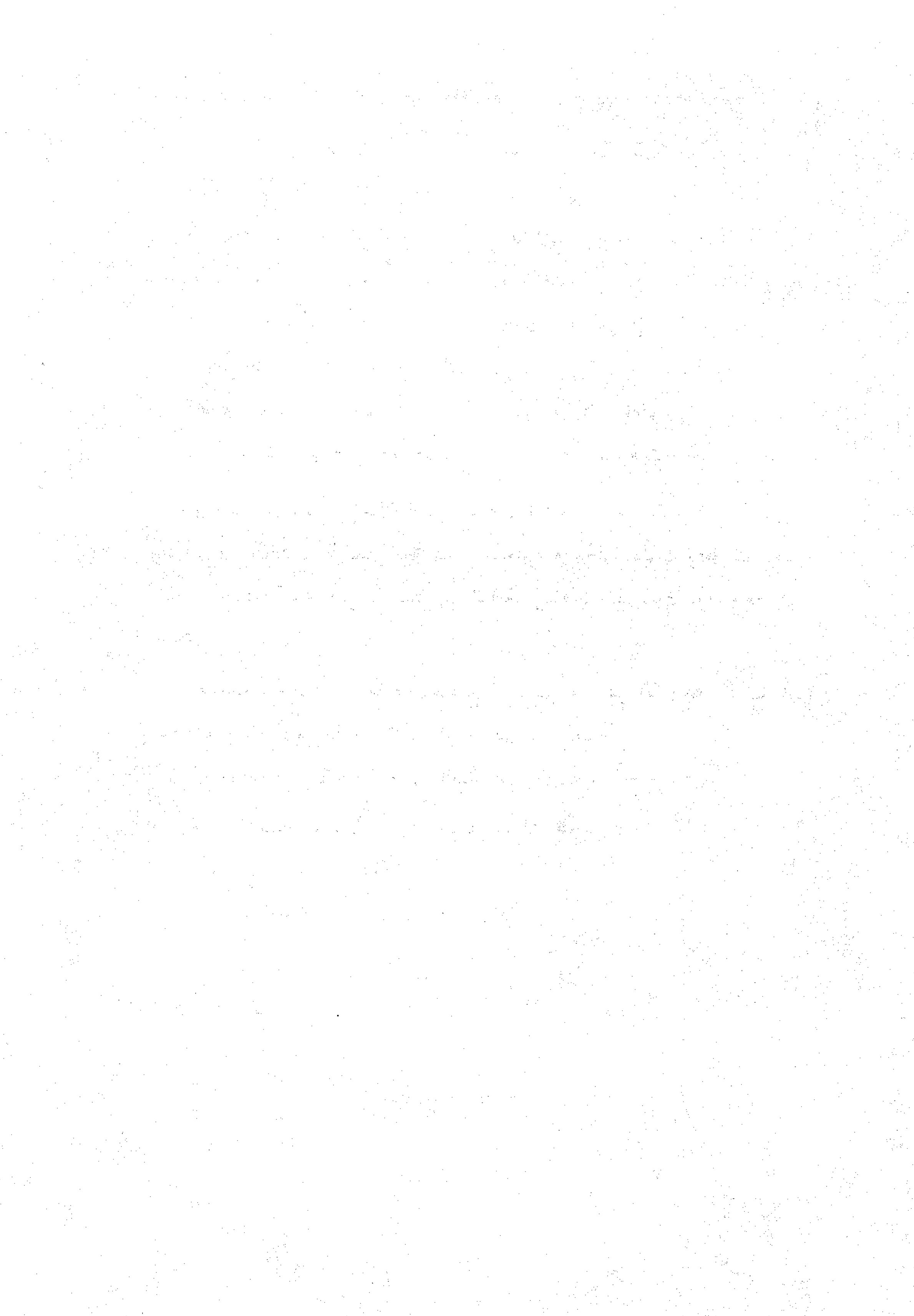
يرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، أرادوا محو اسمه من الوجود ، وأراد الله أن تتحدث السمَّار بحديثه ، سجنوه فسجنوا هم ، وطارت بذكره الأخبار ، حرقوا كتبه حتى لا تصل إلى العامة، وتمالأت على ذلك دول وعصور ، فما كان من أمره ؟

لصدقه وإخلاصه ، ما من صقع أو نجع أو كُفرٍ إلا وفيه كتب شيخ الإسلام ، وأتاح الله لها من الانتشار ما لم يتح لغيرها .

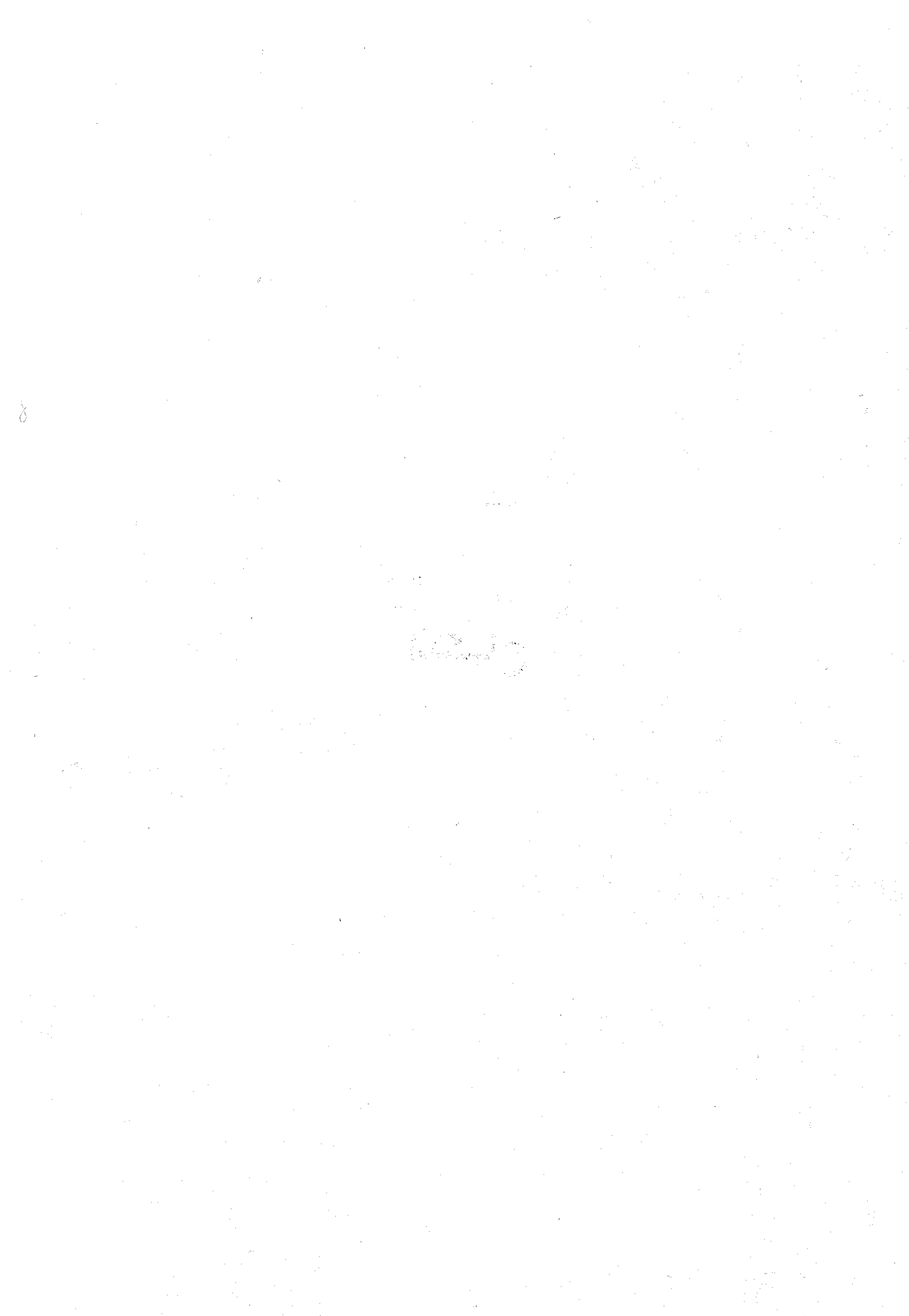
والجزاء عند الله من جنس العمل في الدنيا والآخرة .

وسيرة شيخ الإسلام لهذا الفصل مسك الختام .

* * *



النكــاح



□ النكــاح □

اعلم يا أخي أن ترك النكاح رهبانية ، والمتزوجون في العلو بإبانية ، أما مذهب أحمد أحمدُ مذهب ، وهو إلى تفضيل النكاح على التبتل يذهب ، إن ليلة بات فيها أبو الشافعي مع زوجته ، ووالد أحمد مع امرأته حتى حملتا من حمل ما حملا من العلوم ، أفضل من تعبد عابدٍ ألف سنة يصلي ويصوم . وقد يقال : فربما جاء نوح بكنعان . فقل : وربما أتى صهيب وسلمان . ثم إن الثواب على قدر نية الإنسان ، ومهما كان كان .

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف »[(١)] .

وقال رسول الله ﷺ : « ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له : من سعى في فكاك رقبة ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له ، ومن تزوج ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله تعالى أن يعينه ، وأن يبـارك له ، ومن أحيا أرضًا ميتة ثقة بالله واحتسابًا كان حقًّا على الله أن يعينه ، وأن يبارك له »[(٢)] .

قال المناوي :

« من تزوج ثقة بالله واحتسابًا » فلم يخشَ العيلة ، بل توكل على الله ، وامتثل أمره في التزويج ، وأمر نبيه ﷺ « كان حقًّا على الله تعالى أن يعينه » على

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٤٥ .

(٢) إسناده صالح : رواه الطبراني في الأوسط ، وكذا البيهقي من حديث عبيد الله بن الوازع عن أيوب بن أبي الزبير عن جابر وحسنه السيوطي وقال الذهبي في المهذب : إسناده صالح مع نكارته عن أبي أيوب . انظر فيض القدير ٣ / ٢٩١ .

الإنفاق وغيره « وأن يبارك له » في زوجته ؛ لأن من وثق بالله لم يكله إلى نفسه ، بل يتولى أموره ، ويسدده في أقواله وأفعاله ، ومن طلب منه الثواب بإخلاص ، أفاض عليه من بحر جوده ونواله[1] .

فيمن ترك محبوبه حرامًا فبُذل له حلالًا أو أعاضه الله خيرًا منه :

تحت هذا العنوان كتب شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية :

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه .

قال يحيى بن عامر التيمي : خرج رجل من الحي حاجًّا ، فورد بعض المياه ليلًا ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها ، فقالت له : هلمّ إليّ ، فلمَ تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت ثم قال : هِبْتَ والله مُهابا ، إنَّ أولى من شَركك في الهيبة لَمَنْ أراد أن يُشْركك في المعصية . ثم ولَّتْ فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحتُ أتيتُ رجلًا من القوم فسألته عنها ، وقلت : فتاة صفتها كذا وكذا . فقال : هي والله ابنتي . فقلت : هل أنت مُزوجي بها ؟ فقال : على الأكفاء ، فمن أنت ؟ فقلت : رجل من تيم الله ، قال كُفوٌ كريم . فما رمْت حتى تزوجتها ودخلت بها ، ثم قلت : جهزوها إلى قدومي من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ، وهاهي ذي ولي منها بنون وبنات .

وقال الحسن بن زيد : وَلينا بديار مصر رجلٌ فوجد على بعض عماله ، فحبسه وقيّده ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فهَوِيَتْه فكتبت إليه :

أيها الرامي بعينيـ ـه وفي الطرف الحتوفُ
إن تُرِدْ وصلا فقد أمـ ـكنكَ الظبيُ الألوفُ

فأجابها الفتى :

إن تَرَيْني زاني العيـ ـنين فالفرج عفيفُ

(١) فيض القدير (٣ / ٢٩١) .

ليس إلا النظر الفا تر والشعر الظريفُ

فأجابته :

قد أردنــاك فألفيــ ـناك إنسانًا عفيفًـا

فتأبَّيْتَ فـلا زِلْـ تَ لقَيْدَيْكَ حليفًا

فأجابها :

مـا تأبَّيْتُ لأنــي كنتُ للظبي عَيوفا

غير أني خِفتُ ربًّا كان بي بَرًّا لطيفَا

فذاع الشعر، وبلغت القصة الوالي فدعا به فزوجه إياها، ودفعها إليه[1].

والجزاء من جنس العمل .

قال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن ، فيها جَوارٍ خُلقن من ورد الجنة ، يسكنها الذين هَمّوا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجلّ راقبوه ، فانثنت رقابهم من خشية الله عز وجل[2] .

وفي المقابل يقول ابن قيم الجوزية :

ذكر عبد الملك بن قريب قال : هويَ رجلٌ من النساء جارية فاشتد حبه لها ، فبعث إليها يخطبها ، فامتنعت ، وأجابته إلى غير ذلك[3] ، فأبى وقال : لا ، إلّا ما أحلّ الله ، ثم إن محبّته ألقيت في قلبها ، فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله ، لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ، ودعتني إلى معصيته[4] .

والجزاء من جنس العمل .

قصة ابن عقيل مع العقد :

قال الحافظ الذهبي :

---

(١) ، (٢) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٤٤٣ - ٤٥٠ .

(٣) أي امتنعت عن الزواج ، وأجابته إلى الوصل الحرام .

(٤) روضة المحبين ص ٤٥٤ .

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : حكى ابن عقيل عن نفسه قال : حججت ، فالتقطت عقد لؤلؤٍ في خيط أحمر ، فإذا شيخ أعمى ينشده ، ويبذل لملتقطه مائة دينار ، فرددته عليه ، فقال : خذ الدنانير. فامتنعت ، وخرجت إلى الشام ، وزرت القدس ، وقصدت بغداد ، فأويت بحلب إلى مسجدٍ وأنا بردان جائع، فقدموني، فصليت بهم، فأطعموني، وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا تُوفي فصلِّ بنا هذا الشهر ، ففعلت ، فقالوا : لإمامنا بنت ، فزُوجت بها ، فأقمت معها سنة ، وأولدتها [ولدًا ذكرا]، فمرضت في نفاسها، فتأملتها يومًا فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر ، فقلت لها : لهذا قصة ، وحكيت لها ، فبكت . وقالت : أنت هو والله ، لقد كان أبي يبكي . ويقول : اللهم ، ارزق بنتي مثل الذي ردّ العقد عليّ، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث، وعدت إلى بغداد[1] .

والجزاء من جنس العمل .

كنت مجاورًا بمكة - حرسها الله تعالى - فأصابني يومًا من الأيام جوع شديد ، لم أجد شيئًا أدفع به عني الجوع ، فوجدتُ كيسًا من إبريسم مشدودًا بشرابة من إبريسم أيضًا ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أر مثله ، فخرجت فإذا الشيخ ينادي عليه ، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار وهو يقول : هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ ، فقلت : أنا محتاج ، وأنا جائع ، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به ، وأرد عليه الكيس ، فقلت له : تعال إليّ ، فأخذته وجئت به إلى بيتي ، فأعطاني علامة الكيس ، وعلامة الشرابة ، وعلامة اللؤلؤ وعدده ، والخيط الذي هو مشدود به ، فأخرجته ودفعته إليه ، فسلم إلي خمسمائة دينار ، فما أخذتها ، وقلت : يجب عليّ أنْ أعيده إليك ولا آخذ له جزاء ، فقال لي:لابد أن تأخذ . وألحَّ عليّ كثيرا ، فلم أقبل ذلك منه ، فتركني ومضى .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٤٤٩ - ٤٥٠) .

وأما ما كان مني : فإني خرجت من مكة وركبتُ البحر ، فانكسر المركب وغرق الناس ، وهلكت أموالهم ، وسلمت أنا على قطعة من المركب ، فبقيت مدة في البحر لا أدري أينِ أذهب ، فوصلت إلى جزيرة فيها قوم ، فقعدت في بعض المساجد ، فسمعوني أقرأ ، فلم يبقَ في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال : علمني القرآن . فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال .

قال : ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقًا من مصحف ، فأخذتها أقرأ فيها . فقالوا لي : تحسن تكتب ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : علمنا الخط ، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب ، فكنت أعلمهم ، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير ، فقالوا لي بعد ذلك : عندنا صبية يتيمة ، ولها شيء من الدنيا نريد أن تتزوج بها ، فامتنعت فقالوا : لابد . وألزموني فأجبتهم إلى ذلك . فلما زفوها إليّ مددت عيني أنظر إليها ، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقًا في عنقها ، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه ، فقالوا : يا شيخ ، كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد ، ولم تنظر إليها . فقصصت عليهم قصة العقد ، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير ، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة ، فقلت : ما بكم ؟ فقالوا : ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية ، وكان يقول : ما وجدتُ في الدنيا مسلمًا إلا هذا الذي ردّ علي هذا العقد ، وكان يدعو ويقول : اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي ، والآن قد حصلت ، فبقيت معها مدة ورزقت منها بولدين . ثم إنها ماتت ، فورثت العقد أنا وولداي ، ثم مات الولدان فحصل العقد لي فبعته بمائة ألف دينار ، وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال[1] .

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ١٩٦ - ١٩٨) .
وقد ذكر هذه القصة الشيخ الطحان في شريط له بعنوان : الجزاء من جنس العمل ، ثم ذكر نفس القصة عن أبي بكر الحيري من تلامذة الخطيب البغدادي في القرن الخامس الميلادي في شريط : اشتراط الدين في الزواج .

هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل الحافظ في معجمه ، وساقها ابن النجار في تاريخه ، وقال : هي حكاية عجيبة . وأظنُّ القاضي حكاها عن غيره . وقد ذكرها أبو المظفر سبط بن الجوزي في تاريخه ، في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل .

ولكن أبا المظفر ليس بحجة فيما ينقله ، ولم يذكر للحكاية إسنادًا متصلًا إلى ابن عقيل ، ولا عزاها إلى كتاب معروف ، ولا يعلم قدوم ابن عقيل إلى الشام ، فنسبتها إلى القاضي أبي بكر الأنصاري أنسب والله أعلم اهـ .

قصة زواج المبارك والد الإمام عبد الله بن المبارك :

يحكي الشيخ الطحّان في شريط له عن اشتراط الدين في الزواج :

إن المبارك كان عبدًا رقيقًا أعتقه سيده ، ثم اشتغل أجيرًا عند صاحب بستان ، وفي ذات يوم خرج صاحب البستان مع أصحاب له إلى البستان ، وقال للمبارك : ائتنا برمان حلو ، فقطف رماناتٍ ثم قدمها إليهم فإذا هي حامضة ، فقال صاحب البستان : أنت ما تعرف الحلو من الحامض ، قال : لم تأذن لي أن آكل حتى أعرف الحلو من الحامض .

فقال له : أنت من كذا وكذا سنة تحرس البستان وتقول هذا . وظن أنه يخدعه، فسأل الجيران عنه فقال: ما أكل رمانة واحدة. فقال له صاحب البستان: يا مبارك. ليس عندي إلا ابنة واحدة فلمن أزوجها ؟ فقال له : اليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، والعرب للحسب، والمسلمون يزوجون للتقوى، فمن أي الأصناف أنت زوّج ابنتك للصنف الذي أنت منه . فقال : وهل يوجد أتقى لله منك ، ثم زوجه ابنته .

سبحان الله عفّ المبارك عن رمّانة من البستان فسيق إليه البستان وصاحبته ، والجزاء من جنس العمل ، ومن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرًا منه ، ومن هذا البيت خرج عبد الله بن المبارك الذي كان يقول : لأن أرد درهمًا من شبهة خير لي من أن أتصدق بمائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ... حتى عد ستمائة ألف

درهم ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا ﴾ [الأعراف : ٥٨] والد يتنزه عن الشبهات ، وكذا ابنه الإمام .

من كان لله كما يريد كان الله له كما يريد .

فوق ما يريد

طالب علم بالأزهر :

يقول الشيخ الطحان : من صبر على شيء لله عوّضه الله خيرًا منه ، يروي مشايخنا أن طالبًا من طلاب الأزهر قدم من بلاد الصعيد أيام كان الأزهر أزهرَ ، فجلس في حلقة شيخه ، وتأخرت نفقته من الصعيد ، ففارق حلقة الشيخ عساه يحصّل كسيراتٍ من الخبز ولقيمات يقتات بها ويتقوّى عليها ، فبينا هو يسير إذ دخل في شارع ضيق ، فوجد بابًا مفتوحًا ، ووجد خزانة من طعام ، فمدّ يده إلى الطعام ، وكان من المحشي ، ثم بعد أن تناول قطعة منه ووضعها في فمه تذكر أنه جاء ليطلب العلم ، والعلم نور ، والأكل من هذا الطعام دون أن يستحل صاحبه يظلم القلب ، ولا يمكن أن يجتمع النور والظلمة ، وسيطرد أحدهما الآخر ، فترك هذا الطعام ، وعاد لحلقة شيخه وبه من الجوع ما لا يعلمه إلا الله ، وبعد أن انتهى الدرس إذا بامرأة تأتي ، وتكلم الشيخ كلامًا لم يفهمه الحاضرون ، ثم قال الشيخ لطالب العلم هذا : يا عبد الله ، ألك رغبة في الزواج ؟ فقال : أتهزأ بي ، والله من ثلاثة أيام ما دخل جوفي طعام ، فكيف أتزوّج ؟

قال الشيخ : إن هذه المرأة تذكر أن زوجها تُوفي ، وترك بنتًا واحدة ، وكان ذا ثروة ومال كثيرٍ ، وتريد أن يتزوج ابنتها رجلٌ صالح ، يعيش معها ومع ابنتها ، وينمّي المال ويرعاه . فقال : إن كان كذلك فلا بأس . فخرج الشيخ والتلميذ والمرأة والحاضرون يسيرون حتى دخلوا البيت الذي دخله هذا الشاب من قبل، فلمّا وضع الطعام بكى هذا الشاب ، فقال له الشيخ : لِمَ تبكي ؟ هل أكرهناك على الزواج ؟ قال : لا ، ولكنني قبل سويعات دخلت هذا البيت لآكل من هذا الطعام الذي وضع بين أيدينا ، فتذكرت أنه حرام فتركته لله ، فأعاده الله إليّ ، ومعه غيره عن طريق حلال . ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

والجزاء من جنس العمل .

من آذت زوجها :

قال رسول الله ﷺ: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[١].

كما آذت زوجها دعت عليها زوجته من أهل الجنة ، والجزاء من جنس العمل .

يقول ﷺ : « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح أن يسجد بشر لبشر ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقِّه عليها ، والذي نفسي بيده ، لو أن من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس[٢] بالقيح والصديد ، ثم أقبلت تلحسه بلسانها ، ما أدّت حقه »[٣] .

وقال ﷺ: «لو تعلم المرأة حقَّ الزوج، لم تقعد ما حضر غداؤه وعشاؤه حتى يفرغ منه»[٤] .

من كانت عنده امرأتان :

قال ﷺ : « إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وشقه ساقط »[٥] .

وقال ﷺ : « من كان له امرأتان ، فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وشقه مائل »[٦].

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) رواه أحمد في مسنده، والترمذي عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٦٩.

(٢) تنفجر .

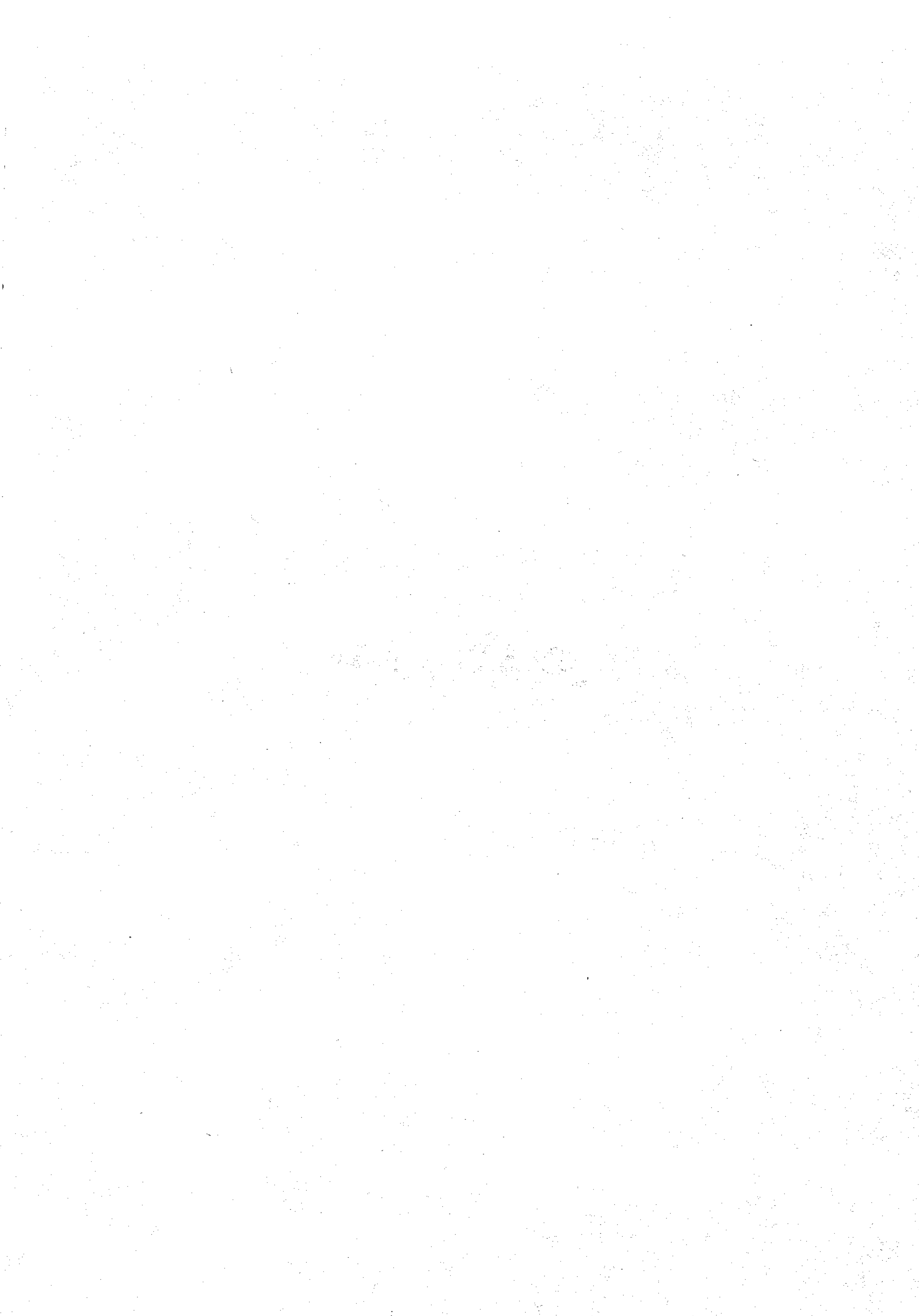
(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٠٢.

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن معاذ ، وكذا رواه البزار ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٣٥ .

(٥) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٧٧٣.

(٦) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه الطيالسي والحاكم وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٣٩١ .

مكارم الأخلاق



□ مكارم الأخلاق □

أخي، لقد امتدح الله نبيه ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم : ٤] .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »(١) .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٢) .

والتزكية ربع الرسالة المحمدية ، قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ... ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩] .

ووصف الله بالفلاح مَنْ زكّى نفسه فقال : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس : ٩] .

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها»(٣).

وقال ﷺ : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها »(٤).

قال المناوي :

« إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها » وهي الأخلاق الشرعية ، والخصال الدينية ، لا الأمور الدنيوية ، فإن العلو فيها نزول ، ويبغض حقيرها ورديئها ، فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه ، ومَنْ تحلّى بالأوصاف الرديئة

---

(١) صحيح : رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٢) صحيح :

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٥ .

كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك[١] .

١ - كظم الغيظ

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الناس إلى الله أنفعهم ، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديْنا ، أو تطرد عنه جوعًا ، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ، ومن كفّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة ، ومَنْ مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلّ الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل »[٢] .

قال المناوي :

« مَنْ كفَّ غضبه ستر الله عورته »[٣] من منع نفسه عند هيجان الغضب عن أذى معصوم ، فعاجل ثوابه أن يستر عورته في الدنيا ، ومَنْ ستره فيها لا يهتكه في الآخرة ولا يعذبه بنارها ؛ لأن من وراء الستر الرضا ، والنار إنما تلظت لغضبه ، فإذا كف العبد غضبه ستر الله عورته ، وأما ما صح أن موسى اغتسل عريانًا فوضع ثوبه على حجر في خلوة ففرّ به حجر فعدا وراءه ، يقول : ثوبي يا حجر ، ويضربه بعصاه ، حتى أثرت فيه ، فهو ضرب تأديب لا انتقام[٤] اهـ.

---

(١) فيض القدير (٢ / ٢٩٥) .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في : قضاء الحوائج . والطبراني في الكبير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩٠٣ .

(٣) عند ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، قال الزين العراقي : إسناده حسن. انظر فيض القدير (٦ / ٢١٧) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٦ / ٢١٧) .

وكظم الغيظ هو الإمساك عنه ، والكف عن إمضائه ، من كظمت القربة إذا شددت رأسها « ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه رضي يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة »(١) .

وأي رضا ، وأي رجاء فوق زواجه من الحور العين من يشاء منهن .

قال ﷺ : « من كتم غيظا ، وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ ، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يُخيره من الحور العين ، يزوجه منها ما شاء »(٢) .

خرج زين العابدين علي بن الحسين يومًا من المسجد ، فسبّه رجل ، فانتدب الناس إليه فقال : دعوه . ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ، فألقى زين العابدين إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

ونال منه رجل يومًا ، فجعل يتغافل عنه – يريه أنه لم يسمعه – فقال له الرجل : إياك أعني ! فقال له علّي : وعنك أغضي !

قال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماءً ليتوضأ ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله يقول: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿**والعافين عن الناس**﴾ فقال : عفا الله عنك ، فقالت : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال :

---

(١) صحيح .

(٢) حسن : رواه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وأبو نعيم في الحلية،وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٣٩٤ .

أنت حرة لوجه الله تعالى .

وروى ابن أبي الدنيا أن غلامًا سقط من سفود ، وهو يشوي شيئًا في التنور ، على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعًا ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه[١] .

٢ - الرفق والرحمة

لتكن الرحمة سجيتك والرفق خلقك ، أما تحب أن يرحمك الله .

قال ﷺ : « ارحم من في الأرض ، يرحمك مَنْ في السماء »[٢] .

وقال ﷺ : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون »[٣] .

وقال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٤] .

قال المناوي :

« ارحم من في الأرض » يشمل جميع أصناف الخلائق ، فيرحم البر والفاجر ، والناطق والمبهم ، والوحش والطير .

---

(١) مجلة الرائد العدد رقم ١٣٧ ص ٥٩ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن جرير ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، والطيالسي ، والطبراني في الأوسط ، والطبراني في الصغير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٠٩ وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي ، وصححه السيوطي ، وقال ابن حجر : رواته ثقات .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩١٠ .
قال الزين العراقي : إسناده جيد ، وكذا قال المنذري ، ورمز السيوطي لصحته .

(٤) حسن : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جرير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٧٧ .

قال الحراني: والرحمة تحلة ما يوافي المرحوم في ظاهره وباطنه، أدناه كشف الضر وكشف الأذى، وأعلاه الاختصاص. وفيه ندب إلى العطف على جميع أنواع الحيوان، وأهمها وأشرفها الآدمي المسلم، والكافر المعصوم، فيعطف عليهم بالمواساة والمعونة والمواصلة ، فيوافق عموم رحمة الله للكلّ بالإرفاق وإدرار الأرزاق .

قال وهب : من يَرْحم يُرحَمْ ، ومن يصمت يَسْلَم ، ومن يجهل يُغْلَب ، ومَنْ يعجل يخطىء ، ومَنْ يحرص على الشر لا يسلم ، ومن يكره الشر يعصم .

وقال عيسى عليه السلام : لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب ، انظروا فيها كأنكم عبيد، إنما الناس مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية .

وهنا دقيقة : وهي أن العارف المرصفي ، قال : يجب على الفقير إذا تخلّق بالرحمة على العالم ألّا يتعدى بالرحمة موطنها ، فيطلب أن يكون العالم كله سعيدًا ، فإنه تعالى يقول : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين** ﴾ [هود : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ما يبدل القول لديّ** ﴾ [ق : ٢٩] .

ولقد ندب الشارع إليها في كل شيء حتى في قتال الكفار(١)، والذبح، وإقامة الحجج ، وغير ذلك(٢) .

قال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٣) . وزاد أحمد والترمذي والحاكم : « والرحم

---

(١) من رحمة نسائهم وأطفالهم ، وإلا فالله تعالى يقول : ﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : ٧٣] ، [التحريم : ٩] .

(٢) فيض القدير (١ / ٤٧٣ - ٤٧٤) .

(٣) صحيح: رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥١٦ .

شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

قال المناوي :

الراحمون لمن في الأرض من آدمي ، وحيوان لم يؤمر بقتله ، بالشفقة والإحسان والمواساة والشفاعة وكف الظلم ، ثم بالتوجع والتوجه إلى الله ، والالتجاء إليه والدعاء بإصلاح الحال ، ولكل مقام مقال .

قال العارف البوني : فإن كان لك شوق إلى الرحمة من الله ، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك ، ولا تستبد بخيرك ، فارحم الجاهل بعلمك ، والذليل بجاهك ، والفقير بمالك ، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك ، والعصاة بدعوتك ، والبهائم بعطفك ورفع غضبك ، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه ، فكل ما يفعله من خير دقّ أوجل فهو صادر عن صفة الرحمة .

قد أمر الراحم أن يبدأ بنفسه فيرحمها ، فمنْ رحمها سلك بها سبيل هداها ، وحال بينها وبين هواها ، فإنه رحم أقرب جار إليه ، ورحم صورة خلقها الله على صورته ، فجمع بين الحُسْنَيَيْن ، ولذلك أمر الداعي أن يبدأ بنفسه في الدعاء .

قال ابن عساكر :

بادر إلى الخير ياذا اللبِّ مغتنمًا ولا تكن من قليل الخير محتشمَا
واشكر لمولاك ما أولاك من نِعَم فالشكر يستوجب الإفضال والكرمَا
وارحم بقلبك خلقَ الله وارعهمُ فإنما يرحم الرحمن مَنْ رحمَا

تنبيه :

قال العلامة الجويني في ينابيع العلوم :

حكمة إتيانه بالراحمين جمع راحم دون الرحماء جمع رحيم ، وإن كان غالب ما ورد من الرحمة استعمال الرحيم لا الراحم ؛ لأن الرحيم صفة مبالغة ، فلو عبّر بجمعها اقتضاء الاقتصار عليه ، فعبر بجمع راحم ؛ إشارة إلى أن العباد منهم مَنْ قلّتْ رحمته ، فيصحّ وصفه بالراحم لا الرحيم ، فيدخل في ذلك ، ثم أورد على نفسه حديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : إن له جوابًا

حقه أن يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب ، وهو : أن لفظ الجلالة دال على العظمة والكبرياء ، ولفظ الرحمن دالّ على العفو بالاستقراء ، وحيث ورد لفظ الجلالة يكون الكلام مسوقًا بالتعظيم ، فلما ذكر لفظ الجلالة في قوله : « إنما يرحم الله » لم يناسب معها غير ذكر من كثرت رحمته وعظمت ؛ ليكون الكلام جاريا على نسق العظمة ، ولما كان الرحمن يدل على المبالغة في العفو ، ذكر كل ذي رحمة وإنْ قلّت[(١)] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »[(٢)] .

وقال ﷺ : « من لا يَرحَم لا يُرحم »[(٣)] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يُرحم ، ومَنْ لا يَغْفِر لا يُغفرُ له »[(٤)] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له ، ومَنْ لا يتُبْ لا يُتبْ عليه »[(٥)] .

قال المناوي :

الجزاء من جنس العمل ، فمن رحم خلق الله رحمه الله . قال الزين العراقي : وجاء في رواية تقييده بالمسلمين ، فهل يحمل إطلاق الناس على التقييد أو الأمر أعم ؟ ورحمة كل أحد بحسب ما أذن فيه الشارع ، فإن كانوا أهَل ذمة فيحفظ لهم ذمتهم ، أو حربيين دخلوا بإذن فيحفظ لهم ذلك ، لا أن المراد بالرحمة مودتهم وموالاتهم .

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٢ - ٤٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم وأحمد والترمذي عن جرير ، وأحمد والترمذي عن أبي سعيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي ، وأبو داود عن أبي هريرة ، والبخاري ومسلم عن جرير .

(٤) رواه أحمد عن جرير .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن جرير .

قال ﷺ : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه مَنْ في السماء »[١] .

من تمام الرحمة : إيثار الأطفال بذلك لضعفهم ، وتوقير الكبير لسنه[٢].

كان الزمخشري في طفولته ، يحبس طائرًا في بيته ، فأتى هذا الطائر وقطع الحبل فنشبت رجله ، فانقطعت مع الحبل ، وذهب الطائر برجل واحدة ، قالت أم الزمخشري له : قطع الله رجلك ، كما قطعت رجل هذا الطائر ، فذهب ، فوقع في الثلج في طريقه إلى مكة ، فكسرت من فخذه ، وأصبح على رجل واحدة[٣] .

نقل ابن خلّكان أن الكندي قال : كنت قاعدا على باب ابن الخشاب ، وقد خرج من عنده الزمخشري ، وهو يمشي في جاون خشب ؛ سقطت رجله من الثلج[٤] .

وقد مرّت بك قصة محمد بن عبد الملك الزّيات .

وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة »[٥].

قال المناوي :

وخص العصفور بالذكر ، لكونه أصغر مأكول ينذبح ، وإذا استلزمت رحمته رحمة الله مع حقارته وهوانه على الناس ، فرحمة ما فوقه سيما الآدمي أولى .

---

(١) إسناده جيد : قال المناوي : رواه الطبراني في الكبير من طريق جرير بن عبد الله ، ورمز المؤلف – السيوطي – لحسنه ، وكان حقه الرمز لصحته ؛ فقد قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال المنذري : إسناده جيد قوي .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٣٩ – ٢٤٠) .

(٣) شريط : كتب في الساحة الإسلامية . للشيخ عائض القرني .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٧) .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب ، والطبراني في الكبير ، والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٣٧ .

وأفاد معاملة الذبيحة حال الذبح بالشفقة والرحمة وإحسان الذبحة ، كما ورد مصرَّحًا به في عدة أخبار[١] .

وقال ﷺ : «من فرّق بين والدة وولدها؛ فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[٢].

فالتفريق بين الأمة وولدها بنحو البيع أو الهبة حرام شديد التحريم عند الشافعي وأبي حنيفة ومالك ، بشرط كونه قبل التمييز عند الشافعي ، وقبل البلوغ عند أبي حنيفة وكذا مالك في رواية ابن غانم عنه ، وفي رواية عنه : يجوز قبل أن يثغر ، وسواء رضيت الأم أم لا عند الشافعي ، وقال مالك : يجوز برضاها ، وذهب بعض الأئمة إلى منع التفريق بينهما مطلقًا ، وقال كما قال ابن العربي : إنه ظاهر الحديث ؛ لأنه لم يفرّق بين الوالدة وولدها بلفظ « بين » ، وفرّق في جوابه حيث كرر « بَيْن » في الثاني ؛ ليدل على عظم هذا الأمر ، وأنه لا يجوز التفريق بينهما في اللفظ بالبيع ، فكيف التفريق بين ذواتيهما ؟ ذكره جمع[٣] .

وعن أنس - رضي الله عنه - أن امرأة دخلت على عائشة ، ومعها صبيّان لها ، فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي تمرة ، فأكلا تمرتيهما ، ثم نظرا إلى أمهما ، فأخذت التمرة فشقتها نصفين ، فأعطت ذَا نصفًا وذَا نصفًا . فدخل النبي ﷺ، فأخبرته عائشة فقال: «ما أعجبك مِنْ ذلك؟ فإن الله قد رحمها برحمة صبيّيها»[٤].

اسمحْ لِيُسْمَح لك :

قال ﷺ : « اسمحوا يُسمح لكم »[٥] .

---

(١) فيض القدير (٦ / ١٣٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٨ . وضعفه ابن حجر والسخاوي .

(٣) فيض القدير (٦ / ٧١٧) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، وأخرجه أحمد .

(٥) صحيح : رواه عبد الرزاق في الجامع مرسلا ، ورواه ابن عساكر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٩٢ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١٤٥٦ .

وقال ﷺ : « اسمح يُسمح لك »[١] .

قال المناوي :

« يُسمح لك » بالبناء للمفعول ، والفاعل الله ؛ أي عامل الخلق الذين هم عيال الله وعبيده بالمسامحة ، يعاملك سيدهم بمثله في الدنيا والآخرة[٢] .

الرفق في الأمور كالمسك في العطور :

قال ﷺ : « من يُحَرم الرفق يُحْرَم الخير كله »[٣] .

قال المناوي :

فيه فضل الرفق وشرفه، ومن ثم قيل: الرفق في الأمور كالمسك في العطور.

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها ، فشرب منها ، ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر ، فملأ خُفَّه ماءً ، ثم أمسك بفيه ، ثم رَقَي ، فسقى الكلب ، فشكر اللهُ ، فغفر له ، في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبة أجر »[٤] .

وقال ﷺ : « بينما كلب يُطيف[٥] برَكيّة[٦] ، كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها[٧] ، فاستقت له به ، فغفر لها به »[٨] .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) فيض القدير للمناوي : (٥١٢/١) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة عن جرير .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، ومالك ، وأحمد ، وأبو داود عن أبي هريرة .

(٥) يطيف : يدور .

(٦) ركية : بئر .

(٧) موقها : خُفّها الذي تلبسه في قدميها .

(٨) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « غفر لامرأة مومسة ، مرّت بكلب على رأس ركي يلهث ، كاد يقتله العطش ، فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك »[١] .

مَنْ ضارّ ضارّ الله به :

قال ﷺ : « من ضارّ ضارّ الله به ، ومن شاقّ شاقّ الله عليه »[٢] .

قال المناوي :

« مَنْ ضارّ » أي أوصل ضررًا إلى مسلم بغير حق .

« ضارّ الله به » أي أوقع به الضرر البالغ ، وشـدَّد عليه عقابه في العقبى .

« ومن شاقّ » أي أوصل مشقة إلى أحد بمحاربة أو غيرها .

« شق الله عليه » : أي أدخل عليه ما يشق عليه ، مجازاة له على فعله بمثله ، وأطلق ذلك ؛ ليشمل المشقة على نفسه وعلى الغير بأن يكلف نفسه أو غيره بما هو فوق طاقته[٣] .

٣ - التواضع

هي النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها .

وقال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكِبْر مع الأدب والسخاء ، فأنبل بحسنة غطّت على سيئتين ، وأقبح بسيئة غطت على حسنتين .

كيف يزهو مَنْ رجيعه ... أبـد الدهر ضجيعـه

والتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجة عن أبي صرمة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٤٨ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٧٣) .

أفعال الجوارح ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [القلم : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾[١] [طه : ١٠٨] .

قال ابن السماك للرشيد : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك .

وقال جعفر بن محمد : من أنصف الناس من نفسه قُضي به حكمًا لغيره .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما رأيتُ امرأً إلا رأيت له الفضل عليّ ، لأني من نفسي على يقين ، وأنا من الناس على شك[٢] .

قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله »[٣] .

قال المناوي :

«من تواضع» لأجل عظمة «الله» تواضعًا حقيقيًّا ناشئًا عن شهود عظمه الحق. فالتواضع للناس مع اعتقاد عظمة في النفس واقتدار ، ليس بتواضع حقيقي ، بل هو بالتكبر أشبه. «رفعه الله» لأن من أذل نفسه لله فيجازيه الله بأحسن ما عمل.

قال ابن الحاج : فمن أراد الرفعة فليتواضع لله ، فإن الرفعة لا تقع إلا بقدر النزول ، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أسفل الشجرة صعد إلى أعلاها ، كأن سائلا سأله : ما صعد بك هاهنا وأنت قد نزلت تحت أصلها ، فقال لسان حاله : « من تواضع لله ، رفعه الله »[٤] .

وقال ﷺ : « اعلم أنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفع الله لك بها درجة ، وحطّ

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ، تحقيق د . أبي اليزيد العجمي ص٢٩٩ - ٣٠٢ طبع الوفاء ودار الصحوة .

(٢) نزهة المجالس، وأنس المُجالِس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر ، ص ٤٤٤- ٤٤٥ طبع مكتبة ابن تيمية .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٨ . وعند مسلم وأحمد : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٠٨) .

عنك بها خطيئة »[١] .

من تواضع لله رفعه ، والجزاء من جَنس العمل .

وأي رفعة فوق القرب من الله ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ [العلق : ١٩] .

إلا رفع الله لك بها درجة ، أي منزلة عالية المقدار . فأكثر من الصلاة ترفع درجاتك ، وتمحى عنك سيئاتك .

قال الجنيد : ليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود ، ولهذا قال المصطفى ﷺ لمن سأله أن يشفع له وأن يكون معه في الجنة « أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود »[٢] .

وقال ﷺ : « ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمة بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبّر قيل للملك : دع حكمته »[٣] .

قال المناوي :

«إلا في رأسه حكمة»: ما يجعل تحت حنك الدابة ، يمنعها المخالفة كاللجام ، والحنك متصل بالرأس . « بيد مَلَك » موكل به ، فإذا تواضع للحق والخلق « قيل للملك » مِنْ قِبَلِ الله تعالى : « ارفع حكمته » أي قدره ومنزلته ، يقال : فلان عالي الحكمة ، فرفعها كناية عن الإعذار . « فإذا تكبر قيل للملك : دع حكمته » كناية عن إذلاله ، فإن صفة الذليل تنكيس رأسه .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في الأدب عن عبد الرحمن بن عوف ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٨٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٢ / ٨) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٥٥١ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ .

فثمرة التكبر في الدنيا الذِّلَّة بين عباد الله ، وفي الآخرة طينة الخبال ، وهي عصارة أهل النار[(١)] .

عن ابن مسعود- رضي الله عنه-:من تطاول تعظيمًا خفضه الله عز وجل، ومن تواضع لله تخشعًا رفعه الله[(٢)] .

٤ - الحياء

أول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، أما الوقاحة مذمومة بكل لسان ، إذ هي انسلاخ من الإنسانية ، واشتقاقها من حافر وقاح أي صلب .

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة فأقدّ منها حافرًا للأشهب

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكمل فيه الشر واجتمعَا

وعلى الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصور أجلّ مَنْ في نفسه حتى كأنه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه .

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة : البشر ، وهم أكثر من يستحي منه ، ثم نفسه ، ثم الله عز وجل .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه عنده أخس من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ، ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يستعظمه »[(٣)] .

قال ابن القيم: وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء . وقلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٤٦٦ - ٤٦٧) .

(٢) الزهد لابن حنبل (٢ / ١٠٥) .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

قال يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب ، وهذا الكلام يحتاج إلى شرح،ومعناه : أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته . فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحٍ خجل . فإنه إذا واقع ذنبا استحيا الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه ، فيستحي أن يرى مِنْ وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده . وفي الشاهد شاهد بذلك . فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به ، وأحبهم إليه - من صاحب ، أو ولد ، أو مَنْ يحبه - وهو يخونه ؛ فإنه يلحقه من ذلك الإطلاع عليه حياء عجيب ، حتى كأنه هو الجاني وهذا غاية الكرم .

وأما حياء الرب تعالى من عبده : فذاك نوع آخر . لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حيي كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام .

وكان يحيى بن معاذ يقول : سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو . وفي أثر : من استحيا من الله استحيا الله منه »[1] والجزاء من جنس العمل .

وكقوله ﷺ في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : « أما أحدهم فأقبل فأقبل الله عليه . وأمَّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه » .

« استحيوا من الله تعالى حق الحياء ، مَنِ استحْيا الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوىْ، وليذكر الموت والبِلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٩ - ٢٦١) .

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٩٤٨ .

وقال ﷺ : « إن لكل دين خلقًا ، وإن خلق الإسلام الحياء »[١] .

وقال ﷺ : « ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه ، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه »[٢] .

وقال ﷺ: «الحياء والإيمان قرنا جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[٣].

وقال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير »[٤] .

وقال ﷺ : « الحياء خير كله »[٥] .

قال بعض الحكماء : من كسا الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه .

قال المناوي :

بهذا الحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة ، وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تناسب فكل يستدعي الآخر ، ويطلبه حثيثًا ، ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا من عقوبته عند لقائه ، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته[٦] .

والجزاء من جنس العمل . ومن استحيا من الله استحيا منه الصالحون .

٥ - العفة

هي أس الفضائل من القناعة والزهد وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يعفي

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس وابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢١٤٥.

(٢) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي ، وابن ماجة عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٥ .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٦) فيض القدير للمناوي (٦ / ٤٢٧ - ٤٢٩) .

على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومَنْ اتسم بسمة العفّة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهّلتْ له سبيل الوصول إلى المحاسن .

ولا يكون الإنسان تام العفّة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ، وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع ، دون الشهوة والهوى .

واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفًا إلا بشرائط ، وهي ألا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه ، أو لأنه لا يوافقه ، أو لجمود شهوته ، أو لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير عارف به لقصوره ، فإن ذلك كله ليس بعفّة بل هو إمّا اصطياد ، أو تطبب ، أو مرض ، أو خرم ، أو عجز ، أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عند الغضب ، ولهذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ[1] .

قال ﷺ: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفّوا عن النساء تعف نساؤكم»[2] .

قال المناوي :

« بروا آباءكم وأمهاتكم » وكأنه اكتفى به عنه من قبيل ﴿ **سرابيل تقيكم**

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في الكبير ، والخطيب في تاريخ بغداد . والطبراني في الأوسط ، والحديث مروي عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجابر وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه . اهـ . وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا وحول الحديث كلام كثير ، وأمثل طرقه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

الحر ﴾ وأراد بالآباء ما يشمل الأمهات تغليبًا كالأبوين ، فإنكم إن فعلتم ذلك تبرُّكم أبناؤكم ، وكما تدين تدان . وعفّوا عن نساء الناس فلا تتعرضوا لمزاناتهم ، فإنكم إن التزمتم ذلك تعف نساؤكم عن الرجال الأجانب ، لما ذكر .

قال الراغب : دخلت امرأة يزيد بن معاوية وهو يغتسل فقالت : ما هذا ؟ قال : جلدت عميرة ، ثم دخل وهي تغتسل ، فقال : ما هذا ؟ قالت : جلدني زوج عميرة[1] .

عفّوا تعفّ نساؤكم في المحرمِ	وتجنبوا ما لا يليق بمسلمِ
ياهاتكًا سبلَ الرجال وقاطعًا	سبل المودة عشت غير مكرمِ
لو كنت حرًا من سلالة ماجدٍ	ما كنت هتّاكًا لحرمةِ مسلمِ
مَنْ يزنِ يُزن به ولو بجداره	إن كنت يا هذا لبيبًا فافهمِ
مَنْ يزنِ في بيت بألفيْ درهم	في بيته يزنى بغير الدرهمِ

قيل لأبي بكر المسْكي : إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه ؟ فقال : والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك ، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب ، وراودتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل ، فقلت لها : إن لي حاجة إلى الطهارة . فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة ففعلت ، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمي ، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة فلما رأتني دَهَشَت ، ثم أمرت بإخراجي ، فمضيت واغتسلت ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلًا يقول لي : فعلت ما لم يفعله أحدٌ غيرك ، لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة . فأصبحت والمسك يفوح مني ، واستمر ذلك إلى الآن[2] .

---

(١) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .

(٢) المواعظ والمجالس لابن الجوزي ص ٢٢٤ ، طبع دار الصحابة للتراث .

٦ - محبة المؤمنين

عظم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبة بين أهل الملة فقال تعالى : ﴿ **وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألف بينهم** ﴾ [الأنفال : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعل لهم الرحمن ودًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] .

أخي ، كلك لأخيك إلا ما حرّمه الله ورسوله ، ولا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا إلّا ما حرمه الله ورسوله .

وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا ، وإذا تواصلوا تعاونوا ، وإذا تعاونوا عملوا ، وإذا عملوا عمروا ، وإذا عمروا عمروا[١] .

قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الغائب لغائب ، قال له الملك : ولك بمثل ذلك »[٢] .

وقال ﷺ : « من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله »[٣] .

قال المناوي :

ظاهره يشمل الغائب عن البلد وهو المسافر ، وعن المجلس قال له الملك الموكل بنحو ذلك « ولك مثل ذلك » أي أدعو الله أن يجعل لك بمثل ما دعوت به لأخيك[٤] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « زار رجل أخًا له في قرية فبعث الله له مَلَكا على مدرجته ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخًا لي في هذه القرية . فقال : هل له عليك من نعمة

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٦٤ .

(٢) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩ .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي عن أبي الدرداء .

(٤) فيض القدير للمناوي (١ / ٣٤٣) .

تَرُبُّها ؟ قال : لا ، إلّا أني أحبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته »[١] .

قال الذهبي :

وهو من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت ، وشاهده في القرآن وفي الحديث كثير ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران: ٢٣١] وقال: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلًا**﴾ [النساء: ١٢٥] لما أحبوا المؤمنين أحبهم الله .

لما أحبوا ربهم أحبهم الله ، والجزاء من جنس العمل .

٧ - الصبر

إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو ، وصارمًا لا ينبو ، وجندًا لا يهزم ، وحصنًا حصينًا لا إيثلم .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة »[٢] .

وروى البخاري وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - يريد عينيه - ثم صبر عوضته منهما الجنة » .

وعن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا سلبت من عبدي كريمتيه ، وهو بهما ضنين ، لم أرض له بهما ثوابًا دون الجنة ، إذا حمدني عليهما »[٣] .

قال المناوي :

إن السرور يكنى عنه بقرة العين لما يشاهد المحبوب ، ويكنى عن الحزن بسخونها للمفارقة عنه .

---

(١) رواه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وابن حبان عن ابن عباس ، وأحمد عن أبي أمامة .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن العرباض ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٠ .

« عوضته منهما الجنة » أي دخولها ؛ لأن فاقدهما حبيس ، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة ، فياله من عوض ما أعظمه والالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها .

قال الطيبي : ثم للتراخي في الرتبة ؛ لأن ابتلاء اللهِ العبدَ نعمة ، وصبره عليها مقتضٍ لتضاعف تلك النعمة .

وقال أيضًا : أحب أعضاء الإنسان إليه يحصل له بفقدهما من الأسف على فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به . وقيل : إن أول من يعطيهم الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم ، ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم : أنتم أحرى من ينظر إلينا ، ثم يستحي الله تعالى منهم ويقول لهم : اذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ، وتجعل بيد شعيب عليه السلام ، فيصير إمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصي عددهم إلا الله ، يزفونهم كما تزف العروس ، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف ، هذا فيمن صفته الصبر والحلم كابن عباس ، ومن ضاهاه من الأمة .

لما أصيب ابن عباس ببصره أنشد :

إنْ يذهبِ اللهُ من عينيّ نورهما   ففي لساني وقلبي للهدى نورُ
عقلي ذكّي وقولي غير ذي خطل   وفي فمي صارم كالسيف مأثور(١)

٨ - ترك السؤال

قال ﷺ: «مَنْ يتقبل لي بواحدة، أتقبل له بالجنة لا يسأل الناس شيئًا»(٢).
وقال ﷺ : « من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة »(٣) .

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩) .
(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي وابن ماجة عن ثوبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٩ .
(٣) صحيح: رواه الحاكم وأبو داود عن ثوبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٠.

لا يسأل الناس شيئًا فيعطيه الله أعز السؤل وهو الجنة ، والجزاء من جنس العمل.

فكان ثوبان يسقط سوطه وهو راكب ، وربما وقع على عاتق رجل فيأخذه فيناوله ، فلا يأخذه منه حتى ينزل هو فيأخذه . اهـ من فيض القدير .

وقال ﷺ : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، وإنه من يستعف يُعفّه الله ، ومَنْ يستغن يغنه الله ، ومَنْ يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا ، وأوسع من الصبر » . رواه الشيخان وأحمد .

وقال رسول الله ﷺ : « من استغنى أغناه الله ، ومَنْ استعفّ أعفّه الله ، ومَنْ استكفى كفاه الله ، ومَنْ سأله وله قيمة أوقية فقد ألحف »[1] .

قال المناوي : « من استغنى بالله عمن سواه ، أغناه الله » أي: أعطاه ما يستغني به عن الناس ، ويخلق في قلبه الغنى ، فإن الغنى غنى النفس « ومن استعف » أي امتنع عن السؤال ، « أعفّه الله » بتشديد الفاء ؛ أي جازاه الله على استعفافه بصيانة وجهه ، ودفع فاقته ، « ومن استكفى » بالله ، « كفاه » الله ما أهمه ورزقه القناعة .

قال ابن الجوزي : لما كان التعفف يقتضي ستر الحال عن الخلق ، وإظهار الغنى عنهم ، كان صاحبه معاملًا لله في الباطن ، فيقع له الربح على قدر صدقه في ذلك .

وقال ابن التين : معنى قوله : « أعفه » : إما يرزقه من المال ما يستغني به عن السؤال ، وإما أن يرزقه القناعة .

وقال الحرالي : من ظن أن حاجته يسدها المال فليس برًّا ، إنما البر الذي أيقن أن حاجته إنما يسددها ربه ببره الخفيّ وجوده الوفيّ .

« ومن سأل » الناس ، « وله قيمة أوقية » من الوقاية ؛ لأن المال مخزون مصون ، أو لأنه يقي الشخص من الضرورة ، « فقد ألحف » أي سأل الناس

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي والضياء عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٠٣ .

إلحافًا ، تبرُّمًا بما قسم له .

مقصود الحديث الإشارة إلى أن في طلب الرزق من باب المخلوق ذلًا وعناءً ، وفي طلبه من الخالق بلوغ المنى والغنى ، قال بعض العارفين : من استغنى بالله افتقر الناس إليه .

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسهِ ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل مَا فوق البسيطة كافيًا فإذا قنعتْ فبعض شيء كافي[1]

٩ - نصرة المؤمنين ونصحهم

قال ﷺ : « مَنْ يَكُنْ في حاجة أخيه يكن الله في حاجته »[2] .

وفي رواية : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يشتمه ، من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ... » .

قال المناوي :

« من يكن في حاجة أخيه » أي في قضاء حاجة أخيه في الدين ، « يكن الله في حاجته » الحاجة اسم لما يفتقر إليه الإنسان ، ومعناه على ظاهره ظاهر ، وكان لتقرير الخبر ، وتأتي بمعنى صار وزائدة وتامة ، وهنا لا تصح لواحد منها .

قال الأكمل : فينبغي أن الأولى بمعنى سعى ؛ لأن السعي في الحاجة يستلزم الكون فيها والثانية بمعنى قضى .

ورد بأن الاستمرار والانقطاع إنما يفهم من القرائن لا من كان ، وهنا الغرض بيان كون الأول سببا للثاني فقط ، فإن تكرر السبب تكرر المسبب وإلا فلا ، ولم يقل : من قضى حاجته ؛ إشعارًا بأن الله هو الذي يقضيها ، وليس للعبد إلا المباشرة ، والكون في الحاجة أعم من السعي فيها[3]. والجزاء من جنس العمل.

---

(١) فيض القدير (٦ / ٥٨) .

(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي عن ابن عمر ، وأحمد عن مسلمة بن مخلد .

(٣) فيض القدير (٦ / ٢٤٤) .

وقال ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه ، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »[١] .

قال المناوي :

« من رد عن عرض أخيه » في الدين ، أي رد على من اغتابه ، وشان من آذاه وعابه ، « رد الله عن وجهه » أي ذاته ، وخصه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام ، وأشد في الهوان ، « النار يوم القيامة » جزاءً بما فعل ؛ وذلك لأن عرض المؤمن كدمه ، فكأنه سفك دمه ، ومن عمل على صون عرضه فكأنه صان دمه ، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها . وإلا كان زيادة في رفعة درجاته في الجنة[٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا ، ستره الله يوم القيامة »[٣].

قال المناوي : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا » في قبيح فعله وقوله ، فلم يفضحه بأن اطلع منه على ما يشينه في دينه أو عرضه أو ماله أو أهله ، فلم يهتكه ، ولم يكشفه بالتحدث ، ولم يرفعه الحاكم بالشرط المار ، « ستره الله يوم القيامة » أي لم يفضحه على رءوس الخلائق ، بإظهار عيوبه وذنوبه ، بل يسهل حسابه ، ويترك عقابه ؛ لأن الله حيي كريم ، وستر العورة من الحياء والكرم ففيه تخلق بخلق الله ، والله يحب التخلق بأخلاقه[٤] .

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٣٨.

(٢) فيض القدير (٦ / ١٣٥ - ١٣٦) .

(٣) رواه أحمد عن رجل ، وأحمد والحميدي عن أبي أيوب وعقبة ، وأحمد عن مسلمة ابن مخلد ، وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن الجارود عن أبي هريرة ، وأحمد والشيخان والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد عن عائشة .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٤٩) .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: «من نصر أخاه بظهر الغيب، نصره الله في الدنيا والآخرة»[١].

قال المناوي :

« من نصر أخاه » في الإسلام ، « بظهر الغيب » زاد البزار « وهو يستطيع نصره » ، « نصره الله في الدنيا والآخرة » جزاءً وفاقا ، ونصر المظلوم فرض كفاية على القادر إذا لم يترتب على نصره مفسدة أشد من مفسدة الترك[٢] .

قال رسول الله ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا ، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وَمَنْ يَسر على مُعْسِرِ ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ، ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهل الله له طريقًا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[٣] .

قال المناوي :

« من نفس » ، أي أمهل وفرّج ، من تنفيس الخناق أي إرخائه ، وقال عياض : التنفيس المد في الأجل والتأخير أو محا عنه وأبرأه من الدين المكتوب عليه والإعسار من كرب الدنيا بل هو أعظمها فجوزي من نفّس بتفريج أعظم كرب الآخرة – عنه – وهو هول الموقف وشدائده بالإراحة من ذلك ، ورفعته إلى أشرف المقامات ، وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب[٤] .

---

(١) حسن : رواه البيهقي في سننه ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٥٠ ، والصحيحة رقم ١٢١٧ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٣٣٣) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٦/٢٣٣) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل ، وما أشرفه من حديث .

قال ﷺ: «من يسّر على معسر ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»[1] .

قال المناوي :

« من يسر على معسر » مسلم أو غيره بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة ، وإعانة بنحو شفاعة أو إفناء يخلصه من ضائقة ، « يسر الله عليه » مطالبه وأموره ، « في الدنيا » بتوسيع رزقه وحفظه من الشدائد ومعاونته على فعل الخيرات ، وفي « الآخرة » بتسهيل الحساب والعفو عن العقاب ونحو ذلك من وجوه الكرامة والزلفى ، ولما كان الإعسار أعظم كرب في الدنيا لم يخصّ جزاءه بالآخرة بل عممه فيهما[2] .

والجزاء من جنس العمل .

١٠ - الصدق

إن تصدق الله يصدقك .

قال تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٩] .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري ، قال : أخبرني عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٩٠ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٤٣) .

كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوّا كثيرًا ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ؛يريد الديوان .

قال كعب - رضي الله عنه - : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظنّ أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر[1]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولا أقضي شيئًا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، وقلت : الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل

(١) أميل .

فأدركهم ، وليت أني فعلت ، ثم لم يُقدر لي ذلك ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله[1] ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر في عطفيه .. فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت : والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلا خيرًا ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي[2] ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لم أنج منه بشيءٍ أبدًا ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعًا وثمانين رجلًا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت ، فلما سلّمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه . فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » . فقلت : يا رسول الله ، والله لو أني جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخط علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » . فقمت وبادرني

---

(١) يعني الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون .

(٢) حزني .

رجال من بني سلمة واتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك قد أذنبت ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزت ألّا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا ما قلت ؟ وقيل لهم مثلما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال ابن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا ، لي فيهما أسوة ، فمضيت حينما ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا - أيها الثلاثة - مِنْ بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس - أو قال : تغيّروا لنا - حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا تلفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة، أنشدك الله تعالى : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدته فنشدته فسكت . فعدتُ فنشدته ، قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيّ[1] من أنباط الشام ممّن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتابًا من ملك غسّان ،

---

(١) النبط والأنباط ، والنبيط هم فلاحو العجم .

وكنت كاتبًا ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضًا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلالًا شيخ ضائع ، وليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستاذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى[1] على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء الفرج ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجل فرسًا ، وسعى ساع من أسلم قِبَلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ ، فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم[2] رسول الله ﷺ يتلقاني

---

(١) أشرف عليه .
(٢) أقصد .

الناس فوجًا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب - رضي الله عنه - لا ينساها لطلحة .

قال كعب - رضي الله عنه - : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » . قلت : أمِنْ عندك يا رسول الله أم مِنْ عند الله ؟ قال : « لا ، بل مِنْ عند الله » وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن مِنْ توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ، إنما أنجاني الله بالصدق ، وإنّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت . قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه[1] الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم** ﴾ إلى قوله: ﴿**وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩].

قال كعب : فوالله ، ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون**

(١) أنعم عليه .

لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾

[التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : وكنا خُلّفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلّفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

قال ابن كثير :

لما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب ، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ، ومخرجًا . قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[1] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

«إن في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين ،وتخشع لها قلوب

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٧٠) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

المتقين ، وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات ، وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها . وأيّ مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع ، وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل »[1] .

قال القشيري :

لما صدق منهم اللجاء تداركهم بالشفاء ، وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحق يكوِّرُ نهار اليسر على ليالي العسر ، ويطلع شموس المحنة على نحوس الفتنة ، ويدير فلك السعادة فيمحق تأثير طوارق النكاية ، سنة منه - تعالى - لا يُبدِّلُها ، وعادة منه في الكرم يُجريها ولا يحوِّلها . يمطر سحائب الجود ، فيعود عودُ الحياة بعد يَبْسِهِ طَرِيًّا ، ويُردُّ وَرْدُ الأُنس عقب ذبوله غضًّا جَنِيًّا ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كنا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه ... وقُرِّب النعشُ من اللَّحْدِ

فجال ماء الرُّوح في وحشِهِ ... وردَّه الوصل إلى الورْدِ

ثم قال : استديموا في الدنيا تكونوا غدًا مع الصادقين في الجنة[2] .

من صدق الله صدقه الله ، انظر إلى كعب بن مالك رضي الله عنه .

مع حرصه البالغ على رضا رسول الله ﷺ ، وهذا الرضا يومئذ يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويترك المسلم مرموقًا بالأنظار ، أو مهملا لا ينظر إليه إنسان ، مع هذا فإن مراقبة الله أقوى،وتقوى الله أعمق ؛ والرجاء في الله أوثق .

وكعب في لهفته ، وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التي كان يعرف ، يتلمس حركة مِنْ بين شفتي الرسول ﷺ ، ويخالسه النظر ؛ لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف .

---

(١) تفسير المنار (١١ / ٧١ - ٧٢) .

(٢) لطائف الإشارات (٢ /٧٠ - ٧١) .

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقي إليه مخلوق من قومه بكلمة - ولو على سبيل الصدقة - يجيئه من قبل ملك غسّان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه، ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله، وما يزيد على أن يلقي بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبرَ على الابتلاء .

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجـه ؛ لتدعه فريدًا طريدًا من الأنس كله ، مخلفًا بين الأرض والسماء ، فيخجل أن يراجع رسول الله ﷺ في امرأته ؛ لأنه لا يدري كيف يكون الجواب .

هذه صفحة ، والصفحة الأخرى هي صفحة البشرى . بشرى القبول ، بشرى العودة إلى الصفّ ، بشرى التوبة من الذنب ، بشرى البعث والعودة إلى الحياة ، بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة ، وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلًا لا ينساه الطريد الذي ردّ إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو في يوم كما قال عنه رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » قالها ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور ، كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردّهم مكرمين إلى جماعته[١] .

بعد الكربة واليأس والحرج والضيق يجيء الفرج .

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبه عامة من كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي[١] .

يقول ابن القيم :

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها ، وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإنابة .

---

(١) الظلال (٣ / ١٧٣١ - ١٧٣٢) .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها . قال الله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدًى ثانيًا .

والتوبة لها مبدأ ومنتهى . فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذي نصبه لعباده، موصلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل** ﴾ .

ونهايتها : الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا** ﴾ [الفرقان : ٧١] .

قال البغوي وغيره : ﴿ **يتوب إلى الله متابًا** ﴾ يعود إليه بعد الموت ، متابًا حسنًا يفضل على غيره، فالتوبة الأولى، وهي قوله: ﴿**ومن تاب**﴾ رجوع عن الشرك . والثانية : رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة[١] .

والجزاء من جنس العمل .

١١ - المراقبة

عن عبد الله بن دينار ، قال : خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرّسنا ، فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراع ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم. قال إني مملوك، قال: قل لسيدك: أكلها الذئب. قال: فأين الله عز وجل ! قال ابن عمر: فأين الله ! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي روّاد ، عن نافع : فأعتقه ، واشترى له الغنم[٢] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣ - ٣١٤) .

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٣٤١/٣)، وهو في المجمع (٣٤٧/٩) ونسبه للطبراني ، وقال : ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن الحارث الحاطبي ، وهو ثقة انظر سير أعلام النبلاء (٢١٦/٣).

يعف عن شاة واحدة ، فتكون له كل الشّياه . والجزاء من جنس العمل .

١٢ - العفو

مرّت أحاديث العفو سابقا وفيها : « ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا » .

وفيها : « ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلا زاده الله بها عزًّا » .

وفيها : « وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » .

قال ابن القيم :

للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه .

ثم ذكر منها المشهد الثالث : مشهد العفو والصفح والحلم . فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزّته لم يعدل عنه إلا يعشى في بصيرته . فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعلم بالتجربة والوجود ، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ .

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم؛ من الحلاوة، والطمأنينة، والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام:ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ويهونه عليك : علمك بأن الجزاء من جنس العمل . فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه ، وأحسنت إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلّك ، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك ، فهذا لابد منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها[1] .

عن أبي هريرة أن رجلًا شتم أبا بكر ، والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣١٨ - ٣٢٠) .

ﷺ يعجب ويتبسّم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ ، وقام ، فلحقه أبو بكر ، فقال : يا رسول الله ، كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبت وقمت . قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله ، وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » . ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عز وجل ، إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطيَّة يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلّا زاده الله عز وجل بها قلّة »(١) .

١٣ - الوفاء

عن ميمونة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أخذ دَينا وهو يريد أن يؤديه ، أعانه الله »(٢) .

وقال ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدَّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »(٣) .

وقال ﷺ : « ما من أحد يدّان دينا يعلم الله منه أنه يريد قضاءه ، إلا أداه الله عنه في الدنيا »(٤) .

وقال ﷺ: «من اداان دينا ينوي قضاءه، أدّاه الله عنه يوم القيامة»(٥) .

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ؛ وحسّن سنده شعيب الأرناؤط ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (١٧ / ٢٠٢) .

(٢) صحيح : رواه النسائي عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٧ .

(٣) رواه البخاري وأحمد ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) صحيح : رواه أحمد والنسائي ، وابن حبان عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٣ .

(٥) صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٢ .

١٤ - الجود والكرم

قال ﷺ : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كساه الله تعالى من خُضْر الجنة ، وأيُّما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيّما مسلم سقى مسلمًا على ظمإٍ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم »[١] .

قال المناوي : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على حالة عري كساه الله تعالى من خضر الجنة » أي : من ثيابها الخضر .

« أيما مسلم سقى مسلما على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق » اسم من أسماء « المختوم » أي يسقيه من خمر الجنة الذي ختم عليه بمسك . قال التوربشتي : الرحيق الشراب الخالص الذى لا غش فيه ، والمختوم الذي يختم من أوانيها ، وهو عبارة عن نفاستها وكرامتها ، وهذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، والنصوص فيه كثيرة ، والمراد أنه يختص بنوع من ذلك أعلى ، وإلّا فكلّ من دخل الجنة كساه الله من ثيابها ، وأطعمه وسقاه من ثمارها وشرابها ، ويظهر أن المراد المسلم المعصوم ويحتمل إلحاق الذمي العاري الجائع به[٢] .

وفي المكارم وجزائها أحاديث أخر :

قال ﷺ : « منْ يتوكل لي ما بين لحيَيْه ، وما بين رجْلَيْه ، أتوكل له بالجنة »[٣] .

قال ﷺ : « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومَنْ يتحرّ الخير

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري ، وقال المنذري : رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ .
قال المناوي : ولينه ابن عدي . وضعف الحديث الشيخ الألباني .

(٢) فيض القدير (٣ / ١٤٢ - ١٤٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨١ .

يُعطهْ ، ومَنْ يتوقَّ الشر يُوقَّهْ »[١] .

وقال ﷺ : « من استنَّ خيرًا ، فاستُنَّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أجور من استنّ به ، ولا ينتقص من أجورهم شيئًا ، ومن استنّ سنة سيئة فاستن به ، فعليه وزره كاملًا ، ومِنْ أوزار الذين استنوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »[٢] .

وقال ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة عمل بها بعده ، كان له أجره ، ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ سنة سيئة فعمل بها ، كان عليه وزرها ومثل أوزارهم ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[٣] .

وأخيرًا .. أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة .

عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[٤] .

قال المناوي :

إنّ ما يفعله العبد من خير وشر في هذه الدار له نتائج تظهر في دار البقاء ؛

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخ بغداد عن أبي هريرة ، والخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٩٠ ، وفي تخريج الترغيب (١ / ٤٨) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي جحيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٢ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن سلمان ، وعن قبيصة بن برمة ، وعن ابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخ بغداد عن علي ، وأبي الدرداء ،=

لأنها محل الجزاء ، وجزاء كل إنسان بحسب عمله ، وكل معروف أو منكر يجازى عليه من جنسه ، وكل إنسان يحشر على ما كان عليه في الدنيا . اهـ[١].

* * *

= وأشار السيوطي إلى ضعفه في الجامع ، وعن ابن عباس، وقبيصة بن بُرْمة عند البخاري في الأدب المفرد .

قال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٤٠) :

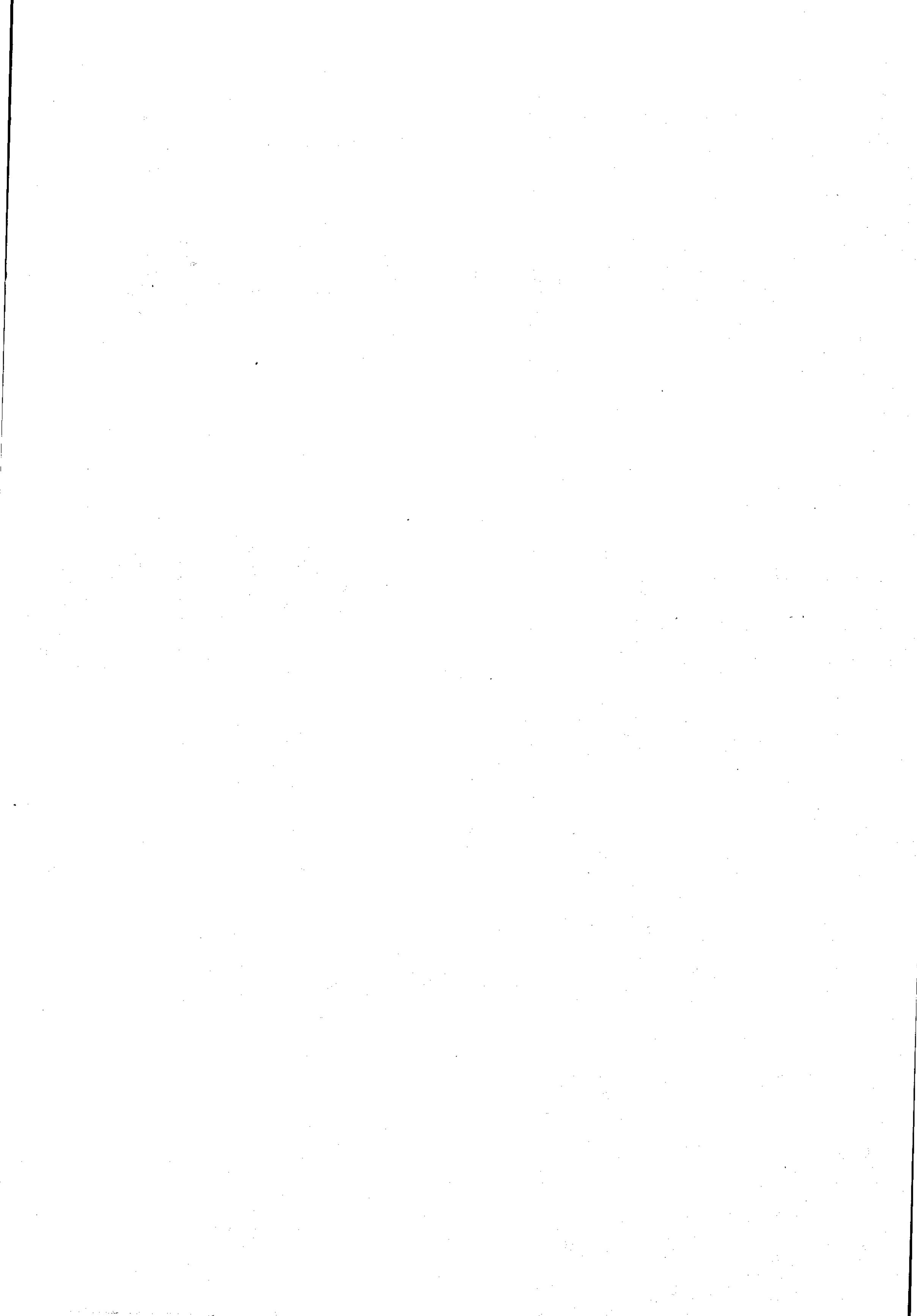
قال ابن الجوزي : حديث لا يصح . قال أحمد:تركت حديث هشام بن لاحق - أي أحد رجاله - تركه أحمد وقوّاه النسائي ، وبقية رجاله ثقات . وقبيصة قال أبو حاتم : لا يصح له صحبة ، قال الذهبي : يعني حديثه مرسل انتهى . وفي التقريب : مختلف في صحبته ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

قال الهيثمي : وفيه علي بن أبي هاشم . وفي حديث ابن عباس عبد الله بن هارون القروي وهو ضعيف ذكره الهيثمي ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب عن علي ، قال ابن الجوزي : لا يصح إذ فيه محمد بن الحسين البغدادي ، كان يسمي نفسه لاحقًا ، وقد وضع على رسول الله ﷺ ما لا يحصى.ذكره الخطيب ، وعن أبي الدرداء ، وفيه هند أم ابن قتيبة ، قال ابن الجوزي : مجهول اهـ .

قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء (١٧/٥٩٥) : وفي الباب عن سلمان الفارسي عند البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني ، وعن أبي موسى الأشعري عند الطبراني في الصغير (١/٧٣،٧٤) ، وعن ابن عمر عند البزار ، فالحديث صحيح بهذه الشواهد .

(١) فيض القدير للمناوي (٢ / ٤٤٠) .

الكبـائـــر



□ الكبـائـر □

يا كثير السيئات ، غدًا ترى عملك ، يا هاتك الحرمات ، إلى متى تديم زللك ؟.

كَمْ من وعيدٍ يخرقُ الآذانا كأنَّما يُعنى به سوانا
أُصمّنا التفريط بل أعمانا

قال ابن الجوزي : لتعظمنَّ على أهل المخالفات الآفات ، ولتقطعنّ أفئدة المفرطين بالزفرات ، وليشتهرن الفاجر في الخلوات بالجَلَوات ، ولتَمُورنَّ السُّوق يوم السّوْق إلى سُوق المحاسبات ، ولتسيلنَّ الدماء بعد الدموع على الوجنات ، وليتحسرنّ أهل المعاصي إذا لاحت درجات الجنّات ، وليناديَنَّ منادي الجزاء يخبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ .

لا تَحْقِرَنّ من الآثام محتقرًا كلُّ امرىء سوف يُجزى بالذي اكتسبا
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا[1]

وجزاء السيئات والكبائر من جنسها يلوح ذلك جليًّا إذا ضربت الأمثلة بذكر الكبيرة أو المعصية وذكر جزائها .

○ ١ - الشرك بالله ○

أكبر الكبائر ..

قال ﷺ : « أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور »[2] .

---

(١) التبصرة (٢ / ٥٨) .
(٢) رواه البخاري عن أنس .

وقال ﷺ : « الكبائر تسع ، أعظمهنَّ إشراكٌ بالله ... »[(١)] .

وقال ﷺ : « من أكبر الكبائر الشرك بالله ، واليمين الغموس »[(٢)] .

وقال : « لا تشرك بالله شيئًا ، وإن قُطِّعتَ وحُرِّقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدًا ، فمن تركها متعمدًا فقد برئت منه الذّمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر »[(٣)] .

قال الله تعالى : ﴿ **ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف : ٥ - ٦] .

قال الشيخ سيد قطب :

قد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ؛ إمّا لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة ، وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرةً أو الشيطان .. وكلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أولا تستجيب له استجابة نافعة ، فالأحجار والأشجار لا تستجيب. والملائكة لا يستجيبون للمشركين. والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . كلها لا تستجيب لداعيها أصلًا . أو لا تستجيب له استجابة نافعة ، ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرّأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين ، حتى الشيطان ، كما جاء في سورة أخرى ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من**

---

(١) حسن : رواه أبو داود والنسائي عن عمير ، ورواه الطحاوي والحاكم والبيهقي في السنن ،وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن أنيس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٧٦ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢١٦ .

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم : ٢٢]. من أضل ممن يدعو من دون الله أحدًا في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد كائنًا من كان لا يستجيب لمن يدعوه ، ولا يملك أن يستجيب ، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد[1] .

قال تعالى : **﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا ﴾** [مريم : ٨١ - ٨٢] .

يخاطبون آلهتهم التي كانوا يعبدون ، ويسوون بينها وبين الخالق ، وقد خاب وخسر من رفع المخلوق إلى رتبة الخالق **﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾** [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] .

وقال تعالى : **﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفتْ وردّوا إلى الله مولاهم الحقِّ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾** [يونس : ٢٨ - ٣٠] .

وقال تعالى : **﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾** [النحل : ٨٦ - ٨٧] .

قال ابن كثير :

أخبر تعالى عن تبرُّؤ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها ، كما قال تعالى : **﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾** [العنكبوت: ٢٥] .

وقال تعالى : **﴿ ويوم يقول نادوا شركائِي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ﴾** [الكهف : ٥٢] .

---

(١) الظلال (٦ / ٣٢٥٥ - ٣٢٥٦) .

ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين[١] .

ذلّوا واستسلموا يومئذ لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع ﴿ **وألقوا إلى الله يومئذ السلم** ﴾ [النحل : ٨٧] .

يقول صاحب الظلال :

وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئًا في موقفهم العصيب ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ [النحل: ٨٨] فالكفر فساد، والتكفير فساد، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقًا[٢] .

يقول الله تعالى : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون** ﴾ [المعارج: ٤٣ - ٤٤] .

يقول الشيخ سيد قطب :

هؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه ، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا ، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ، ويتجمعون حولها . فها هم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تتم سماتهم بقوله : ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة ، صورة ذليلة عانية ، لقد كانوا يخوضون ويلعبون ، فهم اليوم أذلاء مرهقون[٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ٥١٢) .
(٢) الظلال (٤ / ٢١٨٨) .
(٣) الظلال (٦ / ٣٧٠٣) .

يقول ابن كثير :

كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا يهرولون إلى النصب - الصنم - إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون أيهم يستلمه أولا ، وهذا مروي عن مجاهد ويحيى ابن أبي كثير وقتادة والضحاك، والربيع بن أنس. وقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾ أي خاضعة ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة[١].

المآل والنهاية :

في البخاري ومسلم من حديث رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس ، فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..» الحديث.

ثم إن هذه الآلهة الباطلة تتساقط في النار ، ويتساقط عبادها وراءها في السعير ، كما قال تعالى في فرعون : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ [هود : ٩٨] .

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال : «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ...» الحديث[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يَطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا يتَّبع كلُّ إنسان ما كان يعبد ؟ فيمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره[٣] ، ولصاحب النار[٤] ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين ...»[٥] الحديث .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٤) .

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية .

(٣) عباد الأصنام . (٤) المجوس .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨١.

٢ - قتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق

قال ﷺ : « أبغض الناس إلى الله ملحد[١] في الحرم ، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطَّلِبٌ دم امرىء بغير حق ليهريق دمه »[٢] .

وقال ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء »[٣] .

وقال ﷺ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق »[٤] .

وقال ﷺ : « لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبهم[٥] الله عز وجل في النار »[٦] .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا »[٧].

وقال ﷺ : « لا يزال المؤمن معنقًا[٨] صالحًا ما لم يصب دمًا حرامًا ، فإذا أصاب دمًا حرامًا بلّح[٩] »[١٠].

---

(١) الذي يرتكب فيه ما حرّمه الله .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن ابن مسعود .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٥٤ .

(٥) ألقاهم على وجوههم .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٢٣ .

(٧) رواه أحمد والبخاري عن ابن عمر .

(٨) طويل العنق ، الذي له سوابق في الخير .

(٩) بلّح : أي أعيا وانقطع .

(١٠) صحيح : رواه أبو داود عن أبي الدرداء ، وعن عبادة بن الصامت ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٥٧٠ .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دمًا ، فيقول : يا رب ! سل هذا فيم قتلني ؟ حتى يدنيه من العرش »[(١)] .

وقال ﷺ : « يجيء المقتول يوم القيامة متعلقًا بقاتله ، فيقول الله : فيم قتلت هذا ؟ فيقول : في ملك فلان »[(٢)] .

قال ابن العربي : ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق ، والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح[(٣)] .

قتل الحسين بن علي :

قال ﷺ : « حسين مني ، وأنا منه ، أحب الله من أحب حسينًا ، الحسن والحسين سِبْطان[(٤)] من الأسباط »[(٥)] .

وقال ﷺ : « إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا »[(٦)] .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل ، فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[(٧)] .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٧ .

(٢) صحيح: رواه النسائي عن جندب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٨٨.

(٣) فتح الباري (١٢ / ١٩٦) .

(٤) يعني أمة من الأمم في الخير .

(٥) حسن : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبخاري في الأدب المفرد عن يعلى بن مرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٤١ .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن ابن عمر ، والنسائي عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٩٦ .

(٧) صحيح : رواه ابن سعد عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣ .

وقال ﷺ : « أتاني ملك فسلم علي - نزل من السماء ، لم ينزل قبلها - فبشّرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[١] .

قتل سيد شباب أهل الجنة في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين ، بعث إليه عبيد الله بن زياد بعمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، ومعه شمر بن ذي الجوشن - قبحه الله - وكتب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد : أن حل بينهم - أي الحسين وأصحابه وآل بيته - وبين الماء كما فُعِل بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان[٢]، واعرض على الحسين أن يبايع هو ومن معه لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، فإذا فعلوا ذلك رَأَيْنا رَأْيَنا ، وجعل أصحاب عمر بن سعد يمنعون أصحاب الحسين من الماء ، وعلى سرية منهم عمرو بن الحجاج ، فدعا عليهم بالعطش فمات هذا الرجل من شدة العطش . والجزاء من جنس العمل .

وطلب الحسين منهم أحد أمرين : إما أن يرجع من حيث جاء ، وإمّا أن يدعوه يذهب في الأرض العريضة حتى ينظر ما يصير أمر الناس إليه .

ونادى عمر بن سعد في الجيش : يا خيل الله اركبي وأبشري ، ولما وصلوا إلى حيث مضارب الحسين أرسلوا بعشرين فارسًا ، فقال العباس بن علي : ما لكم ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير ؛ إما أن تأتوا على حكمه ، وإما أن نقاتلكم . ولما رجع العباس إلى الحسين قال له : ارجع ، فارددهم هذه العشية ، لعلنا نصلي لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه، فقد علم الله مني أني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، والاستغفار والدعاء ، وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله ، وخطب لأصحابه : من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، فامتنعوا . وقال له سعيد بن عبد الله الحنفي : والله لا نخليك حتى

---

(١) صحيح: رواه ابن عساكر عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩.

(٢) ومن الذي كان يدافع عن عثمان- رضي الله عنه- إلا الحسين والحسن على باب داره.

يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ ، والله لو علمت أني أقتل دونك ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك ، لأحببت ذلك ، وإنما هي قتلة واحدة .

وتكلم جماعة من أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضًا ، فقالوا : والله لا نفارقك ، وأنفسنا الفداء لك ، نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا . وقال له أخوه العباس : لا أرانا الله يوم فقدك ، ولا حاجة لنا في الحياة بعدك ، وقال الحسين : يا بني عقيل حسبكم بمسلم أخيكم - وكان رسول الحسين إلى أهل العراق بعد أن كاتبوه أن يقدم عليهم ، وله عندهم المنعة ، فقتلوا رسوله مسلمًا - اذهبوا ، فقد أذنت لكم . قالوا : فما تقول الناس : إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، لم نبرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، رغبة في الحياة الدنيا ، لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد مَوْرِدَك ، فقبح الله العيش بعدك .

وفي ليلة عاشوراء جعل الحسين يقول :

يا دهر أُفٍّ لك من خليلِ ... كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحب أو طالبٍ قتيلِ ... والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليلِ ... وكل حي سالكُ السبيلِ

فأعادها مرتين أو ثلاثًا ، فقامت إليه زينب - رضي الله عنها - حتى انتهت إليه ، فقالت : واثكلاه !! ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت أمي فاطمة ، وعلى أبي ، وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي . فنظر إليها وقال : يا أخيّه ، لا يُذهبن حلمك الشيطان . فقالت : بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله ، أستقتل؟ وخرت مغشيًّا عليها، فقام إليها، فصبّ على وجهها الماء وقال : يا أخيّه، اتقي الله واصبري وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته ، ويميتهم بقهره وعزَّته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وهو فرد وحده ، واعلمي أن

أبي خير مني ، وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة حسنة ، ثم حرّج عليها ألا تفعل شيئًا من هذا بعد مهلكه .

وبات الحسين وأصحابه طول ليلهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ، والحسين يقرأ : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ..** ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٨- ١٧٩] .

في صبيحة عاشوراء اغتسل الحسين ، وتطيب بمسك كثير ، ثم ركب على فرسه ، وأخذ مصحفًا فوضعه بين يديه ، ثم استقبل القوم رافعًا يديه يدعو : اللهم ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة ، فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقلُّ فيه الحيلة ، ويخذُل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، فأنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة فيه إليك عمَّن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت وليّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل غاية .

ونادى الحسين : أيها الناس ، اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم . فأنصت الناس كلهم فقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إن قبلتم مني وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون** ﴾ [يونس:٧١]، ﴿**إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

ثم شرع يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه ، ويقول : راجعوا أنفسكم وحاسبوها . هل يصلح لكم قتال مثلي وأنا ابن بنت نبيكم ، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري ، وعلي أبي ، وجعفر ذو الجناحين عمي ، وحمزة سيد الشهداء عم أبي ، وقال لي رسول الله ﷺ ولأخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » ، فإن صدقتموني بما أقول فهو الحق ، فوالله ما تعمدّت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على الكذب ، وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله

ﷺ عن ذلك ، جابر بن عبد الله ، وأبا سعيد ، وسهل بن سعد ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك يخبروكُمْ بذلك ، ويحكم ! أما تتقون الله ؟ أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ فقال عند ذلك شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف ، إن كنت أدري ما يقول ؟ فقال له حبيب بن مطهر : والله يا شمر ، إنك لتعبد الله على سبعين حرفًا ، وأما نحن فوالله إنا لندري ما يقول ، وإنه قد طبع على قلبك ، ثم قال : يأيها الناس ، ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض ، فقالوا : وما يمنعك أن تنزل على حكم بني عمك ؟ فقال : معاذ الله ﴿ **إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ [غافر :٢٧] ثم أناخ راحلته ، وأمر عقبة بن سمعان فعقلها ، ثم قال : أخبروني ، أتطلبوني بقتيل لكم قتلته ؟ أو مالٍ لكم أكلته ؟ أو بقصاصة على جراحة ؟ فأخذوا لا يكلمونه ، فنادى : يا شبيث ابن ربعي ، يا حجار بن أبجر ، يا قيس بن الأشعث ، يا زيد ابن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب ، فاقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة ؟ فقالوا له : لم نفعل . فقال : سبحان الله ! والله لقد فعلتم . ثم قال : يأيها الناس ، إذ قد كرهتموني ، فدعوني أنصرف عنكم ، فقال له قيس بن الأشعث : ألا تنزل على حكم بني عمك ، فإنهم لن يؤذوك ، ولا ترى منهم إلا ما تحب ؟ فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر لهم إقرار العبيد .

فأقبلوا يزحفون نحوه ، وقد تحيز إلى جيش الحسين طائفة قريب من ثلاثين فارسًا من جيش العراق ، منهم الحر بن يزيد أمير مقدمة جيش ابن زياد ، فاعتذر إلى الحسين ، ثم تقدم بين يدي أصحاب الحسين فخاطب : يأهل الكوفة لأمِّكم الهبل[1] ، أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الوسيعة التي لا يمنع فيها الكلب والخنزير ، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي

(١) الهبل : الثكل .

يشرب منه الكلب والخنزير ، وقد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمدًا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمإ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عمًّا أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه .

وقال أيضًا : ويحكم منعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذي يشرب منه اليهود والنصارى ، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، فهو كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا .

وقال لهم زهير بن القين : إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية ، فإن أنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، يذهب حيث يشاء، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال له : اسكت ، أسكت الله نامتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فقال له زهير : إياك أخاطب ؟ إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحكم من كتاب الله آيتين ، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم . فقال له شمر : إن الله قاتلك وصاحبك بعد ساعة . فقال له زهير : أبالموت تخوفني ؟ فوالله للموت معه أحبّ إليّ من الخلد معكم . ثم إن زهيرًا أقبل على الناس رافعا صوته يقول : عباد الله ، لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا ينال شفاعة محمد ﷺ قوم أهرقوا دماء ذريته ، وقتلوا من نصره وذبَّ عن حريمهم .

وشمر عمر بن سعد عن ساعده ، ورمى بسهم وقال : اشهدوا أني أول من رمى القوم ، وترامى الناس بالنبال ، وحمل رجل يقال له : عبد الله بن حوزة حتى وقف بين يدي الحسين ، فقال له : يا حسين ، أبشر بالنار ! فقال له الحسين : كلا ، ويحك إني أقدم على رب رحيم ، وشفيع مطاع ، بل أنت أولى بالنار . قالوا : فانصرف ، فوقصته فرسه فسقط ، وتعلقت قدمه بالركاب ، وكان قد سأل عنه فقال : أنا ابن حوزة . فرفع الحسين يده وقال : اللهم ، حزه إلى النار ، فغضب ابن حوزة ، وأراد أن يقحم عليه الفرس ، وبينه وبينه نهر ، فجالت به الفرس ، فانقطعت قدمه وساقه وفخذه ، وبقي جانبه الآخر متعلقا بالركاب ،

وشدّ عليه مسلم بن عوسجة فضربه فأطار رجله اليمنى ، وغارت به فرسه ، فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه في رأسه حتى مات .

وكان جزاؤه من جنس قوله وعمله .

وكثرت المبارزة بين الفريقين ، والنصر في ذلك لأصحاب الحسين لقوة بأسهم ، فأشار بعض الأمراء على عمر بن سعد بعدم المبارزة ، وحمل شمر ابن ذي الجوشن بالميسرة ، وقصدوا نحو الحسين فدافعت عنه الفرسان من أصحابه دفاعًا عظيمًا ، فأرسلوا يطلبون من عمر بن سعد طائفة من الرماة الرجّالة ، فبعث إليهم نحوا من خمسمائة ، فجعلوا يرمون خيول أصحاب الحسين فعقروها كلها حتى بقي جميعهم رجالة ، واستمر القتل في أصحاب الحسين ، ومنهم خبيب بن مطهر ، حمل عليه رجل من بني تميم فطعنه فوقع ، ثم ذهب ليقوم فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف فوقع ، ونزل إليه التميمي فاحتز رأسه ، وحمله إلى ابن زياد ، فرأى ابن حبيب رأس أبيه فعرفه ، فقال لحامله : أعطني رأس أبي حتى أدفنه ، ثم بكى ، قال : فمكث الغلام إلى أن بلغ أشده ثم لم تكن له همة إلا قتل قاتل أبيه ، قال : فلما كان زمن مصعب ابن عمير دخل الغلام عسكر مصعب فإذا قاتل أبيه في فسطاطه ، فدخل عليه وهو قائل فضربه بسيفه حتى برد .

والجزاء من جنس العمل .

وقتل كل أصحاب الحسين وجاء رجل من بني بَدّاء ، يقال له : مالك ابن البشير ، فضرب الحسين على رأسه بالسيف فأدمى رأسه ، وكان على الحسين برنس فقطعه ، وجرح رأسه ، فامتلأ البرنس دمًا ، فقال له الحسين : لا أكلت بها ولا شربت ، وحشرك الله مع الظالمين .

وكان أول قتيل قتل من أهل الحسين من بني أبي طالب علي الأكبر ابن الحسين بن علي ، قتلوا مع الحسين سبعة عشر رجلًا كلهم من أولاد فاطمة ، وعن الحسن البصري أنه قال : قتل مع الحسين ستة عشر رجلًا كلهم من أهل بيته ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه ، وقال غيره : قتل معه من ولده

وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلًا : فمن أولاد علي - رضي الله عنه -: جعفر، والحسين، والعباس، ومحمد، وعثمان، وأبو بكر، من أولاد الحسين: علي الأكبر، وعبد الله، ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة: عبد الله، والقاسم، وأبو بكر بنو الحسن بن علي بن أبي طالب . ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان : عون ، ومحمد، ومن أولاد عقيل: جعفر، وعبد الله وعبد الرحمن، ومسلم قتل قبل ذلك . فهؤلاء أربعة لصلبه، واثنان آخران هما: عبد الله بن مسلم بن عقيل ، ومحمد ابن أبي سعيد بن عقيل ، فكملوا ستة من ولد عقيل .

وقد اشتد عطش الحسين ، فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر ، بل مانعوه عنه، فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل يقال له: حصين بن تميم بسهم في حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ، ففار الدم، فتلقاه بيديه ، ثم رفعهما إلى السماء، وهما مملوءتان دمًا، ثم رمى به إلى السماء، وقال : اللهم، أحصهم عددًا ، واقتلهم بددًا ، ولا تذر على الأرض منهم أحدًا .. ودعا عليهم دعاءً بليغًا .

يقول ابن كثير :

فوالله إن مكث الرجل الرامي له إلا يسيرًا حتى صبّ الله عليه الظمأ ، فجعل لا يروى ويُسقى الماء مبردًا ، وتارة يبرد له اللبن والماء جميعا ، ويسقى فلا يروى ، بل يقول : ويلكم ، اسقوني قتلني الظمأ . قال : فوالله ، ما لبث إلا يسيرًا حتى انقد[1] بطنه انقداد البعير[2] .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن محمد الكوفي قال : كان رجل من بني أبان بن دارم يقال له : زرعة ، شهد قتل الحسين ، فرمى الحسين بسهم ، فأصاب حنكه ، فجعل يتلقى الدم ، ثم يقول : هكذا إلى السماء فيرمي به ، وذلك أن الحسين دعا بماء ليشرب ، فلما رماه حال بينه وبين الماء ، فقال : اللهم ظَمِّئْه !

---

(١) انقد : انشدخ .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٨٩) .

اللهم ظمئه ! قال : فحدثني من شهده وهو يموت ، وهو يصيح من الحرِّ في بطنه، والبرد في ظهره، وبين يديه المراوح والثلج، وخلفه الكانون ،وهو يقول : اسقوني أهلكني العطش ، فيؤتى بعُسٍّ عظيم فيه السَّويق أو الماء أو اللبن ، لو شربه خمسة لكفاهم ، قال : فيشربه ، ثم يعود ، فيقول : اسقوني ، أهلكني العطش . قال : فانقدّ بطنه كانقداد البعير[1] .

والجزاء من جنس العمل .

جعل شمر بن ذي الجوشن يحرضهم على قتل الحسين ويقول : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم . وجعل الحسين يشد على الرجال وهو يقول : أعلى قتلي تحابون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدًا من عباد الله أسخط عليكم بقتله مني ، وايم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قد قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم .

وجعل – رضي الله عنه – يحمل من على يمينه حتى انذعروا عنه ، وهو كالليث الهصور قد قتل أولاده ، بل منهم من ذبح بين يديه ، وقتل أصحابه ، وما رأى الناس أربط منه جأشًا ، ولا أمضى جنانًا ، فحملت الرجال – بل والله الصعاليك – من كل جانب على الحسين ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو ، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ، ثم نزل فذبحه ، وحزّ رأسه ، ثم دفع رأسه إلى خولي بن يزيد وجاء سنان بن أنس إلى فسطاط عمر بن سعد فنادى بأعلى صوته :

---

(١) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٩٢ ، تحقيق وتعليق : مجدي السيد إبراهيم مكتبة القرآن .

أوقر ركابي فضة وذهبا أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمًّا وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فضربه عمر بن سعد بالسوط .

ثم حملوا رأس الحسين – رضي الله عنه – إلى عبيد الله بن زياد ، فوضع في طست فجعل ينكت بقضيب في أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسنا . وفي رواية : جعل ينكت فيه بقضيب بين ثناياه ساعة . فقال له زيد بن أرقم : ارفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يقبلهما .

وأمر ابن زياد ، فنودي : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين ، الذي أراد أن يسلبهم الملك ، ويفرّق الكلمة عليهم ، فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي فقال : ويحك يابن زياد !! تقتلون أولاد النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب. ثم أمر برأس الحسين ، فنصب بالكوفة ، وطيف به في أزقتها ، ثم سيره مع زحر بن قيس ومعه أرؤس أصحابه إلى يزيد بن معاوية .

لما انتهت المعركة مروا بنساء أهل البيت على القتلى ، ورأوا الحسين وأصحابه مطرحين،هنالك بكته النساء ، وصرخن ، وندبت زينب أخاها الحسين وأهلها ، فقالت وهي تبكي: يا محمداه! يا محمداه! صلى عليك الله! وملك السماء! هذا حسين بالعراه! مزمل بالدماه! مقطع الأعضاء! يا محمداه! وبناتك سبايا! وذريتك مقتلة! تسفي عليها الصبا ! فأبكت والله كل عدو وصديق .

لما أُتي بالرأس بين يدي يزيد دمعت عينا يزيد ، وقال لعبد الله بن سمية ، أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ، كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، ورحم الله الحسين ، ثم قال : لما وضع الرأس بين يديه : أما والله لو أني صاحبك ما قتلتك ، ثم جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره ، ثم أنشد قول الحسين

ابن الحمام المري الشاعر :

يفلقن هامًا من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهمْ كانوا أعقّ وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي : ارفع قضيبك ، أما والله لقد أخذ قضيبك هذا مأخذًا ، لقد رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، ثم قال : ألا أن هذا سيجيء يوم القيامة وشفيعه محمد ، وتجيء وشفيعك ابن زياد ، ثم قام فولى .

إخوتاه :

أيرجو معشر قتلوا حسينًا ... شفاعة جدّه يوم الحساب

ويح قاتل الحسين ! كيف حاله مع أبويه وجده ؟!!

لابد أن ترد القيامة فاطمٌ ... وقميصها بدم الحسين ملطّخُ

ويلٌ لِمَنْ شفعاؤه خصماؤه ... والصُّور في يوم القيامة يُنفخُ

إخواني ، بالله عليكم من قبح علي يوسف بأي وجه يلقى يعقوب

ماذا تقولون إن قال النبي لكمْ ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأممِ

بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى ومنهم ضرّجوا بدمِ

ما كان هذا جزائي إذ نصحتُ لكمْ ... أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمِ

لما أُسر العباس يوم بدر سمع رسول الله ﷺ أنينه فما نام ، فكيف لو سمع أنين الحسين ؟

جاءوا برأسك يابن بنت محمدٍ ... متزملا بدمائه تزميلا[1]

وكأنما بك يابن بنت محمدٍ ... قتلوا جهارًا عامدينَ رسولا

قتلوك عطشانًا ولم يتدبروا ... في قتلك القرآن والتنزيلا

ويكبّرون بأنْ قُتلتَ وإنما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

لما أسلم وحْشيّ قال له الرسول ﷺ : غيِّب وجهك عني . هذا والله والمسلم لا يؤاخذ بما كان في الكفر ، فكيف يقدر الرسول ﷺ أنْ يُبصر من

---

(١) تزمّل : تلفف .

قتل الحسين ؟

لقد جمعوا في ظلم الحسين ما لم يجمعه أحِد ، ومنعوه أن يرد الماء فيمنْ ورَد ، وأن يرحل عنهم إلى أي بلد ، وسبوا أهله وقتلوا الولد ، وما هذا خَدٌّ دفع عن الولاية،هذا سوء معتقد .

نبع الماءِ من بين أصابع جده فما سقوه منه قطرة !

كان الرسول ﷺ من حب الحسين يقبل شفتيه ، ويحمله كثيرًا على عاتقيه ، ولما مشى طفلًا بين يدي المنبر نزل إليه ، فلو رآه مُلْقى على أحد جانبيه ، والسيوف تأخذه والأعداء حواليه ، والخيل قد وطئت صدره ومشت على يديه ، ودماؤه تجري بعد دموع عينيه ، لضجَّ الرسول ﷺ مستغيثًا من ذلك ولعزّ عليه .

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن زيد بن جدعان قال : استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع ، وقال : قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه : لم يا بن عباس ؟ فقال : رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال:« أتعلم ما صنعت أمتي من بعدي ؟ قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعهما إلى الله » . فكتب ذلك اليوم الذي قال فيه ، وتلك الساعة ، فما لبثوا إلا أربعة وعشرين يومًا حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل في ذلك اليوم في تلك الساعة[1] .

وروى الترمذي عن سلمى قالت : دخلت على أم سلمة – وهي تبكي – فقلت : ما يبكيك ؟ فقالت : رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه وعلى لحيته تراب ، فقلت : ما لك يا رسول الله قال : « شهدت قتل الحسين آنفًا » .

كربلاء زِلت كربًا وبَلا ... ما لقي عندكِ أهل المصطفى
كم على تُرْبِك لمّا صُرعوا ... من دم سالَ ومن دَمْع جرَى
يا رسول الله لو عايَنْتَهمْ ... وهمُ ما بين قَتْلٍ وسِبَا

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/١٧٤-٢٠٣) ، التبصرة (٢/١٧-١٨) .

من رَمِيض[١] يُمْنَع الظِّلّ ومِنْ عاطشٍ يُسقى أنابيب القَنا
لرأت عيناك فيهم مَنْظَرًا للحَشا شجوًا وللعينِ قَذَى
ليس هذا لرسول الله يا أمة الطغيان والمَيْنِ جَزَا
غارس لم يَأْلُ في الغَرْس لهمْ فأذاقوا أهلَه مُرَّ الجَنَى
جَزروا جَزْرَ الأضاحى نَسْله ثم ساقوا أهلَه سَوْق الإما
هاتفاتٍ يا رسول الله في بُهر[٢] السعي وعثرات الخطى
قتلوه بعد عِلْمٍ منهمُ أنه خامسُ أصحاب الكِسَا[٣]
يا جبالَ المجد عزًّا وعُلَا وبدورَ الأرض نورًا وسنا
جعل الله الذي نالكمُ سبب الوجْد طويلًا والبُكا
لا أرى حُزنكمُ يُنْسى ولَا رُزْأَكُم يُسْلَى ولو طال المدى[٤]

جزاء قتلة الحسين في الدنيا :

يقول ابن كثير :

أمَّا ما روي من الأحاديث والفتن التي أصابت من قتله فأكثرها صحيح ، فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة في الدنيا ، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض ، وأكثرهم أصابهم الجنون[٥] .

وقال أيضًا :

لاشك أن قتل قتلته كان متحتمًا ، والمبادرة إليه كان مغنمًا ، ولكن إنما قدره الله على يد المختار الكذاب الذي صار بدعواه إتيان الوحي إليه كافرًا ، وقد

---

(١) الرميض : من أصابته الرمضاء ، وهي شدة الحر بالهاجرة .
(٢) البهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٣) أي الذين غطاهم رسول الله ﷺ ببردته وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » . وهم الرسول ﷺ ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين .
(٤) التبصرة (٢ / ١٨) .
(٥) البداية والنهاية (٨ / ٢٠٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . وقد قال تعالى في كتابه الذي هو أفضل ما يكتبه الكاتبون : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وقال بعض الشعراء :

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم[١]

فهذا شمر بن ذي الجوشن - قبحه الله - هذا الأبرص الذي أغرى الناس بقتل الحسين ، يقتله أبو عمرة أمير حرس المختار ومن معه من الجنود ، شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله .

قال ابن كثير :

خطب المختار أصحابه فقال : ما ذنبنا نترك أقواما قتلوا حسينا يمشون في الدنيا أحياء آمنين ، بئس ناصرو آل محمد ، إني إذًا كذّاب كما سميتموني أنتم ، فإني بالله أستعين عليهم ، فالحمد لله الذي جعلني سيفًا أضربهم ، ورمحًا أطعنهم ، وطالب وترهم[٢] ، وقائما بحقهم ، وإنه كان حقًّا على الله أن يقتل من قتلهم ، وأن يذلَّ من جهل حقهم ، فسموهم ، ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم ، فإنه لا يسيغ لي الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم ، وأنفي مَنْ في المصر منهم ، ثم جعل يتتبع من في الكوفة - وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات ما يناسب ما فعلوا - ومنهم مَنْ حرّقه بالنار ، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات ، ومنهم من يرمى بالنبال حتى يموت ، فأتوه بمالك ابن بشر فقال له المختار : أنت الذي نزعت برنس الحسين عنه ؟ فقال : خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا ، فقال : اقطعوه ، يديه ورجليه ، ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات ، وقتل عبد الله بن أسيد الجهني وغيره شر قتلة[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٧) .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) .

والجزاء من جنس العمل .

وأما خولي بن يزيد الأصبحي الذي احتز رأس الحسين[١] فقد بعث إليه المختار أبا عمرة صاحب حرسه ، فكبس بيته ، فخرجت إليهم امرأته ، فسألوها عنه ، فقالت : لا أدري أين هو ، وأشارت بيدها إلى المكان الذي هو مختف فيه – وكانت تبغضه من ليلة قدم برأس الحسين معه إليها وكانت تلومه على ذلك – فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة[٢]، فحملوه إلى المختار فأمر بقتله قريبا من داره ، وأن يحرق بعد ذلك .

وقتل حكيم بن فضيل السبنسي الذي سلب العباس بن علي بن أبي طالب .

وقتل يزيد بن ورقاء ، وكان قد قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل .

وقتل فيما بعد سنان بن أنس . والجزاء من جنس العمل .

وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الذين قتلوا الحسين .

عمر هذا الذي دعا عليه سعد بن أبي وقاص والده وكان مستجاب الدعوة : اللهم اقتله وأسِلْ دمه ، لما أسال دم غلام لسعد .

عمر هذا الذي استجار بعبد الله بن جعد بن هبيرة وكان صديقًا للمختار ، فأتى المختار فأخذ منه لعمر بن سعد أمانًا مضمونة أنه آمن على نفسه وأهله وماله ما أطاع ولزم رحله ومصره ، ما لم يحدث حدثا ، وأراد المختار ما لم يأت الخلاء فيبول أو يغوط .

وجعل عمر يتنقل من محلة إلى محلة ، ولما بلغ المختار انتقاله من موضع إلى موضع فقال : كلا والله ، إن في عنقه سلسلة ترده لوجهه إن يطر لأدركه دم الحسين فأخذ برجله . ثم أرسل إليه أبا عمرة فأراد الفرار منه ، فعثر في جبته ،

---

(١) قال هذا ابن كثير في البداية والنهاية (٨ / ٢٧٥) ، وورد عنده أيضًا أن فاعل ذلك هو سنان بن أنس .

(٢) وعاء من قصب يجعل فيه التمر .

فضربه أبو عمرة بالسيف حتى قتله ، وجاء برأسه في أسفل قبائه حتى وضعه بين يدي المختار ، فقال المختار لابنه حفص - وكان جالسًا عند المختار - فقال : أتعرف هذا الرأس ؟ فاسترجع ، وقال : نعم ، ولا خير في العيش بعده . قال : صدقت ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ووضع رأسه مع رأس أبيه . ثم قال المختار : هذا بالحسين وهذا بعلي بن الحسين الأكبر ، ولا سواء[١] .

والجزاء من جنس العمل .

أما عبيد الله بن زياد رأس الفسق ، الذي كتب كتابًا لعمر بن سعد في قتل الحسين ؛ والذي قال لعمر بن سعد بعد قتل الحسين : أين الكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين ؟ فقال له : مضيت لأمرك وضاع الكتاب . فقال له ابن زياد : لتجيئن به . قال : ضاع . قال : والله لتجيئن به . قال : ترك والله يقرأ على عجائز قريش أعتذر إليهم بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك في حسين نصيحة لو نصحتها إلى سعد بن أبي وقاص لكنت قد أديت حقه . فقال عثمان ابن زياد أخو عبيد الله : صدق عمر والله . ولوددت والله أنه ليس من بني زياد رجل إلا وفي أنفه خزامة[٢] إلى يوم القيامة وأن حسينا لم يقتل[٣] .

وقد قتل عبيد الله بن زياد في يوم عاشوراء سنة سبع وستين ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين .

ظفر به ابن الأشتر ، فقتله شر قِتلة . على شاطىء نهر الخاز ، قريبًا من الموصل بخمس مراحل ، بعد هزيمة جيشه أمام جيش ابن الأشتر ، ثم بعث ابن الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير وشراحبيل بن ذي الكلاع ، وجماعة من رؤساء أصحابهم، فسرّ بذلك المختار .

لما جيء برأس ابن مرجانة وأصحابه طرحت بين يدي المختار فجاءت حية

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٧٦) .
(٢) خزامة : حلقة توضع في أنف البعير .
(٣) البداية والنهاية (٨ / ٢١٠) .

رقيقة ، ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن مرجانة وخرجت من منخره ، ودخلت في منخره وخرجت من فمه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه مِنْ بين الرءوس .

وروى الترمذي عن عمارة بن عمير قال : لما جيء برأس عبيد الله وأصحابه فنصبت في المسجد في الرحبة ، فانتهيت إليها وهم يقولون : قد جاءت قد جاءت ، فإذا حية قد جاءت تخلل الرءوس حتى دخلت في منخري عبيد الله ابن زياد ، فمكثت هنيهة ثم خرجت فذهبت حتى تغيبت ، ثم قالوا : قد جاءت قد جاءت ، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثًا[١] .

مثلما فعل بالقضيب في فم ومنخري الحسين ، والجزاء من جنس العمل .

قال ابن كثير :

قال عبد الملك بن عمير : دخلت على عبيد الله بن زياد ، وإذا رأس الحسين بن علي بين يديه على ترس، فوالله ما لبثت قليلًا حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس ، ووالله ما لبثت إلا قليلًا حتى دخلت على مصعب وإذا رأس المختار بين يدي مصعب على ترس[٢] .

وكان جزاء عبيد الله بن زياد في الدنيا من جنس عمله ، والمرد إلى الله ، فيعاقبه بقتل ابن بنت النبي .

عن أبي الطفيل قال : عزلنا سبعة أرؤس ، وغطينا منها رأس عبيد الله ابن زياد ، فجئت فكشفتها فإذا حية في رأس عبيد الله تأكل[٣] .

سجع

على قوله تعالى : ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٨٩/٨) وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٤٩/٣) . وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حسن صحيح .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ١٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٤٨/٣-٥٤٩).

سبحان من رفع للحسين بقتله مكانا ، ودمغ من عاداه فعاد بعد العزّ مُهانا ، ما ضرّه حين الشهادة مَنْ أوسعه خذلانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

هلك أهل الزَّيْغ والعناد ، وكأنهم ما ملكوا يومًا البلاد ، وعاد عليهم اللعن كما عاد على عاد ، أين يزيد ، أين ابن زياد ؟ كأنهما ما كانا لا كانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تمتعوا أيامًا يسيرة ، ثم عادت أجنحة الملك كسيرة ، وبقيت سيرة الحسين أحسن سيرة ، ومَنْ عزّت عاقبته والسيرة ، فكأنْ لم يلقَ هوانا ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

مُزِّقوا والله كل ممزَّق ، وتفرقوا بالشتات أي متفرَّق ، وظنوا أنهم رفَوْا ما جَنَوْا فتخرّق ، إن ناصر المظلوم لا يتوانى ﴿ **فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

تعززوا على مثل الحسين وطالوا ، وظنوا بقاء الملك لهم بما احتالوا ، وكيل لهم من الذم أضعاف ما كالوا ، وعجّل قلعهم من السلطة فزالوا ، سلطانًا سلطانًا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا** ﴾ .

ويلهم لو دبروا أمرهم ، لرفعوا بطاعة الحسين قَدْرهم ، ملكوا أيامًا ثم بقي الخزي دهرهم ، اشتغلوا اليوم بتسبيحكم ودعوا ذكرهم ، أهوانا ﴿ **ومن قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾[1] .

أبو مسلم الخراساني :

وانظر إلى أبي مسلم الخراساني الذي قتل من عباد الله ماقتل ، وكان فاتكًا سفاكًا .

ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه ، وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن مَنْ قتل بغير ذلك .

---

(١) التبصرة (٢ / ١٨ - ١٩) .

وسئل عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد ، ولكن كان الحجاج شرًّا منه ، كتب إليه المنصور : احذر البغي أبا مسلم ، فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتي بعدك .

وكتب هو إلى المنصور : إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهديّ وكان ضالًّا ، فأمرني أن أجرّد السيف ، وأقتل بالظنة ، وأقدم بالشبهة ، وأرفع الرحمة ، ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم ، واستنقذني بالتوبة ، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

وكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركًا ، ولأغواهما راكبًا ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة ، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين .

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه في أشياء صدرت منه ، فيعتذر عنها جيدًا ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير ، وإبراهيم بن ميمون ، وفلانا وفلانا ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمري . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عُصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ وصفق بيديه وكانت الإشارة بينه وبين المرصدين لقتله ، فتبادروا إليه ليقتلوه ، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، استبقني لأعدائك . فقال : وأي عدو لي أعدى منك ؟! ثم زجرهم المنصور ، فقطعوه قطعا ، ثم أُلقي في دجلة .

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه ، فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا .

ويقال : إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله

قال ابن جرير : وقال المنصور عند ذلك :

زعمتَ أن الدَّين لا يُقتضى فاستوفِ بالكيلِ أبا مجرمِ

سُقيت كأسًا كنتَ تسقى بها أمرَّ في الحلق من العلقَمِ

وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مسلم ما غيّر الله نعمة على عبده حتى يغيرها العبدُ

أبا مسلم خوّفتني القتل فانتحن عليك بما خوفتني الأسد الوردُ

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : يأيها الناس ، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر ، وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا .

وقال: فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا[١]. والجزاء من جنس العمل.

يوسف بن عمر :

قال الإمام الذهبي :

قال صالح بن طريف : لما قدم يوسف بن عمر العراق ، بكيت ، وقلت : هذا الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله .

قال الذهبي : يعني لما ولي إمرة اليمن ، ثم نقله الخليفة هشام إلى إمرة العراق ، وكان جبارًا عنيدًا مهيبًا ، ثم إنه عزل عن العراق ، عند مقتل الوليد الفاسق ، ثم ضربت عنقه ولله الحمد[٢] والجزاء من جنس العمل .

المعتز ، والمعتمد على الله :

قال الذهبي في ترجمة المؤيد بالله :

---

(١) البداية والنهاية : (٧٠ - ٧٣) ، سير أعلام النبلاء (٦ / ٧٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٥٦) .

عقد له أخوه بولاية عهد الخلافة من بعده ، ودُعي له في الأمصار ، ثم بلغ المعتز عنه أمر فضربه ، وخلعه من العهد ، وحبسه يومًا ، ثم أُخرج ميتًا . فقيل : أُجلس في الثلج حتى مات بردًا ، وبعث به إلى أمه ، فبعثت تقول لقبيحة أم المعتز : عن قريب ترين المعتز ابنك هكذا .

قال الذهبي : كذا وقع ، وما أمهله الله[١] .

وقال الذهبي في ترجمة المعتمد على الله : وأما الصولي . فقال : بل عذبوه في حمام ، كما هو فعل بالمعتز ، حتى أقر بالأموال ثم خنق[٢] .

قتل المعتز بعد أن أهانه الأتراك ، ولطموا وجهه ، وساموه سوء العذاب بأنواع المثلات ، وكانت أمه تدعو على صالح بن وصيف قاتله وتقول : اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدّد شملي ، وأخذ مالي ، وغرّبني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني - وكان قد تزوج بها - ثم يكون جزاء صالح بن وصيف من جنس عمله ، فقتل بعد سنة ٢٥٦ بعد طول اختفاء ، ورفع رأسه على رمح ، ونودي عليه في أرجاء البلد : هذا جزاء من قتل مولاه .

الحجاج بن يوسف الثقفي المبير :

قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثتِ الأمم فجاءت كل أمه بخبيثها ، وجئنا بالحجاج ؛ لغلبناهم[٣] .

قالت له أسماء لما دخل عليها بعد قتل ابنها عبد الله بن الزبير ، وقال لها : إن ابنك ألحد في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت، كان بارًّا بوالديه، صوّاما قوّاما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذّاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد - تعني المختار -

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٣٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٥٤١) .

(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٤٣) .

وأما المبير فأنت .

أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدًا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل : إنه لبث في سجنه ثِمانون ألفًا ، منهم ثلاثون ألف امرأة ، وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفًا .

وعن هشام بن حسّان : أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا .

كان عثمانيًّا أمويًّا ، يميل إليهم ميلًا عظيمًا ، ويرى أن خلافهم كفر ، ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم .

خطب الحجاج يومًا فقال : أيها الناس ، الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ! ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبت وضل سعيك . فقال للحرس : خذوه . فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرّأك علي ؟ فقال : ويحك يا حجّاج ، أنت تجترىء على الله ولا أجترىء أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترىء عليك ، وأنت تجترىء على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله .

وقتَل الحجاج سعيد بن جبير .

قال الإمام أحمد : قُتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال مفتقر - إلى علمه .

قال ابن كثير :

قال له الحجاج : والله لأقتلنك . قال : إني إذًا لسعيد كما سمتني أمي .

قال : فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام، يأخذ بمجامع ثوبه . ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير[1] .

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ١٠٣) .

قال الذهبي :

قال سليمان التيمي : كان الحجاج إذا أُتي بالرجل – يعني ممّن قام عليه – قال له : أكفرت بخروجك عليّ ؟ فإن قال نعم : خلّى سبيله . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلة أقتلك . قال : اختر أنت فإن القصاص أمامك(١) .

قال ابن كثير :

أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل .

قال الحجاج: إن الله خلق آدم وذريته من الأرض، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها، وشربوا أنهارها، وهتكوها بالمساحي والمرور، ثم أدال الله الأرض منهم ، فردهم إليها ، فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم في جوفها ، وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور .

فكيف بك يا حجاج وقد قتلت ابن حواري الرسول ﷺ وحفيد الصديق ، وقتلت سعيد بن جبير ؟!!

لما مات الحجاج سجد الحسن شكرًا لله . وقال : اللهمَّ ، أمتَّه ، فأذهب عنا سنته . ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح .

أنشأت جارية له عند موته تقول :

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا   واليوم يأمننا من كان يخشانا

بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل – أهل بيت الحجاج – إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد .. فإني قد بعثت بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العمل ، ففرّقهم في العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا ، وعليك السلام .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٣٣٨) .

قال ابن كثير : إنما نفاهم .

رأى الحسن البصري الحجاج في منامه : فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج . قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته .

وكذا رواها الأصمعي عن أبيه .

والجزاء من جنس العمل .

قال الذهبي في ترجمته :

كان ظلومًا، جبارًا، ناصبيًّا، خبيثًا، سفاكًا للدماء، قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير ، وحصاره لابن الزبير في الكعبة ، ورميه إياها بالمنجنيق ، وإذلاله لأهل الحرمين ، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله . فنسبُّه ولا نحبُّه ، بل نبغضه في الله ، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان[1] .

السُّمَيرمي :

الوزير الكبير، وزير السلطان محمود السلجوقي، شديد الوطأة، ذو عسف وظلم ، وسوء سيرة .

قتله بل ذبحه باطني .

قال الذهبي :

وقيل : إن الذي قتله عبد كان للمؤيد الطغرائي وزير السلطان مسعود ، فإن السميرمي قتل أستاذه[2] ظلمًا ، ونبزه بأنه فاسد الاعتقاد ، وكل قاتل مقتول[3] .

الخبيث صاحب الزنج :

المدعي أنه طالبي وهو كاذب . دخل جيشه البصرة سنة ٢٥٧هـ ، فقتل

---

(١) انظر ترجمة الحجاج ، في البداية والنهاية (٩/١٢٣ - ١٤٦) ، سير أعلام النبلاء (٤/٣٤٣) .

(٢) أي ، أستاذ هذا العبد ، وهو الطغرائي .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٤٣٣) .

من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصرة ودورًا كثيرة وانتهبوها ، ثم نادى فيهم إبرهيم بن المهلبي أحد أصحاب الزنجي : من أراد الأمان فليحضر ، فاجتمع عنده خلق كثير من أهل البصرة ، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم ، وأمر بقتلهم ، فلم يفلت منهم إلا الشاذّ . كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة ، ثم يقول بعضهم لبعض : كيلوا – وهي الإشارة بينهم إلى القتل – فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم ، وضجيجهم وهم يقتلون ؛ أي صراخ الزنـج وضحكهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهكذا كانوا يفعلون في كل محال بالبصرة في عدة أيام نحسات ، وهرب الناس منهم كل مهرب ، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل ، فكانت النار تحرق ما وجدت من شيء من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك ، وأحرقوا المسجد الجامع ، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء .

روى ابن جرير عمن سمعه يقول : دعوت الله على أهل البصرة ، فخوطبت ، فقيل : إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها ، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة ، فأوّلت الرغيف القمر وانكساره انكسافه ، وقد كان هذا شائعًا في أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به .

قال ابن كثير :

ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه ، كما كان يأتي الشيطان مسيلمة وغيره . قال : ولمّا وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع ، قال هذا الخبيث لمن معه : إني صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة ، فرفعت لي البصرة بين السماء والأرض ، ورأيت أهلها يقتلون ، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابي ، وإني لمنصور على الناس ، والملائكة تقاتل معي ، وتثبت جيوشي ، ويؤيدونني في حروبي .

وبعد أن عاث في الأرض فسادًا وقتل من قتل، كتب إليه ولي عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد . ودعاه إلى الحق ، فلم يجبه استهانة به ، فركب إليه من فوره في جيوشٍ عظيمة ، قريب من خمسين ألف مقاتل ، قاصدًا إلى المختارة

مدينة صاحب الزنج ، وجرت بينهم حروب عظيمة ، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج ، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله ، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين ، وأعظم الرزايا عند الزنَج، وخرب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال ، وقتل من كان بها من الرجال ، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال ، ولما فرّ الخبيث وتحصنّ ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلًا ، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج ، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته ، منهم سليمان بن جامع ، فاستبشر الناس بأسره ، وكبّروا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح ، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث ، فاستحر فيهم القتل ، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج ، وأتي برأسه مع غلام لؤلؤة الطولوني ، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خر ساجدًا لله ، وسجد ابن الموفق وقواده ، ومواليه وغلمانه شكرا لله ، وأكثروا حمد الله والثناء عليه ، وأمر الموفق برفع رأس الخبيث على قناة ، ونصبه بين يديه ، فتأمله الناس ، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله. وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك في المغارب والمشارق، وجيء بولده بانكلاني وأبان بن علي المهلبي مسعر حربهم مأسورين ، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير ، فتم السرور .

وسار الموفق إلى بغداد ، وقدّم ولده أبا العباس بين يديه ، ومعه رأس الخبيث يحمل ليراه الناس ، وكان يومًا مشهودًا ، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعي الكذاب قبحه الله ، وللشعراء فيما كان من أمر الموفق ، وأمر المخذول أشعارٌ كثيرة منها :

أقول وقد جاء البشير بوقعة ... أعزَّت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناسِ للناس بعدما ... أُبيح حماهمْ خيرَ ما كان جازيا
تفرّد إذْ لم ينصر الله ناصرٌ ... بتجديد دينٍ كان أصبح باليا
وتشديد ملك قد وهى بعد عزِّه ... وإدراك ثاراتٍ تُبير الأعاديا

وردّ عمارات أزيلتْ وأُخربتْ ... ليرجع فيء قد تخُرِّم وافيا
ويرجع أمصار أبيحت وأحرقت ... مرارًا فقد أمست قواءً عوافيا
ويُشفي صدور المؤمنين بوقعة ... يقرُّ بها منا العيون البواكيا
ويُتلى كتاب الله في كل مسجدٍ ... ويُلقى دعاءَ الطالبيين خاسيا

وقال آخر :

أين نجوم الكاذب المارقِ ... ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذقِ
صبحه بالنحس سعدٌ بـدا ... لسيّدٍ فـي قولـه صادقِ
وذاق من كأس الردى شربةً ... كريهة الطعم على الذائـقِ

وقال آخر :

يهوي إلى حرّ الجحيم وقعرها ... بسلاسل قد أوهنته ثقـالِ
هذا بما كسبت يداهُ وما جنى ... وبما أتى من سيىء الأعمالِ[1]

والجزاء من جنس العمل .

بابك الخرمي :

هذا الشقي الثنوي الذي كان على دين ماني ومَزْدَك ، وكان يقول بتناسخ الأرواح ، ويستحل البنت وأمها .

قيل : كان ولد زنا ، وكانت أمه عوراء ، يقال لها : رومية العلجة ، وكان علي بن مزدكان يدعي أنه زنى بها ، وبابك منه .

وقيل: كانت صعلوكة من قرى أذربيجان، فزنى بها نبطي، فحملت منه ببابك، فرُبِّيَ أجيرًا في القرية، وكان هناك قوم من الخُرَّمية لهم كبيران: جاوندان وعمران ، فتفرّس جاوندان النجابة في بابك ، فاكتراه من أمه ، فهويته زوجة جاوندان ، وأطلعته على الأسرار ، ثم قتل زوجها في محاربة لابن عمه ، فزعمت

---

(١) تاريخ الطبري (٥/٢٧٥-٢٨٨) ؛ البداية والنهاية (١١/٤٥-٤٨) .

أن زوجها استخلف بابك ، فصدقها الجميع ، فأمرهم أن يقتلوا من وجدوه في الليل ، فأصبح عدة قتلى ، وانضاف إليهم كل شرير وقاطع طريق ، وصار أمر بابك إلى ما صار ، ولقد أخاف الإسلام وأهله ، وغلب على أذربيجان وغيرها ، وأراد أن يقيم الملة المجوسية . وكان هذا الشقي يدعو إلى الإباحية وظهر في أيامه المازيار بالمجوسية في طبرستان وعظم البلاء ، ولقد دخل مازيار في الإسلام وتسمى محمدًا ، وكان صاحب جبال طبرستان ، ولقد أعلن العصيان بطبرستان ، وطلع المعتصم .

وكان المعتصم والمأمون قد أنفقوا على حرب بابك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ولقد جهز خلفاء بني العباس جيوشًا كثيرة إليه مع إفشين الحاجب ، ومحمد بن يوسف الثغري ، وأبي دلف العجلي وأقرانهم .

وفي سنة ٢٢٢هـ بعث المعتصم جيشه مع الإفشين ، وكانت نفقات الجيش ثلاثين ألف ألف درهم ، وأخذت البَذّ مدينة بابك اللعين ، واختفى في غيضة ، وأسر أهله وأولاده، وقطع دابر الخُرَّمية ، وبعد أن هرب أوقعه الله في يد الإفشين ، وسار به الإفشين إلى المعتصم بسامرا ، ولعناية المعتصم بأمر بابك وأخباره ، ولفساد الطريق بالثلج وغيره ، جعل من سامرّا إلى عقبة حلوان خيلًا مضمرة ، على رأس كل فرسخ فرسًا معه مُجرٍ مرتب ؛ فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد ، يدًا بيد ؛ وكان من خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج ، فكان يركض فيها يوما أو يومين ، ثم تبدّل ويصير غيرها ، ويُحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابّة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر ؛ فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق ، فيأخذ الخريطة منه ، فجاء الخبر في أربعة أيام وذلك مسيرة شهر . ودخل بابك إلى سامرا ، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين، فدخل إليه متنكرًا، ونظر إليه وتأمله ، وأراد المعتصم أن يُشهره ويريه الناس، فقال على أي شيء يحمل هذا؟ وكيف يشهر؟، فأمر بتهيئة الفيل، وأمر به فجعل

في قباء ديباج وقلنسوة سمّور مدورة ، وهو وحده ؛ وفي هذا قال الشاعر :

قد خُضب الفيل كعاداته يَحملُ شيطان خـراسانِ
والفيل لا تخضبُ أعضاؤه إلا لذي شأن من الشانِ

واصطف الناس سماطين ؛ وأُدخل بابك إلى أمير المؤمنين ، فأحضر جزارًا يقطع يديه ورجليه ؛ ثم أمر أن يحضر سيّافه ، فخرج الحاجب من باب العامة ؛ وهو ينادي : نودنود - وهو اسم سياف بابك - فارتفعت الصيحة بنودنود حتى حضر ، فدخل دار العامة ، فأمره أمير المؤمنين أن يقطع يديه ورجليه ، فقطعهما فسقط ، وأمر أمير المؤمنين بذبحه ، وشق بطنه ، ووجه برأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامرّا عند العقبة بموضع خشبةٍ مشهور ، وكان الإباحي بابك قد شرب الخمر ليلة قتله ، وكذا قتل أخوه ، وكان جزاء هذا اللعين الإباحي من جنس عمله .

يقول ابن جرير الطبري : كان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة إنسان[1] .

وقال الشعراء وأحسنوا في وصف ما منّ الله على المسلمين من الخير ، وتخريب البذّ بلاد بابك التي أضحت قيعانًا خرابًا ، قال أبو تمام :

قد كان عذُرة سؤددٍ فافتضّها بالسيف فحل الشرق الأفشينُ
فأعادها تعوي الثعالبُ وسْطها ولقد تُرى بالأمس وهي عرينُ
هطلت عليها من جماجم أهلها دِيَمٌ إمارتها طُلَّى وشئـونُ
كان من المهُجات قبل مفازة[2] عُسرًا فأضحت منه وهي معينُ

قال الذهبي : قيل إنه أباد من الأمة خلائق ، وبخط الإمام ابن الصلاح :

---

(١) تاريخ الطبري (٩ / ٢٢٠ - ٢٣٥) .
(٢) الفوز والفلاح .

أن قتلى بابك بلغوا ألف ألفٍ وخمسمائة ألفٍ ، وأُحصي قتلى أبي مسلم الخراساني ، فبلغوا ألفي ألف[١] .

كان للبابكية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سُرُجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عَزّ بزّ .

والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين ، ويزعمون أن أباه كان من الزنج ، وأمه من بنات ملوك الفرس ، ويزعمون أن شروين كان أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء ، وقد بَنَوْا في جبلهم مساجد للمسلمين يُؤذن فيها المسلمون، وهم يعلمون أولادهم القرآن، لكنهم لا يصلون، ولا يصومون في شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة .

ومن رحمة الله بالمؤمنين في السنوات التي تلتها أن الفرقة الإباحية الأخرى من الخرمدينية[٢] نالها الذل والهوان في السنوات القليلة بعد قتل بابك ، فإنه لما أعلن مازيار خلع المعتصم والعصيان بطبرستان ، كتب المعتصم إلى عبد الله ابن طاهر بن الحسين يأمره بحربه ، فسيّر إليه عمه الحسن بن الحسين ، فكانت له معه حروب كثيرة ، وما زال حتى أسره وحمله إلى سامرا ، فضرب المازيار بالسوط حتى مات بعد أن شهر ، وصلب إلى جانب بابك ، وفيه يقول أبو تمام :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها   أن صار بابكُ جار مازيّار
ثانيه في كبد السماء ، ولم يكن   لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار[٣]

وذهب الإباحي الظالم الغاشم الجبار .

ومن العجب أن مازيار هذا قال : إن الإفشين جعل أخاه يكتب إلى مازيار

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٢٩٧) .

(٢) في الفرق بين الفرق : أن الخرمدينية ظهروا في دولة الإسلام ، وهم فريقان بابكية ، ومازِيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة، انظر : الفرق بين الفرق ص٢٦٦ .

(٣) الفرق بين الفرق ص٢٦٦ - ٢٦٩ .

بنصر الدين الأبيض دين المجوسية ، وجيء به وقد ضرب إمام مسجد ومؤذن ألف سوط ؛ لأنهما وثبا على بيت أصنام بأشروسنة ، فرميا الأصنام وعملاه مسجدًا ، وقال موبذ ملك السند عن الإفشين : إنه يأكل المخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول : لحمها أرطب ، وكان أهل مملكته من الفرس يكتبون إليه : إلى الإله من عبده ، ولم يختتن ، ولم يحلق عانته قط ، وأراد الإفشين قتل المعتصم سمّا هو وقوّاده بعد أن أنفق عليه المعتصم ألفي ألف دينار ، فكان جزاؤه أن منع عنه الطعام حتى هلك ، ثم صُلِب ميتًا ، وأحرق مع أصنام عنده[1] .

يقول أبو تمام فيه :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه   حتى اصطفى سرَّ الزنادِ الواري

٣ - عقوق الوالدين

قال ﷺ : « رضا الرب في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما »[2].

وقال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا : البغي والعقوق »[3] .

وقال ﷺ : « اثنان يعجلهما الله في الدنيا : البغي وعقوق الوالدين » .

قال المناوي :

« رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما » أي غضبهما الذي يخالف القوانين الشرعية ، فإن قيل : ما وجه تعلق رضا الله عنه برضا الوالد قلنا : الجزاء من جنس العمل ، فلما أرضى من أمر الله بإرضائه رضي الله عنه فهو من قبيل لا يشكر الله من لا يشكر الناس .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٣٠٠ - ٣٠٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٠١ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٠٧ .

قال الغزالي : وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه ، ويقوم بقيامه ، ويمتثل أمره ولا يمشي أمامه ولا يرفع صوته ، ويلبي دعوته ، ويحرص على طلب مرضاته ، ويخفض له جناحه بالصبر ، ولا يمنّ بالبر له ، ولا بالقيام بأمره ، ولا ينظر إليه شزرًا ، ولا يقطب وجهه في وجهه[1]. اهـ .

اعلم يا أخي ، أن العقوق ثكل من لم يثكل ، وعذاب رعف به الدهر ، وبلاء لا يقاومه الصبر .

روى ابن أبي الدنيا عن أبي قَزَعة ، رجل من أهل البصرة، قال: مررنا ببعض المياه التي بيننا وبين البصرة ، فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا النهيق ؟ قالوا : هذا رجل عندنا ، فكانت أمه تكلمه بالشيء ، فيقول : انهقي نهيقك . فكانت أمه تقول : جعلك الله حمارًا ، فلما مات ، نسمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة[2].

وعن أبي عبد الرحمن الطائي قال : كان رجل من بني نهد قد كَبِرَ وضعُف ، يُكنَى أبا منازل ، وله ابن يقال له : مُنازل ، وكان له ولد صغار ، فكان إذا أصاب شيئًا أعطاهم إياه ، وكان يقبض عطاء أبيه ، وكان شيخًا كبيرًا ، فولد للشيخ بنون صغار ، فكان منازل يستأثر عليهم ، فلما خرج العطاء ، خرج منازل يقود أباه ، حتى أجلسه لقبض عطائه ، فلما نودي باسمه ، قام منازل ، فقال : أعطوني عطاءه ، فقام الشيخ فقال : أعطوني عطائي في يدي ، ففعلوا ، فحمل عطاءه ، ثم قام يتوكأ على مُنازل ، فقال مُنازل : هلم أحمله عنك قال : دعه ، فلما خلا له الطريق، فكّ يد أبيه، ثم أخذ العطاء، فذهب به، فانصرف الشيخ، وليس معه في يده شيء فقال له أهله وولده: ما صنعت؟ قال: أخذ منازل عطائي، ثم أنشأ يقول:

جَرَتْ رَحِمٌ بيني وبَيْن منازلٍ ... جزاءً كما يستنجزُ الدَّيْنَ طالِبُهْ
ورَبَّيْتُه حتى إذا ما هو استوى ... كبيرًا وسادى عامل الرمح غارِبُهْ
تظَلَّمني مالي كذا وَلَوى يَدي ... لوى يَدَهُ الله الذي هُو غالبُهْ

فأصبح منازلٌ ملويا يده[3] .

---

(١) فيض القدير (٣٣/٤) . (٢) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٨٤ .

(٣) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص١٠٤ - ١٠٥ ، والإصابة لابن حجر (٢١٢/٣) .

وذكر العلماء أن رجلًا كان عنده والد كبير ، فتأفّفَ من خدمته ومن القيام بأمره ، فأخذه وخرج إلى الصحراء ليذبحه ، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك فقال : يابني ، ماذا تريد أن تفعل بي ؟ قال : أريد أن أذبحك ، قال : إن أَبَيْتَ إلّا ذبحي فاذبحني عند الصخرة التالية ، أنا كنت قبلك عاقًا لوالدي ، وذبحته عند تلك الصخرة ، ولك يا بنيّ مثلها .

النضيرة بنت الساطرون صاحب الحضر :

الساطرون هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر ، وهو حصن على حافة الفرات ، وبداخله مدينة عظيمة .. أغار عليه سابور وحصره سنتين ، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلًا ، فدّست إليه أتتزوجني إن فتحت لك باب الحضر ؟ فقال : نعم ، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران ، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه ، وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب - ويقال : بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع - فولجوا منه إلى الحضر ، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه ، وسار بها معه فتزوجها ، فبينا هي نائمة على فراشها ليلًا إذ جعلت تململ لا تنام ، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس . فقال لها سابور : أهذا الذي أسهرك ! قالت : نعم . قال : فما كان أبوك يصنع بك ؟ قالت : كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني المخ ، ويسقيني الخمر . قال : أفكان جزاء أبيك ما صنعت به ؟ أنت إليّ بذلك أسرع ، فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها .

كما كانت سببا في مقتل أبيها ..

والجزاء من جنس العمل .

قال عدي بن زيد :

والحضْرُ صابت عليه داهية … من فوقه أيدٍ مناكبُها
ربّية لم توقّ والدَها … لحينها إذ أضاع راقبُها

إذ عنقته صهباءَ صافيــة والخمر هل يهيم شاربها
فـأسلمـت أهـلـها بليلـتها تظنّ أن الرئيس خاطبهـا
فكان حظّ العروس إذ جشر[1] الصُّبْـــح دماءً تجري سبائبهـا
وخُرِّب الحضرُ واستبيح وقد أُحرق في خدرها مشاجبها[2]

فإياك والعقوق ، فإنه أحد الثكلين ، ولرُبَّ عقم أقرّ للعين . فحال العاقّ مع أبيه كالقلم الرّدِي ، والسيف الصّدي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويرضَعُ أخلافَ الخِلاف ، إن أقدم والده أحجم ، وإذا أعرب أعجم ، وإن أذكى أخمد ، ومتى شوى رَمّدْ ؛ مع أنه كفله مذْدبٌ إلى أن شب ، وكان له ألطف من ربّى وربّ .

يصدق فيه قول القائل :

غذوتك مولودًا وَعُلْتُك يافعًا تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضاقتك بالسّقم لم أبتْ لسقمك إلّا ساهرًا أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذِي طُرِقت به دُوني فعيناي تهملُ
تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلمّا بلغت السنّ والغاية التي إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤمّلُ
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً كأنك أنتَ المُنْعِمُ المتفضلُ
فليتك إذْ لم ترعَ حقّ أبوّتي فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

الشاعر جرير بن عطية :

كان جرير بن عطية الشاعر أعقّ الناس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع بلَالًا في الكلام ، فقال له بلال : الكاذب بيني وبينك فاعل بأمه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : يا عدو الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير : دعيه ، فكأنه سمعها مني وأنا أقولها لأبي[3] .

---

(١) جشر : طلع . (٢) البداية والنهاية (٢/١٦٨-١٧٠) .
(٣) شرح مقامات الحريري للشريبني (٤ / ٢٢٩) .

الحطيئة الشاعر :

كان عاقًا لأمه وأبيه ، كثير الهجاء حتى إنه هجا أباه وأمه ، وخاله وعمه ، ونفسه وعروسه ، فممّا قال في أمه قوله :

تنحّي فاقعديْ عني بعيدًا ... أراح اللهُ منك العالمينا

أغربالًا إذا استُودعت سِرًّا ... وكانونًا على المتحدثينا

جزاك الله شرًّا من عجوزٍ ... ولقّاك العقوقَ من البنينا

وقال في أبيه وعمه وخاله :

لحاك[1] الله ثم لحاك حقًّا ... أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ

فنعم الشيخ أنت لدى المخازي ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالي

جمعت اللؤم لا حيّاك ربي ... وأبواب السفاهة والضلالِ

ومما قال في عروسه :

أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى بيت قعيدته لكاعِ

فلمّا كان عاقًا لوالديه سلّطه الله على نفسه فهجاها ، وهذه والله أقذع من عقوق ولده له .

يقول في نفسه يذمها :

أبتْ شفتاي اليوم أن تتكلما ... بشَرٍّ فما أدرى لِمَن أنا قائلُهْ ؟

أرى لي وجهًا شوَّه اللهُ خلقهُ ... فقبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حاملُهْ

ويقال : أن عمر أراد أن يقطع لسانه، فشفعوا فيه حتى أطلقه .

والجزاء من جنس العمل .

أيها المضيِّعُ لآكد الحقوق ، المعتاض من بر الوالدين بالعقوق ، الناسي لِمَا يجبُ عليه ، الغافل عمّا بين يديه ، بر الوالدين عليك دين ، وأنت تتعاطاه باتباع الشين ، تطلب الجنة بزعمك ، وهي تحت أقدام أمك ، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج ، وكابدت عند الوضع ما يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لبنًا ، وأطارت لأجلك وسنًا ، وغسلت بيمينها عنك الأذى ، وآثرتك على

(١) قبّحك ولعنك .

نفسها بالغِذا ، وصيّرتْ حجرها لك مهدًا ، وأنالتك إحسانًا ورفْدًا ، فإن أصابك مرض أوْ شكاية ، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلتْ مالها للطبيب ، ولوْ خُيّرتْ بين حياتك وموتها ، لطلبت حياتك بأعلى صوتها ، هذا وكم عاملتَها بسوء الخلق مرارًا ، فدعت لك بالتوفيق سرًّا وجهارًا ، فلما احتاجتْ عند الكبر إليك ، جعلتها مِنْ أهون الأشياء عليك ، فشبعتَ وهي جائعة ، ورويتَ وهي قانعة ، وقدَّمتَ عليها أهلك وأولادك بالإحسان ، وقابلت أياديها بالنسيان ، وصعب لديك أمرها وهو يسير ، وطال عليك عمرها وهو قصير ، هجرتها وما لها سواك نصير ، هذا ومولاك قد نهاك عن التأفف ، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف ، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين ، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين ، يناديك بلسان التوبيخ والتهديد ﴿ **ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ [الحج : ١٠][1] .

٤ - الانتحار

قال رسول الله ﷺ : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار »[2] .

وقال ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يتوجأ[3] بها في بطنه ، في نار جهنم ، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن شرب سَمًّا ، فقتل نفسه ، فهو يتحسّاه[4] في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدا ، ومَنْ تردى[5] من جبل ، فقتل نفسه ، فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا »[6] .

وروى مسلم عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال : « ليس على رجل نذر فيما لا يملك ، ولعن المؤمن كقتله ، ومَنْ قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذّب به يوم القيامة ، ومن ادّعى دعوى كاذبة ؛ ليتكثر بها - لم يزده الله إلا قلّة ، ومن حلف على يمين صبرٍ فاجرة » .

---

(١) الكبائر للذهبي ص٤٦، طبع دار الوعي حلب. (٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.
(٣) يطعن . (٤) يشربه في تمهل ويتجرعه . (٥) رمى بنفسه .
(٦) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

وروى الإمام مسلم عن ثابت بن الضحاك قال : قال النبي ﷺ : « من حلف بملة سوى الإسلام كاذبًا فهو كما قال ، ومَنْ ذبح نفسه بشيء ذبح به يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

قال الإمام النووي :

وأما قوله ﷺ: «فهو في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا». فقيل فيه أقوال:

أحدها : أنه محمول على مَنْ فعل ذلك مستحلًا مع علمه بالتحريم ، فهذا كافر ، وهذه عقوبته .

والثاني : أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة ، لا حقيقة الدوام ، كما يقال خلّد الله ملك السلطان .

والثالث : أنَّ هذا جزاؤه ، ولكن تكرّم نسبحانه وتعالى فأخبر أنه لا يخلد في النار من مات مسلمًا[١].

عن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هل لك في حصن حصين ومنعة ؟ قال : حصن كان لدوس في الجاهلية ، فأبى ذلك النبي ﷺ للذي زخر الله للأنصار ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو ، وهاجر معه رجل من قومه ، فاجتَوَوا[٢] المدينة ، فمرض فجزع ، فأخذ مشاقص[٣] له، فقطع بها براجمه[٤]، فشخبت[٥] يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه ، فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيًا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ، فقال : مالي أراك مغطيًا يديك ؟ قال : قيل لي : لن نُصلح منك ما أفسدت . فقصّها الطفيل على رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ: «اللهم وليديه فاغفر»[٦].

قال النووي :

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٣/١).
(٢) كرهوا المقام بها لضجر ونوع سقم.
(٣) المشاقص جمع مِشقَص ، سهم فيه نصل عريض . وقال الجوهري : ما طال وعرض .
(٤) البراجم : جمع برجمة وهي مفاصل اليد .
(٥) شخبت يداه : سال دمهما ، وقيل : سال بقوة .
(٦) رواه مسلم .

باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر .

أما أحكام الحديث : ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة أن مَنْ قتل نفسه ، أو ارتكب معصية غيرها ، ومات من غير توبة فليس بكافر ، ولا يقطع له بالنار ، بل هو في حكم المشيئة ، وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليدُ قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار ، وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصي ، فإنّ هذا عوقب في يديه ، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصي لا تضر . والله أعلم[1] اهـ .

٥ - أكل الرِّبا

قال ﷺ: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه هم فيه سواء»[2].

وفي الصحيح عند أحمد والترمذي والحاكم : « لعن الله الربا ، وآكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده وهم يعلمون » .

وقال ﷺ : « إن أبواب الربا اثنان وسبعون حوبًا[3] ، أدناه كالذي يأتي أمه في الإسلام »[4] .

وقال ﷺ : « أهون الربا كالذي ينكح أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »[5] .

وقال ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم - أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية »[6] .

---

(١) شرح النووي على مسلم (٣١٩/١). (٢) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

(٣) أي سبعون ضربا من الإثم « نهاية » .

(٤) صحيح: رواه الطبراني عن عبد الله بن سلّام، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٢٧ .

(٥) حسن : رواه أبو الشيخ في : التوبيخ ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٢٨ .

(٦) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عبد الله بن حنظلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٧٠ .

وقال ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابًا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه ، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه »[١] .

وقال ﷺ : « الربا ثلاثة وسبعون بابًا ، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم »[٢] .

وقال ﷺ : « الربا سبعون حوبًا ، أيسرها أن ينكح الرجل أمه »[٣] .

وقال ﷺ: «ما ظهر في قوم الربا والزنا، إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»[٤].

وقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[٥].

قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

في ضمن هذا الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطريق على الناس : هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه في تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها ، فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله[٦] .

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣١.

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٣ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٥.

(٤) حسن : رواه أحمد عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥١٠ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٩٢ .

(٦) التفسير القيم ص١٧٢ .

قال تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله** ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

قال ابن كثير :

شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم ، وقيامهم منها لبعثهم ونشورهم ، فقال : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا ، وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق . رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير ، والسديّ ، والربيع بن أنس ، ومقاتل ، نحو ذلك ، وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل أنهم قالوا في قوله : ﴿ **لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد[1] اهـ .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع ، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جنّ .

أقول : وهذا هو المتبادر ، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه ، وقالوا : إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .

أقول : والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال ابن عطية ؛ لأنه إذا ذُكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث .

---

(١) تفسيره ابن كثير (١ / ٤٨٢) .

أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر في نفسه ، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضيرت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودًا لذاته ، وتركوا لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعي ، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم ، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة ، والمغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم حتى يكون خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فإن التخبط من الخبط ، وهو ضرب غير منتظم ، وكخبط العشواء ، وبهذا يمكن الجمع بين ما قاله ابن عطية وما قاله الجمهور ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم ، كان لابد أن يبعثوا عليه ، فإن المرء يبعث على ما مات عليه ؛ لأنه يموت على ما عاش عليه ، وهناك تظهر صفات النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها[1] اهـ .

والجزاء من جنس العمل .

قال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب :

للمفسرين في الآية أقوال :

القول الأول : أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا ، وذلك كالعلامة المخصوصة بآكل الربا ، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة أنه آكل الربا في الدنيا ، فعلى هذا معنى الآية : إنهم يقومون مجانين ، كمن أصابه الشيطان بجنون .

القول الثاني : قال ابن منبه : يريد إذا بعث الناس من قبورهم خرجوا مسرعين ، لقوله تعالى : ﴿ **يخرجون من الأجداث سراعا** ﴾ [المعارج : ٤٣] إلّا أكلة الربا ، فإنهم يقومون ويسقطون ، كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وذلك لأنهم أكلوا الربا في الدنيا ، فأرباه الله في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم ،

---

(١) تفسير المنار (٣ / ٩٤ - ٩٥) .

فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الإسراع ولا يقدرون . وهذا القول غير الأول لأنه يريد أن أكلة الربا لا يمكنهم الإسراع المشي بسبب ثقل البطن ، وهذا ليس من الجنون في شيء .

القول الثالث : أنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] وذلك لأن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات ، والاشتغال بغير الله ، فهذا هو المراد من مسّ الشيطان ، ومَنْ كان كذلك ، كان في أمر الدنيا متخبطًا ، فتارة الشيطان يجره إلى النفس والهوى ، وتارة الملك يجره إلى الدين والتقوى ، فحدثت هناك حركات مضطربة وأفعال مختلفة ، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان ، وآكل الربا لاشك أنه يكون مفرطًا في حب الدنيا متهالكًا فيها ، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك الحب حجابا بينه وبين الله تعالى ، فالخبط الذي كان حاصلًا في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة ، وأوقعه في ذل الحجاب وهذا التأويل أقرب عندي من الوجهين اللذين نقلناهما عمنّ نقلنا[1] .

خبط في الدنيا يورث خبطًا في الآخرة ، والجزاء من جنس العمل .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

قوله : ﴿ **لا يقومون** ﴾ حقيقة القيام : النهوض والاستقلال ، ويطلق مجازًا على تحسن الحال وعلى القوة ، من ذلك : قامت وقامت الحرب . فإنْ كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى : لا يقومون يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان ؛ أي إلا قيامًا كقيام الذي يتخبطه الشيطان ، وإن كان القيام المجازي ، فالمعنى إما على أن حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعا لجشعهم ، قاله ابن عطية ، ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم ووفرة مالهم وقوة تجارتهم ، بما يظهر من حال الذي يتخبطه الشيطان حتى تخاله قويًّا سريع الحركة ، مع أنه لا يملك لنفسه شيئًا ، فالآية على المعنى الحقيقي وعيد لهم بابتداء تعذيبهم من وقت القيام

---

(١) مفاتيح الغيب (٣ / ٦٥٠ - ٦٥١) .

للحساب ، إلى أن يدخلوا النار ، وهذا هو الظاهر ، وهو المناسب لقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا** ﴾ وهي على المعنى المجازي تشنيع أو توعد بسوء الحال في الدنيا ولُقيّ المتاعب ومرارة الحياة تحت صورة يخالها الرائي مستقيمة[(١)] اهـ .

يقول صاحب الظلال :

إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط ، الذي لا ينال استقرارًا ولا طمأنينة ولا راحة ، وإذا كان هناك شك في الماضي ، أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقى مجالًا للشك أبدا .

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم في أنحاء الأرض هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية ، باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية والإنتاج الصناعي في مجموعة من الضخامة في هذه الأقطار ، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار ، ثم هو عالم الحروب الشاملة ، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك ، إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التي لا تزيلها الحضارة المادية ولا الرخاء المادي ، ولا يُسْر الحياة المادية . وخفضها ولينها في بقاع كثيرة ، وما قيمة هذا كله إذا لم ينشيء في النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة . إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كي لا يرى حقيقة أن الناس في أكثر بلاد العالم رخاءً عاما في أمريكا وفي السويد – وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاءً ماديًّا – أن الناس ليسوا سعداء ، أنهم قلقون يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء وأن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج ، وأنهم يغرقون هذا الملل في العربدة

---

(١) التحرير والتنوير (٣ / ٨١ – ٨٢) .

والصخب تارة وفي التقاليع الغريبة الشاذة تارة ، وفي الشذوذ الجنسي تارة ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذي يعشش فيها ، ومن الشقاء الذي ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها ، فيهربون بالانتحار ، ويهربون بالجنون ، ويهربون بالشذوذ ، ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ، ولا يدعهم يستريحون أبدًا لماذا ؟؟.

السبب الرئيس هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكوسة ، على كل ما لديها من الرخاء المادي من زاد الروح ، من الإيمان ، من الاطمئنان إلى الله ، وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التي ينشئها ويرسمها الإيمان بالله ، وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه ، ويتفرّع من ذلك السبب الرئيس الكبير بلاء الربا ، بلاء الاقتصاد الذي ينمو ولكنه لا ينمو سويًّا معتدلًا ، بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها ، إنما ينمو مائلًا جانحًا إلى حفنة الممولين المرابين القابعين وراء المكاتب الضخمة في المصارف ، يقرضون وليس هدفهم سد مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع ، والتي تكلف دعمًا منتظمًا ورزقًا للجميع ، والتي تهيء طمأنينة نفسية للجميع ، ولكن هدفه إنتاج ما يحقق أعلى قدرًا من الربح ، ولو حطم الملايين ، وحَرَم الملايين ، وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق في حياة البشرية جميعًا ، وصدق الله العظيم : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ الآية[1] [البقرة: ٢٧٥].

آكل الربا يعذب في قبره ومعاده بجنس عمله :

وفي حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري : « فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » - وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغرله فاه[2] فألقمه حجرًا » .

---

(١) الظلال (١/٣٢٦ - ٣٢٧) .

(٢) في رواية جرير بن حازم : « فأقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا أراد أن يخرج رمى =

وفي الحديث : « وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا »[١] .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر ، وإلقامه الحجارة ؛ لأن أصل الربا يجري في الذهب والذهب أحمر ، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا ، وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه[٢] .

فجزاء أكلهم أموال الناس بالباطل أنهم يعومون في ذلك النهر السيىء ، ويلقمون الحجارة ؛ لأنهم قد شبعوا منه في الدنيا جزاءً وفاقًا[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ :

إن السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية ، وظله الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبة في هجير الأثرة والشح والطمع - لا يعرفها المناكيد الناشئون في هجير الجاهلية المادية الحاضرة ، ولا مذاق ولا طعم له في حسهم المتحجر البليد .

إن وحوش المرابين القابعين في زوايا ، يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذي تحل بهم المصائب ، فيحتاجون للمال : للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم ، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكزّ الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ، فيلجئون إلى أوكار الوحوش فرائس سهلة ، تسعى إلى الفخاخ

= الرجل بحجر في فيه ، وردّه حيث كان » ويجمع بين الروايتين أنه إذا أراد أن يخرج فغرفاه ، وأنه يلقمه الحجر برميه إياه . الفتح (١٢ / ٤٦٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

(٣) المعاصي وآثارها على الفرد والمجتمع ، تأليف : حامد المصلح ، تقديم : الشيخ عائض القرني ص١٧٦ - ١٧٧ .

بأقدامها ، تدفعها الحاجة ، وتزجيها الضرورة .

هؤلاء الذين كانوا حربًا على الناس ماذا يكون جزاؤهم ؟

حرب معلنة من الله ورسوله ، في صورة شاملة داهمة غامرة ، حرب على الأعصاب والقلوب ، حرب على البركة والرخاء ، حرب على السعادة والطمأنينة ، حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض ، حرب المطاردة والمشاكسة ، حرب الغبن والظلم ، حرب القلق والخوف ، وأخيرًا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول ، الحرب الساحقة الماحقة ، التي تأكل الأخضر واليابس جزاءً وفاقًا بما أثقلوا كاهل الناس بالضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم ، فعم الفقر والسخط ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدّامة ، فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع ، إن لم يقع هذا كله هو خراب النفوس ، وانهيار الأخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشري من أساسه ، وتدميره بما لا تبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة ..

حرب بحرب ، والجزاء من جنس العمل .

مثلما خنقوا أنفاس البشرية وسحقوها سحقًا بالربا الملوث بدلًا من الاقتصاد الإسلامي، النظام القوي، والمنبت الطاهر الزكي، والحلم الندي الممثل في واقع أرضي.

قال ﷺ : « ما أحد أكْثَرَ من الرّبا ، إلّا كان عاقبة أمره إلى قلة »[1].

قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

قال ابن كثير :

يذهبه ، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعذبه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ [المائدة : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ **ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم** ﴾ [الأنفال : ٣٧] ، وقال :

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

﴿ وما آتيم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾[الروم : ٣٩] .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « الربا وإن كثر فإلى قل »(١) (٢) اهـ .

عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « رأيت البارحة رجلين أتياني ، فأخذا بيدي ، فأخرجاني إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ، ورجل قائم على رأسه بيده كلّوب من حديد ، فيدخله في شدقه ، فيشقه حتى يخرجه من قفاه ، ثم يخرجه فيدخله في شقه الآخر ، ويلتئم هذا الشدق فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا رجل مستلقٍ على قفاه ، ورجل قائم بيده فِهر ، أو صخرة فيشدخ بها رأسه ، فيتدهده الحجر ، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان ، فيصنع مثل ذلك ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على بناء التنور أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت ارتفعوا ، حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا نهر من دم ، فيه رجل ، وعلى شاطىء النهر رجل بين يديه حجارة ، فيقبل الرجل الذي في النهر ، فإذا دنا ليخرج رمى من فيه حجرًا ، فرجع إلى مكانه ، فهو يفعل ذلك به ، فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقت ، فإذا روضة خضراء ، وإذا فيها شجرة عظيمة ، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان ، وإذا رجل قريب منه بين يديه نار ، فهو يحشها ويوقدها ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود وصححه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٤٨٦) .

فصعدا بي في شجرة ، فأدخلاني دارًا ، لم أر دارًا قط أحسن منها ، فإذا فيها رجال شيوخ وشباب ، وفيها نساء وصبيان ، فأخرجاني منها ، فصعدا بي في الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل ، فيها شيوخ وشبان ، فقلت لهما : إنكما قد طوّفتماني منذ الليلة فأخبراني عمّا رأيت ، قالا : نعم .

أما الرجل الأول الذي رأيت ، فإنه رجل كذاب ، يكذب الكذبة ، فتحمل عنه في الآفاق ، فهو يصنع به مارأيت إلى يوم القيامة ، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء .

وأما الرجل الذي رأيت مستلقيًا على قفاه ، فرجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ، ولم يعمل بما فيه بالنهار ، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة .

وأما الذي رأيت في التَّنور ؛ فهم الزناة وأما الذي رأيت في النهر ؛ فذاك آكل الربا ... »[1] الحديث .

ورواية البخاري : كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحد منكم من رؤيا ؟ » قال : فيقص عليه ما شاء الله أن يقص . وإنه قال لنا ذات غداة : « إنه أتاني الليلة آتيانِ ، وإنهما ابتعثاني وإنهما قالا لي : انطلق . وإني انطلقت معهما ، وإنا أتينا على رجل مضطجع ، وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يَهْوِي بالصخرة ، لرأسه ، فيثلغ[2] رأسه ، فيتدهده[3] الحجر هاهنا ، فيتبع الحجر فيأخذه ، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل به مثلما فعل به المرة الأولى » ، قال : «قلت لهما: سبحان الله، ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر[4]

---

(١) رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن سمرة .

(٢) يثلغ : أي يشدخه .

(٣) يتدهده : وفي رواية : « يتدأدأ » ، وفي رواية : « فيتدهدأ » كلٌّ بمعنى ، والمراد دفعه من علو إلى أسفل وتدهده إذا انحط ، وتدأدأ تدحرج وهو بمعناه .

(٤) يشرشر : أي يقطعه شقا ، والشدق : جانب الفم .

شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه - قال : وربما قال أبو رجاء - فيشق » قال : « ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثلما فعل المرة الأولى » . قال : « قلت : سبحان الله ما هذا ؟ قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور ، وأحسب أنه كان يقول : فإذا فيه لغط وأصوات » . قال : « فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا »[1] . قال : « قلت لهما : ما هؤلاء؟ » قال : « قالا لي انطلق انطلق » قال : « فانطلقنا ، فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول : « أحمر مثل الدم » وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة ، فيفغر له فاه ، فيلقمه حجرًا فينطلق ، يسبح ثم يرجع إليه ، كلما رجع إليه فغر له فاه ، فألقمه حجرًا » . قال : «قلت لهما: ما هذان؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق». قال : « فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة ، كأكره ما أنت راءٍ رجلًا مرآه ، وإذا عنده نار يحشها[2] ، ويسعى حولها » . قال : « قلت لهما : ما هذا ؟ » . قال : « قالا لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة[3] ، فيها من كل لون ربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قط » . قال : « قلت لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟». قال : «قالا لي: انطلق انطلق ، فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن». قال: «قالا لي: ارقَ، فارتقيت

---

(١) ضوضوا بغير الهمزة للأكثر ، وحكي الهمز ، أي رفعوا أصواتهم مختلطة ، قال في النهاية : الضوضاة : أصوات الناس ولغطهم ، وكذا الضوضى .

(٢) يحشها : يوقدها . قال الجوهري : حششت النار أحشها حشا أوقدتها ، وقال ابن العربي : حركها .

(٣) قال الداودي : غطاها الخصب - فوصفها بشدة الخضرة - تقول نخلة عتيمة طويلة .

فيها » . قال : « فارتقينا فيها ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ ، وشطر كأقبح ما أنت راء » . قال : « قال لهم : اذهبوا فقعوا » . قال : « وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة » . قال : « قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك » . قال : « فسما بصري صعدًا ، فإذا قصر مثل الربابة[1] البيضاء » . قال : « قالا لي : هذاك منزلك » قال : « قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله ، قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله » . قال : « قلت لهما : فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا ، فما هذا الذي رأيت؟» قال : « قالا لي : أما إنا سنخبرك :

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر ، فإنه الرجل يأخذ بالقرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق .

وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور ، فهم الزناة والزواني .

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر ، فإنه آكل الربا .

وأما الرجل الكريه المرآة ، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها ، فإنه مالك خازن جهنم .

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ﷺ ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة». قال: «فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ . « وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطرًا منهم حسن وشطرًا قبيح فإنهم قوم خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا

---

(١) الربابة : السحابة البيضاء ، وكل سحابة منفردة دون السحاب ولو لم تكن بيضاء ، والسحابة التي ركب بعضها على بعض .

تجاوز الله عنهم »[١].

٦ - أخذ كتاب الله ثم رفضه والنوم عن الصلاة المفروضة

مرّ في حديث سمرة عقوبة رفض القرآن من العذاب في القبر .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة ، لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه ، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس .

وقال أيضًا : يحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل .

والجزاء من جنس العمل ، فلأن هذا الرجل رفض القرآن ، وجعله وراء ظهره ، وتثاقل عنه ، وكذلك عن الصلاة المكتوبة ، فلم يصلها مع عباد الله في جماعة المسلمين ، بل ثقل رأسه على الفراش ، فجزاؤه أن يثلغ ويرضخ هذا الرأس الذي هذا فعله وشأنه ، وهكذا يعذب إلى قيام الساعة ، فقد جاء في بعض الرويات « .. فيفعل به إلى يوم القيامة »[٢][٣] .

قيل للحسن : رجل يحفظ القرآن ثم لا يقوم به الليل . فقال : ذاك رجل يتوسد القرآن .. فكيف بمن تركه وأعرض عنه .

٧ - الكـذب

قال تعالى : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ [النحل : ١٠٥] .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا ، بعد صلاة الصبح .

(٢) رواية رواها البخاري مع الفتح (٣ / ٢٥١) .

(٣) المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع ، تأليف حامد المصلح ص ١٧٥ .

قال ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »(١) .

وفي الحديث الصحيح : « وإن الكذب يهدي إلى الفجوز ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » .

وفي الحديث : « كان أبغض الخلق إليه الكذب »(٢) .

وقال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا ، مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم ، والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى أن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم ، إذا تواصلوا »(٣) .

اعلم يا أخي ، أن من أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب .

قال عمر بن عبد العزيز : ما كذبت منذ شددت عليّ إزاري .

قال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب : ما من خطيب إلا وتُعرض خطبته على عمله ، فإن كان صادقًا صدق وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقاريض من نار ، كلما قرضتا نبتتا ..

وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب ، حتى يخرج أحدهما صاحبه .

---

(١) حسن : رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٧٧ .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة ، ورواه أحمد وابن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٩٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ .

قال الليث بن سعد : كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك ؟ فأقول : لا أفعل .

وعن خوات التيمي : جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت : كيف أنت يا بُنيّ ؟ فجلس الربيع وقال : أرضعتيه ! قالت : لا ، قال : ما عليك لو قلت : يا بن أخي فصدقت ؟[(١)] .

روى البخاري عن واثلة بن الأسقع قال ﷺ : « إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ، أو يري عينيه في المنام ما لم تريا ، أو يقول عليّ ما لم أقل »[(٢)] .

وأخرج من حديث ابن عمر : « من أفرى الفرى أن يري عينيه ما لم تريا »[(٣)] .

وفي حديث سمرة بن جندب عقوبة الكذاب في القبر ، والجزاء من جنس عمله .

قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : لما كان الكاذب يساعد أنفه وعينه لسانه على الكذب بترويج باطله . وقعت المشاركة بينهم في العقوبة .

وقال ابن حجر أيضًا : قال ابن العربي : شرشرة شدق الكاذب إنزال العقوبة بمحل المعصية ، وعلى هذا تجرى العقوبة في الآخرة بخلاف الدنيا[(٤)] .

٨ - الزنا

جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنا شر سبيل ، فقال تعالى : ﴿ ولا

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ١٤٥ - ١٥٠) .
(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .
(٣) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .
(٤) فتح الباري (١٢ / ٤٦١) .

تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

ومقيل أهلها في الجحيم شر مقيل ، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنور من نار ، يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهم اللهب ضجوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي ﷺ في منامه ، ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى - مع كمال رحمته - شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله ، ومن قبحه أن الله سبحانه وتعالى فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة ، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا ، وكنت فيمن رجمها .

يقول ابن القيم في عقوبة الزاني وأثر الزنى : ومنها الرائحة التي تفوح عليه ، يشمها كل ذي قلب سليم ، تفوح مِنْ فيه وجسده ، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ، ونادت عليه ، ولكن كما قيل :

كلٌّ به مثل ما بي غير أنهمُ ... مِنْ غيرة بعضهم للبعض عذّالُ

ومنها ضيقة الصدر وحرجه ، فإن الزناةَ يعاملون بضد مقصودهم ، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط ، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش - لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له ، مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته .

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن ، والله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة ، فكذلك مَنْ تمتع بالصور المحرمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن

توسّع في حلاله ضيّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه ، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة(١) .

قال ﷺ : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة(٢) فإذا أقلع رجع إليه »(٣) .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذّاب ، وعائل(٤) مستكبر »(٥) .

يقول ابن القيم :

اعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب المعلق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا . وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : « رأيتُ الليلة رجلين أتياني فأخرجاني ، فانطلقت معهما ، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور ، أعلاه ضيق ، وأسفله واسع ، يوقد تحته نار ، فيه رجال ونساء عراة ، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا ، فإذا أخمدت رجعوا فيها فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هم الزناة » .

فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا ، فإنهم كلما همّوا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا(٦) فيه وعادوا بعد

---

(١) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٣٦٥ - ٣٦٨ ، طبع دار الكتاب العربي .
(٢) السحابة .
(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٠ .
(٤) فقير .
(٥) رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة .
(٦) قلبوا فيه ، وعادوا إليه بقبح وتنكيل .

أن كادوا يخرجون .

ولمّا كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه ، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته ورَوْحه رجعوا على حوافرهم ، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك . قال الله تعالى : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها** ﴾ [السجدة : ٢٠] وقال في موضع آخر : ﴿ **كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها** ﴾ [الحج : ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج من هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذبًا به هناك ، كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا ، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار ، وإنما هم يعذبون فيها ، وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكنَّ سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم ، فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى ، والدود يأكل جسومهم[1] اهـ .

كان سفيان الثوري يتمثل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذة ممن ذاق صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

يقول الحافظ ابن حجر في شرح حديث سمرة بن جندب : مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا ؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك ، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى[2] .

قال ابن حجر في فوائد حديث سمرة بن جندب : قال الكرماني : مناسبة

---

(١) روضة المحبين ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) فتح الباري (١٢ / ٤٦٥) .

العقوبات المذكورة فيه للجنايات ظاهرة إلا الزناة ففيها خفاء ، وبيانه أن العري فضيحة كالزنا ، والزاني من شأنه طلب الخلوة فناسب التنور ، ثم هو خائف حذر حال الفعل كأن تحته النار[١] . والجزاء من جنس العمل .

والتنور مناسب لسعار الشهوة ولهبها ، أما ترى أن العرب تقول رسيس العشق ، مِنْ رَسِّ الحمّى ورسيسها هو أول رمسها، فشبهوا رسيس العشق بحرارته وحرقته برسيس الحمى ، فكيف بنار الشهوة كما يقول عروة :

إذا وجدتُ أوار الحب في كبدي ... أقبلتُ نحو سقاء القوم أبتردُ

هبني بَرَدْت ببرد الماء ظاهرَه ... فمن لنار على الأحشاء تتقد

هذا في الحب فكيف في العشق وإتيان المحرم ؟ أعاذنا الله وإياكم .

قال المناوي :

من عقوبة الزاني ما لابد أن يعجل في الدنيا ، وهو أن يقع في الزنا بعض أهل داره حتما مقضيًّا ، وذلك لأن الزنا يوجب هتك العرض ، مع قطع النظر عن لزوم الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة فيكون سيئة وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فيلزم أن يسلط على الزاني من يزني به بنحو حليلته ، والله عزيز ذو انتقام ، فإن لم يكن للزاني من يزني به أو يلاط به من نحو حليلة أو قريب عوقب به بوجه آخر .

وعلم مما تقرر مكافأة الزاني بهتك عرضه بالزنا ؛ هبة لنفسه أو لشخص من أتباعه ، والظاهر أن المرأة كالرجل فإذا زنت عوقبت بزنا زوجها ، ووقوع الزنا في أبويها ، وحصول الغيرة لها ، ووقوع الزنا في أبويها . انتهى[٢] .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إذا ابتليتم بهنَّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهن .

---

(١) فتح الباري (١٢ / ٤٦٦) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٤٢ - ١٤٣) .

لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم .

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم .

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجلّ ، ويتحرّوا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا »[1] .

وهذه معاملة بنقيض القصد ، من أراد اللذة في الحرام عُوقب بالأوجاع والأسقام ، جزاءً وفاقًا .

يقول الشنقيطي عن رجم الزاني المحصن ، وجلد الزاني البكر مائة جلدة والملحدون يقولون : إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية ، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان ؛ لقصور إدراكهم عن فهم حكمة الله البالغة في تشريعه .

والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى ؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر ، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض ، وتقدير الحرمات ، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني ، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله ، ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة ، وشر

---

(١) رواه البيهقي في سننه ، والحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٥٥ ، والصحيحة رقم ١٠٦ .

أمثاله عن المجتمع ، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب ، وجعل قتلته أفظع قتله ؛ لأن جريمته أفظع جريمة والجزاء من جنس العمل .

وتشريع الحكيم الخبير جل وعلا - مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد ، وجلب المصالح ، والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاءً وفاقًا[1] .

٩ - التبرج وخلع المرأة ثيابها في غير بيتها

قال رسول الله ﷺ : « ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ستر ما بينها وبين الله »[2] .

وقال ﷺ : « أيمّا امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل »[3] .

قال المناوي :

« أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيتها » كناية عن تكشفها للأجانب ، وعدم سترها منهم ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل ، لأنه تعالى أنزل لباسًا ليوارين به سوءاتهن وهو لباس التقوى ، وإذا لم يتقين الله ، وكشفن سوءاتهن ؛ هتكن الستر بينهن وبين الله تعالى ، وكما هتكت ستر نفسها ، ولم تصن وجهها ، وخانت زوجها يهتك الله سترها والجزاء من جنس العمل . والهتك : خرق الستر عما وراءه ، والهتيكة : الفضيحة[4] .

---

(١) أضواء البيان (٣ / ٣٩٥ - ٣٩٦) .

(٢) رواه أبو داود والترمذي عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٨ ، وآداب الزفاف .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك ، عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧٠٧ .

(٤) فيض القدير (٣ / ١٣٦ - ١٣٧) .

١٠ - إفطار رمضان بلا عذر ولا رخصة

عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا أنا نائم أتاني رجلان ، فأخذا بضَبْعَيَّ ، فأتيا بي جبلًا وعرًا ، فقالا : اصعد . فقلت : إني لا أطيقه . فقالا : إنا سنسهله لك . فصعدت ، حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة ، قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالوا : هذا عواء أهل النار . ثم انطلق بي ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم ، تسيل أشداقهم دمًا . قال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم »(١) .

« تحلة صومهم » : معناه يفطرون قبل وقت الإفطار .

إذا كان هذا فيمن يفطرون قبل الفطر ، فكيف بمن يفطرون ويأكلون من أول الفجر ؟ فكيف بمن يتعمدون ويجاهرون ؟

قال الذهبي :

عند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا عذر ، أنه شر من المكّاس ومدمن الخمر (٢) .

١١ - شرب الخمر

قال ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها ، ومبتاعها

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي في « الكبرى » وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرك ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٩٥ .

(٢) الكبائر للذهبي ص ٥٧ ، طبع مكتبة السنة .

وساقيها ، ومسقيها »[١] .

وقال ﷺ : « إن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها »[٢].

وقال ﷺ : « ثلاثة قد حرّم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذي يقر في أهله الخبث »[٣] .

وقال ﷺ : « ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران ، والمتضمخ بالزعفران ، والجنب »[٤] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الخبائث ، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية »[٥] .

وقال ﷺ : « الخمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر ، فمن شربها وقع[٦] على أمه ، وخالته ، وعمته »[٧] .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢ .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٣) صحيح : رواه أحمد عن ابن عمر ، ورواه الحاكم والضياء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٤) صحيح : رواه البزار عن بريدة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٥٥ .

(٥) حسن : رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٣٩ .

(٦) زنى .

(٧) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٠ .

« الخمر أم الفواحش » أي التي تجمع كل خبيث ، وإذا قيل : أم الخير فهي التي تجمع كل خير ، وإذا قيل : أم الشر فهي التي تجمع كل شر ، (وأكبر الكبائر) أي من أكبرها ، من شربها وسكر « وقع على أمه وخالته عمته » أي جامع الواحدة منهن يظن أنها زوجته وهو لا يشعر ومن ثم جعلها الله مفتاح كل إثم ، كما جعل الغناء مفتاح الزنا ، وإطلاق النظر في الصور مفتاح العشق ، والكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان ، والمعاصي مفتاح الكفر ، والكذب مفتاح النفاق ، والحرص مفتاح البخل ، وهذه أمور لا يصدق بها إلا من له بصيرة صحيحة ولب يعرف به ما في نفسه وما في الوجود من خير وشر . وقال المناوي أيضًا :

« الخمر أم الفواحش » الأخروية بل والدنيوية ، لأنها تصدع ، وتكثر اللغو على شربها ، بل لا يطيل شرابها إلا باللغو ، وهي كريهة المذاق ، ورجس ومن عمل الشيطان ، توقع العداوة والبغضاء ، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتستر العقل الذي هو نور الهدى ، وآلة الرشد ، ألا ترى حمزة - رضي الله عنه - لمّا زال عقله بها ، قال للمصطفى ﷺ : هل أنتم إلا عبيد أبي أو آبائي ؟ فجعله عبدًا لكافر . قال ابن العربي : وهذا قول إدّ ، وحديث إلى الكفر ممتد ، وعذره المصطفى ﷺ لزوال عقله بما كان مباحًا حينئذ ، ولو كان زواله بمحرم ما عذره ، ثم استقر الأمر على شدة التحريم .

وقال : ومن قبائحها وفضائحها أنها تذهب الغيرة ، وتورث الخزي والفضيحة والندامة ، وتلحق شاربها بأحقر نوع الإنسان وهم المجانين ، وتسلبه أحسن الأسماء والصفات ، وتسهل قتل الإنسان ، ومؤاخاة الشيطان ، وهتك الأستار ، وإظهار الأسرار ، وتدل على العورات ، وتهوّن ارتكاب الجرائم والقبائح ، وكم أهاجت من حرب ، وأفقرت من غنى ، وأذلت من عزيز ، ووضعت من شريف ، وسلبت من نعمة ، وجلبت من نقمة ، وفرّقت بين رجل وزوجه فذهبت بقلبه ، وراحت بلبه ، وكم أورثت من حسرة ، وأجرت من عبرة ، وأوقعت في بليّة ،

وعجّلت من منيّة ، وكم وكم ، ولو لم يكن من فواحشها إلا أنها لا تجتمع هي وخمر الجنة في جوف واحد لكفى ، وآفاتها لا تحصى ، وفضائحها لا تستقصى ، وفي هذا القدر كفاية[1] .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ابن حجر :

قال الخطابي والبغوي في «شرح السنة»: معنى الحديث: لا يدخل الجنة ، لأن الخمر شراب أهل الجنة ، فإذا حرم شرابها دلَّ على أنه لا يدخل الجنة ، وقال ابن عبد البر : هذا وعيد شديد ، يدل على حرمان دخول الجنة .

ويحمل الحديث عند أهل السنة على أنه لا يدخلها ولا يشرب الخمر فيها إلَّا إن عفا الله عنه ، كما في بقية الكبائر وهو في المشيئة ؛ فعلى هذا فمعنى الحديث : جزاؤه في الآخرة أن يُحرمَهَا لحرمانه دخول الجنة إلا إن عفا الله عنه . قال : وجائز أن يدخل الجنة بالعفو ، ثم لا يشرب فيها خمرًا ولا تشتهيها نفسه ، وإن علم بوجودها فيها ، ويؤيده حديث أبي سعيد الخدري مرفوعًا : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو . قلت : أخرجه الطيالسي وصححه ابن حبان . وقريب منه حديث عبد الله بن عمرو رفعه : « من مات من أمتي وهو يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الجنة » أخرجه أحمد بسند حسن ، وقد لخص عياض كلام ابن عبد البر ، وزاد احتمالًا آخر ، وهو أن المراد بحرمانه شربها أنه يحبس عن الجنة مدة إذا أراد الله عقوبته ، ومثله الحديث الآخر : « لم يرح رائحة الجنة »

---

(١) فيض القدير للمناوي (٣ / ٥٠٧ - ٥٠٨) .

(٢) رواه الشيخان ، وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة عن عمر .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ ، وكذا رواه الحاكم وابن عساكر عن ابن عمر .

قال : ومن قال : لا يشربها في الجنة بأن ينساها أو لا يشتهيها ، يقول : ليس عليه في ذلك حسرة ، ولا يكون ترك شهوته إياها عقوبة في حقه ، بل هو نقص نعيم بالنسبة إلى من هو أتم نعيمًا منه كما تختلف درجاتهم ، ولا يلحق من هو أنقص درجة حينئذ بمن هو أعلى درجة منه استغناء بما أعطى ، واغتباطًا له . وقال ابن العربي : ظاهر الحديث أنه لا يشرب الخمر في الجنة ولا يلبس الحرير فيها ، وذلك لأنه استعجل ما أمر بتأخيره ووُعِدَ به ، فحرمه عند ميقاته ، كالوارث فإنه يحرم ميراثه لاستعجاله . وبهذا قال نفر من الصحابة ومن العلماء وهو موضع احتمال وموقف إشكال ، والله أعلم كيف يكون الحال . وفصل بعض المتأخرين بين من يشربها مستحلًا فهو الذي لا يشربها أصلًا ؛ لأنه لا يدخل الجنة أصلًا ، وعدم الدخول يستلزم حرمانها ، وبين من يشربها عالمًا بتحريمها ، فهو محل الخلاف ، وهو الذي يحرم شربها مدة ولو في حال تعذيبه إن عذبَ ، أو المعنى أن ذلك جزاؤه إن جوزي ، والله أعلم[1] .

قال المناوي :

يحرم منها جزاءً وفاقًا ، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، فيا لها من حسرة وندامة ، حيث باع أنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين[2] . والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة »[3] .

قال ﷺ : « من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن تاب لم يتب الله

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٣٥) .

(٢) فيض القدير (٦ / ١٥٧) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وكذا رواه الحاكم في المستدرك وابن عساكر عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٧ .

عليه وسقاه من نهر الخبال »[1] .

شراب بشراب ، والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا ، فإن مات دخل النار ، وإنْ تاب تاب الله عليه ، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن مات دخل النار ، وإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد كان حقًّا على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة عصارة أهل النار »[2] .

وقال ﷺ : « من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد الثانية فاجلدوه ، فإن عاد الثالثة فاجلدوه ، فإن عاد الرابعة فاقتلوه »[3] .

قال المناوي :

قال الحافظ:وقد استقر الإجماع على أن لا قتل فيه[4] .

قال ﷺ : « من مات وهو مدمن خمر ، لقي الله وهو كعابد وثن »[5] .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد والنسائي والحاكم عن ابن عمرو، ورواه أبو عبيد في «الإيمان» وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٨، وتخريج المشكاة ٣٦٤٣ ، ٣٦٤٤ .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٩ .

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم عن ابن عمر، وأبو داود والترمذي، والحاكم عن معاوية ، والبيهقي وأبو داود عن ذؤيب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٥ .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٥٨) .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٨٢٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٦٧٧ .

١٢ - الخيلاءِ والكِبْر

قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة »(١) .

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جُمته ، إذ خسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٢) .

وقال ﷺ : « خرج رجل ممن كان قبلكم في حلة له يختال فيها ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٣) .

قال المناوي :

قيل : هو قارون . وقيل الهيزن - « يختال فيها » : من الاختيال ، وهو التكبر في المشي ، ولا يكون إلا مع سحب الإزار ونحوه ، فكأن المختال تخيل فضيلة في نفسه على غيره ، فاختال متكبرًا بها في مشيه على غيره ، فأمر الله الأرض فأخذته؛أي : ابتلعته . « فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » أي : يغوص في الأرض، ويضطرب ويتحرك في نزوله فيها، وهذا تحذير من الخيلاء وترهيب من التكبر(٤) .

فهذا الرجل الذي اختال بجسده ومشيته يعذب في البرزخ بجنس عمله ، فهو يتجلجل .

قال ابن فارس : أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ، ويندفع من شق إلى شق ، فالمعنى : ينزل فيها مضطربًا متدافعًا .. ليس كمشيته على ظهرها .

---

(١) رواه أحمد والبخاري والنسائي عن ابن عمر ، ورواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة .

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمرو ، وأحمد والشيخان عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٣ / ٤٣٨) .

قال ابن حجر : ومقتضى هذا الحديث أن الأرض لا تأكل جسد هذا الكافر، فيمكن أن يلغز به فيقال: كافر لا يبلى جسده بعد الموت[١]. جزاءً وفاقًا، والعذاب حاصل لجسده .

وقال ﷺ : « من جرَّ ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[٢] .

وقال ﷺ: «إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٣].

وقال ﷺ : « من جر إزاره ، لا يريد بذلك إلا المخيلة ، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة »[٤] .

قال المناوي :

قال ابن عبد البر : مفهوم الحديث أن الجارّ لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد ، إلا أن جر القميص وغيره من الثياب مذموم بكل حال .

وقال النووي : لا يجوز الإسبال تحت الكعبين خيلاء فإن كان لغيرها كره[٥] اهـ .

هذا الذي يظن أن له قيمة ، ويتكبر ، يكون جزاؤه الهوان ، وأي هوان أعظم من عدم نظر الله إليه يوم القيامة ؟! والجزاء من جنس العمل .

عن ابن عمرو – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذلّ في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٢٧٢) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) رواه مسلم عن ابن عمر .

(٥) فيض القدير (٦ / ١١٢ – ١١٣) .

عصارة أهل النار طينة الخبال »[١] .

فهؤلاء المتكبرون الذين يظنون أنهم خرقوا الأرض أو نافسوا الجبال طولًا ، يحشرون كالنمل هوانًا ، يغشاهم الذل ، ويساقون إلى سجن في النار ، ويُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال جزاءً وفاقًا .

ومن حديث ابن عباس عند الحارث : « خرج عنق من النار ، فأشرف على الخلائق، له عينان تبصران، ولسان فصيح فيقول: إني وكلت بثلاثة: إني وكلت بكل جبار عنيد ، فيلقطون من الصفوف لقط الطير حب السمسم .. » الحديث .

والجزاء من جنس العمل .

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «بينا رجل فيمن كان قبلكم، خرج في بردين أخضرين يختال فيهما، أمر الله الأرض فأخذته، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٢].

١٣ - الغلـول

عن ابن طاوس عن أبيه قالْ : استعمل رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت على الصدقة ثم قال له : « اتقِ الله يا أبا الوليد ، لا تأتي يوم القيامة ببعير تحمله وله رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج »[٣] .

عن أبي مسعود الأنصاري قال : بعثني النبي ﷺ ساعيًا ، ثم قال : « انطلق أبا مسعود ! ولا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته »[٤] قال : إذًا لا أنطلق ؛ قال : « إذن لا أُكرهك » .

---

(١) قال ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : موقوف ، إسناده حسن . انظر (٤ / ٣٧٥) حديث رقم ٤٦٢٩ من المطالب .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٦ / ٢٢٦) : تفرد به أحمد ، وإسناده حسن .

(٣) صحيح : رواه الحميدي في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في السنن ، وإسناده صحيح على شرط مسلم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٧ .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥١٥ ، والسلسلة الصحيحة رقم ١٥٧٦ .

الغُلول : هو الخيانة في المغنم أو في مال الدولة .

قال المناوي :

«بعير» يقع على الذكر والأنثى، وجمعه أبعر وأباعِر وبُعرَان. «تحمله» وفي رواية «على رقبتك». «له رغاء»: صوت الإبل. «خوار» صوت البقر. «ثؤاج»: صياح الغنم .

تنبيه :

قال حجة الإسلام : هذا الحمل حقيقي ، فيأتي به حاملًا له ، معذبًا بحمله وثقله يعدل الجبل العظيم ، مرعوبًا بصوته ، وموبخًا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد ، والملائكة تنادي : هذا ما أغله فلان بن فلان رغبة فيه وشحًّا .

وذهب بعضهم إلى أن الحمل عبارة عن وزر ذلك ، وشهرة الأمر ؛ أي يأتي يومَ القيامة ، وقد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيرا له رغاء ، أو بقرة له خوار .. إلخ .

ورده القرطبي بأنه عدول عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه ، وقد أخبر المصطفى بالحقيقة فهو أولى إذْ لا مانع .

وعورض بوجود المانع وهو أنه إذ غلّ ألف دينار مثلا فهي أخف من البعير ، وهو بالنسبة إليها حقير فكيف يعاقب الأخف جناية بالأثقل وعكسه ؟ .

وأجيب أن المراد بالعقوبة بذلك فضيحته على رءوس الأشهاد في ذلك الموقف العظيم ، لا بالثقل ولا بالخفة .

قال ابن المنير: أظن الحكام أخذوا تجريس السارق ونحوه من هذا الحديث ونحوه[1].

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إن الشَّملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم ، لم تُصبها المقاسم[2]– لتشتعل عليه نارًا »[3]. والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (١٦ / ١٢٣) . (٢) أي لم تقتسم .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « لا إسلال[1] ولا غلول »[2] .

وقال ﷺ : « لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاء له ثغاء ، يقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق[3] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[4] ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني . فأقول : لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك »[5] .

وقال ﷺ : « يأيها الناس إن هذا من غنائمكم ، أدُّوا الخيط والمِخْيط ، فما هو فوقُ ، فإن الغُلول عار على أهله يوم القيامة وشنار[6] ونار »[7] .

١٤ - السرقة

قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا

---

(١) السرقة الخفية .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن عمرو بن عوف ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٤٦ .

(٣) يريد ما عليه من الحقوق المكتوبة في الرقاع ، وتخفق : تتحرك .

(٤) يعني الذهب والفضة .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٦) عيب وعار .

(٧) صحيح : رواه ابن ماجة عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٧٤٦ .

من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨] .

قال ابن حجر :

قدم السارق على السارقة ، وقدمت الزانية لوجود السرقة غالبا في الذكورية ، ولأن داعية الزنا في الإناث أكثر ، ولأن الأنثى سبب في وقوع الزنا إذ لا يتأتى غالبًا إلا بطواعيتها .

والسرقة : الأخذ خفية ، وعرفت في الشرع بأخذ شيء خُفْية ليس للآخذ أخذه ، قال ابن بطال : يقال لسارق الإبل : الخارب ، وللسارق في الميزان مخسر ، وللسارق في المكيال مطفف .

قال المازري ومن تبعه : صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها ، وخصّ السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب ، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها ، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر ، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد ، ثم لما خانت هانت ، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعريّ في قوله :

يد بخمس مئين عَسْجَدٍ وُديت ما بالها قطعتْ في ربع دينار ؟

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

صيانة العضو أغلاها ، وأرخصها صيانة المال ، فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي ، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال ، فظهرت الحكمة في الجانبين ، وكان في ذلك صيانة من الطرفين[1] .

لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلمّا خانت هانت ، والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « يأيها الناس ! إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي[2]، إنه ليس من شيء توعدونه إلا وقد رأيته في صلاتي هذه ، ولقد جيء بالنار حين

(١) فتح الباري (١٢ / ١٠٠) .

(٢) تظهر وتنكشف .

رأيتموني تأخرت ، مخافة أن يصيبني من لفحها ، حتى قلت : يارب وأنا فيهم ؟ ورأيت فيها صاحب المحجن[١] يجرّ قصبه[٢] في النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإنْ فُطن[٣] به ؛ قال : إنما تعلّق بمحجني ! وإن غُفِل عنه ذهب به ، حتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ، ولم تتركها تأكل من خُشاش[٤] الأرض ، حتى ماتت جوعًا ، وجيء بالجنة ، فذلك حين رأيتموني تقدمت ، حتى قمت في مقامي ، فمددت يدي ، وأنا أريد أن أتناول من ثمرها شيئًا لتنظروا إليه ، ثم بدا[٥] لي أن لا أفعل »[٦] .

قال ﷺ: «عرضت على الجنة، حتى لو مددت يدي تناولت من قطوفها، وعرضت عليّ النار ، فجعلتُ أنفخ ؛ خشية أن يغشاكم حرّها ، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله ، ورأيت فيها أخا بني دعدع سارق الحجيج ، فإذا فُطن له قال : هذا عمل المحجن ، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء تعذب في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت ، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، فإذا انكسف أحدهما فاسعوا إلى ذكر الله عز وجل »[٧] .

فهذا الذي كان يسرق خفية بمحجن أخرج الله ما خفي منه وهي أمعاؤه ، وعُذِّب بها ، فكان جزاؤه مناسبا لعمله .

---

(١) العصا الملتوية الطرف كالسنارة .
(٢) أمعاءه .
(٣) تنبه أحد لفعله .
(٤) هوام وحشرات .
(٥) ظهر لي .
(٦) رواه أحمد ومسلم عن جابر .
(٧) صحيح : رواه النسائي عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٩٦ .

١٥ - قطع الطريق والمحاربة لله ولرسوله

قال تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله وَرسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [المائدة : ٣٣] .

فمجرد إخافته السبيل هو مرتكب الكبيرة ، فكيف إذا أخذ المال ؟ وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر ؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا[١] .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عُكل فأسلموا ، فاجتووا[٢] المدينة ، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحُّوا ، فارتدوا ، فقتلوا رعاتها واستاقوا الإبل . فبعث في آثارهم فأُتي بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا[٣] .

وعن أبي قلابة عن أنس - رضي الله عنه - قال : قدم رهط من عُكل على النبي ﷺ ، كانوا في الصفة ، فاجتووا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله أبغنا[٤] رسْلًا[٥] ، فقال : ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بإبل رسول الله ﷺ ، فأتوْها ، فشربوا من ألبانها وأبوالها ، حتى صحّوا وسمنوا ، وقتلوا الراعي واستاقوا الذودَ ، فأتى النبي ﷺ الصريخ ، فبعث الطلب في آثارهم ، فما ترجّل النهار

---

(١) الكبائر للذهبي ص١٠٨ .

(٢) أي أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، يقال : اجتويت البلد : إذا كره المقام فيه .

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود باب المحاربين من أهل الكفر والردة .

(٤) اطلب لنا ، يُقال : أبغاه كذا طلبه له .

(٥) رسْلا : لبنا .

حتى أُتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وما حسمهم ، ثم أُلقوا في الحرّة يستسقون ، فما سُقُوا حتى ماتوا[١] قال أبو قلابة : سرقوا وقتلوا وحاربوا الله ورسوله .

قال ابن حجر :

قال ابن بطّال : ذهب البخاري إلى أن آية المحاربة نزلت في أهل الكفر والردة ، وساق حديث العرنيين ، وليس فيه تصريح بذلك ، ولكن أخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة حديث العرنيين وفي آخره قال : « بلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ..**﴾ الآية ، ووقع مثله في حديث أبي هريرة ، وممن قال ذلك الحسن وعطاء والضحاك والزهري ، قال : وذهب جمهور الفقهاء إلى أنها نزلت فيمن خرج من المسلمين يسعى في الأرض بالفساد ويقطع الطريق ، وهو قول مالك والشافعي والكوفيين ، ثم قال : ليس هذا منافيًا للقول الأول ؛ لأنها وإن نزلت في العرنيين بأعيانهم لكن لفظها عام يدخل في معناه كل من فعل مثل فعلهم من المحاربة والفساد .

قلت : بل هما متغايران ، والمرجع إلى تفسير المراد بالمحاربة : فمن حملها على الكفر خصّ الآية بأهل الكفر ، ومن حملها على المعصية عمّم ، ثم نقل ابن بطال عن إسماعيل القاضي أن ظاهر القرآن وما مضى عليه عمل المسلمين يدل على أن الحدود المذكورة في هذه الآية نزلت في المسلمين ، وأما الكفار فقد نزل فيهم : ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب...**﴾ [محمد: ٤] إلى آخر الآية ، فكان حكمهم خارجًا عن ذلك ، وقال تعالى في آية المحاربة : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ وهي دالة على أنّ من تاب من المحاربين يسقط عنه الطلب بما ذكر بما جناه فيها ، ولو كانت الآية في الكافر لنفعته المحاربة ، ولكان إذا أحدث الحرابة مع كفره اكتفينا بما ذكر في الآية ، وسلم من القتل ، فتكون الحرابة خففت عنه القتل ، وأجيب عن هذا الإشكال بأنه لا يلزم من إقامة هذه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود باب لم يُسْق المرتدون المحاربون حتى ماتوا .

الحدود على المحارب المرتد مثلًا أن تسقط عنه المطالبة بالعود إلى الإسلام أو القتل ، وقد تقدم في تفسير المائدة ما نقله المصنف عن سعيد بن جبير أن معنى المحاربة لله الكفر به ، وأخرج الطبري عن أنس في آخر قصة العرنيين . قال : فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾ ثبت في الصحيحين أنهم كانوا من عكل وعرنية ، فقد وجد التصريح الذي نفاه ابن بطال .

قال ابن حجر :

المعتمد أن الآية نزلت أولًا فيهم ، وهي تتناول بعمومها من حارب من المسلمين بقطع الطريق ، لكن عقوبة الفريقين مختلفة .

فإن كانوا كفارًا يخير الإمام فيهم إذا ظفر بهم .

وإن كانوا مسلمين فعلى قولين :

أحدهما : وهو قول الشافعي والكوفيين ينظر في الجناية فمن قَتل قُتل ، ومن أَخَذَ المال قُطع، ومن لم يَقْتل أو لم يأْخذ مالًا نفي، وجعلوا «أو» للتنويع.

ثانيهما : وقال مالك : بل هي للتخيير ، فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة ، ورجح الطبري الأول[١] .

واختلفوا في المراد بالنفي في الآية . فقال مالك والشافعي : يخرج من بلد الجناية إلى بلدة أخرى ، زاد مالك : فيحبس فيها . وعن أبي حنيفة بل يحبس في بلده ، وتُعُقب بأن الاستمرار في البلد ولو كان مع الحبس إقامة فهو ضد النفي ، فإن حقيقة النفي الإخراج من البلد ، وقد قرنت مفارقة الوطن بالقتل قال تعالى : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم** ﴾ وحجة أبي حنيفة أنه لا يؤمن منه استمرار المحاربة في البلدة الأخرى، فانفصل عنه مالك بأنه يحبس بها ، وقال الشافعي يكفيه مفارقة الوطن والعشيرة خذلانًا وذلًّا[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

---

(١) وهو المناسب لكون الجزاء من جنس العمل .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٢ – ١١٣) .

قال علماؤنا : تقطع يده لأجل أخذ المال ، ورجله للإخافة ؛ لأن اليد هي العضو الذي به الأخذ ، والرجل هي العضو الذي به الإخافة ، أي المشي وراء الناس والتعرّض لهم .

والنفي من الأرض والإبعاد من المكان الذي هو وطنه ؛ لأن العرب كانوا إذا أخرج أحد من وطنه ذُلّ وخضدت شوكته ، قال امرؤ القيس :

.... به الذئب يعوى كالخليع المُعَيّلِ

وذلك حال غير مختصّ بالعرب ؛ فإن للمرء في بلده وقومه من الإقدام ما ليس له في غير بلده .

ثم قال رحمه الله :

ذهب جماعة إلى أنّ «أو» في الآية للتقسيم لا للتخيير ، وأن المذكورات مراتب للعقوبات بحسب ما اجترحه المحارب : فمن قتل قُتل وصلب ، ومَنْ لم يقتل ولا أخذ مالا عُزّر ، ومن أخاف الطريق نُفي ، ومن أخذ المال فقط قطع ، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن والسدي والشافعي(١) .

وعند ابن جرير : قطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ولم يحسمهم وتركهم يتلقمون الحجارة بالحرّة .

ومعنى يتلقمون الحجارة أي يضعون الحجارة في أفواههم من العطش ، كي تستدر الريق .

قال ابن حجر :

سمر أعينهم ، سمل أعينهم وهما بمعنى . قال عياض : سمر العين بالتخفيف كحلها بالمسمار المحمي ؛ فيطابق السمل ، فإنه فسر بأن يدني من العين حديدة محماة حتى يذهب نظرها ، فيطابق الأول بأن تكون الحديدة مسمارًا وفسّروا السمل أيضًا بأنه فقء العين بالشوك ، وليس هو المراد هنا .

وقال ابن حجر :

---

(١) التحرير والتنوير (٦ - ٧ / ١٨٤ - ١٥٥).

حكى ابن بطال عن المهلب أن الحكمة في ترك سقيهم كفرهم نعمة السقي ، التي أنعشتهم من المرض الذي كان بهم[1] .

قال: وفيه وجه آخر يؤخذ مما أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب: أن النبي ﷺ قال لما بلغه ما صنعوا : « عطش الله من عطّش آل محمد الليلة » .

قال : فكان ترك سقيهم إجابة لدعوته ﷺ .

قلت : وهذا لا ينافي أنه عاقبهم بذلك كما ثبت أنه سملهم ؛ لكونهم سملوا أعين الرعاة[2] .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل .

١٦ - قذف المحصنات

قال الله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا وأولئك هم الفاسقون** ﴾ [النور : ٤] .

وقال تعالى: ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين**﴾ [النور:٢٣- ٢٥].

وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[3] .

قال ابن حجر :

باب رمي المحصنات : أي قذفهنّ ، والمراد : الحرائر العفيفات ، ولا يختص بالمزوّجات ، بل حكم البكر كذلك بالإجماع .

---

(١) فإنهم لما أتوا رسول الله ﷺ ، وقد ماتوا هزلًا كما في رواية عبد الرزاق ، وعند ابن أبي حاتم : بهم جهد ، مصفرة ألوانهم ، عظيمة بطونهم .

(٢) فتح الباري (١٢ / ١١٤) .

(٣) متفق عليه رواه البخاري في صحيحه ، في كتاب الحدود باب رمي المحصنات عن أبي هريرة ، ورواه مسلم (٨٩) .

وقال أيضًا : تضمنت الآية الأولى حد القذف ، والثانية بيان كونه من الكبائر ، بناء على أن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد فهو كبيرة ، وهو المعتمد .

وقد انعقد الإجماع على أن حكم قذف المحصن من الرجال حكم قذف المحصنة من النساء ، واختلف في حكم قذف الأرقاء[1] .

قال الفخر الرازي : انعقد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا .

فالمراد بالرمي والقذف ليس الرمي بسرقة أو شرب خمر ؛ بل القذف بالزنا .

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

إن ترك الألسنة تلقي التهم على المحصنات ، وهن العفيفات الحرائر ، ثيبات أو أبكارًا ؛ بدون دليل قاطع - يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ؛ ثم يمضي آمنًا ! فتصبح الجماعة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرّحة ، وسمعتها ملوثة ، وإذا كل فرد فيها متهم أو مهدد بالاتهام ؛ وإذا كل زوج فيها شاكٌّ في زوجه ، وكل رجل فيها شاكٌّ في أصله ، وكل بيت فيها مهدد بالانهيار ، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تطاق .

ذلك إلى أن اطراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة أن جو الجماعة كله ملوّث ؛ وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسه بشاعتها بكثرة ترددها ، وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها !

ومِنْ ثَمَّ لا تُجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ؛ والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجوّ الملوّث الموحي بارتكاب الفاحشة .

لهذا، وصيانةً للأعراض من التهجم، وحمايةً لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تصب عليهم ، شدّد القرآن الكريم في عقوبة القذف ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا - ثمانين جلدة- مع إسقاط الشهادة، والوصم بالفسق، والعقوبة الأولى جسدية، والثانية أدبية في وسط الجماعة ويكفي أن يهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة ، وأن يسقط اعتباره بين الناس ، ويمشي بينهم متهمًا لا يوثق له بكلام !

---

(١) فتح الباري (١٢ / ١٨٨) .

والثالثة دينية، فهو منحرف عن الإيمان، خارج عن صراطه المستقيم، والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة ، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء ؛ وفوق الآثار التي تترتب عليها في حياة الناس وطمأنينة البيوت .

وتظل العقوبات التي توقع على القاذف ، بعد الحد ، مصلتة فوق رأسه ، إلا أن يتوب : ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم**﴾ [النور:٥].

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء : هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها ، فيرفع عنه وصف الفسق ، ويظل مردود الشهادة ؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة ؟ فذهب الأئمة مالك وأحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة .

وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته ، وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف ، فحينئذٍ تقبل شهادته .

وأنا أختار هذا الأخير ؛ لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف ، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف . ولا يقال : إنه إنما وقع الحد على القاذف لعدم كفاية الأدلة ! ولا يحيك في أي نفس ممّن سمعوا الاتهام أنه ربما كان صحيحًا ؛ ولكن القاذف لم يجد بقية الشهود ، بذلك يبرأ العرض المقذوف تمامًا ، ويرد له اعتباره من الوجهة الشعورية بعد رده من الوجهة التشريعية ، فلا يبقى هنالك داعٍ لإهدار اعتبار القاذف المحدود التائب المعترف بما كان من بهتان[1] اهـ .

وانظر كيف يكون الجزاء من جنس العمل ...

---

(١) الظلال (٤ / ٢٤٩٠ - ٢٤٩١) .

رد لشهادته ومن ثبت افتراؤه سقط الوثوق بكلامه ، هذا الذي قذف بدون إثبات قد دلّ على تساهله في الشهادة ، فكان حقيقًا بأن لا يؤخذ بشهادته ، فما ظنك إذا جلد ظهره بعد ذلك مثلما ألهب ظهور الحرائر بمرّ قوله ، فكيف إذا وصفوا بقول الله فوق ذلك : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون** ﴾ للمبالغة في شناعة فسقهم ، حتى كأن ما عداه من الفسوق لا يعد فسقًا .

حتى ولو كان رقيقًا :

قال ﷺ : « من قذف مملوكه[1] بالزنا ، يقام عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال »[2] .

وقال ﷺ : « من قذف مملوكه وهو بريء مما قال ، جُلد يوم القيامة حدًّا ، إلا أن يكون كما قال »[3] .

قال ابن حجر في باب قذف العبيد من فتح الباري : إن على العبد إذا قذف نصفُ ما على الحر ، ذكرًا كان أو أنثى ، وهذا قول الجمهور . وعن عمر ابن عبد العزيز والزهري وطائفة يسيرة والأوزاعي وأهل الظاهر : حده ثمانون ، وخالفهم ابن حزم فوافق الجمهور .

ثم قال : قال المهلب : أجمعوا على أن الحر إذا قذف عبدًا لم يجب عليه الحد ، ودلّ هذا الحديث على ذلك .

قلت : في نقله الإجماع نظر ، فقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع : سئل ابن عمر عمّن قذف أم ولد لآخر فقال : يضرب الحد صاغرًا . وهذا بسند صحيح ، وبه قال الحسن وأهل الظاهر . وقال ابن المنذر : اختلفوا فيمن قذف أم ولد : فقال مالك وجماعة : يجب عليه الحد ، وهو قياس قول الشافعي بعد موت السيد ، وكذا كل من يقول : إنها عتقت بموت السيد . وعن

---

(١) عبده أو أمته .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

الحسن أنه كان لا يرى الحد على قاذف أم الولد . وقال مالك والشافعي : من قذف حرًّا يظنه عبدًا وجب عليه الحد .

أما في الآخرة :

﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة...﴾ الآيات [النور : ٢٣] .

يقول سيد قطب :

لو أفلتوا من الحد في الدنيا فإن عذاب الله ينتظرهم في الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود .

يجسّم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ؛ وهو يصوّرها رميًا للمحصنات المؤمنات وهُنَّ غافلات غارّات ، غير آخذات حذرهن من الرمية ، وهُنَّ بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئًا ، لأنهن لم يأتين شيئًا يحذرنه ! فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسّة . ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ : **﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾** [النور : ٢٤] فإذا بعضهم يتهم بعضًا بالحق ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ! وهي مقابلة في المشهد مؤثرة ، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني . **﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾** [النور : ٢٥] ويجزيهم جزاءهم العدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون: **﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾**(١) [النور : ٢٥] اهـ .

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في شهادة الألسن والأيدي والأرجل يوم القيامة : تخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى : **﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾** [فصلت : ٢١] لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات ، فهم ينطقون بالقذف ، ويشيرون بالأيدي إلى

---

(١) الظلال (٤ / ٢٥٠٥) .

المقذوفات ، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس للقذف[١] .

قال ابن كثير :

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج مخرج الغالب - المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولاسيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق ، رضي الله عنهما .

وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أنّ من سبَّها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم[٢].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا ...** ﴾ الآية قال : في شأن عائشة ، وأزواج النبي ﷺ ، وهي مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ الآية [النور : ٢٣ - ٢٥] قال : فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسّر به سورة النور فقوله : وهي مبهمة ، أي : عامة في تحريم قذف كل محصنة ، ولعنته في الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات، فله ما قال الله عز وجل، ولكن عائشة كانت إمام ذلك.

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح[٣].

وللشيعة لعنهم الله نصيب وافر في الخوض في عائشة - رضي الله عنها - وقد قضى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله ، ويفعل أفعال مثله

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١٨ - ١٩ / ١٩١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٣١-٣٢) . (٣) تفسير ابن كثير (٦/٣٢-٣٣) .

﴿ **والطيبات للطيبين** ﴾ فهي زوجة أطيب الطيبين ﷺ كساها الله بهذه الآيات من الشرف ما كساها ، وحلّاها برونقه من مزايا الفضل ما حلّاها ، فماذا يقول القذفة الأخابث أحفاد عبد الله بن سبأ .

إنَّ القلـوب لأجناد مجنـدة ... لله في الأرض بالأهواء تعترفُ
فما تعارف منها فهوَ مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقد ابتليت الطاهرات العفيفات من نساء المسلمين في مصْرنا بكل علماني وقح ، أو عمائم الضرار ، فيقول الواحد منهم : إنهن لا يرتدين النقاب إلا لحالة نفسية ، أو كبت سعار جنسي ..

والذي تولى كبره في عصرنا وذهب إلى مزبلة التاريخ .. قال عن النقاب : إنه خيمة ، ثم بعد ذلك أتى إلى البيوت العفيفة يلفق ويروّج قصصًا كاذبة ، عن أمير مزواج ، وفتيات ونساء ليس لهن من هدف إلا فورة اللحم ، فابتلاه الله بمن تكلم في عرضه وبيته ، بل وفي ذاته ، بما تعف عنه الألسن المؤمنة التي رطبها ذكر الله ، ولكن ما عفّت ألسن مناوئيه من الشيوعيين والعلمانيين، فأطلقوا العنان في الكلام حول شذوذ الرجل ، وتكلموا عن شواطىء مارسيليا ، وكما تدين تدان ، والجزاء من جنس العمل .

ويسخـر كل أفـاك دعـي ... ديوث مـن نساء المسلمينا
ويهزأ بالحرائـر بالنقـاب ... ولقـد لبسته أم المؤمنينـا
فلستم للنقاب وليس منكم ... فذا شرف لسكن الطاهرينا
وما عرف العفاف لكم طريقا ... وفاح الطهر من بيت الأمينا
أترمي بيوت طهر يالـئيم ... وبيتك من زجاجٍ هشّ لينا
فسل مارسيليا تخبرك الدواهي ... بما فعـل المغنـي اللعينـا
تـراقص كل غانيـة بمصر ... وتشرب رجس خمر القوم طينا
وسل عنك الحشيش بكل ربع ... أو الأفيـون حـب المجانينـا
ستدري يا خبيث إذا التقينا ... حمارًا كنت أم فرسًا هجينا

١٧ - الرياء

قال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلبْ ثوابه من عنده ، فإن الله أغنى الأغنياء عن الشرك »(١) .

وقال ﷺ : « من أكل برجل مسلم أُكلة ، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبًا ، فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة »(٢) .

وقال ﷺ : « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن راءى راءى الله به »(٣) .

وقال ﷺ : « من سمّع سمّع الله به ، وَمَنْ راءى راءى الله به ، ومَنْ شاقّ شاقّ الله عليه يوم القيامة »(٤) .

وقال ﷺ : « مَنْ يرائي يُرائي الله به ، ومَنْ يُسَمِّعْ يُسمع الله به »(٥) .

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد بن أبي فضالة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦ ، وتخريج الترغيب (١/٧٥) ، وتخريج المشكاة ٥٣١٨ .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم في المستدرك عن المستورد بن شداد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٥٩ ، والصحيحة رقم ٩٣١ .
ومعناه : أن يذهب إلى عدو أخيه فيتكلم في أخيه بالقبيح ليطعمه ، والأُكلة : اللقمة .

(٣) رواه أحمد في مسنده ومسلم عن ابن عباس .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ، وابن ماجة عن جندب .

(٥) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٥ .

قال المناوي :

« من يرائي » أي يظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم ، وليس هو كذلك . « يرائي الله به » أي يظهر سريرته على رءوس الخلائق ؛ ليفتضح ، أو ليكون ذلك حظه فقط .

« ومن يسمع » الناس عمله ويظهره لهم ؛ ليعتقدوه ويبرّوه .

« يسمع الله به » يوم القيامة أي يظهر للخلق سريرته ويملأ أسماعهم مما انطوى عليه جزاءً وفاقًا »(١) .

وقال ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سَمّع الله به مسامع خلقه ، وصغّره وحقّره »(٢).

لو أن المرائي أخبر الناس بطويته لحقروه ومقتوه ؛ لأنه جعل الله أهون الناظرين إليه ، وعظم شأن المخلوقين ، فجازاه الله بجنس عمله بأن صغّره وحقّره ، جزاءً وفاقًا .

وقال ﷺ : «من قام مقام رياءٍ وسمعة راءى الله به يوم القيامة وسَمّع»(٣).

وقال ﷺ : « من قام مقام رياءٍ راءى الله به ، ومَنْ قام مقام سمعة سَمّع الله به »(٤) .

وقال ﷺ : « ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رءوس الخلائق يوم القيامة »(٥) .

---

(١) فيض القدير (٦ / ٢٤٢) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح ، وأحمد والبيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد عن أبي هند الداري ، ورواه البيهقي ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن ، حسنه المنذري ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٦) .

(٥) صحيح: رواه الطبراني بإسناد حسنه المنذري، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/١٧).

١٨ - النفـاق

قال ﷺ : « إنَّ من شرّ الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين »[١] .

وقال ﷺ : « من شر الناس ذو الوجهين ؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »[٢] .

وقال ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا ، كان له يوم القيامة لسانان من نار »[٣] .

قال المناوي :

« من كان له وجهان في الدنيا » يعني من كان مع كل واحد من عدوين كأنه صديقه ، ويعد أنه ناصر له ، ويذم ذا عند ذا ، أو ذا عند ذا ، يأتي قومًا بوجه ، وقومًا بوجه على وجه الإفساد .

« كان له يوم القيامة لسانان من نار » كما كان في الدنيا له لسان عند كل طائفة .

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٢٢٢ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٩٣ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن عمار .

وقال المناوي : رمز السيوطي لحسنه ، وقال الحافظ العراقي سنده حسن انتهى . لكن قال الصدر المناوي : فيه شريك بن عبد الله القاضي ، وفيه مقال : نعم رواه البخاري في الأدب المفرد بسند حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٧٢.

قال الغزالي : اتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات هذه منها ؛ نَعَمْ إن جامل كل واحد منهما وكان صادقًا لم يكن ذا لسانين ، فإن نقل كلام كل منهما للآخر فهو نمّام دون لسان ، وذلك شر من النميمة .

وقيل لابن عمر : إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره ، قال : كنا نعده نفاقا على عهد المصطفى - ﷺ[(١)] .

فهذا نفاق إذا كان غنيا عن الدخول على الأمير والثناء عليه فلو استغنى عن الدخول فدخل فخاف إن لم يثن عليه فهو نفاق ؛ لأنه المحوج نفسه إليه ، فإن استغنى عن الدخول لو قنع بقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورتهما فهو منافق ، وهذا معنى خبر حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب ، لأنه يحوج إلى رعايتهم ومداهنتهم ، أما أنه ابتلي به لضرورة ، وخاف إن لم يثن فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز[(٢)] .

قال ﷺ : « تجدون الناس معادن ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، وتجدون خير الناس في هذا الشأن[(٣)] أشدهم له كراهية ، قبل أن يقع فيه ، وتجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه ، ويأتي هؤلاء بوجه »[(٤)] .

١٩ - يقولون ما لا يفعلون

قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا**

---

(١) لفظ البخاري (٧١٧٨) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن ناسًا قالوا له : إنا ندخل على أمرائنا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم به إذا خرجنا من عندهم . قال ابن عمر : كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٠٩) .

(٣) أي الإمارة .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد عن أبي هريرة .

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[الصف : ٢ - ٣] .

قال ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قرّاؤها »[١] .

والمراد حافظو القرآن الذين لا يعملون به ، وأراد بالنفاق : العملي منه .

قال المناوي :

بسطه بعضهم فقال : أراد نفاق العمل لا الاعتقاد ،.ولأن المنافق أظهر الإيمان بالله له وأضمر عصمة دمه وماله ، والمرائي أظهر بعلمه الآخرة وأضمر ثناء الناس وعرض الدنيا ، والقارىء أظهر أنه يريد الله وحده ، وأضمر حظ نفسه وهو الثواب ويرى نفسه أهلًا له ، وينظر إلى عمله بعين الإجلال ، فأشبه المنافق ، واستويا في مخالفة الباطن والظاهر[٢] .

قال زبيد اليامي : أسكتتني كلمة ابن مسعود عشرين سنة ، وهي : من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه[٣] .

قال ﷺ : « أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وفَتْ ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء؟ ، قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرءون كتاب الله ولا يعلمون به »[٤] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، ورواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، ورواه الطبراني في الكبير ، وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢١٤ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٧٥٠ .

(٢) فيض القدير (٢ / ٨٠ - ٨١) .

(٣) أقوال مأثورة وكلمات جميلة ، لمحمد لطفي الصباغ ص١٠ طبع المكتب الإسلامي ونسبها لعيون الأخبار .

(٤) حسن : رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس ، وحسنه في صحيح الجامع رقم ١٢٨ .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أيْ فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[1] .

وفي رواية البخاري في كتاب الفتن ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر : «يجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن[2] فيها كما يطحن الحمار برحاه، فيُطيف[3] به أهل النار فيقولون : أي فلان ، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله ، وأنهى عن المنكر وأفعله » .

وفي رواية عاصم : « وإني كنت آمركم بأمرٍ وأخالفكم إلى غيره ».

قال هلال بن العلاء : طلب العلم شديد ، وحفظه أشد من طلبه ، والعمل به أشد من حفظه ، والسلامة منه أشد من العمل به .

يأيها الرجل المعلم غيره هلّا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذى الضنا كيما يصح به وأنت سقيمُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أسامة بن زيد .

(٢) في رواية الكشميهني : « كما يُطحن الحمار » بضم أوله على البناء للمجهول ، وفي أخرى بفتح أوله ، وهو أوجه ، وتقدم في رواية « فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار » ، وفي رواية عاصم « فيستدير فيها كما يستدير الحمار » والأقتاب جمع قِتب وهي الأمعاء ، واندلاقها خروجها بسرعة .

(٣) أي يجتمعون حوله ، يقال : أطاف به القوم إذا حلقوا حوله حلقة ، وإن لم يدوروا ، وطافوا إذا داروا حوله ، وبهذا التقرير يظهر خطأ من قال : إنهما بمعنى واحد . اهـ من فتح الباري (١٣ / ٥٦) .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
لاتنه عن خلق وتأتي مثلـه عار عليك إذا فعلت عظيمُ

٢٠ - الغدر والمكر والخديعة

قال ﷺ : « إذا اطمأنَّ الرجل إلى الرجل ثم قتله بعد ما اطمأن إليه ؛ نصب له يوم القيامة لواء غدر »(١) .

وقال ﷺ : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة ، فيقال : ألا هذه غدرة فلان بن فلان »(٢) .

وقال ﷺ : « ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته »(٣) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة »(٤) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة »(٥) .

وقال ﷺ : « لكل غادر لواء ينصب بغدرته »(٦) .

وقال ﷺ : « لواء الغادر يوم القيامة عند استه »(٧) .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن عمرو بن الحمق ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤ .

(٢) صحيح : رواه الطيالسي ، وأحمد عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢١٤٩ .

(٣) صحيح : رواه عن أبي سعيد عن ابن ماجة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٣٩ .

(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

(٥) رواه أحمد والشيخان عن أنس ، وأحمد ، ومسلم عن ابن مسعود ، ومسلم عن ابن عمر .

(٦) رواه البخاري عن ابن عمر .

(٧) صحيح : رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » عن معاذ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥١٠٨ .

وقال ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمان له ، ولا دين لمن لا عهد له »[١] .

قال المناوي عن الغادر :

«ينصب له يوم القيامة لواء غدر» أي بعلم يعرف به في ذلك الموقف الأعظم، تشهيرًا له بالغدر على رءوس الأشهاد ، فلما كان إنما يقع مكتومًا مستورًا اشتهر صاحبه بكشف ستره لتتم فضيحته وتشيع عقوبته، وذكر في رواية أخرى أن ذلك اللواء ينصب عند استه مبالغة في غرابة شهرته وقبيح فعلته وعلى هذا فاللواء حقيقي[٢].

وقال المناوي أيضًا :

يرفع له علم يوم القيامة خلفه ، تشهيرًا له بالغدر ، وإخزاءً وتفضيحًا على رءوس الأشهاد ، ينادي عليه في ذلك المحفل العظيم : ألا إن هذه غدرة فلان أي علامة على غدرة فلان ابن فلان ، ويرفع في نسبه حتى يتميز عن غيره تمييزًا تامًّا ، وظاهره أن لكل غدرة لواء ، فيكون للواحد ألوية بعدد غدراته ، وحكمة نصب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بضد الذنب، والغدر خفي، فاشتهرت عقوبته بإشهار اللواء[٣].

وإنما كان اللواء عند استه ؛ لتكون الصورتان مكشوفتين : الظاهرة في الأخلاق ، والباطنة في الخلق .

وقال ﷺ : « لكلّ غادر لواء يوم القيامة ، يرفع له بقدر غدرته ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة »[٤] .

قال الذهبي في قتال مصعب بن الزبير للمختار :

قيل : كان المختار في عشرين ألفًا . ثم إن مصعبًا أساء فأمّن بقصر الإمارة خلقًا ، ثم قتلهم غدرًا .

جاء مصعب يزور ابن عمر فقال : أي عمّ ! أسألك عن قوم خلعوا الطاعة ، وقاتلوا حتى إذا غُلبوا تحصنوا ، وطلبوا الأمان ، فأُعطوا ، ثم قُتلوا . قال : كم العدد ؟ قال خمسة آلاف . فسبح ابن عمر ، ثم قال : يا مصعب !

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٥٦.
(٢) فيض القدير (١ / ٢٨٩) . (٣) فيض القدير (٢ / ٣٧٧) .
(٤) رواه مسلم عن أبي سعيد .

لو أن امرأً أتى ماشية الزبير ، فذبح منها خمسة آلاف في غداة أكنت تعده مسرفًا؟ قال: نعم . قال: فتراه إسرافًا في البهائم، وقتلت من وحد الله، أما كان فيهم مكره أو جاهل ترجى توبته ، اصبُب يا بن أخي من الماء البارد ما استطعت في دنياك[(١)].

وقال رجل لمصعب : من عفا ، عفا الله عنه ، ومن قتل لم يأمن القصاص .

وقتل مصعب ...

٢١ - الخيانة

قال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخره له في الآخرة - من قطيعة الرحم ، والخيانة ، والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونوا مخبرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا »[(٢)].

قال الذهبي في ترجمة « المنتصر بالله » الخليفة العباسي :

ورد عنه أنه قال في مرضه : ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة ، عاجلت أبي فعوجلتُ ، وكان يُتهم بأنه واطأ على قتل أبيه ، فما أُمهل .

وجلس مرة للهو ، فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج ، وحوله كتابة فارسية ، فطلب من يقرأ ، فأُحضر رجل ، فنظر ، فإذا فيها :... فقطّب وسكت ، وقال : لا معنى له . فألحّ المنتصر عليه ، قال : فيها : أنا شِيرَوَيْه بن كسرى بن هرمز ، قتلت أبي ، فلم أُمتّع بالملك سوى ستة أشهر . قال : فتغير وجه المنتصر ، وقام .

قال جعفر بن عبد الواحد : قال لي المنتصر : يا جعفر ، لقد عُوجِلت ، فما أُذني بأُذني ، ولا أبصر بعيني .

وقال الذهبي أيضًا عن المنتصر بالله :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٥٤٣ - ٥٤٤) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي بكرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩١٥ ، ٩٧٦ .

تحيلوا[1] إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه ، فأشار بفصده ، ثم فصده بريشة مسمومة ، فمات منها .

ويقال : إن ابن طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة ، فهلك[2].

والجزاء من جنس العمل .

وقال الذهبي في ترجمة « ابن هبيرة » :

قال ابن الجوزي : استيقظ وقت السحر ، فقاء ، فحضر طبيبه ابنُ رشادة ، فسقاه شيئًا ، فيقال : إنه سمه ، فمات ، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سمًّا ، فكان يقول : سَقَيْتُ ، فَسُقيت . فمات .

والجزاء من جنس العمل .

٢٢ - الظلـم

للظالمين يقول ابن الجوزي :

أما سمعتم منادي ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ﴾ أما ينذركم إعلام ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة** ﴾ أما يفصم عرى عزائمكم ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ أما يقصر من قصوركم ﴿ **وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ أما سمعتم هاتف العبر ينادي : ﴿ **فكلًّا أخذنا بذنبه** ﴾ .

يا هذا ، ظلمك لنفسك غاية في القبح ، ألا إنّ ظلمك لغيرك أقبح ، ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه ، وإنْ لم تعطه فلا تأخذ منه ، لا تشابهنّ الحية ، فإنها تأتي إلى الموضع الذي قد حفره غيرها فتسكنه ، ولا تتمثلنّ بالعقاب في الحيوانات أخيار وأشرار كبني آدم ، فالتقط خير الخلال وخل خسيسها[3] .

ذهبت لذات الظالمين بما ظلموا وبقي العار ، وداروا إلى دار العقاب وملك الغيرُ الدار ، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار ، فلا مغيث ولا أنيس ، ولا رفيق ولا جار .

---

(١) أي الأتراك .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣-٤٥) .

(٣) المدهش لابن الجوزي ص٥٥٠ - ٥٥١.

أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار ، فإذا قاموا يوم القيامة زاد البلاء على المقدار ﴿ **سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار** ﴾ لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار ﴿ **إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾ .

قال بعض الحكماء : أعجل الأمور عقوبة وأسرعها لصاحبها سرعة ظلم من لا ناصر له إلا الله ، ومجاورة النعم بالتقصير ، واستطالة الغني علي الفقير .

ويقول الشاعر :

فإن قلْتمُ إنا ظلمنا فلم نكن ظلمنا ولكنَّا أسأنا التقاضيَا

وقال آخر :

تأنّ ولا تعجل وكن مترفقًا وكن راحمًا للناس تُبْلَى براحمِ

وقال الشاعر :

إذا جار الأمير وكاتباه وقاضي الأرض داهن في القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

وقال أبو العتاهية :

أما والله إن الظلمَ لؤمٌ وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا غدًا عند الإله مَنِ الملومُ

قال كعب لعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –:ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء . فقال عمر : إلا مَنْ حاسب نفسه . قال كعب : والذي نفسي بيده إنها لكذلك إلا من حاسب نفسه ، ما بينهما حرف . يعني في التوراة .

خرج عمر بن العزيز يومًا ، فقال : ما شاء الله ! كان الوليد بن عتبة بالشام ، والحجّاج بالعراق ، وقرّة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيّان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا .

قال محمود الورّاق :

إني وهبت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي
ورأيته أسدى إليّ يدا فأبان منه بجهله حلمي

رجعت إساءته علي له حُسنًا فعاد مضاعف الجرمِ
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة وغدا بكسب الذم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له وأنا المسيء إليه في الحكمِ
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بكيتُ له من الظلمِ[1]

تقول العرب للمسيء المفرط في الإساءة : هذا أظلم من حيّة ، وأظلم من ذئب ، ويقولون : أظلم من ورل[2] .

سبحان الله .

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالمٌ إلا سيُبْلَى بظالمِ

ذلك أن الورل يقوى على الحيات كلها ، ويأكلها أكلًا ذريعًا ، وكل شدة يلقاها ذو جُحر من الحية تلقى مثل ذلك من الورل .

قال ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »[3] .

وقال ﷺ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »[4] .

قال المناوي :

الظلم : هو مجاوزة الحد والتعدّي على الخلق ، وقال الراغب : هو لغةً وضع الشيء في غير موضعه المختص به بنقص أو زيادة أو عدول عن وقته أو مكانه ، وأقبح أنواعه ظلم من ليس له ناصر إلا الله ؛ قال ابن عبد العزيز : إياك ! إياك أن تظلم من لا ينتصر عليك إلا بالله !

إن الظلم في الدنيا ظلمات على أصحابه بمعنى أنه يورث ظلمة في القلب ، فإذا أظلم القلب تاه وتحير وتجبر ، فذهبت الهداية والبصيرة ، فخرب القلب ، فصار صاحبه في ظلمة يوم القيامة ، فالظلمة معنوية ، وقيل : حسية ، فيكون ظلمه

---

(١) نزهة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٦٦ - ٣٦٩) .
(٢) الورل : دابة كالضب ، أو العظيم من أشكال الوزغ ، طويل الذنب صغير الرأس .
(٣) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠ .
(٤) رواه الشيخان، والترمذي، عن ابن عمر.

ظلمات عليه فلا يهتدي في القيامة بسببه ، وغيره من المؤمنين يسعى نوره بين يديه . وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب ، فإذا سعى المتقون بنورهم احتوشت ظلمات ظلم الظالم ، فغمرته فأعمته ، حتى لا يغني عنه ظلمه شيئًا[١] .

ومن أحسن ما قيل :

إذا ظالم استحسن الظلم مذهبًا ... ولجّ عُتُوًّا في قبيح اكتسابِهِ
فكله إلى ريب الزمان فإنـه ... ستبدي له ما لم يكن في حسابِهِ
فكم قد رأينا ظالمًا متجبرًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابِهِ
فلما تمادى واستطال بظلمـه ... أناخت صروف الحادثات ببابِهِ
وعوقب بالظلم الذي كان يقتفي ... وصبّ عليه الله سوط عذابِهِ[٢]

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين »[٣] .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة »[٤]. فهي سريعة الوصول .

وقال ﷺ : « اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب »[٥].

وفي حديث أحمد عن أبي هريرة مرفوعًا : « دعوة المظلوم مستجابة ولو كان فاجرًا وفجوره على نفسه » . وإسناده كما في الفتح حسن .

قال المناوي :

« اجتنبوا دعوة المظلوم » وذلك مستلزم لتجنب جميع أنواع الظلم ، على

---

(١) فيض القدير (١ / ١٣٤) . (٢) فيض القدير (٢ / ٣٦٦) .
(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن خزيمة بن ثابت ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٦ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٨٦٨ .
(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع عن ابن عمر رقم ١١٧ ، والصحيحة رقم ٨٦٩ .
(٥) حسن : رواه أحمد ، وأبو يعلى في مسنده ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١١٨ .

أبلغ وجه وأوجز إشارة وأفصح عبارة ؛ لأنه إذا اتقى دعاء المظلوم لم يظلم ، فهو أبلغ من قوله : لا تظلم . وهذا نوع شريف من أنواع البديع يسمى تعليقًا .

« فإنها تحمل على الغمام » أي يأمر الله برفعها حتى تجاوز الغمام – أي السحاب الأبيض – حتى تصل إلى حضرته تقدس ، وقيل : الغمام شيء أبيض فوق السماء السابعة ، فإذا سقط لا تقوم به السمٰوات السبع ، بل يتشققن قال الله تعالى : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾ [الفرقان : ٢٥] وعلى هذا فالرفع والغمام حقيقة ولا مانع من تجسيم المعاني[(١)] .

قال ﷺ: «أشد عذابًا للناس في الدنيا– أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة»[(٢)].

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أشد الناس يوم القيامة عذابًا إمام جائر »[(٣)] .

قال سقراط : ينبوع فرج العالم الإمام العادل ، وينبوع خرابهم الملك الجائر .

قال المناوي :

« أشـد الناس » أي من أشدهم « عذابـًا للناس في الدنيا » أي بغير حق « أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة » فكما تدين تدان .

وفي الإنجيل : بالكيل الذي تكتال به يكال لك .

وقضيته أن لا يكون في النار أحد يزيد عذابه عليه ، ويعارضه الأخبار الآتية عقبه ، وآية ﴿ **أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ [غافر : ٤٦] وأجيب بأن الناس الذين أضيف إليهم أشد لا يراد بهم كل نوع ، بل من يشاركهم في ذلك المعنى المتوعـد عليه بالعذاب ، ففرعون أشد الناس الزاعميـن للإلهية عذابـًا ،

---

(١) فيض القدير (١ / ١٤١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن الوليد ، والحاكم في المستدرك عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٠٩ .

(٣) حسن : رواه أبو يعلي في مسنده ، والطبراني في « الأوسط » وأبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠١٢ .

ومن يُقتدي به في ضلالةِ كفرٍ ، أشد عذابًا ممن يقتدى به في ضلالة بدعة ؛ والإمام الجائر الذي ولايته محيطة ، أشد عذابا من حاكم بلدة أو قاضيها . ومَنْ صور صورة تعبد - كما كانت تفعل الجاهلية ، وكما يفعل النصارى - أشد عذابًا ممن صورها لغير ذلك كالزينة . وهكذا ذكره القرطبي وغيره . وإلا فإبليس أشد عذابًا من هؤلاء ومن غيرهم . وكذا قابيل ، ومن قتل نبيًّا أو قتله نبي[1].

صاح هذي غربة الحــــقّ ووعــــد الأنبيـــاءْ

وسْط أجلافٍ غلاظ وسْط سجن الأشقياءْ
وضياع الصدق دهرًا وذهــاب الشرفـــاءْ
وبكاء الأرض شوقًا لندى هَذِي السمـــاءْ
وظهور الفسق بحــرًا وهجير الكفر جــاءْ
وخنــوع القــوم ذلًّا وانمحى صوت الإباءْ
كيف يا صاح نسيت قتل أم هتك عرض ذبح طفل ودماءْ
سب دين، لعن حبر، قذف أخت قتل شيخ رافع اليد للسمـاءْ
يا دمائي لست مني إن جهلتِ أن ليل الكفر قبر الأتقيـاءْ
إن جهلتِ أنّ قومي ضيعوا عهـ ـدًا وفجـرًا ضيعـوا أغلى نـداءْ
إن جهلت أنّ داري غبت عنها بلد الأبرار داري وهي مأوى الأنبياءْ
وغريب الدار لا ينسى جنانـا فاح فيها الطهر عطرًا .والضياءْ
جنة الفردوس قد هاج حنيني لـرؤى الحور ولقيا الشهـداءْ
سنة الرحمن في الناس ابتـلاء فلتخضبْ يا إلهي نحري الفاني الدماءْ

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا »[2] . والجزاء من جنس العمل .

وراوي هذا الحديث هو هشام بن حكيم ، ولما مرّ على أناس من الأنباط قد

---

(١) فيض القدير (١ / ٥١٦ - ٥١٧) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن هشام بن حكيم ، وأحمد والبيهقي في الشعب عن عياض بن غنيم . وقال العراقي : إسناد أحمد صحيح .

أقيموا في الشمس ، وصُب على رءوسهم الزيت ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : يعذبون في الخراج أو الجزية. فقال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول.. وساقه[1].

فكيف بمن يعذب المسلمين !!!

إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فكيف بمن يحبس المسلمين؟!

إن من عذب الناس عذّبه الله ، ﴿ **لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ [الفجر : ٢٥ - ٢٦] إن عذاب الله يتكلم ..

إن عذاب الله شديد ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ [الفرقان : ١٢] ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ [الملك : ٨] .

إن أسير الدنيا يومًا من الأيام تفك قيوده وتفصم كبوله ، أما أسير الآخرة فهو الأسير حقا ﴿ **إن لدينا أنكالًا وجحيمًا** ﴾ [المزمل : ١٢] ﴿ **خذوه فغلوه** ﴾ [الحاقة : ٣٠] ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ [الرحمن: ٤١]. سلسلة تجمع ما بين الناصية والقدم من الخلف .

جمع النواصي مع الأقدام صيّرهمْ ... كالقوس محنية من شده الوترِ

جزاءً وفاقًا بما عملوه وما فعلوه بالموحدين في دار الدنيا .

إن كنت لم تسمعْ فسلْ عما جرى ... مثلي ولا ينبيك مثل سجينِ
واسأل ثرى «الحربىّ» أو جدرانه ... كم من كسير فيه أو مطعونِ
وسل «العروسة» قُبّحت من عاهر ... كم من جريح عندها وطعينِ
واسأل «زنازين» الجليد تجبك عن ... فن العذاب ، وصنعةِ التلـقين
بالنار أو بالزمهرير فتلك في ... حين ، وهذا الزمهرير بحيـنِ
يُلقى الفتى فيه ليالَي عاريًا ... أو شبه عارٍ في شتا «كانونِ»
وهناك يملي الاعتراف كما اشتهوا ... أوْلا ، فويل مخالف وحَـرونِ
وسل «المقطم» وهو أعدل شاهد ... كم من شهيد في التلال دفينِ
قتلته طغمة مصر أبشع قتلة ... لا بالرصاص ولا القنا المسنونِ

---

(١) فيض القدير (٢ / ٣٠٤) .

بل علقوه كالذبيحة هُيِئت ... للقطع والتمزيق بالسكينِ
وتهجدوا فيه لياليَ كلها ... جلد ، وهم في الجلد أهل فنونِ
فإذا السياط عجزن عن إنطاقه ... فالكي بالنيران خير ضمينِ
ومضت ليالي والعذاب مُسجَّر ... لفتى بأيدي المجرمين رهينِ
لم يعبئوا بجراحه وصديدها ... لم يسمعوا لتأوّهِ وأنينِ
وجرى الدم الدفّاق يسطر في الثرى ... يا إخوتي ! استشهدت فاحتسبوني
لا تحزنوا ، إني لربي ذاهب ... أحيا حياة الحر لا المسجونِ
قولوا لأمي لا تنوحي واصبري ... أنا عند خالقي الذي يهديني
أنا إن حرمت وداعكم لجنازتي ... فملائك الرحمن لم يدعوني
إن لمْ يصلّ عليّ في الأرض امرؤٌ ... حسبي صلاتهم بعليين
وإذا حرمت العُرس في الدنيا فلي ... ما شئت فيها من حسانٍ عينِ
أماه حسبك أن أموت معذبًا ... في الله لا في شهوة ومجونِ

ويقول في موضع آخر :

أعرفت ما قاسيتُ في زنزانة ... كانت هي القبر الذي يؤويني ؟!
لا بل ظلمت القبر ، فهو لذي التقى ... روض، وتلك جحيم أهل الدينِ!
هي في الشتاء وبرده «ثلاجة» ... هي في هجير الصيف مثل أتونِ
نُلقى ثمانية بها أو سبعة ... متداخلين كعلبة السردينِ
هي منتدانا وهي غرفة نومنا ... وهي «البوفيه» وحجرة «الصالونِ»
هي مسجد لصلاتنا ودعائنا ... هي ساحة للعب والتمرينِ
وهي «الكنيف» وللضرورة حكمها ... ما الذنب إلا ذنب من سجنوني
هي كل مالي في الحياة فلم يعد ... في الكون ما أرجوه أو يرجوني
الأرض كل الأرض عندي أرضها ... أما السماء فسقفها يعلوني
فيها انقطعت عن الوجود فلم أعد ... أعنيه في شيء ولا يعنيني
لا أعرف .... عن دنيا الورى ... إلا من الأحلام لو تأتيني

ويقول :

من أجل ضبط وريقة أو إبرة ... ولغير شيء طالما استاقوني
وتجمعوا حولي ضواري همها ... نهشي .. وما لي حيلة تنجيني
إن نمت توقظني السياط سريعة ... فالنوم ليس يباح للمسجونِ !
وإذا تحدثنا لنذهب بالكرى ... حظروا الحديث عليّ كالأفيون
وإذا تلونا في المصاحف حرّموا ... حمل المصاحف وهي خير قرينِ
هذي سياستهمْ وتلك عقولهمْ ... عيشوا بغير تحرك وسكون !
إياكمو أن تشتكوا أو تألموا ... موتوا بغير توجع وأنينِ !
سدوا عليّ الباب كي أخلو إلى ... كتبي فلي في الكتْب خير خدينِ
وخذوا الكتاب، فإن أنستي مصحفٌ ... أتلوه بالترتيل والتلحينِ
وخذوا المصاحف، إن بين جوانحي ... قلبا بنور يقينه يهديني
الله أسعدني بظل عقيدتي ... أفيستطيع الخلق أن يشقوني ؟!
قالوا كِذَابًا : دعوة رجعية ... معزولة عن قرنها العشرينِ
الناس تنظر للأمام ، فما لهم ... يدعوننا لنعود قبل قرونِ
رجعية أنّا نغار لديننا ! ... ونقوم بالمفروض والمسنونِ
رجعية أنا نصون حريمنا ! ... بئس الحريم يكون غير مصونِ
رجعية أنا نذرنا أنفسًا ... لله تحيا ، لا لعيش دونِ !
رجعية أنا نربي جندنا ... للحق ، لا لتفاهة ومجونِ !
رجعية أن الرسول زعيمنا ! ... لسنا الذيول لـ «ماركس» و «لِنين»
رجعية أن الجهاد سبيلنا ... نعم الجهاد ذريعة التمكينِ
رجعية أن يحكم الإسلام في ... شعب يرى الإسلام أعظم دين!
أو ليس شرع الله ، شرع محمد ... أولى بنا من شرع نابليونِ ؟!
يارب ! إن تكُ هذه رجعية ... فاحشرنِ رجعيًّا بيوم الدينِ[1]

يقول رئيس دولة عربية لصحيفة السياسة الكويتية : أنا المعتقل الوحيد

(١) نونية القرضاوي .

في ... والجزاء من جنس العمل .

ثم يشرح ما يقصده قائلًا : أي واحد يتم اعتقاله لمدة ١٥ يومًا إذا ارتكب شيئًا ما .

أنا المعتقل الوحيد مدى الحياة، لا أستطيع الخروج إلا بحراسة، فقدت حريتي الشخصية، حقيقة أنا أجهدت تمامًا طيلة هذه الفترة[1]. والجزاء من جنس العمل.

قال ﷺ : « بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا ، البغي والعقوق » .

يقول سجين موحد :

إنْ كنت يا زنزان قد حرمتني ... من أنس أحبابي ومن أصحابي
أو كنت يا زنزان قد غيبتني ... عن مجلس الأخيار من أترابي
أو حزّ في نفسي فراق عشيرة ... أو هاجني الأشواق للأحبابِ
فلقد وجدت لديك خير أحبة ... من كل تالٍ قانت أوّاب
ووصلتني بالله في غسق الدجى ... أغفو لدى القيوم في محرابي
وجعلت زادي في النهار تلاوة ... من خير هدي للورى وكتابِ
إن كان حجمك في الحقيقة ضيقًا ... فلأنت في نفسي أعز رحابِ

ويقول آخر :

في ساعة السحر الجميـ ... ـل أتوا وقد كنا رقودْ
سرقوا الصلاة من المكا ... ن الحق في وقت السجودْ
سرقوا الأحاديث التي ... قد قالها خير الوجودْ
فلتسرقوا كتبي خذو ... ها واحرقوا بحثًا مفيدْ
أوْ راقبوا طفلًا صغيـ ... ـرًا هدّدوا هذا الوليد
روسية ماذا جنيـ ... ـتم بعدها غير الجمود
ماذا جنيتم واسألوا ... سيتا وأسلاك الحدودْ

---

(١) جريدة الشعب الصفحة الرابعة عشرة الثلاثاء ١١ جمادى الآخرة سنة ١٤١٢، ١٧ ديسمبر ١٩٩١ تحت عنوان أولاد البلد .

نحن يا مقداد أوفى | للعقيـدة بالعهـودْ
بالعقيدة سوف نمضي | إخـوة حتـى نعـودْ
قالوا ستخرج من هنا | وارجعْ فقبلتُ القيودُ
إني بغيـر عقيدتـي | أحيا كشيطَان مريدْ

وكتب آخر على لسان سجين في ليلة تنفيذ إعدامه :

أبتاه ماذا قد يخط بناني | والقيد والجلّاد ينتظراني
لم تبق إلا ليلة أحيا بها | وأحس أن ظلامها أكفاني
ستمـر لست أشك فـي | هذا وتحمل بعدها جثماني
أبتاه إن طلع الصباح على الدنا | وأضاء نور الشمس كل مكانِ
واستقبل العصفور بين غصونه | يومًا جديدًا مشرق الألـوانِ
وسمعت أنغام التفاؤل ثـرة | تجرى على فم بائع الألبانِ
وأتى يدق كما تعوّد بابنـا | سيدق باب السجن جلّادانِ
وأكون بعد هنيهة متأرجحـا | في الحبل مشدودًا إلى العيدانِ
ليكن عزاؤك أن هذا الحبل ما | صنعته في تلك الربوع يدانِ
صنعوه في بلد يشع حضارة | وتفيض منه مناهل العرفـانِ
أو هكذا زعموا وجيء به إلى | بلد الجريح على يد الأعوانِ
وإذا سمعت نشيج أمي في الدجى | تبكي شبابًا ضاع في الريعانِ
وتكتِّم الحسرات في أعماقها | ألمًا تواريه عـن الجيـرانِ
فاطلب إليها الصفح عنى إنني | لا أرتجي منها سوى الغفرانِ
ما زال في سمعي رنين حديثها | ومقالهـا فـي رقـة وحنـانِ
أبنيّ إني قد غدوت عليلـة | لم يبق لي جلد على الأحزانِ
فأذق فؤادي فرحة بالبحث عن | بنت الحلال ودعك من عصياني
كـانت لهـا أمنيّـة مرجـوة | يا حسن آمال لها وأماني
وإلى لقاء تحت ظل عدالة | قدسيـة الأحكـام والميـزانِ

يقول ابن الجوزي :

اعلم أن الجزاء بالمرصاد ، إن كانت حسنة أو كانت سيئة .

ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح ، وربما جاءت العقوبة بعد مدة .

وقلّ من فعل ذنبًا إلا قوبل عليه ، قال الله عز وجل ﴿ **من يعمل سوءًا يجز به** ﴾ [النساء : ١٢٣] .

آدم لم يسامح بلقمة ، ودخلت النار امرأة في قطة .

وأنت ....

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي   درج الجنان ونيل فوز العابدِ
ونسيت أن الله أخرج آدمًا   منها إلى الدنيا بذنب واحدِ

يونس عليه السلام خرج عن قومه بغير إذنه، فالتقمه الحوت .

ونظر بعض العباد شخصًا مستحسنًا فقال له شيخه : ما هذا النظر ؟ ستجد غبّه . فنسي القرآن بعد أربعين سنة .

وقال آخر : قد عبت شخصا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت بعض أسناني ، ونظرت إلى امرأة لا تحلّ لي ، فنظر إلى زوجتي من لا أريد .

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه إلى مكان ، فقال له الأب : حسبك إلى هاهنا سحبت أبي .

وقال ابن سيرين : عيرت رجلًا بالإفلاس فأفلست . ومثل هذا كثير من أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام ، أن المقتفي غضب عليه ، وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار فقال : ما يؤخذ مني عشرة ، ولا خمسة ، ولا أربعة . قالوا : من أين لك ؟ قال : إني ظلمت رجلا فألزمته ثلاثة آلاف دينار ، فما يؤخذ مني أكثر منها . فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وقع الخليفة بإطلاقه ومسامحته في الباقي .

وأنا أقول عن نفسي : ما نزلت بي آفة ، أو غمّ ، أو ضيق صدر إلا بذنب أعرفه حتى يمكنني أن أقول : هذا بالشيء الفلاني .

فينبغي للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب ، فقلّ أن يسلم منه فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم ، ثم آثر لذة المعصية لحظة(١) .

وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه ، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ، ونشرها محرر « بريد الجمعة » عبد الوهاب مطاوع في مقاله تحت عنوان « الضوء الأخير ! » .

دفعني للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك على إحدى الرسائل ويقولان :

إنما الدنيا هبات وعوار مستردّهْ
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدهْ

فأردت أن أروي لك قصتي عسى أن تكون عبرة لغيري . فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج وَلَدَيْه طفلان ، وزوجي ضابط عسكري بالمعاش ، ونعيش في أحد أحياء القاهرة ، ومنذ أن بدأت حياتي مع زوجي ونحن نعيش حياة رغدة ، وقد استعنت طوال حياتي الزوجية على تربية أولادي بمربيات عديدة ، لا أتذكر عددهن من كثرتهن ، ولا عجب في ذلك ، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندي أكثر من شهرين ، ثم تفرّ من قسوة زوجي العدواني بطبعه ، والذي لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم أنها وراثية فيه ، فقد كان يتفننُ في تعذيب أي مربية تعمل عندنا ، ولا أنكر أني شاركته في بعض الأحيان جريمته .

ومنذ خمسة عشر عامًا ، وابنتي في السابعة من عمرها ، وابني في المرحلة الاعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجي ، ومن أبناء بلدته ، يصطحب معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة ، فاستقبله زوجي بكبرياء وترفع . وقال المزارع

(١) صيد الخاطر .

البسيط : إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهًا في الشهر ووافقنا ، وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء ، فانخرطت الطفلة في البكاء ، وهي تمسك بجلباب أبيها ، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها ، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها ، وانصرف الرجل دامع العينين ، وهو يعدها بما طلبت . وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا ، فكانت تستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما ، ثم تحمل الحقائب المدرسية ، وتنزل بها إلى الشارع ، وتظل واقفة مع ابنتي وابني حتى يحملهما أتوبيس المدرسة ، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت ، وخبز على وشك التعفن ، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن ، ثم تبدأ في ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضر والمسح ، وتلبية النداءات حتى منتصف الليل ، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق في النوم . وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجي ضربا بقسوة شديدة ، فتتحمل الضرب باكية صابرة ، ورغم ذلك فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها ، تفرح بأبسط الأشياء ، وتغني غناءً حزينا خافتا يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهي تغسل الأطباق ، ورغم اعترافي بأني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادمات ، وتفننه في تعذيبهن ، حتى أنه كان أحيانا يختلق الأسباب لضرب أي خادمة تعمل عندنا ، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة ، لطيبتها ، وانكسارها وإخلاصها ، فأناشد زوجي ألا يضربها ، وأقول له : إنها قد كبرت وتعوّدت على طباعنا ، وتحمّلتنا كثيرًا فلا داعي للاستمرار في ضربها ، فكان يقول لي مقهقها : إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها ؛ لأنها قد تعوّدت عليه ، وأن هذا « الصنف » من الناس لا تجدي معه المعاملة الطيبة ، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصبر ، وأتذكر الآن بأنني حين كان العيد يأتي ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين ، بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في العمر تنظف وتغسل دون شفقة ، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدي فستانًا قديمًا لكنه نظيف ، لأنها

كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة ، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا ، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور ، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية ، كما لم تر أمها وإخوتها إلا في ثلاث مناسبات محددة ، الأولى حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن ، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملًا كبيرًا على عودته ، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا ، فإذا به يلقى مصرعه ، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسرًّا حتى لا يراها زوجي ، فتلقى عقابًا على يديه .

والمرة الثانية لم تكن تعطفا منا عليها ، وإنما كانت تخلصًا منها في الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معدٍ ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما ، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها .

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا ، واستقر الحزن والانكسار في قلبها .

وأرجو أن تصدقني يا سيدي ، إذ ليس لديّ ما يبرر أن أدعي شيئًا غير صادق ، وأنا كتبت لك بإرادتي ، إذا قلت أني أبكى الآن كلما تذكرت قسوة عقابنا لها إذا أخطأت أي خطأ ، وكان لابد أن تخطىء ، كأي طفلة ، وكأي إنسان ، فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء ! وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية ، فباتت على الطوى جائعة . ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكي !

وسوف تتساءل ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجلدها من جحيمكم ؟ وأجيبك بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضروات ولم تعد ، فسأل زوجي البواب عنها ، وعرف إنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزّار بنفس الشارع ، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة ، فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها ، واستقبلناها عند عودتها استقبالًا حافلًا بكل أنواع العذاب، فقام زوجي بصعقها بالكهرباء، وتطوّع

ابني بركلها بعنف ، بينما بكت ابنتي وهي تقول لأبيها : حرام يا بابا حرام .. حرام .. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هي أيضًا ، وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها !

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا ، واستسلمت لمصيرها ، واستمر الوضع كما كان عليه ، تخطيء أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت ، فيضربها زوجي ضربًا مبرّحا ، ونخرج في الأجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشيء من اللحم ، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله .. إلخ ثم شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها ، وأنها تتعثر كثيرًا في مشيتها ، فعرضناها على الطبيب فأكّد لنا أن نظرها قد ضعف جدًّا ، وأنه ينسحب تدريجيا ، وأنها لا ترى حاليًا ما تحت قدميها ، أي أنها أصبحت شبه كفيفة ، ورغم ذلك فلم نرحمها ، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن ، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل ، بل وكثيرًا ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضروات ليست طازجة وكثيرًا ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد ، فأشفقت عليها زوجة البواب ، فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضروات لها ، حتى تنقذها من الإهانة والضرب ، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن ، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا ، ولم تعد إليه مرة أخرى ، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة .

ومضت السنوات فأحيل زوجي للتقاعد ، واستقبل حياة الفراغ ، وفقد المنصب والنفوذ - أسوأ استقبال فتضاعفت عصبيته وثوراته ، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل ، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين .

وتخرج ابني في الجامعة وعمل ، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته ، فخطبناها له ، وهي فتاة رائعة الجمال ، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل ، ثم جاءت اللحظة السعيدة ، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر ، وتحوّلت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم ، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة ، واستسلم ابني

وزوجته للأمر الواقع ، وانطفأ الأمل في قلبيهما ، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين ، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى خوفًا من تكرار الكارثة ، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل ؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها تؤكد العوامل الوراثية ، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها ، وشجعناها نحن أيضًا على ذلك على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه وصدمته في طفله الأول .
وحملت زوجة ابني ، وأنجبت طفلة جميلة شقراء انزلت إلى الحياة ، فتوقفت قلوبنا حتى زفّ الطبيب البشري بأنها ترى وتبصر ، كالأطفال العاديين ، وسعدنا بها سعادة مضاعفة ، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا ، وبعد سبعة شهور ، لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه ، فعرضناها على أخصائي عيون للاطمئنان على سلامة عينيها ، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولا ، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء ، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ورأى زوجي ذلك ، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه ، وكره كل شيء ، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب ، وانقبض قلبي ، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدري بقسوة ، وفي ضيقي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان ، وساءلت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها ؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التي أهملنا علاجها وتسببنا في كف بصرها تطاردني في وحدتي ، وتعلق أملي في عفو ربي عما جنينا في أن أجد هذه الفتاة ، وأكفر عما فعلنا بها ، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها ، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد ، فذهبت إليها وأحضرتها لتعيش معي ما بقي لي من أيامي ، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالي عنها وسعيي إليها لإعادتها ، وحفظت العشرة التي لم نحفظها ، وعادت معي تتحسس

الطريق وأنا أمسك بيدها . وفرحت بسماع صوت ابنتي الشابة التي طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها وصباها ، وبسماع صوت ابني الذي عرف الهمّ طريقه إلى قلبه ، واستقرت الفتاة معنا ، وأصبحت أرعاها بل وأخدمها هي وحفيديّ الكفيفين .. وأملي ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان ، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم : إن الله حيّ لا ينام ، فلا تقسوا على أحد فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين ، وتندمون على ما فعلتم في قوتكم وجبروتكم ..

هذه هي قصتي يا سيدي التي دفعني بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك لأن أرويها لك ، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

ثم رد المحرر عبد الوهاب مطاوع على هذه معلقًا :

وهكذا كان الجزاء دائمًا من جنس العمل ، ومع ذلك فما أكثر الخطايا والآثام ، وما أقل الاعتبار .

وأخرى مثلها من الواقع عن رجل كفيف رأس من رءوس المبتدعة في قرية من محافظتنا ، لا همّ عنده إلا محاربة السنة جهلًا منه وعنادًا .

تواترت أقوال أهل قريته أن هذا الرجل كُفّ بصره في سن متأخرة ، وأنه كان يذهب إلى الموالد ، ويمزح مع إخوانه في شبابه ، ويرميهم بالطعام في وجوههم . وكان شابًا جلدًا ، وكانت أمه تعمل بتجارة البيض وجمعه من القرى ، وهي كفيفة ، وتحتاج إلى مساعدته ، تستند عليه ، ويُريها الطريق ، لأنه كان سليم البصر ، فكان يهزأ بها ويأتي بها في الطريق ويوهمها بأن حفرة تصادفها في الطريق ، ويأمرها بالوثوب فتقفز المسكينة فتقع على الأرض ، فدعت عليه ، فكف بصره جزاءً وفاقًا والجزاء من جنس العمل .

ومن الجزاء من جنس العمل في هذا الباب ما رواه الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء عن طارق بن زياد ومولاه موسى بن نصير- رحمهما الله :

---

(١) جريدة الأهرام - بريد الجمعة الصفحة ١٦ تاريخ ١٥ / ١ / ١٩٩١ .

فقد كان طارق بن زياد مولى لموسى بن نصير ، وكان أميرًا على طنجة بأقصى المغرب ، فبلغه اختلاف الفرنج واقتتالهم ، وكاتبه صاحب الجزيرة الخضراء ليمده على عدوه ، فبادر طارق وعَدّى في جنده ، وهزم الفرنج ، وافتتح قرطبة ، وقتل صاحبها لذريق ، وكتب بالنصر إلى مولاه ، فحسده على الانفراد بهذا الفتح العظيم ، وتوعَّده ، وأمره ألَّا يتجاوز مكانه ، وأسرع موسى بجَيوشه فتلقاه طارق ، وقال : إنما أنا مولاك ، وهذا الفتح لك ، فأقام موسى ابن نصير بالأندلس سنتين يغزو ويغنم وقبض على طارق ، وأساء إليه ، ثم استخلف على الأندلس ولده عبد العزيز بن موسى .

قال الذهبي عن موسى بن نصير : استخلف ابنه بأفريقية ، وأخذ معه مائة من كبراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدم مصر في هيئة ما سُمِع بمثلها ، فوصل العلماء والأشراف ، وسار إلى الشام ، فبلغه مرض الوليد ، وكتب إليه سليمان يأمره بالتوقف ، فما سمع منه ، فآلى سليمان إنْ ظفر به ليصلبنه، وقدم قبل موت الوليد ، فأخذ ما لا يحد من النفائس، ووضع باقيه في بيت المال ، وقُوِّمت المائدة بمائة ألف دينار .

وولي سليمان فأهانه ، ووُقِّف في الحر - وكان سمينا - فغشي عليه . وبقي عمر بن عبد العزيز يتألم له ، فقال سليمان : يا أبا حفص ! ما أظن إلا أنني خرجت من يميني[1] .

وجاء في سير أعلام النبلاء ، عن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، عمّ السفّاح المنصور :

كان بطلًا شجاعًا مهيبًا ، جبارًا عسوفًا ، سفاكًا للدماء . به قامت الدولة العباسية . سار في أربعين ألفًا أو أكثر ، فالتقى بالخليفة مروان بقرب الموصل فهزمه، ومزّق جيوشه، ولجّ في طلبه، وطوى البلاد حتى نازل دار الملك دمشق، فحاصرها أيامًا ، وأخذها بالسيف .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦- ٥٠٢) .

وقتل بها إلى الظهر نحوًا من خمسين ألف مسلم من الجند وغيرهم، ولم يرقب فيهم إلّا ولا ذمة ، ولا رعى رحمًا ، ولا نسبًا . ثم جهّز في الحال أخاه داود بن علي في طلب مروان ، إلى أن أدركه بقرية بوصير من بلاد مصر ، فبيّته ، فقاتل المسكين حتى قُتل . وهرب ابناه إلى بلاد النوبة ، وانتهت الدولة الأموية .

ولما مات السفّاح ، زعم عبد الله أنه وليّ عهده ، وبايعه أمراء الشام ، وبويع المنصور بالعراق ، وندب لحرب عمه صاحب الدعوة أبا مسلم الخراساني ، فالتقى الجمعان بنصيبين ، فاشتد القتال وقتلت الأبطال ، وعظم الخطب ، ثم انهزم عبد الله في خواصه ، وقصد البصرة فأخفاه أخوه سليمان مدة ، ثم ما زال المنصور يلح حتى أسلمه ، فسجنه سنوات ، فيقال : حَفَر أساس الحبس ، وأرسل عليه الماء ، فوقع على عبد الله في سنة سبع وأربعين ومائة . فالأمر لله[1].

والجزاء من جنس العمل .

وكان سالم بن حامد نائب دمشق للمتوكل ، كان ظلومًا عسوفًا ، شدّ عليه طائفة من أشراف العرب ، فقتلوه بباب دار الإمارة يوم جمعة سنة بضع وثلاثين ومائتين ، فبلغ المتوكل فتنمّر ، وقال : مَنْ للشام في صولة الحجّاج ؟ فندب أفريدن التركي ، فسار في سبعة آلاف فارس . ورخص له المتوكل في بذل السيف ضحوتين ، وفي نهب البلد . فنزل ببيت لِهْيا[2]. فلما أصبح قال : يا دمشق ، أيش يحلُّ بك اليوم مني ، فقُدمت له بغلة دهماء ليركبها ، فضربته بالزوج على فؤاده فقتلته ، ورد عسكره إلى العراق[3] .

وانظر إلى جزاء الظالمين وكيف كان من جنس عملهم ، يلوح واضحًا جليًّا في سيرة ومصير الخليفة العباسي القاهر بالله .

قال الذهبي :

كان فيه شر وجبروت وطيش ، بايعوه بعد المقتدر ، فصادر حاشية أخيه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦ / ١٦١ - ١٦٢) .
(٢) قرية بغوطة دمشق .
(٣) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٦٢) .

وعذّبهم ، وضرب أم المقتدر بيده ، وهي عليلة ، ثم ماتت معلقة بحبل ، وعذّب أم موسى القهرمانة ، وبالغ في الإساءة ، فنفرت منه القلوب ، وقُبض على شيخ الحنابلة البَرْبَهَاري . ونهب القاهر دور مخالفيه ، وطيّن على ولد أخيه المكْتَفي بين خيطين ، ونادى بتحريم الغناء والخمر ، وكسر الملاهي ، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف ، ويسكر ويسمع القينات . وقتل أبا السرايا ابن حمدان ، وإسحاق النوبختي ألقاهما في بئر ، وطُمّت ؛ لكونهما زايداه في جارية قبل الخلافة . ثم خُلع وأكحل بمسمار لسوء سيرته وسفكه الدماء .

قال الصولي : كان أهوج ، سفاكًا للدماء ، كثير التلوّن ، قبيح السيرة ، مدمن الخمر ، ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل ، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنسانًا .

قال المسعوديّ : أخذ من مؤنس وأصحابه أموالًا كثيرة . فلما خلع طُولب بها فأنكر. وقف يومًا بالجامع بين الصفوف، وعليه جبة بيضاء، وقال: تصدقوا عليّ فأنا مَنْ قد عرفتم[١] .

نهب أموال الناس قسرا ، فآلت به الحال أن صار يستجدي الناس جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه ، خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين »[٢] .

قال المناوي :

يُكلف نقل ما ظلم به إلى أرض المحشر، وفيه تحريم الظلم وتغليظ عقوبته، وإمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر، وأن مَنْ ملك أرضًا ملك سفلها إلى منتهى الأرض، وله منع غيره من حفر سرداب أو بئر تحتها وأن مَنْ ملك ظاهر الأرض ملك باطنها[٣].

وقال ﷺ : « مَنْ أخذ من الأرض شيئًا ظلمًا ، جاء يوم القيامة يحمل

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٩٨-١٠١). (٢) رواه البخاري عن ابن عمر .
(٣) فيض القدير (٦/٤١) .

ترابها إلى المحشر »[١] .

قال المناوي في غاصب الأرض :

« يهوي به إلى أسفلها بالأخذ غصبًا لتلك الأرض . ويجعل كالطوق في عنقه على وزنه ﴿ سيطوّقون ما بخلوا به ﴾ [آل عمران : ١٨٠] ويعظم عنقه ليسعَ أو يطوّق إثم ذلك ويلزمه لزوم الطوق ، أو يكلف الظالم جعله طوقا ولا يستطيع ، فيُعذب بذلك ، فهو تكليف تعجيز للإيذاء لا تكليف ابتداء للجزاء ، ومثله غير عزيز كتكليف المصور نفخ الروح فيما صوّره ، فمن اعترضه بأن القيامة ليست بزمن تكليف لم يتأمل ، أو أن هذه الصفات تتنوع لصاحب هذه الجناية بحسب قوة هذه المفسدة وضعفها ، فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بهذا[٢] .

وقال ﷺ : « من أخذ من طريق المسلمين شيئًا جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين »[٣] .

وقال ﷺ : « من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين »[٤] .

وقال ﷺ : « أيما رجل ظلم شبرًا من الأرض كلّفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين ، ثم يُطوقه يوم القيامة حتى يقضى بين الناس »[٥] .

وقال ﷺ : « لا يأخذ أحدٌ شبرًا من الأرض بغير حقه ، إلّا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة »[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في الكبير عن يعلى بن مرّة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٢ ، وتخريج الترغيب رقم ٥٤٣ .

(٢) فيض القدير (١ / ٤١ - ٤٢) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير ، والضياء عن الحكم بن الحرث ، وصححه السيوطي ، قال المناوي : قال ابن حجر : وإسناده حسن . وقال الهيثمي بعد ما عزاه للطبراني : فيه محمد بن عقبة السدسي وثقه ابن حبان ، وضعّفه أبو حاتم ، وتركه أبو زرعة .

(٤) رواه الشيخان وأحمد عن عائشة ، وعن سعيد بن زيد .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن يعلى بن مرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١٩ ، وتخريج المشكاة ٢٩٦٠ ، والصحيحة رقم ٢٤٠ .

(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: « من ضرب بسوطٍ ظلمًا اقتص منه يوم القيامة »(١) .

وإن كان المضروب عبده .

٢٣ - تخويف أهل المدينة

إذا ذُكرت هذه الكبيرة ذكر معها يزيد بن معاوية ، ومسلم بن عقبة المزني الذي سماه السلف مسرف بن عقبة ، وذكر معها موقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، فإن أهل المدينة خلعوا يزيد بن معاوية ، وولوا على قريش عبد الله بن مطيع ، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ، فانتدب يزيد مسلم بن عقبة وأرسل معه عشرة آلاف فارس ، وقيل : اثنا عشر ألفا وخمسة عشر ألف رجل .

فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين ، وَلِّني عليهم أكْفِك . وكان النعمان أخا عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة . فقال يزيد : لا ! ليس لهم إلا هذا الغشمة(٢) ، والله لأقتلنهم بعد إحساني إليهم ، وعفوي عنهم مرة بعد مرة .

فقال النعمان: يا أمير المؤمنين! أنشدك الله في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. وقال له عبد الله بن جعفر : أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أيقبل منهم ؟ قال : إن فعلوا فلا سبيل عليهم . وقال يزيد لمسلم بن عقبة : ادع القوم ثلاثا ، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ، وإلّا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا ظهرت عليهم ، فأبح المدينة ثلاثًا ، ثم اكفف عن الناس وقد كان ..

فقد اقتتلوا قتالًا شديدًا ثم انهزم أهل المدينة إليها . وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان ، منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل ، وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ، ومحمد ابن عمرو بن حزم ، وقد مرّ به مروان وهو مجندل ، فقال : رحمك الله فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود . ثم أباح مسلم بن عقبة -

(١) صحيح : رواه البخاري في الأدب ، والبيهقي في السنن عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٠ ، وقال الهيثمي والمنذري : إسناده حسن .

(٢) الظالم .

قبّحه الله من شيخ سوء ما أجهله - المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد - لا جزاه الله خيرا - وقتل خلقًا من أشرافها وقرّائها ، وانتهب أموالًا كثيرة منها ، ووقع شر عظيم ، وفساد عريض . فكان ممن قتل بين يديه صبرًا معقل بن سنان ، ونتف لحية عمرو بن عثمان بن عفان . وأباح المدينة ثلاثة أيام ، يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الأموال ، فأرسلت إليه سعدى بنت عوف المرية تقول له : أنا بنت عمّك ، فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا ، فقال لأصحابه : لا تبدءوا إلا بأخذ إبلها أولا . وجاءته امرأة فقالت : أنا مولاتك وابني في الأساري ، فقال : عجّلوه لها ، فضربت عنقه ، وقال : أعطوها رأسه ، أما ترضين أن لا يقتل حتى تتكلمي في ابنك؟ ، ووقعوا على النساء حتى قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج فالله أعلم .

قال هشام بن حسان : ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة[1] من غير زوج . وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله ، وأبو سعيد الخدري .

وجيء بسعيد بن المسيب ، فقال له مسلم : بايع ! فقال : أبايع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون فخلى سبيله ، ولما انهزم أهل المدينة صاح النساء والصبيان ، فقال ابن عمر : بعثمان ورب الكعبة .
سئل الزهري كم كان القتلى يوم الحرة ، قال : سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالي ، وممن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف .

لما قتل أهل الحرّة هتف هاتف بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس يسمع :

والصائمـون القانتـــو ... ن أولو العبادة والصلاحِ
المهتـــدون المحسنـــو ... ن السابقون إلى الفـلاحِ

---

(١) هذه الحرة هي حرة واقم ، إحدى حرتي المدينة المنورة ، وهي تعرف اليوم بالحرة الشرقية .

مـاذا بواقـم والبقيـــع من الجحاجحة[١] الصباحِ
وبقـاعِ يثـرب ويحهـــنَّ من النـوادب والصِيـاحِ
قُتل الخيـارُ بنـو الخيـار ذوي المهابـة والسمـاحِ

فقال ابن الزبير ، يا هؤلاء ، قتل أصحابكم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ودخل مسلم بن عقبة المدينة ، فدعا الناس للبيعة على أنهم خول[٢] ليزيد بن معاوية ، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[٣] .

فكانت بنو أمية أول من بايعه . ثم دعا بني أسد بن عبد العُزَّى ، وكان عليهم حنقًا - إلى قصره ، فقال : تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين ولمن استخلف بعده على أن أموالكم ، وأنفسكم خول له يقضي فيها ما يشاء .

وقال بعضهم : قال ليزيد بن عبد الله خاصة : بايع على أنك عبد العصا . فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة : أيها الأمير إنما نحن نفر من المسلمين ، لنا ما للمسلمين ، وعلينا ما عليهم ، أبايع لابن عمي وخليفتي وإمامي على ما يبايع عليه المسلمون . فقال : الحمد لله الذي سقاني دمك ، والله لا أُقِيلُكَهَا[٤] أبدًا ، لعمري إنك لطعّان وأصحابك على خلفائك . فقدمه فضرب عنقه[٥] .

وسار مسلم بن عقبة أول المحرم سنة أربع وستين إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير فلما بلغ ثنية هرشا بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم : فقال : إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير

---

(١) الجحاجحة : الأسياد .

(٢) خدم وعبيد .

(٣) البداية والنهاية (٨/٢٢٢-٢٢٦) .

(٤) لن يصفح عنه .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد - القسم المتمم لتابعي أهل المدينة - دراسة د . زياد منصور ص ١٠٤ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة .

السكوني ، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلت. ثم دعا به فقال : انظر يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به . ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز[1] ابن الزبير قبل ثلاث ، ثم قال : اللهم ، إني لم أعمل عملًا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أحب إليّ من قتل أهل المدينة ، وأجزى عندي في الآخرة . وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي ، ثم مات - قرحه الله - ودفن بالمسلك .

ثم أتبعه الله بيزيد بن معاوية فمات بعده في ربيع الأول لأربع عشرة ليلة خلت منه ، فما متعهما الله بشيء ممّا رَجَوْه وأمّلوه ، بل قهرهم القاهر فوق عباده ، وسلبهم الملك ، ونزعه منهم من ينزع الملك ممن يشاء[2] .

عن جعفر بن خارجة ، قال : خرج مُسرِّف من المدينة يريد مكة ، وتبعته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زَمْعة يسير وراء العسكر يومين أو ثلاثة ، ومات مسرف فدفن بثنية المشلل ، وجاءها الخبر فانتهت إليه ، فنبشته ثم صلبته على ثنية المشلل[3] جزاءً وفاقًا .

قال ابن كثير :

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشًا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام . وهذا خطأ كبير فاحش ، وقد وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف ، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ، ودوام أيامه من غير منازع ، فعاقبه الله بنقيض قصده ، وحال بينه وبين ما يشتهيه ، فقصمه الله قاصم الجبابرة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن**

---

(١) يقابل .

(٢) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٧ - ٢٢٨) .

(٣) الطبقات الكبرى - القسم المتمم لتابعي المدينة ص ١٠٥ .

أخذه أليم شديد ﴾[1] [هود : ١٠٢] .

والجزاء من جنس العمل .

قال ﷺ : « لا يكيد أهل المدينة أحد ، إلا انماع[2] كما ينماع الملح في الماء »[3] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، فقد أخاف ما بين جنبي »[4] .

وقال ﷺ : « من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله ، كما يذوب الملح في الماء »[5] .

وقال ﷺ : « من أخاف أهل المدينة ، أخافه الله »[6] .

والجزاء من جنس العمل .

هذا لم يرد نظيره لبقعة سواها ، فهم كالماء صفاءً ، يعاقب الله من أراد بسوء في الآخرة بأن يذيبهم في النار ، ولا يمهلهم الله في الدنيا ولا يمكن سلطانهم ، فمسلم بن عقبة هلك في منصرفه عنها ، ثم هلك يزيد مرسله على أثر ذلك .

---

(١) البداية والنهاية (٨ / ٢٢٥) .
(٢) ذاب .
(٣) رواه البخاري عن سعد .
(٤) رواه أحمد في مسنده عن جابر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٤ ، ورواه البخاري في التاريخ .
(٥) رواه أحمد ومسلم ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، ومسلم عن سعد .
(٦) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن سعد ، ورواه ابن النجار ، وأحمد ، والحربي ، والنسائي، وابن عساكر، والدولابي عن السائب، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٣ ، والأحاديث الصحيحة رقم ٢٣٠٤ .

٢٤ - سب الصحابة

قال ﷺ : « لعن الله من سب أصحابي »(١) .

وقال ﷺ : « من سب أصحابي فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين »(٢) .

وقال ﷺ : « لا تسبّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مدّ(٣) أحدهم ولا نصيفه »(٤) (٥) .

مَنْ سبّ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه طرده الله من رحمته ، وأبعده عن جنته ، وأورثه الذلة والهوان في الدنيا قبل الآخرة ، وهل يسبّ من أتى القرآن والإنجيل والتوراة بوصفهم والثناء عليهم .

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٨٧ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦١ .

(٣) مكيال قدره نصف قدح مصري أو رطل وثلث حجازي .

(٤) نصفه .

(٥) رواه أحمد ، والشيخان ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي سعيد ، ورواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة .

ولنأتِ إلى واقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وبين أنس بن مالك - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ وكيف أراد الحجاج ذل أنس فعاد الذل والشنار عليه ، وكان جزاؤه من جنس عمله .

دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أُنيس[١] يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة[٢] . فقال أنس : أياي يعني الأمير أصلحه الله ؟

قال : إياك أعني صك الله سمعك . قال أنس . إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلت . ولا أي ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضبا ، وشفق عجبًا ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك .

أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجرا ، وأسمعني نكرا ، ولم أكن لذلك أهلًا ، فخذ لي على يديه ، فإني أمتّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[٣] .

وفي رواية أخرى : كتب أنس إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه :

ولو أن رجلًا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا

---

(١) للتصغير والتحقير .

(٢) الصّمغة : شيء يسيل من الشجر ويجمد عليها .

(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٣٩) .

له ذلك ، ولو أن رجلًا خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود ، لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ورأيته ، وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضرّ بي وفعل وفعل .

قال محمد بن الزبير : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي ، وبلغ به الغضب ما شاء الله[١] .

فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر - وكان مصادقًا للحجاج - فقال له : دونك كتابيّ هذين ، فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه ، وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة ، قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابًا إذا قرأه كان أطوع لك من أَمتك[٢] .

ولما دخل إسماعيل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحبًا برجل أحبه وكنت أحب لقاه ، فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغيرَ لون الحجاج وخاف ، وقال : ما أتيتني به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبًا عليك ، ومنك بعدًا ، قال : فاستوى الحجاج جالسًا مرعوبًا ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار[٣] ، فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق، وينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضّه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة[٤] .

وكان في الطومار :

---

(١) البداية والنهاية (٩ / ٦٩) .
(٢) أُمتك : جاريتك .
(٣) الطومار : جمعها طوامير : الصحيفة .
(٤) آبدة : جمعها أوابد : الداهية الخالدة الذكر .

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف .

أما بعد : فإنك عبد طمّت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدًّا[١] ، وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدمًا ، وإن لم أسوغها رجعت القهقري ، فلعنك الله من عبد أخفش[٢] العينين ، منفوص الجاعرتين[٣]، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل[٤]، يابن المستفرية بعجم[٥] الزبيب ، والله لأغمرنك غمر الليث الثعلب ، والصقر الأرنب ، وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافًا منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلًا خدم عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم لعظمته وشرّفته وأكرمته وأحبّته ، بل لوْ رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سرّه ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاضٍ ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون[٦] .

جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس العمل ، هذا في الدنيا ، فكيف في الآخرة ؟! رحمك الله يا عبد الملك ، وكافأك بالجنة .

---

(١) قاسية شديدة .

(٢) ضعيف .

(٣) مضرب الدابة .

(٤) موارد الشرب على الطريق .

(٥) بعود .

(٦) البداية والنهاية (٩ / ١٤٠ - ١٤١) .

وانظر أخي إلى عمران بن حِطّان الفاجر الخارجي يقول في رثاء عبد الرحمن ابن ملجم قاتل علي ، الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إنه أشقى الآخرين » .

يقول عمران :

يا ضربة من منيب ما أراد بها ... إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

فردّ عليه عبد القاهر البغدادي :

يا ضربة من كفور ما استفاد بها ... إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه دينًا ، وألعن مَنْ ... يرجو له أبدًا عفوًا وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم ... أخفهم عند رب الناس ميزانا

أما كثير عزة الرافضي فيقول :

برئت إلى الإله من ابن أُرْوَى ... ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عُمَرٍ برئت ومن عتيق ... غداة دعا أمير المؤمنينا

فرد عليه عبد القاهر البغدادي :

بَرِئْتَ من الإله ببغض قوم ... بهم أحيا الإلهُ المؤمنينا
وماضرّ ابن أروى منك بُغض ... وبُغض البرِّ دينُ الكافرينا
أبو بكر لنا حقًّا إمامٌ ... على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عُمر ، بحقٍّ ... يقال له : أمير المؤمنينا

فما ظنك بالشيعة الإمامية الإثنا عشرية الذين يقولون : اللهم العن صنمي قريش جبتيهما وطاغوتيهما أبا بكر وعمر ، والعن ابنتيهما حفصة وعائشة .

ويقولون عن عمر : إنه كان به داء لا يشفى إلا بماء الرجال .

ويقولون عن عثمان : العبد اللكع .

بل ويكفرون الصحابة جميعهم إلا أربعة .

ولذا كفّرهم الإمام مالك بآخر آية من سورة الفتح .

بشار بن بُرْد

وهناك أعمى أعمى الله بصيرته وبصره ، كفر الصحابة أجمعين بل وكفّر

الأمة ، وهو بشار بن برد شاعر الإباحية الذي شبّب بالنساء .

يقول عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق في ذكر غلاة الرافضة من الكاملية : هؤلاء أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل ، وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة علي ، وكَفَر عليّ بتركه قتالهم ، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب ، وروي أنه قيل له : ما تقول في الصحابة ؟ قال : كفروا ، فقيل له : فما تقول في علي ؟ فتمثل بقول الشاعر :

وما شر الثلاثة أمَّ عمروٍ   بصاحبك الذي لا تصبحينا

وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالته في تكفير الصحابة وتكفير علي معهم ضلالتين أخريين .

إحداهما : قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة .

الثانية : قوله بتصويب إبليس في تفضيل النار على الأرض .

واستدلوا على ذلك بقول بشار في شعر له :

الأرض مظلمة ، والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانتِ النارُ[1]

فردّ عليه صنوان الأنصاري في قصيدته التي قال فيها :

زعمت بأن النار أكرمُ عُنصرا   وفي الأرض تحيا في الحجارة والزَّنْدِ
وفيها مقام الحل والركن والصفا   ومستلم الحجاج من جنة الخلدِ
فيابن حليف الشؤم واللؤم والعمى   وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجوا أبا بكر ، وتخلع بعده   عليًّا ، وتغزو كل ذاك إلى بُرْدِ
كأنك غضبان على الدين كله   وطالب ذَحْلٍ لا يبيت على حقدِ
تـواثب أقمـارًا وأنت مُشَوَّه   وأقرب خلق الله من نسب القردِ

هذا الذي كفّر الأمة قال فيه حماد عجرد :

ويا أقبح من قرد   إذا ما عمي القردُ

---

(١) قال عمر بهاء الأميري :

إبليس من نار وآدم طينة   والنار لا تسمو سمو الطين
النار تفنى ذاتها ومحيطها   والطين للإنبات والتكوين

اتهم بالزندقة ، فضربه المهدي سبعين سوطًا ليقر ، فمات منها ، ويقال : إنه غرق .

يقول عبد القاهر البغدادي: وقد فعل الله به ما استحقه ، فأمر به المهدي حتى غرق في دجلة، ذلك له خزي في الدنيا، ولأهل ضلالته في الآخرة عذاب أليم[1].

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية ، وتنويعها عليهم ، بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى: ﴿**وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم...**﴾ إلى قوله : ﴿ **يَظْلمون** ﴾ [العنكبوت : ٣٨-٤٠] .

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم ، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها ؛ اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها ، لتتم المناسبة ، ويكمل الشبه ، وهذا غاية الحكمة ، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم ، كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية ، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم ، بل هم أخف الناس عقولًا ، وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا ، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين ، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ، ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه ، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا ، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ، ويقوم الإنسان عن رجيعه ، فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم ، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم، فعادوهم وتبرءوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٠ / ١٥٣ / ١٥٤ ، الفرق بين الفرق ٥٤ – ٥٦ ، سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٦ – ٢٧ .

من النصارى واليهود والمشركين ، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار ، وصرحوا بأنهم خير منهم ، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير ، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرًا ، فأكثر من أن تذكر هاهنا ، وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتابًا[١].

٢٥ - الغيبة والوقيعة في الأعراض

قال ﷺ : « إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق »[٢].

وقال ﷺ : « لما عَرَج لي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون[٣] وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »[٤] .

قال المناوي :

قال الطيبي : لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات ، جعلها جزاء من يقع ، إشعارًا بأنهما ليسا من صفة الرجال ، بل هما من صفة النساء في أقبح حالة وأشوة صورة .

وقال الغزالي :

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ص٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) صحيح : رواه الإمام أحمد وأبو داود عن سعيد بن زيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٢٢٠٣ .

(٣) يجرحونها ويشقونها .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٥٣٠ ، وفي صحيح الجامع رقم ٥٣٩٤ .

يحشر الممزق لأعراض الناس كلبًا ضاريًا ، والشره لأموالهم ذئبًا ، والمتكبر عليهم بصورة نمر ، وطالب الرياسة بصورة أسد ، وردت به الأخبار ، وشهد به الاعتبار وذلك أن الصور في هذا العالم غالبا على المعانِي ، وهذا وعيد شديد على الغيبة .

قال في الأذكار : والغيبة والنميمة محرمتان بإجماع المسلمين[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

قال الفخر الرازي :

الحكمة في هذا التشبيه هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ، وذلك أن عرض المرء أشرف من لحمه ، فإذا لم يحسن من هذا العاقل أكل لحوم الناس ، لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم .

ولما كان القول في الوجه يؤلم ، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم ، فأكل لحم الأخ وهو ميت أيضًا لا يؤلم ، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم ، كما أن الميت لو أحسّ بأكل لحمه لآلمه[2] .

قال القشيري : ليس تحصل الغيبة من الخلق إلا بالغيبة عن الحق .

وقال أبو حيان: قال ابن عباس- رضي الله عنهما-: الغيبة إدام كلاب الناس[3].

هذا المشهد الذي ذكر في القرآن تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية .

ومن حديث أبي هريرة رفعه : « من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرِّب له يوم القيامة فيقال له : كله ميتا كما أكلته حيا . فيأكله ويكلح ويصيح »[4] والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٢٩٨) . (٢) مفاتيح الغيب (١٤ / ٣٩٢) .

(٣) نظم الدرر (١٨ / ٣٧٩) .

(٤) قاله ابن حجر في الفتح (١٠ / ٤٨٥) كتاب الأدب ، باب الغيبة .

قال ابن حجر : وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ ، فهاجت ريح منتنة ، فقال النبي ﷺ : « هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين »[١] .

٢٦ - تتبع عورات المسلمين

قال ﷺ : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبّع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنّ من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته »[٣] .

والجزاء من جنس العمل .

أخي ، حاسب نفسك لنفسك ، فإن غيرها من الأنفس عليها حسيب غيرك .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك .

وقال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه ، وكيف يعيب العورَ مَنْ هو أعور ..

قال شيخ الإسلام الأنصاري : وكل معصية عيّرت بها أخاك فهي إليك .

قال ابن قيم الجوزية : يحتمل أن يريد به : أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها . وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ :

---

(١) فتح الباري (١٠ / ٤٨٥) .

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦٢ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي ، والترمذي وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجة عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٨٦١ ، وتخريج المشكاة رقم ٥٠٤٤ .

« من عَيَّر أخاه بذنب لم يمت قبل أن يفعله »[١] .

قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث : بذنب قد تاب منه .

إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه . وأشد من معصيته ، لما فيه من صَوْلة الطاعة ، وتزكية النفس ، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب . وإن أخاك باء به ، ولعل كَسْرَته بذنبه ، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى ، والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب أنفع له ، وخير من صولة طاعتك ، وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر[٢] .

وقد بلغ بالسلف توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه ؛ لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع[٣].

وعن عبد الله بن مسعود : البلاء مُوَكّل بالقول ؛ لو سَخِرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبًا .

وقال بكر بن عبد الله المزني : إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمّل عيّابًا ، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب ، وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره .

قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلًا ورعًا   أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريض يشغله   عن وجعِ الناس كلهم وجعُهْ

---

(١) رواه الترمذي عن معاذ بن جبل ، وقال : حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل . وهو منقطع .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/ ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) والعامة تقول في أمثالها : من عيّر أخاه بلبن الكلبة ، لا يموت إلا إذا رضعها .

وقال آخر :

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا   فيهتك اللهُ سترًا عن مساويكا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا   ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا[(١)]

قال الذهبي :

حُبس محمد بن سيرين بدين ركبه . قال المدائني : كان سبب حبسه أنه أخذ زيتا بأربعين ألف درهم ، فوجد في زِقٍّ منه فأرة ، فظن أنها وقعت في المعصرة ، وصب الزيت كله . وكان يقول : إني ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة . قال : فكانوا يظنون أنه عيَّر رجلًا بفقر[(٢)] .

وعن ابن سيرين قال : قلت مرة لرجل : يا مفلس ، فعوقبت[(٣)] .

قال إبراهيم بن هانىء : رأيت أبا داود يقع في يحيى بن معين ، فقلت له : تقع في مثل يحيى ؟ فقال : مَنْ جَرّ ذيول الناس ، جرّوا ذيله[(٤)] .

سمع أعرابي رجلًا يقع في الناس ، فقال : قد استدللتُ على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس ؛ لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها .

قال الشاعر :

ويأخذ عَيْبَ الناس من عَيْبِ نفسه   مُرادٌ لعمري ما أراد قريبُ

وقال آخر :

وأجرأ مَنْ رأيت بظهر غيب   على عيب الرجال أخو العيوب

بعد موقعة الجمل يقال : إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في هودج عائشة – رضي الله عنها – فقال : والله ما أرى إلا حميراء . فقالت : هتك الله سترك ، وقطع يدك ، وأبدى عورتك . فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عريانًا في خربة من خرابات الأزد . اهـ من البداية والنهاية .

---

(١) تفسير القرطبي (٩ / ٦١٤٥ ، ٦١٤٧ ، ٦١٤٨) طبع دار الشعب .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٦١٦) ، الحلية (٢ / ٢٧١) .
(٤) سير أعلام النبلاء (١١ / ٩٤) .

وقال آخر :

فكل عيّاب له مَنْظَرٌ مُشْتَمِلُ الثوب على عَيْبِ

كان يقال : ظلم منك لأخيك أن تقول أسوأ ما تعلم فيه .

قال أبو عاصم النبيل : لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا دين لهم[١] .

٢٧ - الطعن في الأنساب وجحدها وإلصاق ما ليس منها بها

قال رسول الله ﷺ : « كفر بالله تبرؤ من نسب وإن دق »[٢] .

وقد قيل : لا أعلم نسبًا سلم من الطعن إلا نسب المصطفى ﷺ .

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله تعالى منه ، وفضحه على رءوس الأولين والآخرين يوم القيامة »[٣] .

قال المناوي :

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١ / ٣٩٩ - ٤٠٠) .

(٢) حسن : رواه البزار عن أبي بكر - رضي الله عنه - وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٣٦١ .

(٣) رواه : أبو داود والنسائي ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم في مستدركه وصححه عن أبي هريرة قال ابن حجر في التخريج صححه الدارقطني في العلل مع اعترافه بتفرد عبد الله بن يونس عن سعيد المقبرى ، وأنه لا يعرف إلا به ، وقال في الفتح بعد ما عزاه لأبي داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن يوسف: حجازي ، ما روى عنه سوى يزيد بن الهاد .

« أيما امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم » بأن تنسب لزوجها ولدها من غيره « فليست من الله في شيء » أي من الرحمة والعفو أو لا علاقة بينها وبينه ، ولا عندها من حكم الله وأمره ودينه شيء كأنه قال : هي بريئة من الله في كل أمورها ، ولن يدخلها الله جنته مع السابقين المحسنين بل يؤخرها ويعذبها ما شاء قال:« وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه » أي وهو يرى أنه منه ، ويتحقق ذلك ، كأنه يشاهد ذلك عيانًا وهو ينكره ، وعبّر بالجحود ليفيد مع الوعيد على النفي الوعيد على قذف الزوجة « احتجب الله تعالى منه » أي منعه رحمته وحرمه ، وهذا وعيد غليظ إذ لا غاية في النعيم أعظم من النظر إليه تقدس ، وهو الغاية القصوى، فويل لمن لم ينلها « وفضحه على ...» بجحوده ولده ، وهو يعلم أنه منه ، وإظهار كذبه على زوجته ، وقد ورد الوعيد الشديد في حق من انتفى من ولده في عدة أخبار ، منها خبر وكيع عن ابن عمر رفعه « من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا ، فضحه الله يوم القيامة »[١] ، وفيه الجرّاح والد وكيع مختلف فيه[٢] .

وقال ﷺ : « كفر بامرىءٍ ادّعاء نسبٍ لا يُعرف ، أو جحده ، وإنْ دقَّ »[٣] .

٢٨ - النّياحة

قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت »[٤] .

---

(١) والجزاء من جنس العمل .

(٢) فيض القدير (٣ / ١٣٧) .

(٣) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمرو ، ورواه أحمد ، والطبراني في الأوسط والصغير وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٣٦٢ .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لا يتركونهن؛ الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »(١) .

وقال ﷺ : « صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ، ورنّة عند مصيبة »(٢) .

والرنة : هي صرخة النائحة .

وقال ﷺ : « لعن الله الخامشة وجهها ، والشاقّة جيبها ، والداعية بالويل والثبور »(٣) .

وقال ﷺ : « كل نائحة تكذب إلا أم سعد »(٤) .

أم سعد بن معاذ قالت لما حملوا نعشه :

ويل أم سعد أضرّ أمه وجدًا وسيدًا سدّ به مسدًّا

وقال ﷺ : « أنا بريء ممن حلق ، وسلق ، وخرق »(٥) .

أي حلق شعره عند المصيبة ، ولطم خده وصرخ ، وشقّ ثوبه .

وقال ﷺ : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها ؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب »(٦) .

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري .

(٢) حسن : رواه البزار والضياء عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٩٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٦٨ .

(٤) صحيح : رواه ابن سعد عن محمود بن لبيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٣٩ .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أبي موسى .

(٦) رواه أحمد ، ومسلم عن أبي مالك الأشعري .

وقال ﷺ : « النياحة على الميت من أمور الجاهلية ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت ، فإنها تبعث يوم القيامة عليها سرابيل من قطران ، ثم يعلى عليها بدروع من لهب النار »[١] .

وقال ﷺ : « أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية ، ليسوا بتاركيها ، الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، وإن النائحة إذا لم تتب قبل الموت جاءت يوم القيامة عليها سربال من قطران ، ودرع من لهب النار »[٢] .

قال المناوي :

« النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام » يعني تُحشر ، ويُحتمل أنها تقام حقيقة على تلك الحال بين أهل النار والموقف ؛ جزاءً على قيامها في النياحة . « يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » أي يصير جلدها أجرب حتى يكون جلدها كقميص على أعضائها ، والدرع قميص النساء ، والقطران دهن يدهن به الجمل الأجرب ، فيحترق لحدته وحرارته ، فيشتمل على لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في الجلد واللون الوحش ونتن الريح ، جزاءً وفاقًا ، فخُصّت بذلك الدرع ؛ لأنها كانت تجرح بكلماتها المؤنقة قلب المصاب ، وبلون القطرانِ لكونها كانت تلبس السواد في المآتم .

قال ابن العربي : وهذا الخبر ونحوه من الأخبار الوعيدية مجرية على الإطلاق في موضع ، ومقيدة بالمشيئة في آخر فيحمل المطلق على المقيد ضرورة ، إذ لو حمل على إطلاقه بطل التقييد ولم يكن له فائدة[٣] .

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٦٨٥.
(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والحاكم عن أبي مالك الأشعري، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٨٨٨ .
(٣) فيض القدير (٦ / ٢٩٣) .

٢٩ - البغي

قال تعالى : ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ [يونس : ٢٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب هو أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم » .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لو بغى جبل على جبل ، لدُكَّ الباغي منهما .

أخذه الشاعر فقال :

لو بغى جبلٌ يومًا على جبلٍ ... لدُكَّ منه أعاليه وأسفلُهُ

وقال آخر :

ذر البغي إن البغي موبق أهله ... ولم يَعْدمِ الباغي من الناس مصرعًا

قال بعض الحكماء : البغي من فروع الحسد ، وأقدم الناس على البغي مَنْ جهل المعرفة بسرعة نصر الله لمن بغى عليه .

وقالوا : ثلاثة عائدة على فاعلها : البغي والمكر والنكث .

وقال يزيد بن الحكم :

إن الأمور دقيقُهَا ... مما يهيجُ به العظيمُ

والبغي يصرع أهلَهُ ... والظلم مرتعه وخيم

٣٠ - الفخر بالأحساب والأنساب

قال رسول الله ﷺ : « انتسب رجلان على عهد موسى ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عدّ تسعة فمَنْ أنت لا أمَّ لك ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ابن الإسلام ، فأوحى الله إلى موسى أنْ قل لهذين المنتسبَيْن: أمّا أنت أيها

المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة »[١] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « لينتهيَنّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحمُ جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجُعَل[٢] الذي يُدَهْدِهُ[٣] الخرء[٤] بأنفه ، إن الله أذهب عنكم عِبيّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس كلهم لآدم ، وآدم خلق من التراب »[٥] .

وفي رواية أخرى : « ليدعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أوْ ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن .

والجزاء من جنس القول والعمل. والعبية : هي الكبر .

٣١ - تكفير المسلمين ولعنهم

قال رسول الله ﷺ : « إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ باء بها أحدهما »[٦].

وقال رسول الله ﷺ : « أيما امرىء قال لأخيه : كافر ؛ فقد باء بها

---

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء عن أبي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ .

(٢) حيوان كالخنفساء ، يكثر في الأراضي المبتلة .

(٣) يدفعه فيتدحرج .

(٤) البراز .

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وأحمد ، وأبو داود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٥٨ .

(٦) رواه البخاري عن أبي هريرة ، وأحمد ، والبخاري عن ابن عمر .

أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلّا رجعت إليه »[١] .

وقال ﷺ : « أيما رجل مسلم أكفر رجلًا مسلمًا ، فإن كان كافرًا ، وإلّا كان هو الكافر »[٢] .

وقال ﷺ : « ما أكفر رجل رجلًا قط إلا باء بها أحدهما »[٣] .

قال المناوي :

« إذا أكفر الرجل أخاه » أي نسبه إلى الكفر ، بأن قال : أنت كافر أو يا كافر أو قال عنه : فلان كافر . « فقد باء » أي رجع . « بها » أي بالمعصية المذكورة حكمًا ، يعني رجع أحدهما بمعصية إكفاره على حد ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين** ﴾ [سبأ : ٢٤] .

قال بعضهم : والجزم في هذا الخبر بأنه لابد أن يبوء بها أحدهما بينه قوله في الحديث التالي : « إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » . ومن ثم كانت هذه الرواية في قوة قضية منفصلة أقيم البرهان على صدقها ، بخلاف تلك إذ معناه كل مُكفِّرٍ أخاه ، فدائما إما أن يكفر القائل أو المقول له ، وبرهن على صدق ذلك بأنه إن كان كما قال وإلا كفر القائل[٤] .

والجزاء من جنس القول والعمل .

وكذا اللعن – لعن المسلم – إن لم يكن أهلًا يعود اللعن عليه ، بل لا يجوز لعن المعين وهذا مذهب أهل السنة والجماعة . فهناك فرق بين لعن النوع ولعن العين ، وكفر النوع وكفر العين .

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن ابن عمر .

(٢) رواه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، ورواه أبو داود عن ابن عمر .

(٣) صحيح : رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٢١ .

(٤) فيض القدير (١ / ٢٩٥) .

٣٢ - إسبال الإزار

وهو من الكبر كما مرّ من أحاديث في ذم الكبر .

« إن الله تعالى لا ينظر إلى مسبل إزاره »[١] .

«من أسبل إزاره في صلاته خيلاء ، فليس من الله في حل ولا حرام »[٢].

« من جر ثوبه خيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[٣] .

هذا الذي أسبل إزاره يريد نظر الناس إليه ، ويتيه على الناس ، يعاقبه الله بأن لا ينظر إليه ، وأي ذل فوق هذا !! فعوقب بنقيض قصده ، والجزاء من جنس العمل . وقال رسول الله ﷺ : « من وطىء على إزار خيلاء ، وطئه في النار »[٤] .

قال المناوي :

يلبس مثل ذلك الثوب الذي كان يرفل فيه في الدنيا ، ويجره تعاظمًا ، في نار جهنم ، ويعذب باشتعال النار فيه جزاءً بما فعل[٥] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٥٩ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٨٨ .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر .

(٤) صحيح : رواه أحمد عن هبيب . قال الألباني : الأصل صهيب تبعا لأصله ، وهو خطأ . انطلى على المناوي فقيده بضم المهملة الرومي ! وحسنه السيوطي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٦٨ .

(٥) فيض القدير (٥ / ٢٣٧) .

٣٣ - لبس الحرير والذهب للرجل

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوهما في الدنيا[١] .

وقال ﷺ : «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٢].

وقال ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٣] .

قال المناوي :

من لبس الحرير من الرجال جزاؤه أن لا يلبسه فيها ؛ لاستعجاله ما أُمر بتأخيره ووعد به ، فَحُرِمه عند ميقاته ، كوارث قتل مورثه : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ [الأحقاف:٢٠] وهذا وعيد مقتضٍ لهذا الحكم ، وقد يتخلف لمانع ، وقد دلّت النصوص القرآنية على أن التوبة تمنع لحوق الوعيد ، وكذا الحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، والدعاء ، والشفاعة ، بل وشفاعة أرحم الراحمين لنفسه ولمالك الجزاء إسقاطه[٤].

٣٤ - الشّرب في آنية الذهب والفضة

قال رسول الله ﷺ : « إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب إنما يجرجر في بطنه نار جهنم »[٥] . وزاد في رواية : « إلا أن يتوب » .

وقال ﷺ : « الذي يشرب في آنية الفضة، إنما يُجرجر في بطنه نار جهنم »[٦].

---

(١) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر ، وصححه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٢) رواه مسلم عن ابن الزبير .

(٣) رواه الشيخان وأحمد ، والنسائي ، وابن ماجة .

(٤) فيض القدير (٦ / ٢١٨) .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن أم سلمة ، وزاد الطبراني في الكبير : « إلا أن يتوب » .

(٦) رواه الشيخان عن أم سلمة .

وقال ﷺ : «من شرب في إناء فضة، فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم»[١].

وقال ﷺ : « من شرب في إناء من ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم »[٢] .

وقال ﷺ : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، ولا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، فإنه لهم في الدنيا ، وهو لكم في الآخرة »[٣] .

قال الحافظ في الفتح :

« إنما يجرجر » بضم التحتانية وفتح الجيم وسكون الراء ثم جيم مكسورة ثم راء ، من الجرجرة وهو صوت يردده البعير في حنجرته إذا هاج نحو صوت اللجام في فك الفرس ، قال النووي : اتفقوا على كسر الجيم الثانية من يجرجر .

«في بطنه نار جهنم» وقع للأكثر بنصب نار عَلَى أن الجرجرة بمعنى الصب أو التجرع، فيكون «نار» نصب على المفعولية، والفاعل الشارب؛ أي يصب أو يتجرع، وجاء الرفع على أن الجرجرة هي التي تصوت في البطن، قال النووي: النصب أشهر ويؤيده رواية عثمان بن مرة عند مسلم بلفظ: «فإنما يجرجر في بطنه نارًا من جهنم»[٤].

فالذي يشرب في آنية الذهب والفضة يعاقب بتجرع وجرجرة النار في بطنه ، فصوت شرب الإنسان الماء في هذه الآنية في دار الدنيا يناسبه جرجرة النار يوم القيامة ، جزاءً وفاقًا .

قال الغزالي : كل من اتخذ النقد آنية فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالًا ممن كنزه ، فإنه كمن سخر الحاكم في نحو حياكة أو كنس .

قال ابن حجر :

في هذه الأحاديث تحريم الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة على كل مكلف ، رجلًا كان أو امرأة ، ولا يلتحق ذلك بالحلي للنساء ؛ لأنه ليس من

---

(١) رواه ابن ماجة عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٩٠ .
(٢) رواه مسلم عن أم سلمة .
(٣) رواه أحمد والشيخان ، والنسائي ، وأبو داود ، وابن ماجة والترمذي عن حذيفة .
(٤) فتح الباري (١٠ / ٩٩ – ١٠٠) .

التزين الذي أبيح لها في شيء ، قال القرطبي وغيره : في الحديث تحريم استعمال أواني الذهب ، والفضة في الأكل والشرب ، ويلحق بهما ما في معناهما مثل التطيب والتكحل وسائر وجوه الاستعمالات ، وبهذا قال الجمهور .

واختلف في اتخاذ الأواني دون استعمالها ، والأشهر المنع وهو قول الجمهور(١).

٣٥ - سماع الغناء والمعازف

قال ﷺ: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحِر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة. فيقولوا: ارجع إلينا غدا، فيُبَيِّتهم الله تعالى، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»(٢).

يقول ابن القيم بعد ذكره لمستحلي الحرام بالحيلة ، وعقابهم بجنس عقوبات أمثالهم من العصاة : المسخ على صورة القردة والخنازير واقع في هذه الأمة ولابد ، وهو في طائفتين : علماء السوء الكاذبين على الله ورسوله ، الذين قلبوا دين الله وشرعه ، فقلب الله تعالى صورهم ، كما قلبوا دينه ، والمجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم . ومن لم يمسخ منهم في الدنيا مُسخ في قبره ، أو يوم القيامة ، وبكل حال فالمسخ لأجل الاستحلال بالاحتيال قد جاء في أحاديث كثيرة(٣) .

وقال المناوي :

قال ابن القيم : إنما مسخوا قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن ، والظاهر مرتبط به أتم ارتباط ، وعقوبات الرب جارية على وفق حكمته وعدله(٤) .

---

(١) فتح الباري (١٠ / ١٠٠) .

(٢) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم ، ووصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعاليق ، والحديث صحيح متصل عند غيره كأبي بكر الإسماعيلي . والحديث صححه الحافظ وجمهور المحدثين كابن القيم وغيره ، ولا عبرة ولا التفات إلى تضعيف ابن حزم لهذا الحديث ، فإن البخاري لقي هشام بن عمار وسمع منه ، والبخاري أبعد خلق الله من التدليس .

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) فيض القدير (٥ / ٣٩٧) .

يقول ابن القيم رحمه الله :

الغناء يهيج النفوس إلى شهوات الغي ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح ، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومَليح ، فهو والخمر رضيعا لبان وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفه، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يفسخ ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ ، وهو جاسوس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل في مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويَدُبُّ إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة ، والرقاعة ، والرعونة ، والحماقة ، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته ، وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه . فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ، ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الدِّباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوهَ الحزين، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا	على طيب السماع إلى الصباحِ
ودارت بيننا كأس الأغاني	فأسكرت النفوس بغير راحِ
فلم تر فيهم إلا نشاوى	سرورًا ، والسرور هناك صاحي
إذا نادى أخو اللذات فيه	أجاب اللهو: حي على السماحِ
ولم نملك سوى المهجات شيئًا	أرقناها لألحاظ الملاحِ

فلعَمْرُ الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حُرّ أصبح به عبدا للصبيان ، والصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارق والحشايا ، وكم من

معافى تعرّض له فأمسى ، وقد حلّت به أنواع البلايا .

فسل ذا خبرة يُنبيك عنه لتعلم كم خبايا في الزوايا
وحاذرْ إن شُغفت به سهامًا مُرَيّشة بأهداب المنايا
إذا ما خالطتْ قلبًا كئيبًا تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد أن قد كان حرًّا عفيف الفرج ، عبدًا للصبايا
ويُعطى مَنْ به يُغنى غناء وذلك منه من شر العطايا

٣٦ - التَّشبُّه بالكافرين

قال رسول الله ﷺ : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[(١)] .

قال المناوي :

أي حكمه كحكمهم ، وذلك لأن كل معصية من المعاصي ميراث أمة من الأمم التي أهلكها الله ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث قوم شعيب ، والعلو في الأرض ميراث قوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث قوم هود ، فكل من لبس من هؤلاء شيئًا فهو منهم وهكذا[(٢)].

قال الذهبي :

قد أوجب الله عليك أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وأبو يعلى ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر ، وصححه العراقي في المغني عن حمل الأسفار ، وقال المناوي : قال الهيثمي : فيه عبد الرحمن بن ثابت عن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم ، وضعّفه أحمد وغيره ، وبقية رجاله ثقات ، وذكره البخاري في الصحيح في الجهاد تعليقًا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٨٢٨ ، والإرواء ١٢٥٦ ، وحجاب المرأة ١٠٤ .

(٢) فيض القدير (٣ / ٢٠٤) .

ضالون »[١]، فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم ، وهم حطب جهنم .

ولو قيل : تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت !! وأنت تشبه بأقلف عابد صليب ، فأين يُذهب بك إن فعلت ذلك إلّا إلى مقت الله وسخطه إن لم يغفر الله لك ، إن علمت أن نبيك محمدًا ﷺ كان يحض على مخالفة أهل الكتاب في كل ما اختصوا به .

حتى إن الشيب الذي هو نور الإسلام ، قال فيه رسول الله ﷺ : « من شاب شيبة في الإسلام ، كانت له نورًا يوم القيامة»[٢]. قد أمرنا نبينا بالخضاب؛ لأجل مخالفتهم فقال ﷺ : « إن اليهود لا يخضبون فخالفوهم »[٣] . ففرض علينا مخالفة ما اختصوا به في صور كثيرة .

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أنه قال : « من صنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم ، حتى يموت وهو كذلك ، ولم يتب ، حشر معهم يوم القيامة » . رواه عوف عن المغيرة عن عبد الله[٤] .

وقال حذيفة - رضي الله عنه - : من تشبه بقوم فهو منهم ، ولا يشبه الزي الزيّ حتى يشبه الخُلقُ الخُلق .

وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : لا يشبه الزي الزي حتى تشبه القلوب القلوب[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي وأحمد، وابن حبان، وفي سنده عباد بن حبيش، لم يرو عنه إلا راوٍ واحد ووثقه ابن حبان! وقال الحافظ: مقبول، وللحديث شواهد عدة موقوفة ومرفوعة، أوردها السيوطي في الدر المنثور فالحديث حسن. انظر التعليق ص٢١ على رسالة: تشبه الخسيس بأهل الخميس. ورواه الترمذي بلفظ «ضلال» عن عدي بن حاتم وهو صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي ، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (٣ / ٢٤٨) .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والنسائي ، وابن ماجة ، وأحمد عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩/٢٣٤)، وصحح إسناده ابن تيمية في الاقتضاء (١/٤٥٧).

(٥) تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين للحافظ الذهبي تحقيق : علي حسن علي عبد الحميد طبع دار عمار .

قال ﷺ : «لتركبن سُنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضبٍّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتموه»[١].

٣٧ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ﷺ : « أحب الأعمال إلى الله : إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم »[٢] .

وقال ﷺ : « إذا عملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »[٣] .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه »[٤] .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه ، أوشك أن يعمهم الله بعقابه »[٥] .

وقال رسول الله ﷺ : «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام، والصلاة، والصدق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة،

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٤٣ .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٤ .

(٣) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٠٢.

(٤) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٧٠ .

(٦) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن حذيفة .

وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[١]. والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب »[٢] .

هؤلاء الذين تركوا الأمر بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ؛ مخافة الناس وعقاب الطغاة ، يبتليهم الله بعقاب فالله أحق أن يخشوه ، والجزاء من جنس العمل .

إلا لو كان الأمر فوق طاقته ، وقدرته ، بحيث يعرض نفسه ودينه وعرضه وماله للفتن .

قال ﷺ: «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه: يتعرض للبلاء لما لا يطيق»[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقَّن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتُك وفَرقت من الناس »[٤] .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه ، وأُهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وعن ابن عباس وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وابن حبان عن جرير وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٥٦٢٥ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة عن حذيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٧٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة، وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد، ورواه الحميدي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨١٤ ، والصحيحة رقم ٩٢٦ .

إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهواتِ استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة إما متكفلًا بعملها ، أو متقلدًا لتنفيذها ، مجددًا لهذه السنة الدائرة ، ناهضًا بأعبائها ، ومتشمرًا في إحيائها ، كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها[١] .

الآمرون بالمعروف ، الناهون عن المنكر عليهم أن يمضوا في هذا الطريق ، ويحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع ، وزادهم هو الإيمان ، وسندهم هو الله ، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ ، وكل سند غير سند الله ينهار ![٢] .

إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة وسمة لهذه الأمة ، وإن درست هذه الدعوة ، فقد حلّ عليها غضب ربها وعرّضت نفسها لانتقام العزيز الجبار فما استحق بنو إسرائيل اللعن إلا بتركهم النهي عن المنكر ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ [المائدة : ٧٩] .

وبيّن الله أن أحبارهم أثموا بتركهم النهي عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وبيّن أنه أهلك القرون إلا قليلًا منهم كانوا ينهون عن الفساد ، فقال تعالى :

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢ / ٣٣٣) ، دار الريان للتراث .

(٢) الظلال (١ / ٤٤٨) .

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ [هود: ١١٦] .

سئل حذيفة – رضي الله عنه – عن ميت الأحياء ، فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ، ولا بلسانه ، ولا بقلبه .

وقد كان سفيان إذا رأى المنكر ولم يغيره بال الدم .

وعند فساد الزمان وعدم الصبر على الأذى والفتنة في العرض والدين ، فليقدر الإنسان على نفسه فيقوم بها ، وينكر أحوال الغير بلسانه ، وبقلبه فإن البحر إذا انبثق فمن يقدر أن يسكره . فإذا لم يصل الأمر إلى هذا فلا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإلا فليسمع كيف يكون الجزاء من جنس العمل في هذا ؟.

يقول الإمام القدوة الزاهد العابد القوّال بالحق ، الأمّار بالعُرْف العمري أبو عبد الرحمن : إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه ، ولا تأمر ، ولا تنهى خوفًا من المخلوق .

من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نُزِعت منه الهيبة، فلو أمر ولده، لاستخف به[(١)].

يرحم الله العمري الذي قال فيه مصعب الزبيري : « ما أدركت بالمدينة رجلًا أهيب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فرُدّ من الكوفة ولم يصل إليه[(١)].

عن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمري ، فوعظه ، فبكى ، وغُشي عليه .

قال العمري رحمه الله : قال لي موسى بن عيسى : ينهى إلى أمير المؤمنين أنك تشتمه وتدعو عليه ، فبم استجزت هذا ؟ قلت : أما شتمه ، فوالله لهو أكرم عليّ من نفسي ، لقرابته من رسول الله ﷺ ، وأما الدعاء عليه ، فوالله ما قلت : اللهم ، إنه قد أصبح عبئًا ثقيلًا على أكتافنا ، فلا تطيقه أبداننا ، وقذًى في جفوننا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٥) .

فلا تطرِف عليه جفوننا ، وشجًى في أفواهنا لا تُسيغه حلوقنا ، فاكفنا مؤنته ، وفرِّق بيننا وبينه ، ولكن قلت : اللهم إن كان تسمى الرشيد ليرشد ، فارشده ، أو لغير ذلك فراجع به ، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مؤمن كفًّا ، وله بنبيك ﷺ قرابة ورحم ، فقربه من كل خير ، وباعده من كل سوء ، وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا. فقال موسى: رحمك أبا عبد الرحمن، كذاك لعمري الظن بك[1] .

٣٨ - نقص المكيال والميزان

قال رسول الله ﷺ : « خمس بخمس ، ما نقض قوم العهد[2] إلا سُلِّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال والميزان إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين[3]، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر »[4] .

وفي الحديث : « ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة[5]، وجور[6] السلطان عليهم » .

فمن طفف فله الويل ، ومن طفف الميزان عوقب بجور الحاكم والسلطان ، وأخذوا بالجدب والقحط ، ولا يغنيهم من شيءٍ التطفيف ، والجزاء من جنس العمل .

٣٩ - أكل مال اليتيم

قال تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولًا سديدًا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾ [النساء : ٩-١٠] .

قال ابن كثير :

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٨) . (٢) عهد الله وعهد رسوله ﷺ .

(٣) مفردها سَنَة . وهي الجدب والقحط .

(٤) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢٣٥ .

(٥) ضيق النفقة . (٦) ظلمة .

كما تحب أن تُعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذرياتهم إذا وليتهم .

والجزاء من جنس العمل .

ثم يقول عن أكل مال اليتيم الذي هو أحد السبع الموبقات :

ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلماً فإنما يأكل في بطنه نارًا ، أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارًا تأجج في بطونهم يوم القيامة[1].

والجزاء من جنس العمل .

٤٠ - ترك الحكم بما أنزل الله

مرّ في الحديث : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر » .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا** ﴾ [طه : ١٢٤] .

ومرّ أيضًا في الحديث : « ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا[2]؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم » جزاءً وفاقًا .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « حَدٌّ يُعْمل في الأرض ؛ خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا »[3] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون** ﴾ [المائدة : ٤٩-٥٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩٤/٢) .

(٢) أي يطلبوا الخير والسعادة باتباعهم ما أنزل الله .

(٣) حسن : رواه النسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٢٥ .

والحكم بغير ما أنزل الله كذب وزور ، قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ [الأنعام : ٥٧] .

والحكم بغير ما أنزل الله افتراء على الله ، قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالًا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ [يونس : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾ [النحل : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾ [الزخرف : ٣٦-٣٩] .

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قِطع من الليل مظلمُ

وقال آخر :

مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نورًا ويعمي أعين الخفاش

إن البعد عن القرآن وحكمه انحطاط ، فالحكم بالقرآن واتباعه شرف وعلو : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

إن الذين جهلوا عمومية الإسلام وشموله من صبيان العلمانية ، وتلطخوا بوحل الغربْ ، إن طفوا فسماؤهم أقدام الغرب الكريهة الكارهة ، وإن غاصوا فمع الديدان والحشرات ، عليهم أن يقُوِّموا من جديد درجة انتمائهم إلى الإسلام العزيز الرفيع .

إذا أنت غُمّت عليك السماء ... وضلت حواسك عن صبحها

فعشْ دودة في ظلام القبور ... تغوص وتسبح في قيحها

ومن أعرض عن القرآن وحكمه فشا الفقر في دولته ، وجعل الله بأسهم بينهم شديدًا ، جزاءً وفاقًا ، فحكم الله أمن ، وحكم الله سلام ﴿ **أفغير دين الله**

يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا .. ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

والحكم بما أنزل الله عبودية لله وإيمان به ، ومن أعرض عنه عوقب بنقيض قوله : ﴿ **فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ [النحل : ٩٧] ونقيض قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

٤١ - التخلف عن الغزو

قال تعالى مخبرًا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب ، الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ ، فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم ضرًّا أو أراد بكم نفعًا بل كان الله بما تعملون خبيرًا بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظنَّ السوء وكنتم قومًا بورًا** ﴾ [الفتح : ١١-١٢] .

هؤلاء لم يكن تخلفهم تخلف نفاق كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله ، وإنما تخلف جبن وهلع ، وكانوا يقولون : إن الرسول ﷺ وأصحابه أكلة رأس ، واعتقدوا أنهم سيقتلون ، وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبرًا ؛ فعاد البوار عليهم ، وصاروا هلكى فاسدين إذ حرموا من مصاحبة رسول الله في الحديبية ونعيم القرب منه .

فماذا كان جزاؤهم وهل كان من جنس عملهم ؟!! .

قال تعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلًا** ﴾ [الفتح : ١٥] .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله

ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ؛ فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم ، لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا[١] .

أما القول ، بأن هذا التخلف تخلف نفاق ، وما ذهب إليه ابن زيد في قوله : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ قال : هو قوله : ﴿ **فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ [التوبة : ٨٣] فيه نظر ، لأن هذه الآية التي في « براءة » نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن صلح الحديبية ، وبدليل أن الله قال في الآيات التي بعد ذلك ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ الآية [الفتح : ١٦] فلو كانوا منافقين لما دعاهم للخروج .

٤٢ - غش المسلمين

قال رسول الله ﷺ : « من غشَّ فليس منا »[٢] .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا »[٣] .

وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع في النار »[٤]

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣١٩-٣٢٠) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٢.

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه في سننه عن أبي الحمراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٣ .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٤ .

ليس منا ؛ أي ليست أخلاقه من أخلاقنا .

وذهب الذهبي إلى أن الغش والمكر والخداع من الكبائر .

قال الإمام أحمدُ : حَدَّثَنا بَهْزٌ حدثنا حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ أخبرنا إسحاقُ بن عبد الله عن أبي صالحٍ عن أبي هُريرةَ ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رَجُلًا حَمَلَ مَعَهُ خَمْرًا في سَفِينَةٍ يَبِيعُهُ ومَعَهُ قِرْدٌ » .

قالَ : « فكَانَ الرَّجُلُ إذا بَاعَ الخَمْرَ شَابَهُ بِالْمَاءِ ثُمَّ بَاعَهُ » .

قَالَ : « فَأَخَذَ القِرْدُ الكِيسَ ، فَصَعِدَ بِهِ فَوْقَ الدَّقَلِ » .

قَالَ : « فَجَعَلَ يَطْرَحُ دِينارًا في البَحْرِ ودِينارًا في السَّفِينَةِ حَتَّى قَسَمَهُ »[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٦) ، ومن طريقه النقاش في فنون العجائب (رقم ٧٩) ، وإسناده صحيح .

بَهْز : هو بَهْز بن أسد العَمِّي .

وإسحاق بن عبد الله : هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة . وأخرجه أيضًا (٢/٣٣٥) ، ومن طريقه النقاش (٧٨) عن سليمان بن حرب ، و(٢/٤٠٧) عن عفان ؛ كلاهما عن حماد بن سلمة به .

وأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٢/١٠٤-١٠٥) ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/٢٨) ؛ من طريق أبي حرة [واصل بن عبد الرحمن] عن الحسن عن أبي هريرة به .

وأبو حرة صدوق عابد يدلِّس ، وقد عنعن ، وروايته عن الحسن ضعيفة ؛ كما قال ابن معين.

وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٨٣) للبيهقي ، وقال : لا أعلم في رواته مجروحًا ، وروي عن الحسن مرسلًا .

التفسير :

- **شَابَهُ** : أي : خلطه ومَزَجَه .

- **الدَّقَل** : بالتحريك ؛ قال ابن الأثير : خشبةٌ يمدُّ عليها شراع السفينة ، وتسميها =

قال ابن الجوزي .

كان لبّان يخلط اللبن بالماء ، فجاء سيل فأهلك الغنم ، فجعل يبكي ويقول : اجتمعت القطرات فصارت سيلًا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوكتا وفوك نفخ[1] .

فيا من معاصيه أكثر من أن تحصى ، ويا من رضي أن يطرد ويقصى ، يا دائم الزلل وكم ينهى ويوصى ، يا جهولًا بقدرهم ومثلهم لا يعصى .

ابك على قسوتك ، واندم على غفلتك ، وتذكر ظلمة حفرتك ، ويا دائم المعاصي خف من غب معصيتك ، ويا سيىء الأعمال نح على خطيئتك ، نُح نَوْحَ نُوح ، تحيا حياة يحيى ، مجلسنا مأتم للذنوب ، فابكوا فقد حلّ منا البكا ، ويوم القيامة ميعادنا لكشف الستور وهتك الغطا .

إذا ما قال لي ربي ... أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي ... وبالعصيان تأتيني
فما قولي له لمَّا ... يعاتبني ويقصيني

ويقول آخر :

يا مَنْ تمتع بالدنيا وزينتها ... ولا تنام عن اللذات عيناهُ
أفنيت عمرك فيما لست تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاهُ

* * *

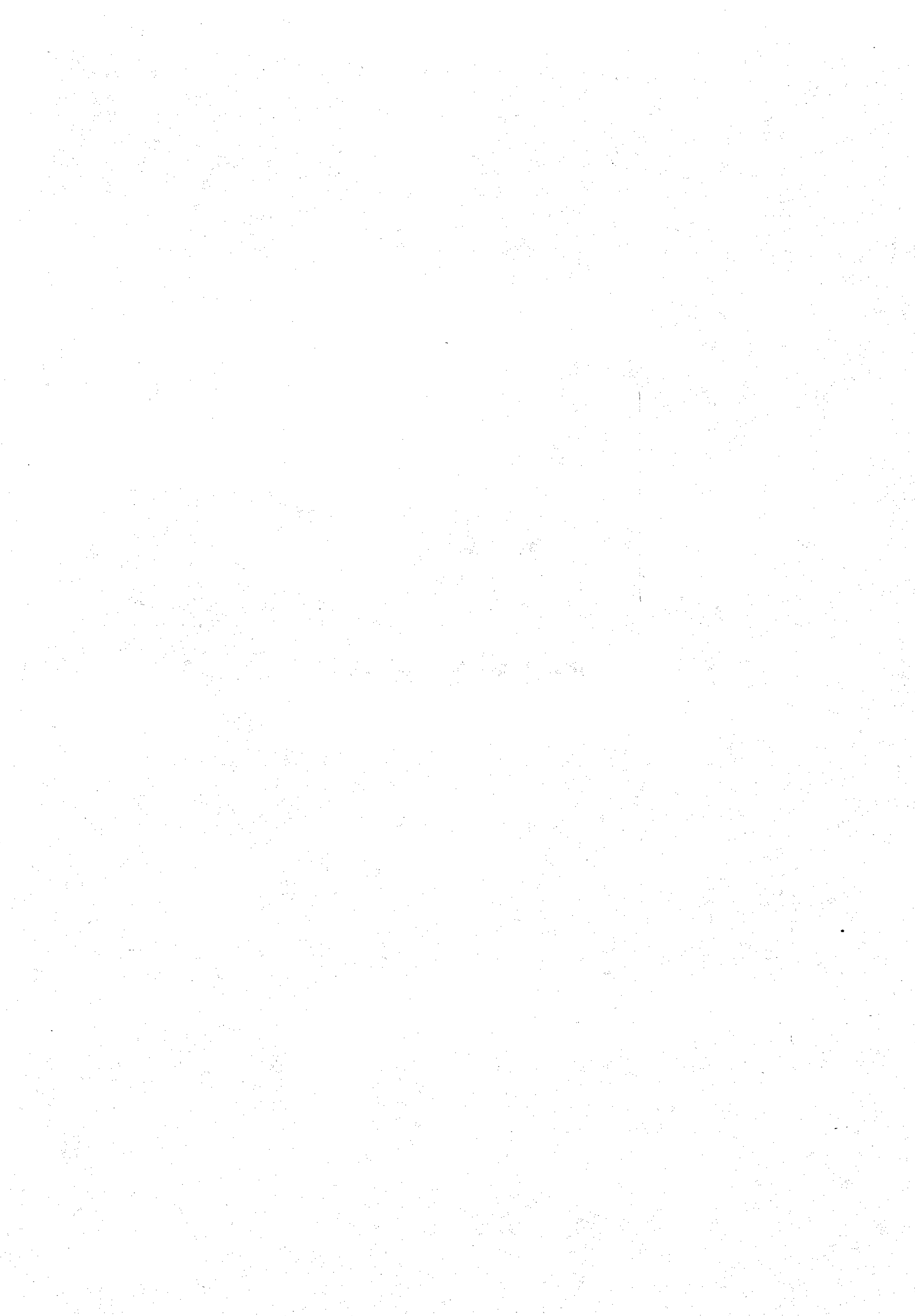
= البحريَّة الصَّارى .

الفوائد والعبر :

- **منها** : إثبات ذكاء بعض الأصناف من الحيوان ، ومنها هذا المعروف بمحاكاته للإنسان ؛ وتقليده له في أفعاله وسلوكه .

(١) اليواقيت الجوزية لابن الجوزي ص٦٨ تحقيق السيد عبد المقصود طبع مكتبة السنة .

اللبـاس والزينـة



□ اللبـاس والزينـة □

قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشًا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

لقد كان العري وتكشف السوآت والخصف من ورق الجنة ثمرة لمعصية الله .

وفي مواجهة مشهد العري الذي أعقب خطيئة آدم ، ومواجهة العري الذي كان يزاوله المشركون في الجاهلية – يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسّر لهم ، وشرع لهم اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة بهذا الستر وجمالًا ، بدل قبح العري وشناعته .

واللباس قد يطلق على ما يواري السوأة ، وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب ، كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال ، وهي كلها معانٍ متداخلة متلازمة .

قال تعالى ممتنًا على عباده باللباس والزينة : ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ [النحل : ٨١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ...** ﴾ الآية.

فهنـاك تلازم بين شرع الله اللباس ، لستر العورات والزينة ، وبيـن التقوى ، كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان ، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري ، العري من الحياء والتقوى والعري من اللباس وكشف السوأة ! .

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم ؛ لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ، وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق . والله يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفي تمكينهم منه بما يسّر لهم من الوسائل ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ .

إن الكثير من عمائم السلطات ، وصبيان العلمانية ، لم يرتقوا إلى ما تكلم به الصليبي ولي عهد بريطانيا تشارلز حين يقول : « من الأمور التي أثارت اهتمامي أني علمت أن عادة ارتداء النقاب ترجع إلى حد كبير إلى التقاليد البيزنطية والساسانية ، وليس إلى نبي الإسلام[1] وبعض النساء المسلمات وبخاصة جيل الشابات منهن اخترن مؤخرًا ارتداء النقاب ، أو غطاء الرأس كتعبير شخصي عن هويتهن الإسلامية لكن يجب علينا ألا نخلط بين الاحتشام في الملبس كما فرضه القرآن على الرجال والنساء على السواء وبين الأشكال الخارجية لعادة علمانية أو منزلة اجتماعية تستمد أصولها من مصادر أخرى غير الإسلام »[2].

ومع أنه يدس السم في العسل ، فظاهر كلامه خير ممن يقول : إن النقاب تعبير عن كبت جنسي، أو ما يقوله الزنادقة من لباس العفاريت، وأن من ترتديه فهي خيمة.

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي باسم الزينة والحضارة والمودة ! وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم؛ ليسهل

---

(١) هذا كذب من تشارلز ، وشرف يحاول أن يدعيه .

(٢) من محاضرة لولي عهد بريطانيا ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٩٣م . نقلًا عن مجلة الأزهر الجزء السابع السنة السادسة والستون رجب سنة ١٤١٤هـ ص١٠٠٢ تحت عنوان دراسة موضوعية في محاضرة الأمير تشارلز بقلم محمد محمد عتريس .

تعبيدهم لملك صهيون ويهود ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق بتلك الحملة الفاجرة الداعية إلى العري النفسي والبدني ، الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان ! .

والزينة الإنسانية هي زينة الستر ، بينما الزينة الحيوانية . هي زينة العري .. ولكن الآدميين في هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية ، تَرُدُّهم إلى عالم البهيمية ، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!! .

إن الذين يريدون تعرية المرأة من حجابها ونقابها يريدون تعريتها من تقواها وحيائها ، بل وتعريتها من دينها .

وهؤلاء لابد أن يعريهم ويفضحهم كل صادق .

حتى يعلم كل غافل أن هؤلاء الممسوخين المشوهين ما هم إلا صبيان لإباحية الغرب، وأقزام تُرمرم من فتات مدرسة العري الصليبية وتشرب من كؤوسهم الثمالة .

ينعق هنا الأقزام ، وتتصدى دولة صليبية كبرى لفتاة مسلمة تريد ارتداء الحجاب ، وتمنعها من دخول المدرسة ، دولة صليبية كفرنسا ترتعش من حجاب امرأة ، ارتدته لباسًا وريشًا تعبيرًا عن لباس التقوى لباطنها .

قمرٌ توشَّح بالسَّحابْ
غَبَشٌ تَوغَّلَ حَالِمًا بِفجاجِ غابْ
فجرٌ تَحَممَ بالندى
وأطلَّ من خلف الهِضابْ
الورد في أكمامِهِ
أَلَقُ اللآلىء في الصَدَفْ
سُرُجٌ تُرفرف في السَدَفْ
ضَحكاتُ أشرعةٍ يؤرجهُا العُبابْ
ومرافىءٌ بيضاءُ
تنبضُ بالنقاءِ العَذْبِ من خَلَلِ الضبابْ

من أيِّ سحرٍ جئتِ أيّتُها الجميلهْ ؟
من أيِّ بارِقَةٍ نبيلهْ
هطلتْ رؤاكِ على الخميلةِ فانتشى عطرُ الخميلهْ؟
من أيِّ أفقٍ ذلك البردُ المتوّجُ باللهيبِ
وهذهِ الشمسُ الظليلهْ؟!
من أي نبْعٍ غافل الشفتينِ تندلع الورودُ ؟
من الفضيله
هي ممكناتٌ مستحيلهْ!
قمرٌ على وجه المياهْ
يَلُمّهُ العُشبُ الضيئلُ
وليسَ تُدْرِكهُ القبابْ
قمرٌ على وجه المياهْ
سُكونُه في الاضطرابِ
وبُعْدهُ في الاقترابْ
غَيبٌ يَمُدُّ حُضورَهُ وَسْطَ الغيابْ
وطنٌ يَلُمُّ شتاتَهُ في الاغترابْ
روحٌ مُجَنَّحةٌ بأعماقِ الترابْ!
وهي الحضارةُ كلُّها
تَنْسَلُّ من رَحِم الخرابْ
وتقومُ سافرةً
لتختزِل الدُّنا في كِلمتين
(أنا النقابْ)
الحُسنُ أسفرَ بالحجابِ
فما لها حُجُب النفورْ
نزلَت على وجهِ السفورْ؟

واهًا ...
أرائحةُ الزهورِ
تَضيرُ عاصمة العطورْ ؟
أَتَعِفُّ عن رشْفِ الندى شَفَةُ البكورْ ؟
أيضيقُ دَوْحٌ بالطيورْ ؟؟
يا للغرابةِ !
لا غرابهْ
أنا بسمةٌ ضاقت بفرحتها الكآبه
أنا نغمةٌ جَرحَت خلُودَ الصمتِ
وازدرتِ الرتابَهْ
أنا وَقْدةٌ مَحَتِ الجليدَ
وعَبَّأَتْ بالرُّعْبِ أفئدة الذئابْ
أنا عِفَّةٌ وطهارةٌ بين الكلابْ
الشمسُ حائرةٌ
يدورُ شِراعُها وَسْطَ الظلامِ
بغير مرسى
الليلُ جَنَّ بأفْقها والصبحُ أمسى !
والوردةُ الفيحاءُ تصفعها الرياحُ
ويحتويها السيلُ دَوْسَا
والحانةُ السكرى تُصارعُ يقظتي
وتصُبُّ لي ألمًا ويأْسَا
سأغادرُ المبغى الكبيرَ ولستُ آسى
أنا لستُ غانيةً وكأْسَا !
نعلاكِ أوسعُ من فرنسا
نعلاكِ أطهرُ من فرنسا كلها

جَسَدًا ونَفْسَا

نعلاك أجملُ من مبادىءِ ثورةٍ

ذُكِرَتْ لِتُنْسَى

مُدِّي جذُورَك في جذورِكِ

واتركي أن تتركيها

قِرِّي بمملكة الوقارِ

وسَفِّهي الملِكَ السفيها

هي حرَّةٌ ما دامَ صوتكِ ملءَ فيها

وجميلةٌ ما دمتِ فيها

هَي مالَها من مالِها شيءٌ

سوى (سِيدا) بَنِيها !

هي كُلُّها ميراثُكِ المسروقُ

أسفلتُ الدروبِ

حجارةُ الشرفاتِ

أوعيةُ المعاصِرْ

النفطُ ، زيت العطرِ

مسحوقُ الغسيلِ

صفائحُ العرباتِ

أصباغُ الأظافرْ

خَشَبُ الأسرَّةِ

زئبقُ المرآةِ

أقمشةُ الستائرْ

غازُ المدافىءِ

مَعدنُ الشَّفَراتِ

أضواءُ المتاجِرْ

وسِواهُ من خيرٍ يسيلُ بغيرِ آخِرْ
هي كُلها أملاكُ جَدّكِ
في مراكشَ
أو دمشقَ
أو الجزائرْ !
هيَ كُلُّها ميراثُكِ المغصوبُ
فاغتصبي كنوزَ الاغتصابْ
زاد الحسابُ على الحسابِ
وآنَ تسديدُ الحسابْ
فإذا ارتضتْ .. أهلًا
وإنْ لم ترض
فلترحَلْ فرنسا عن فرنسا
نفسِها
إن كانَ يزُعجهُا الحجابْ(١)

قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ [الأعراف : ٣١-٣٣] .

من عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد في قوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله**

---

(١) قصيدة « الحسن أسفر بالحجاب » شعر أحمد مطر – نقلًا عن مجلة هاجر ملحق المختار الإسلامي لنساء المسلمين العدد الأول ربيع الأول ١٤١١هـ ص١٧ .

التي أخرج لعباده ... ﴾ ما رواه الكلبي قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها .. فنزلت الآية .

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ [الأعراف : ٢٢] فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، في زينة الله التي أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم الكرامة والستر ؛ ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية في سلامتها وجمالها الفطري ، وليتميزوا عن العري الحيواني .. الجسمي والنفسي .. إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله عيروهم .

هكذا تصنع الجاهلية بالناس ، هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم ، وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ؟ .

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعرّيهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدّعي هذا رقيًّا وحضارة وتجديدًا ، ثم تعيّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن رجعيات .. تقليديات .. ريفيات .

المسخ هو المسخ ، والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس ، وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين ، والتبجح بعد ذلك هو التبجح .. ﴿ **أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ [الذاريات : ٥٣] .

وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التي تشرع للناس من دون الله ؟ .

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا في شأن ذلك التعري من الأرباب الأرضية التي تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم لضمان السيادة لها في الجزيرة ، فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك.ولا يملكون لأمرهم ردًّا .

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك .

إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية ! صاغرة ، تطيع تلك الأرباب ، وإلا عُيِّرت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها .

ومن الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ، ووراء دكاكين التجميل ، ووراء سعار العري والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والمجلات والصحف التي تقود هذه الحملة المسعورة ، الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها يهود ، يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها .

إن قضية اللباس ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة ، ومنْ ثَمَّ ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك في السياق .

إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى .

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور ، ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة .

كذلك تتعلق بإبراز خصائص الإنسان في الجنس البشري .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ما للدين والزي ؟ ما للدين وملابس النساء ؟ ما للدين والتجميل ؟ إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وفي كل مكان!! .

ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الإسلام لارتباطها أوّلًا بقضية التوحيد والشرك ، فإن السياق يعقب عليها بإيقاع مؤثر ، يوقع به عادة في مواقف العقيدة الكبيرة ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[1] [الأعراف : ٣٤] .

---

(١) الظلال (٣/ ١٢٨٣-١٢٨٥) .

من لبس ثوب شهرة :

قال رسول الله ﷺ : « من لبس ثوب شهرة ، ألبسه الله يوم القيامة ثوبًا مثله ، ثم تلهب فيه النار »[١] .

قال المناوي .

« من لبس ثوب شهرة » أي : ثوب تكبر وتفاخر ، والشهرة هي التفاخر في اللباس المرتفع أو المنخفض للغاية .

« ألبسه الله يوم القيامة » التي هي دار الجزاء وكشف الغطاء .

« ثوبًا مثله » أي : يشمله بالذل ، كما يشمل الثوب البدن في ذلك الجمع الأعظم ، بأن يصغره في العيون ، ويحقره في القلوب ؛ لأنه لبس شهوة الدنيا ليفتخر بها على غيره فيلبسه الله مثله .

« ثم تلهب فيه النار » عقوبة له بنقيض فعله ، والجزاء من جنس العمل ، فأذله الله كما عاقب من أطال ثوبه خيلاء بأن خسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ولبس الدنيء من الثياب يذمّ في موضع ويمدح في موضع ، فيذم إذا كان شهرة وخيلاء ، ويمدح إذا كان تواضعًا واستكانة ، كما أن لبس الرفيع منها يذم إذا كان للكبر أو للفخر .

ويمدح إذا كان تجملًا وإظهارًا للنعمة[٢] .

وقال ﷺ : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٣] .

وقال ﷺ : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة »[٤].

وقال ﷺ : « إن الذي يجر ثوبه من الخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة »[٥].

---

(١) حسن : رواه أبو داود ، وابن ماجة عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٠٢ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٦/ ٢١٨-٢١٩) .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة عن أنس .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجة عن ابن عمر .

(٥) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجة عن ابن عمر .

اللباس واللعن :

قال ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقّ لوالِديه ، والديوث ، ورجلة النساء »[١]. أي : المترجلة من النساء .

وقال ﷺ : « لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل »[٢] .

وقال ﷺ : « لعن الله الرَّجُلة من النساء »[٣] .

وقال ﷺ : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »[٤] .

وقال ﷺ : « لعن الله المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء »[٥] .

وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ، ولا من تشبه بالنساء من الرجال »[٦] .

قال الحافظ في الفتح :

قال الطبري : لا يجوز للرجال التشبه بالنساء في اللباس والزينة التي تختص بالنساء ، ولا العكس . قلت : وكذا في الكلام والمشي . فأما هيئة اللباس

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٣٠٥٨ .

(٢) صحيح : رواه أبو داود والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٤٩٧١ .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٢ .

(٤) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٦ .

(٥) صحيح : رواه البخاري في الأدب ، والترمذي عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٩٧٩ .

(٦) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٣٠٩ .

فتختلف باختلاف عادة كل بلد ، فَرُبَّ قوم لا يفترق زي نسائهم من رجالهم في اللبس ، لكن يمتاز النساء بالاحتجاب والاستتار ، وأما ذم التشبه بالكلام والمشي فمختص بمن تعمَّد ذلك ، وأما من كان من أصل خلقته فإنما يؤمر بتكلف تركه ، والإدمان على ذلك بالتدريج ، فإن لم يفعل وتمادى دخله الذم ، ولا سيما إن بدا منه ما يدل على الرضا به . قال ابن التين : المراد باللعن في هذا الحديث من تشبه من الرجال بالنساء في الزي، ومن تشبه من النساء بالرجال كذلك ، فأما من انتهى في التشبه بالنساء من الرجال إلى أن يؤتى في دبره ، وبالرجال من النساء إلى أن تتعاطى السحق بغيرها من النساء ، فإن لهذين الصنفين من الذم والعقوبة أشد ممن لم يصل إلى ذلك ، وإنما أمر بإخراج من تعاطى ذلك من البيوت لئلا يفضي الأمر بالتشبه إلى تعاطي ذلك الأمر المنكر .

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة - نفع الله به - ما ملخصه : ظاهر اللفظ الزجر عن التشبه في كل شيء ، لكن عرف من الأدلة الأخرى أن المراد التشبه في الزي وبعض الصفات والحركات ونحوها ، لا التشبه في أمور الخير .

واللعن من علامات الكبائر .

قال : والحكمة في لعن من تشبه إخراجه الشيء عن الصفة التي وضعها عليه أحكم الحكماء ، وقد أشار إلى ذلك في لعن الواصلات بقوله : « المغيرات خلق الله »[1] فمن أخرج الشيء عن صفته طرد من رحمة الله جزاءً وفاقًا .

المترجلة لا ينظر الله إليها .

قال ﷺ : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »[2] .

فالثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق الوالدين الذي حرم

---

(١) فتح الباري (١٠/٣٤٥-٣٤٦) .

(٢) صحيح : رواه أحمد والنسائي والحاكم في مستدركه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٧١ .

والديه من نظر الرحمة إليهما والإقبال عليهما . والديوث الذي يرى الخبث في أهله ، والمترجلة من النساء التي تخرج على الفطرة ، وتسترعي انتباه ونظر الرجال إليها ، كذا لا ينظر الله إليها ، جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

من ترك اللباس تواضعًا لله :

قال رسول الله ﷺ : « من ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها »[(١)] .

قال المناوي :

« من ترك اللباس » أي : لِبْس الثياب الحسنة ، وفي رواية « ترك ثوب جمال » « تواضعًا لله » أي : لا ليقال : إنه متواضع أو زاهد ونحوه والناقد بصير .

« وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » أي : يشهره بين الناس ، ويباهي به ، ويقال : هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة الحميدة .

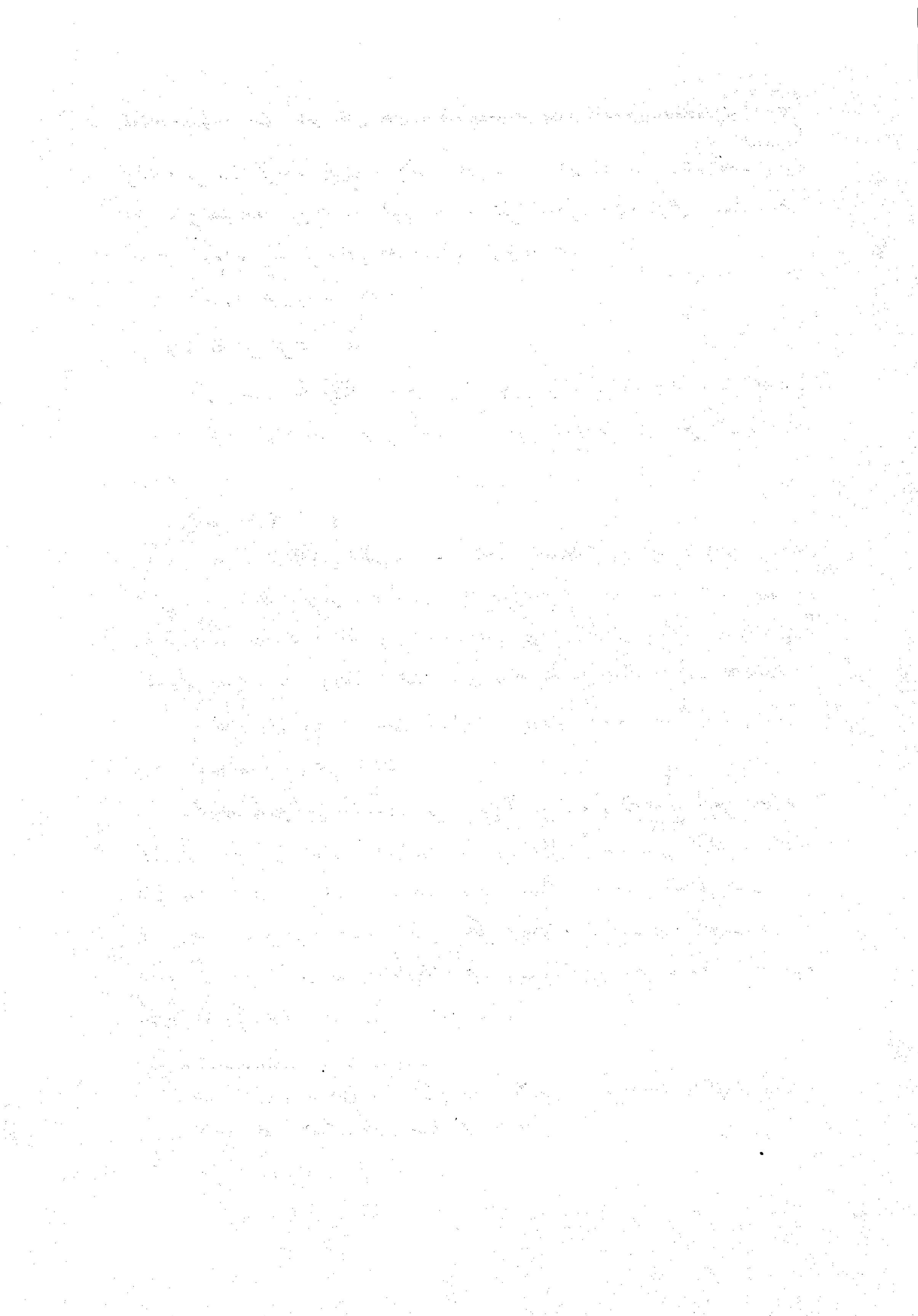
« حتى يخير من أي حلل الإيمان شاء يلبسها » ومن ثم كان النبي ﷺ يلبس الصوف ، ويعتقل الشاة .

ثم هذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، وأن التواضع الفعلي مطلوب كالقولي ، وهذا من أعظم أنواع التواضع ؛ لأنه مقصور على نفس الفاعل فمقاساته أشق بخلاف التواضع المتعدي ، فإن خفض الجناح ، وحسن التخلق أخف على النفس من هذا لرجوعه لحسن الخلق ، لكن بزيادة نوع كسر ولين جانب ، ولمّا أرادوا أن يغيروا زي عمر عند إقباله على بيت المقدس زجرهم وقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نلتمس العزّ بغيره[(٢)] اهـ .

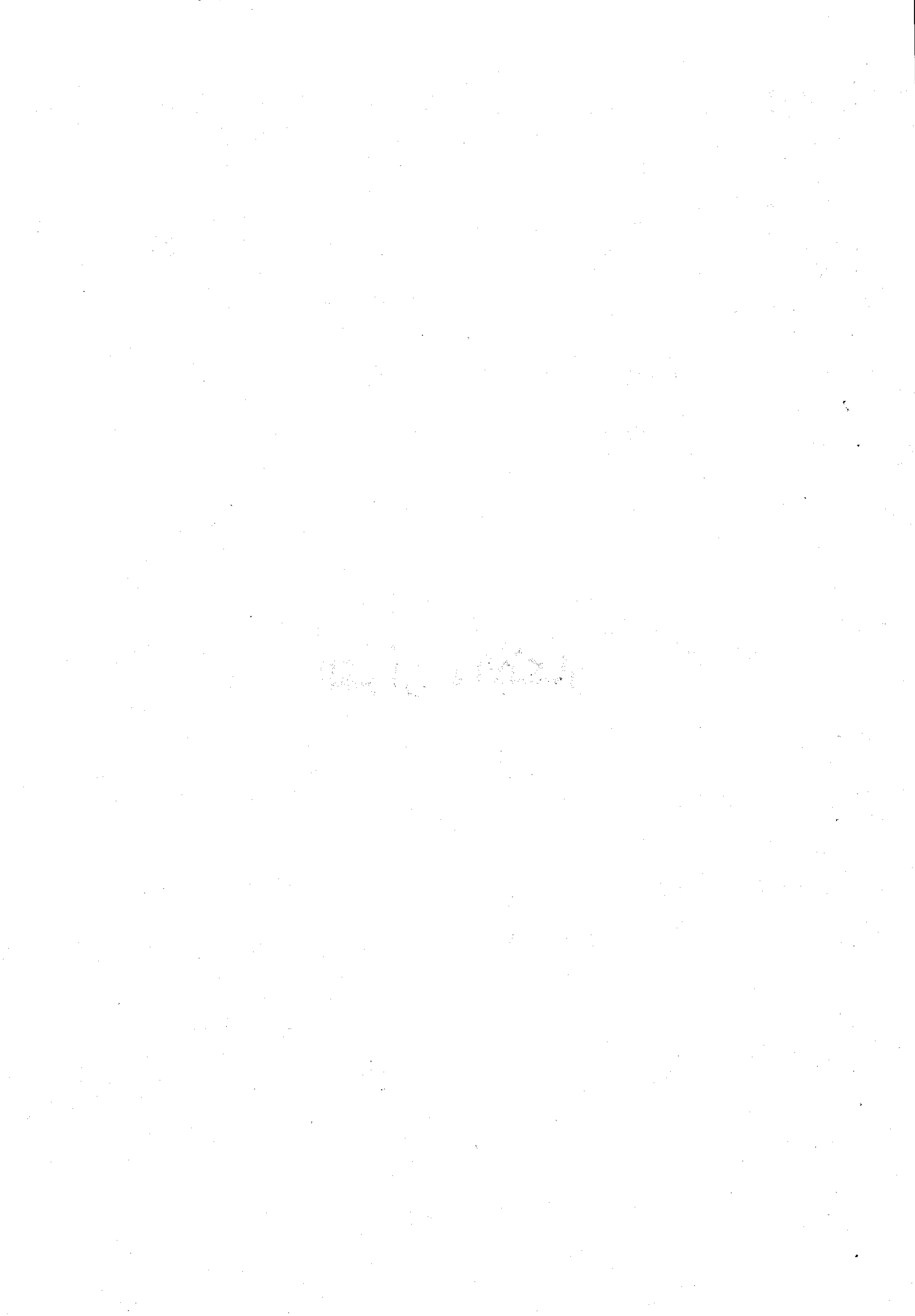
---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أنس ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢١ ، والصحيحة رقم ٧١٧ .

(٢) فيض القدير للمناوي (١٠١/٦) .



القـرآن والأذكـار



□ القرآن والأذكار □

أعذب مورد وردته عطاش القلوب ، موردُ الذكر والتوحيد ، وأطيبُ نسيم هب على مشامّ القلوب ، نسيمُ الأنس بالله عز وجل .

التلذذ بحلاوة مناجاة الله كؤوس رحيق الأرواح ، وذكر الله جلاء رمد العقول ، ودرر حمد الله ، لا يُرصَّعُ بها إلا تيجانُ مفارق الأسرار ، ومسكُ شكره لا يَعبق إلا في جيوب ثياب الأرواح ، وَوِرْدُ الثناء عليه لا يَطْلع إلا على شجر ألسن عباده المؤمنين .

إن ذكرت ربك بألسن حسن صنْعه ، فتح أقفال قلبك ، وإن ذكرته بألسن لطائف أسرار أمره ، فأنت ذاكر على الحقيقة ، وإن ذكرته بقلبك قرَّبَك من جنات رحمته ، وإن ذكرته بسرك ، أدناك من مواطن القدس ، وإن صدقت في حبه حملك بجناح لطفه إلى مقعد صدق .

ما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذكره ..

قال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه ، ولا طابت الجنة إلا برؤيته .

أبـدًا .. نفـوس الطالبيــ ـن إلى رياضكم تحـنُّ
وكذا القلوب بذكركـمْ بعـد المخافـة تطمئــنُّ
حنت بذكركم ... ومنْ يهوى الحبيب ولا يحنُّ؟!

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون »[1] .

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، قال المناوي في فيض القدير (٨٥/٢) : رمز المصنف لصحته ، وهو فيه تابع لتصحيح الحاكم له ، وقد اقتصر الحافظ ابن حجر في أماليه على كونه حسنًا، وقال الهيثمي بعد ما عزاه لأحمد وأبي يعلى: فيه « دراج » ضعفه جمع ، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات .

كان أبو مسلم الخولاني كثير الذكر ، فرآه بعض الناس فأنكر حاله ، فقال لأصحابه : أمجنون صاحبكم ؟ فسمعه أبو مسلم فقال : لا يا أخي ، ولكن هذا دواء الجنون .

وقدْ شرطتُ على قومٍ صحبتُهُمُ لأنَّ قلْبي لكمْ من دونه غرضُ
ومن حديثي بكم قالوا : به مرضٌ فقلتُ: لا أذهب الله عني ذلك المرض

هو في شغل عن الناس بذكر ربه .

وشُغلت عن فهم الحديث سوى ما كانَ عنكَ فإنه شُغْلي
وأديمُ نحوَ محدّثي وجهي ليَرى أنْ قد عقلتُ وعندكمْ عقلي

فكيف يكون الجزاء من جنس العمل .. ؟.

قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

قال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس : إن الله يذكر من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذر من كفره .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ ﴿ **فاذكروني** ﴾ فيما افترضت عليكم ، ﴿ **أذكركم** ﴾ فيما أوجبت لكم على نفسي .

وعن سعيد بن جبير : ﴿ **فاذكروني** ﴾ بطاعتي ﴿ **أذكركم** ﴾ بمغفرتي ورحمتي .

وعن ابن عباس قال : ذكر الله إياكم ، أكبر من ذكركم إياه[1] .

ليس العجب من فقير يلجأ إلى غني ، ليس العجب من ضعيف يلجأ إلى قوي ، ليس العجب من قوله تعالى : ﴿ **فاذكروني**﴾ إنما العجب من قوله تعالى : ﴿ **أذكركم** ﴾ !! .

من نحن حتى يذكرنا الله عز وجل إن ذكرناه ...؟! .

إن ألستنا لتحتاج إلى ملايين المرات من الطهارة والتوبة ، حتى تنطق

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٨٢-٢٨٣) .

باسم الله فضلًا أن يذكرنا ربنا ومولانا ..

وما ذكرتكمُ إلا نسيتكـــمُ نسيان إجلال لا نسيان إهمالِ
إذا تذكرت من أنتم وكيف أنا أجللت مثلكم يخطر على بالي[١]

يقول يحيى بن معاذ : يا غفول يا جهول ، لو سمعت صرير الأقلام في اللوح المحفوظ ، وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك ، لَمُت شوقًا إلى مولاك .

﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ والجزاء من جنس العمل .

يا هذا حفر النهر إليك، وإجراء الماء ليس عليك، أحضر ساقية ﴿**فاذكروني**﴾ إلى جنب بحر ﴿ **أذكركم** ﴾ ، فإذا بالغ فيها معول الكد ، فاضت عليك مياه البحر ، « فبي يسمع وبي يبصر » ، ألق بذر الفكر في أرض الخلوة ، واسق إليه ساقية من ماء الفكر ، لعلها تنبت لك شجرة « أنا جليس من ذكرني »[٢] .

قال رسول الله ﷺ : « ما جلس قوم يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[٣] .

وقال ﷺ : « ما من قوم يذكرون الله ، إلا حفت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : عبدي ، أنا عند ظنك بي ، وأنا معك إذا ذكرتني »[٥] .

---

(١) جامع العلوم والحكم ٤١٩. (٢) المدهش لابن الجوزي ٢٣٧ .

(٣) رواه ابن حبان عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، ورواه مسلم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٤٨٤ .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة وأبي سعيد ، ورواه مسلم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٢٤ .

(٥) رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٢٠١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٠١٢ .

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يابن آدم ، إن ذكرتني في نفسك ، ذكرتك في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ، ذكرتك في ملإٍ خير منهم ، وإن دنوت مني شبرًا ، دنوت منك ذراعًا ، وإن دنوت مني ذراعًا ، دنوت منك باعًا ، وإن أتيتني تمشي ، أتيت إليك أهرول »[1] .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : عبدي ، إذا ذكرتني خاليًا ، ذكرتك خاليًا ، وإن ذكرتني في ملإٍ ، ذكرتك في ملإٍ خير منهم وأكبر »[2].

وقال ﷺ : « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإن روحك في السماء ، وذكرك في الأرض »[3] .

انظر إلى كرم الله الجواد ، الذي علا على كل من جاد ، وبه جاد كل من جاد .

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : لا يذكرني عبد في نفسه ، إلا ذكرته في ملإٍ من ملائكتي، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرته في الرفيق الأعلى»[4].

فاذكروني أذكركم ، والجزاء من جنس العمل .

ياللتفضل الجليل الودود !! الله جل جلاله ، يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مُكافئًا لذكرهم له ، في عالمهم الصغير ، إن العبيد حين يذكرون ربهم ، يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة !! والله حين يذكرهم ، يذكرهم في هذا الكون الكبير ، وهو الله العلي الكبير ، أي تفضل ! وأي كرم !

---

(١) رواه أحمد عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١٣ .

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس ، ورواه البزار وأحمد عن أنس ، والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ، صحيح الجامع ٤٢٠٠ والصحيحة ١٠١١ .

(٣) رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني ، الروض النضير (٣٧٢/٢) ، والسلسلة الصحيحة ٥٥٥ ، صحيح الجامع ٢٥٤٠ .

(٤) رواه الطبراني عن معاذ ، وعن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١١ .

وأي فيض في السماحة والجود !.

« فاذكروني أذكركم » إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله ، الذي لا خازن لخزائنه ، ولا حاسب لعطاياه .. الفضل الفائض من ذاته بلا سبب ولا موجب ، إلا أنه هكذا هو سبحانه ، فيّاض العطاء .

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ، ولا يعبر عن شكره إلا سجود القلب .

من نسيه الله فهو مغمور ضائع ، لا ذكر له في الأرض ، ولا ذكر له في الملأ الأعلى . ومن ذكر الله ، ذكره ، ورفع من وجوده ، وذكره في هذا الكون العريض .

لقد ذكر المسلمون الله فذكرهم ، ورفع ذكرهم ومكنهم من القيادة الراشدة ، ثم نسوه فنسيهم فإذا هم همل ضائع ، وذيل تافه ذليل ، والوسيلة قائمة ، والله يدعوهم في قرآنه الكريم ، فاذكروني أذكركم[1] .

وكنا عِظامًا فصرنا عظامًا وكنا نقوت فها نحن قوتُ

« فاذكروني أذكركم » ..

« فاذكروني » بالتذلل « أذكركم » بالتفضل .

« فاذكروني » بالانكسار « أذكركم » بالمبار .

« فاذكروني » باللسان « أذكركم » بالجنان .

« فاذكروني » بقلوبكم « أذكركم » بتحقيق مطلوبكم .

« فاذكروني » على الباب من حيث الخدمة « أذكركم » بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة .

« فاذكروني » بتصفية السر « أذكركم » بتوفية البر .

« فاذكروني » بالجهد والعناء « أذكركم » بالجود والعطاء .

« فاذكروني » بوصف السلامة « أذكركم » يوم القيامة ، يوم لا تنفع الندامة .

---

(١) الظلال (١/١٤٠-١٤١) .

« فاذكروني » بالرهبة « أذكركم » بتحقيق الرغبة[١] .

« فاذكروني .. أذكركم » .

« فاذكروني » بالشوق والمحبة « أذكركم » بالوصل والقربة .

« فاذكروني » بالحمد والثناء « أذكركم » بالمنن والعطاء .

« فاذكروني » بالتوبة « أذكركم » بغفران الحوبة .

« فاذكروني » بالسؤال « أذكركم » بالنوال .

« فاذكروني » بلا غفلة « أذكركم » بلا مهلة .

« فاذكروني » بالندم « أذكركم » بالكرم .

« فاذكروني » بالمعذرة « أذكركم » بالمغفرة .

« فاذكروني » بالإرادة « أذكركم » بالإفادة .

« فاذكروني » بالتنصل « أذكركم » بالتفضل .

« فاذكروني » بالإخلاص « أذكركم » بالخلاص .

« فاذكروني » بالقلوب « أذكركم » بكشف الكروب .

« فاذكروني » باللسان « أذكركم » بالأمان .

« فاذكروني » بالافتقار « أذكركم » بالاقتدار .

« فاذكروني » بالاعتذار والاستغفار « أذكركم » بالرحمة والاغتفار .

« فاذكروني » بالإيمان « أذكركم » بالجنان .

« فاذكروني » بالإسلام « أذكركم » بالإكرام .

« فاذكروني » بالقلب « أذكركم » برفع الحجب .

« فاذكروني » ذكرًا فانيًا « أذكركم » ذكرًا باقيًا .

« فاذكروني » بالابتهال « أذكركم » بالاتصال .

« فاذكروني » بالتذلل « أذكركم » بعفو الذلل .

« فاذكروني » بالاعتراف « أذكركم » بمحو الاقتراف .

---

(١) لطائف الإشارات (١٣٨/١) .

« فاذكروني » بصفاء السر « أذكركم » بخالص البر .

« فاذكروني » بالصدق « أذكركم » بالرفق .

« فاذكروني » بالصفو « أذكركم » بالعفو .

« فاذكروني » بالتعظيم « أذكركم » بالتكريم .

« فاذكروني » بالتكثير « أذكركم » بالنجاة من السعير .

« فاذكروني » بترك الجفاء « أذكركم » بحفظ الوفاء .

« فاذكروني » بترك الخطاء « أذكركم » بأنواع العطاء .

« فاذكروني » بالجهد في الخدمة « أذكركم » بإتمام النعمة .

« فاذكروني » من حيث أنتم « أذكركم » من حيث أنا .

ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون .

هذا طعم الخبر .. فكيف طعم النظر ..؟! .

هذا سماع ذكره في دار الشقاء .. فكيف عند اللقاء ..؟! .

هذا في دار المحنة .. فكيف في دار النعمة ..؟! .

هذا وأنت على الباب .. فكيف إذا كشف الحجاب ..؟! .

هذا وقد ناديت .. فكيف إذا تجليت ..؟! .

يامن يذكِّرني بعهد أحبَّتي ... طابَ الحديثُ بذكرهمْ ويطيبُ

أعِدِ الحديث عليّ من جَنَبَاتِهِ ... إنَّ الحديث عن الحبيبِ حبيبُ

ملأ الضلوع وفاضَ عن أجنابها ... قلبٌ إذا ذُكِر الحبيب يذوبُ

ما زال يخفق ضاربًا بجناحه ... ياليت شعري، هل تطير قلوبُ؟!

سبحانك .. سبحانك « ارتفع إليك ثغاء التسبيح ، وصعد إليك وقار التقديس، سبحانك ذا الجبروت، بيدك الملك والملكوت، والمفاتيح والمقادير »[1].

وملأتُ كلي منك حتى لم أدعْ ... مني مكانًا خاليًا لسواكَ

والقلب فيكَ هيامه وغرامه ... والروح لا تنفك عن ذكراكَ

---

(١) مختصر العلو ص١٢٩ .

أو كما يقول :

لا عضو لي إلا وفيه صبابة فكأن أعضائي خُلِقْنَ قلوبَا

* * *

ولو مضى الكل مني لم يكن عجبًا وإنما عجبي للبعض كيف بقي ؟!!

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد ، فرفع على خشبة وهو يسبح ويهلل ويعقد بيده ، حتى بلغ تسعًا وعشرين ، فبقي شهرًا بعد موته ، ويده على ذلك العقد مضمومة .

لتحشرنَّ عظامي بعدما بليت يوم الحساب وفيها حبكُمْ عَلِقَ

كان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة، سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات وضع على سريره ليغسل، فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح[١].

وقيل لعمير بن هاني : ما نرى لسانك يفتر ، فكم تسبح كل يوم ؟ قال : مائة ألف تسبيحة إلا أن تخطىء الأصابع .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كانت عندنا امرأة بمكة تسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة فماتت ، فلما بلغت القبر اختلست من أيدي الرجال[٢].

يا ويح أنفسنا ، أين نحن من هؤلاء ؟! نستكثر تسبيحنا .. واعجبًا لنا .. نعد التسبيح بسبحة ؟ فهلا جعلنا لعد المعاصي أخرى ..

وتمضي رحلتنا مع الجزاء من جنس العمل ..

قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيانِ يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان[٣]، أو كأنهما فرقان من طير صوافّ ، يحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة »[٤].

---

(١) هذه القصة إسناد منقطع في سير أعلام النبلاء (٤/٥٤٠) ، وهي في الحلية (٥/٢١٠)، وابن عساكر (٥/٢٦٠) بطريق أخرى .

(٢) جامع العلوم والحكم ٤١٧ .

(٣) الغيابة كل شيء يظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها « نهاية » .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة .

انظر كيف يبدو الجزاء من جنس العمل واضحًا جليًّا في هذا الحديث .

قال المناوي : « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » أي : شافعًا بأن يتصور بصورة يراها الناس ، كما يجعل الله لأعمال العباد صورة ووزنًا لتوضع في الميزان ، فليعتقد المؤمن هذا وشبهه بإيمانه ؛ لأنه لا مجال للعقل فيه .

« الزهراوين » أي : النيرتين ، سميتا به ؛ لكثرة نور الأحكام الشرعية ، وكثرة أسماء الله تعالى فيهما ، أو لهدايتهما قارئهما ، أو لما يكون له من النور بسببهما يوم القيامة .

«والزهراوين» تثنية الزهراء، تأنيث أزهر، وهو المضيء الشديد الضوء[1].

وانظر إلى الحديث الآخر الذي يبين أن الجزاء من جنس العمل ..

قال رسول الله ﷺ : « الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب ، إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : رب ، منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، فيشفعان »[2].

صح عن ابن مسعود أنه قال : سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، تلقاهن مَلَك فعرج بهن إلى الله عز وجل ، فلا يمر بملأ من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يُحَيَّى بهن وجه الرحمن عز وجل[3] .

وعن كعب : أنَّ سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لهن دوي حول العرش كدوي النحل ، يُذكر بصاحبهن .

وعن كعب أيضًا قال : إن للكلام الطيب حول العرش لدويًا كدوي النحل ، يذكر بصاحبه .

والجزاء من جنس العمل .

---

(١) فيض القدير (٢/٦٣-٦٤) .

(٢) رواه أحمد ، والطبراني ، والحاكم والبيهقي عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٧٧٦ .

(٣) مختصر العلو ص١٢٩ قال ابن القيم : إسناده صحيح ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال : « يُقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها »[١] .

والجزاء من جنس العمل .

أولياء الله تعالى .. الذين إذا رُؤوا ذُكِر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : « أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤوا ذكر الله تعالى »[٢].

لما ذكروا الله تعالى ، وشغلوا به ، فأعطاهم فوق ما أملوا ، أن كانت مجرد رؤيتهم تذكر بالله تعالى أو حتى مجرد ذكر حديثهم .

قال المناوي :

يعني أن عليهم مِن الله سيما ظاهرة ، تذكر بذكره ، فإن رؤوا ذكر الخير برؤيتهم ، وإن حضروا حضر الذكر معهم ، وإن نطقوا بالذكر فهم يتقلبون فيه كيفما حلوا، فمن كان بين يديْ ربه وآخرته، فإنما يفتتح إذا لقيك بذكره، ومن كان أسير نفسه ودنياه فإنما يفتتح إذا لقيك بدنيا ، فكل يحدثك عما يطلع قلبه فتنبه[٣].

كان الناس إذا رأوا أيوب السختياني في السوق ، كبروا لمخايل النور التي على وجهه .

ويقول جعفر : كنت كلما قسا قلبي نظرت إلى وجه محمد بن واسع .

قال بعض السلف : صحبت في طريقي رجلًا أسود فكان إذا ذكر الله تعالى ابيض[٤] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني .

(٢) رواه الحكيم عن ابن عباس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٥٨٤ ، والصحيحة ١٦٤٦ : ابن صاعد ، وأبو نعيم والديلمي .

(٣) قال المناوي : ظاهر صنيع المصنف أنه لا يوجد مخرجًا لأشهر من الحكيم ولا أعلى ، وهو عجب، فقد رواه البزار عن ابن عباس، ورواه عن شيخه علي بن حرب الرازي، قال الهيثمي : لم أعرفه ، وبقية رجاله وثقوا ، ورواه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن أبي وقاص ، وصححه الألباني ٢٥٨٤ .

(٤) التبصرة (٢/٣٧) .

إن لم تكن مع القوم في السحر، تلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحى، ترى في صحائف الوجوه، سطور القبول بمداد الأنوار، وجوه زهاها الحسن أن تتبرقعا.

انظر إلى العجب العجاب ، إلى رجل من هؤلاء الذين أوتوا ذكْر الله عز وجل ، حتى يُذكر الله تعالى بذكرهم .

الإمام القدوة الشهيد : أبو بكر النَّابُلسِي :

قال أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد ، وصلبوه على السُّنة ، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول : كان يقول وهو يسلخ : ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطورًا** ﴾ [الإسراء : ٥٨].

قال ابن الجوزي : أقام جوهر القائد لابن تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي ، وكان ينزل الأكواخ ، فقال له : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة ، قال : ما قلت هذا ، إذْ كان معه عشرة أسهم ، وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا ، فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الألوهية ، فشهرهُ ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًّا فسلخه .

قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقة أن أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ويصبر ، حتى بلغ الصدر فرحمه السلَّاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه ، وأخبرني الثقة أنه كان إمامًا في الحديث والفقه ، صائم الدهر ، كبير الصولة عند العامة والخاصة ، ولما سُلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن[1] .

أخذ الأجر على تعليم القرآن :

قال رسول الله : « من أخذ على تعليم القرآن قوسًا ، قلّده الله مكانها قوسًا من نار جهنم يوم القيامة »[2] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/١٤٨-١٤٩) .

(٢) رواه أبو نعيم ، والبيهقي عن أبي الدرداء ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٨ ، والصحيحة ٢٥٦ .

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي :

أخذ بظاهره أبو حنيفة فحرّم أخذ الأجرة عليه، وخالفه الباقون قائلين: الخبر بفرض صحته منسوخ ، أو مؤول بأنه كان يحتسب التعليم . نعم ، الأولى كما قاله الغزالي الاقتداء بصاحب الشرع فلا يطلب على إفاضة العلم أجرًا ، ولا يقصد جزاء ولا شكورًا بل يعلم لله(١).

الصلاة على رسول الله ﷺ :

قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطّ عنه عشر خطيئات ، ورفع له عشر درجات »(٢).

وقال ﷺ : « من صلى عليّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشرًا »(٣) .

وقال ﷺ : « من ذُكرت عنده فليصل عليّ ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا »(٤) .

وقال ﷺ : « أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرًا »(٥) .

وقال ﷺ : « إن لله تعالى ملكًا أعطاه سمع العباد ، فليس من أحد يصلي عليّ ألا أبلغنيها ، وإني سألت ربي أن لا يصلي عليّ عبد صلاة إلا صلى عليه عشرَ أمثالها »(٦).

---

(١) فيض القدير (٦/٤٢) .

(٢) رواه البخاري وأحمد والنسائي والحاكم عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٣٥ ، تخريج المشكاة ٩٢٥ .

(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٣٤ ، انظر الضعيفة ٣/١٩ .

(٤) رواه الترمذي عن أنس وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٢٢ .

(٥) رواه البيهقي عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢٢٠ والصحيحة ١٤٠٧ .

(٦) رواه الطبراني عن عمار بن ياسر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٧٢، والصحيحة ١٥٣٠ ، تخ أبو الشيخ .

وقال ﷺ : « إن ملكًا أتاني فقال : إن ربك يقول لك : أما ترضى أن لا يصلي عليك أحد من أمتك ، إلا صليت عليه عشرًا ، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرًا ؟ قلت : بلى »[١] .

وقال ﷺ : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلَّتْ عليه الشفاعة »[٢] .

وقال ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد : أما يرضيك أن ربَّك عز وجل يقول : إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك صلاة إلا صليت عليه بها عشرًا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك تسليمة إلا سلمت عليه عشرًا ، فقلت : بلى أي رب »[٣] .

وقال ﷺ: «من ذكرت عنده فخطئ الصلاة عليّ، خطيء طريق الجنة»[٤].

قال ابن القيم في جلاء الأفهام : هذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل ، فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه ، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد ؛ لتكون صلاة الله عليه من جنسها ، وإنما هي ثناء على الرسول ﷺ ، وإرادة من الله أن يعلي ذكره ، ويزيد تعظيمًا وتشريفًا ، والجزاء من جنس العمل ، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد

---

(١) رواه النسائي عن أبي طلحة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢١٩٤ .
(٢) رواه أحمد ومسلم والثلاثة عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٦ .
(٣) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم والضياء عن أبي طلحة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٧١ . والصحيحة ٨٢٧
(٤) رواه ابن ماجة عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٢١ ، والصحيحة ٢٣٣٧ .

تشريفه وتكريمه ، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ، ومشاكلته له ومناسبته له .

عجبت لمن يقول : ذكرت حبي وهل أنسى فأذكر من نسيت

فذكره ﷺ ، وذكر ما جاء به ، وحمد الله تعالى على إنعامه علينا ، ومنته بإرساله هو حياة الوجود وروحه ، كما قيل :

روح المجالس ذكره وحديثه وهدًى لكل ملدَّدٍ حيران

وإذا أضل بذكره في مجلس فأولئك الأموات في الحيان

اللهم ثبت أقدامنا على الصراط ، بصلاتنا على نبيك ﷺ .

الغيرة على القرآن :

حكى المبرد عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب « سيبويه » وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أترد هذا القدر مع شدة فاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذميّ منها غيرة على القرآن .. فاتفق أن غنت(*) جارية بحضرة الواثق يقول العَرْجيّ :

أظلوم إن مصابكم رجلًا أهدى السلامَ تَحيةً ظلمُ

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجل ، فمنهم من قال : هو نصب ، وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرّت على النصب ، وقالت : لقنني إياه كذلك شيخي أبو عثمان المازني ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلمّا مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ؟ أمازنُ تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلّمني بكلام قومي فقال لي : بااسمك ؟ وقومي يقلبون الميم باءً والباء ميمًا ، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلومُ إن مصابكم رجلًا أهدى السلام تحيَّةً ظلمُ

(*) الغناء محرم .

أترفع رجلًا أم تنصبه ؟ فقلت : الوجه النصب يا أمير المؤمنين ، فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيدًا ظلمٌ ، فرجلًا مفعول مصابكم ومنصوب به ، والدليل عليه أن الكلام معلّق إلى أن تقول: «ظُلْم»، فيَتِمّ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترمْ[1] عندنا فإنا بخير إذا لم تَرِمْ
ترانا إذا أضمرتك البلا دُ نُجْفى وتُقْطَعُ منا الرَّحِمْ

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثقي بالله ليس له شريك ومِنْ عند الخليفة بالنجاح

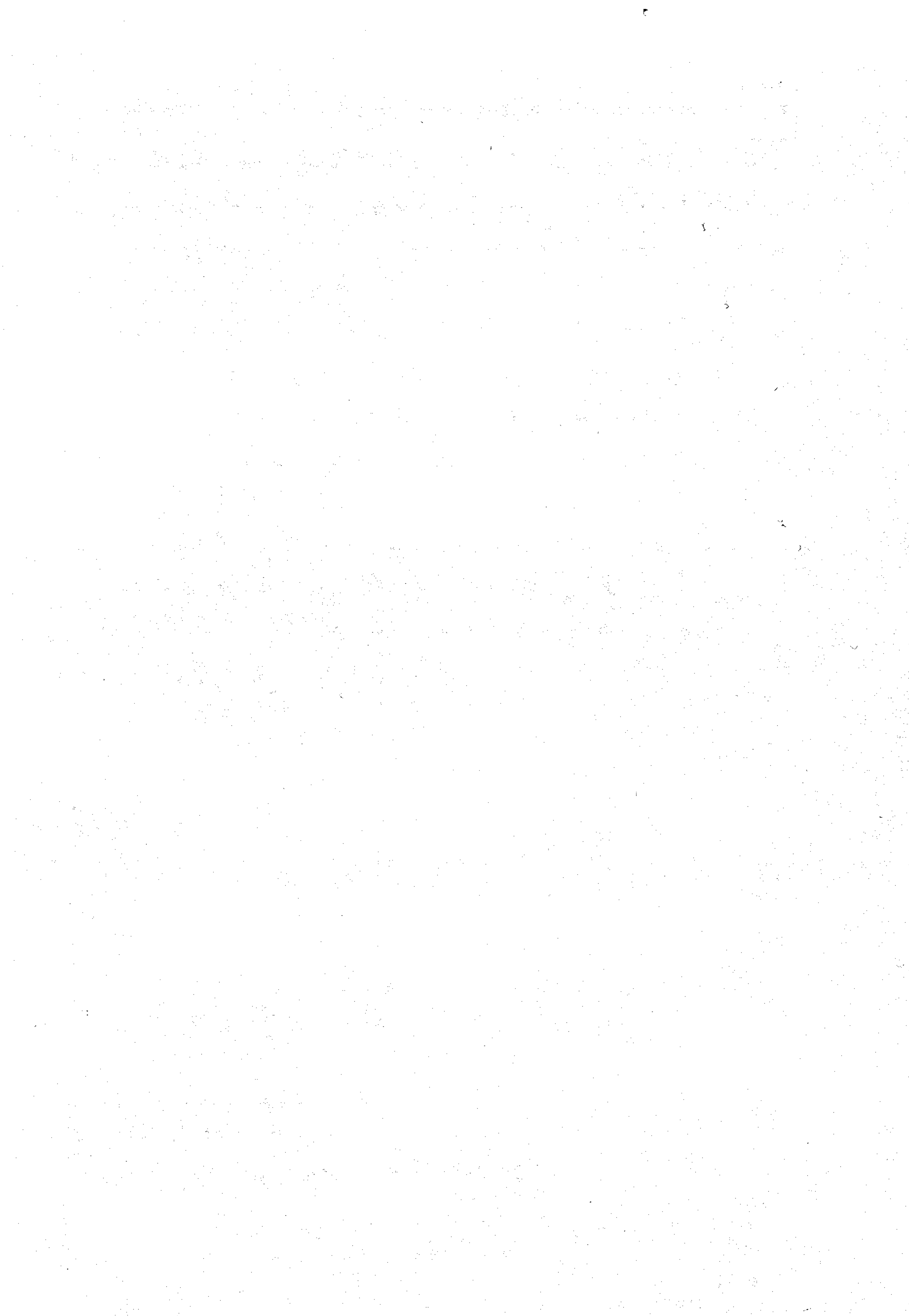
فقال : علي النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردّني إلى البصرة مكرمًا ، فقال أبو العباس المبرّد : فلما عاد إلى البصرة قال لي : كيف رأيت يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوّضنا الله ألفًا[2] .

والجزاء من جنس العمل .

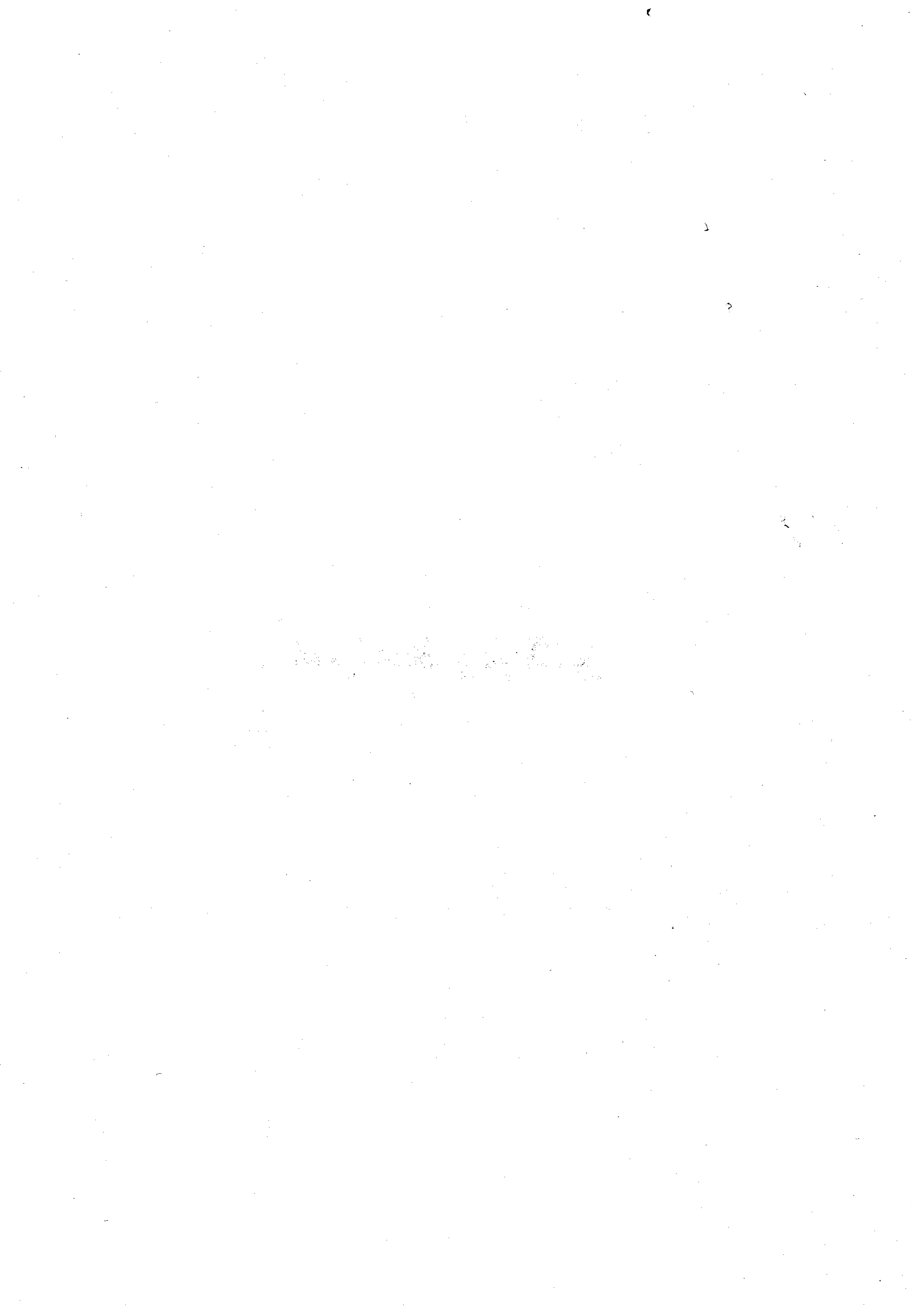
* * *

(١) رام مكانه : فارقه .

(٢) روضة المحبين لابن قيم الجوزية ص٤٥٤- ٤٥٥ .



المواعظ والرقائق



المواعظ والرقائق

قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن يعلم ماله عند الله ، فلينظر مالله عنده»[١].

قال المناوي :

« إن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه ، فمنزلة الله عند العبد في قلبه ، على قدر معرفته إياه وعلمه به ، وإجلاله وتعظيمه والحياء والخوف منه ، وإقامته لأمره ونهيه والوقوف عند أحكامه بقلب سليم ، ونفس مطمئنة ، والتسليم له بدنًا وروحًا وقلبًا ، ومراقبة تدبيره في أموره ولزوم ذكره والنهوض بأثقال نعمه ومننه ، وحسن الظن به ، والناس في ذلك درجات ، وحظوظهم بقدر حظوهم من هذه الأشياء ، فأوفرهم حظًّا منها أعظمهم درجة عنده وعكسه بعكسه .

وقال ابن عطاء : إذا أردت أن تعرف مقامك عنده ، فانظر ما أقامك فيه[٢].

قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصي الله فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين ، وقال سليمان التيمي : إن الرجل ليصيب الذنب في السرّ فيصبح وعليه مذلته !

وقال غيره : إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه ، وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة ، ولا يضيع عنده عمل عامل ، ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار ، فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله ، فإنه من

---

(١) رواه الدارقطني في الأفراد عن أنس ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وسمرة وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٨٢ ، انظر السلسلة الصحيحة رقم ٣٢١٠ .

(٢) فيض القدير (٦/٤٩) .

أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق ، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًّا له .

قال أبو سليمان : إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

ومن أعجب ما روي في هذا ما روي عن أبي جعفر السائح قال : كان حبيب أبو محمد تاجرًا يكري الدراهم ، فمرّ ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون ، فقال بعضهم لبعض : قد جاء آكل الربا فنكّس رأسه ، وقال : يا رب أفشيت سرّي إلى الصبيان ، فرجع فجمع ماله كله ، وقال : يا رب إني أسير ، وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال فأعتقني ، فلما أصبح تصدّق بالمال كله ، وأخذ في العبادة ، ثم مرّ ذات يوم بأولئك الصبيان ، فلما رأوه قال بعضهم لبعض:اسكتوا ، فقد جاء حبيب العابد ، فبكى وقال : يا ربّ أنت تذمّ مرّة وتحمد مرّة ، وكله من عندك[١].

مكتوب في الإنجيل : كما تدين تدان ، وبالكيل الذي تكيل تكتال[٢].

قال المناوي :

قال الزمخشري : سمي الفعل المجازي فيه باسم الجزاء .

وهنا الجزاء يعني كما تجازي تُجازىٰ ، وقيل : كما تصنعْ يصنع بك ، وبالكيل الذي تكيل تكتال .

وعليه قيل :

فإن كنت قد أبصرتَ هذا فإنما — يصدِّق قول المرء ما هو فاعلُهْ
ففيك إلى الدنيا اعتراض وإنما — يُكال لدى الميزان ما أنت كايلُهْ
وقد خانت الدنيا قرونًا تتابعوا — كما خان أعلى البيت يومًا أسافلُهْ[٣]

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص١٥٣ طبع مصطفى الحلبي .
(٢) رواه الديلمي في الفردوس عن فضالة بن عبيد .
(٣) فيض القدير (٣/٦) .

قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »[١].

قال المناوي :

« من تاب » أي : رجع عن ذنبه بشرطه .

« قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » أي : قبل توبته ورضيها ، فرجع متعطفًا عليه برحمته ، وذلك لأن العبد إذا جاء في الاعتذار ، والتنصل بأقصى ما يقدر عليه قابله الله بالعفو والتجاوز[٢].

قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو كف عنه من السوء مثله ، ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم »[٣].

قال المناوي :

« ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل » قال الكرماني : أي ما أحد يدعو كائنًا بصفة إلا بصفة الإيتاء .

« أو كف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » فكل داع يستجاب له ، لكن تتنوع الإجابة ، فتارة تقع بعين ما دعا به ، وتارة بعوضه بحسب ما تقتضيه مصلحته وحاله . فأشار به إلى أن من رحمة الله بعبده أن يدعو بأمر دنيوي فلا يستجاب له ، بل يعوضه خيرًا منه ، من صرف سوء عنه أو ادخار ذلك له في الآخرة أو مغفرة ذنبه[٤].

قال رسول الله ﷺ : « كما لا يجتنى الشوك من العنب ، كذلك لا يَنْزِلُ الفجارُ منازل الأبرار ، وهما طريقان ، فأيهما أخذتم أدركتم إليه »[٥].

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٢) فيض القدير (٩٩/٦) .

(٣) رواه أحمد والترمذي عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٤ .

(٤) فيض القدير (٤٦٧/٥) .

(٥) أخرجه ابن عساكر عن أبي ذر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٤٥٢ ، ورواه أبو نعيم .

وقال رسول الله ﷺ : « كما لا يجتنى الشوك من العنب ، كذلك لا ينزِّلُ الفجارُ منازل الأبرار ، فاسلكوا أي طريق شئتم ، فأي طريق سلكتم وردتم على أهله »[١].

قال المناوي :

فمن سلك طريق أهل الله ورد عليهم فصار من السعداء . ومن سلك طريق الفجار ورد عليهم وكان منهم ، فصار من الأشقياء والإنسان مع من أحب ومن تشبه بقوم فهو منهم ، والعبد يبعث على ما مات عليه[٢].

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »[٣].

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله »[٤].

قال المناوي :

« قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي إن ظن » بي « خيرًا فله » مقتضى ظنه « وإن ظن » بي « شرًّا » أي أني أفعل به شرًّا « فله » ما ظنه .

فالمعاملة تدور مع الظن ، فإذا حسن ظنه بربه وفى له بما أمل وظن ، والتطير سوء الظن بالله ، وهروب عن قضائه ، فالعقوبة إليه سريعة ، والمقت له كائن ألا ترى إلى العصابة التي فرت من الطاعون كيف أماتهم ؟[٥] .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن يزيد بن مرثد مرسلًا ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٤٤٥١ .

(٢) فيض القدير (٥/٤٧) .

(٣) رواه الطبراني والحاكم عن واثلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩٢ ، ابن المبارك وأحمد وابن حبان ، والدولابي ، انظر السلسلة الصحيحة ١٦٦٣ .

(٤) رواه أحمد عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩١ ، والصحيحة ١٦٦٣ وابن حبان .

(٥) فيض القدير (٤/٤٩١) .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيرًا فخير ، وإنّ شرًّا فشر » .

قال المناوي :

« إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي » أي أعامله على حسب ظنه ، وأفعل به ما يتوقعه مني فليحسن رجاءه ، أو أنا قادر على أن أعمل به ما ظن أني أعامله به ، فالمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف والظن على بابه ، ذكره القاضي .

« إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشرّ » أي إن ظن بي خيرًا أفعل به خيرًا ، وإن ظن بي شرًّا ، أفعل به شرًّا[1].

قال ابن القيم : وأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن به ، فإن من أساء الظن به ، ظن به خلاف كماله الأقدس ، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته ، ولهذا توعد عليه بما توعد به غيره فقال : ﴿ **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم** ﴾ وقال : ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ [الفتح : ٦] / [فصلت : ٢٣] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : يابن أدم تفرغ لعبادتي ، أملأ صدرك غنًى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلًا ، ولم أسد فقرك »[2].

قال المناوي :

« إن الله تعالى يقول : يابن آدم تفرغ لعبادتي » أي تفرغ عن مهماتك لطاعتي ، ولا تشتغل باكتساب ما يزيد على قوتك وقوت ممونك ، فإنك إن اقتصرت على ما لا بد منه واشتغلت بعبادتي « أملأ صدرك » أي قلبك الذي في صدرك . « غنى » وذلك هو الغنى على الحقيقة ؛ لأن ما هنا فيمن يهتم بما

---

(١) فيض القدير (٣١٢/٢) .

(٢) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩١٠ .

زاد على كفاية نفسه وممونه على وجه الكفاية كما تقرر « وأسد فقرك » يعني تفرغ عن مهماتك لعبادتي أقض مهماتك ، ومن قضى الله مهماته استغنى عن خلقه لأنه الغني ، وهو المعنى بقوله : « أملأ صدرك غنى » وبما تقرر من أن المأمور به التفرغ عن اكتساب ما يزيد على الكفاية ، « وإن لم تفعل » ذلك « ملأت يديك شغلًا » خص اليدين ؛ لأن الاكتساب بهما « ولم أسدَّ فقرك » أي وإن لم تتفرغ لذلك واشتغلت بغيري ، لم أسد فقرك ؛ لأن الخلق فقراء ، على الإطلاق ، فتزيد فقرًا على فقرك ، وهو المراد بقوله : « ملأت يديك ... » إلخ ذكره الطيبي .

قال العلائي : أمر الله في هذا الخبر بالتفرغ لعبادته ومن جملة ذلك أن لا يكون القلب في شاغل عن الإقبال على طاعته[1].

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : يابن آدم : قم إليّ أمش إليك ، وامش إليّ أهرول إليك »[2] .

قال المناوي :

معناه : أنك إذا تقربت إليه بالخدمة ، تقرب منك بالرحمة ، أنت تتقرب منه بالسجود ، وهو يتقرب منك بالجود »[3].

قال رسول الله ﷺ : « تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »[4].

قال المناوي :

«تعرّف» بشد الراء «إلى الله» أي: تحبب وتقرب إليه بطاعته، والشكر

---

(١) فيض القدير (٣٠٨/٢) .

(٢) رواه أحمد عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٢١٦ ، ورواه أحمد ، والبيهقي ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي هريرة ، وأحمد والبخاري عن أنس .

(٣) فيض القدير (٤٩١/٤) .

(٤) أخرجه أبو القاسم بن بشران في « أماليه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٥٨ ، ورواه أحمد ، والطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم عن ابن عباس ، والآجري عن أبي سعيد .

على سابغ نعمته ، والصبر تحت مر أقضيته ، وصدق الالتجاء الخالص قبل نزول بليته ، « في الرخاء » أي في الدعة والأمن ، والنعمة وسعة العمر ، وصحة البدن ، فالزم الطاعات والإنفاق في القربات ، حتى تكون متصفًا عنده بذلك معروفًا .

« يعرفك في الشدة » بتفريجها عنك ، وجعله لك من كل ضيق مخرجًا ، ومن كل هم فرجًا ، بما سلف من ذلك التعرف ، كما وقع للثلاثة الذين أووا إلى الغار ، فإذا تعرفت إليه في الرخاء والاختيار جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار بمدد توفيقه وخفي لطفه ، كما أخبر تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ يعني قبل البلاء ، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه في حال رخائه لم ينجه اللجأ عند بلائه قال : ﴿ **ألآن وقد عصيت قبل** ﴾[1].

قال رسول الله ﷺ : « ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله تعالى من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى اللَّهُ عبدًا في الدنيا فيُوَلِّيه غيره يوم القيامة ، ولا يحبّ رجلٌ قومًا إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت أن لا آثم : لا يستر الله عبدًا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة »[2].

قال المناوي :

« ثلاث أحلف عليهن » ، أي على حقيقتهن « لا يجعل الله تعالى من له سهم في الإسلام » من أسهمه الآتية « كمن لا سهم له » منها أي لا يساويه بها في الآخرة « وأسهم الإسلام » هي « ثلاثة الصلاة » أي المفروضات الخمس «والصوم» أي صوم رمضان «والزكاة» سائر أنواعها، فهذه واحدة من الثلاث، والثانية « لا يتولى الله عبدًا » من عباده « في الدنيا » فيحفظه ويرعاه ويوفقه ، « فيُوَلِّيه غيره يوم القيامة » ، بل كما يتولاه في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة

---

(١) فيض القدير (٣/٢٥١) .
(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي عن عائشة ، والطبراني عن أبي أمامة ، وأبو نعيم عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٠١٨ .

يتولاه في العقبى ، ولا يكله إلى غيره .

والثالثة « لا يحب رجلٌ قومًا » في الدنيا « إلا جعله الله » أي : حشره « معهم » في الآخرة فمن أحب أهل الخير كان معهم ، ومن أحب أهل الشر كان معهم والمرء مع من أحب ، « والرابعة لو حلفت عليها » كما حلفت على أولئك الثلاث ، « رجوت » أي : أملت « أن لا آثم » أي : لا يلحقني إثم بسبب حلفي عليها ، وهي « لا يستر الله عبدًا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة »(١).

قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد ، عِش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزّه استغناؤه عن الناس »(٢).

قال المناوي :

« واعمل ما شئت » من خير « فإنك مجزي به » أي : مقضي عليك بما يقتضيه عملك .

ذكر الموت والمجازاة وخوف بما علم منه أن « من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره »(٣).

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين ، إن أمنني في الدنيا ، أخفته يوم أجمع عبادي ، وإن هو خافني في الدنيا أمّنته يوم أجمع عبادي »(٤).

قال المناوي :

فمن كان خوفه في الدنيا أشد ، كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس .

---

(١) فيض القدير (٢٩٧/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم ، والبيهقي ، والشيرازي في الألقاب عن سهل بن سعد ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ٧٣ ، وأخرجه البيهقي عن جابر ، وأبو نعيم في الحلية عن علي ، انظر السلسلة الصحيحة ٨٧٩ .

(٣) فيض القدير (١٠٢/٤) .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس ، وحسنه الألباني في صحيح =

قال القرطبي : فمن استحى من الله في الدنيا مما يصنع . استحى الله عن سؤاله في القيامة ، ولم يجمع عليه حياءين ، كما لم يجمع عليه خوفين .

وقال الحرالي : « نار الحق في الدنيا للمعترف رحمة من عذاب النار ، تفديه من نار السطوة في الآخرة ، ومحمد عليه الصلاة والسلام يعطى الأمن يوم القيامة ، وما ذاك إلا من الخوف الذي كان علاه أيام الدنيا فلم يجتمع عليه خوفان »[١].

كتب عمر إلى معاوية : أما بعد ، فالزم الحق ، يُنزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى إلا بالحق[٢].

قال ذو النون :

كان العلماء يتواعظون بثلاث : من أحسن سريرته ، أحسن الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح أمر آخرته ، أصلح الله أمر دنياه[٣].

قال الذهبي : قال قتادة : كان هرم بن حبان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه وُدَّهم[٤].

قال الذهبي في ترجمة « الفضل بن مروان » :

كان بديع الخط، مُنشئًا، لم يزل في ارتقاء، والناس يحسدونه حتى نُكب، وأدّى أربعين ألف ألف درهم .

فكان المعتصم يقول : عصى الله ، وأطاعني ، فسلطني الله عليه[٥].

= الجامع ٤٢٠٨ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٧٤٢ ، ورواه ابن المبارك ، والبزار عن الحسن مرسلًا ، والبزار وابن صاعد عن أبي هريرة .

(١) فيض القدير (٤/٤٩٥) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢٣٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/١٤١) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٤٩) .

(٥) السِّير (١٢/٨٤) .

قال الذهبي في ترجمة « أبي الخير التِّينَاني » : ويقال : إن سبب قطع يده في تهمة ظهرت براءته منها : أنه اشتهى زعرورًا ، فقطع غصنا ، وكان عاهد الله أن لا يتناول لنفسه شهوة .

قال : فذكر عهده ، فرمى بالغصن ، ثم كان يقول : يدٌ قطعت عضوًا فقُطعتْ[١].

كان معروف الكرخي يبكي ويقول: يا نفس كم تبكين؟ أَخْلِصي تَخْلُصي[٢].

وقال معروف رحمه الله : من كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومَنْ ماكره خدعه ، ومن توكل عليه منعه ، ومَنْ تواضع له رفعه ، كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله[٣].

قال سعيد بن عبد العزيز : من أحسن فليرج الثواب ، ومن أساء فلا يستنكر الجزاء ، ومن أخذ عزًّا بغير حق أورثه الله ذلًّا بحق ، ومن جمع مالًا بظلم ، أورثه الله فقرًا بغير ظلم[٤].

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه :

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني : أراد الله مني منفعة الخلق ، فقد أسلم علي يديّ أكثر من خمسمائة ، وتاب علي يديّ أكثر من مائة ألف ، وهذا خير كثير ، وترد علي الأثقال التي لو وُضعت على الجبال تفسّخت ، فأضع جنبي على الأرض ، وأقول : إن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا ، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني . وقال : إذا وُلد لي ولد أخذته على يدي ، وأقول:هذا ميت ، فأخرجه من قلبي ، فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئًا .

قال عبد الرزاق بن الشيخ : ولد لأبي تسعة وأربعون ولدًا ، سبعة وعشرون

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/١٦) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٤١/٩) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٣٤١/٩) .
(٤) السير (٣٦/٨) .

ذكرًا ، والباقي إناث(١).

والجزاء من جنس العمل ، يخرجهم من قلبه ، فيورثه الله كثرة الأولاد ، جزاءً وفاقًا ، ويُمتع بهم ، وتقر عينه بهم .

قال إبراهيم بن ديزيل : لما دُعي عفان للمحنة ، كنت آخذًا بلجام حماره ، فلما حضر ، عرض عليه القول فامتنع أن يجيب ، فقيل له : يُحبس عطاؤك قال : وكان يعطى في كل شهر ألف درهم . فقال : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] فلما رجع إلى داره عذَله نساؤه ومن في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدق عليه داقّ الباب ، فدخل عليه رجل شبهتُه بسمّان أو زيّات ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ثبَّتك الله كما ثبَّتَّ الدين ، وهذا في كل شهر(٢).

عن أبي سليمان : من اشتغل بنفسه شُغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه ، شُغل عن نفسه وعن الناس(٣).

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل يقول : من أحبّ أن يذكر لم يذكر ، ومَنْ كره أن يُذْكر ذُكِر(٤).

قال سفيان بن عيينة : غضبُ الله الداء الذي لا دواء له ، ومن استغنى بالله ، أحوج الله إليه الناس(٥).

قال رسول الله ﷺ : « ما من امرىء يخذل امرأً مسلمًا في موطن يُنتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا خذله الله تعالى في موطن يُحب فيه نصرته ، وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يُحب فيه نصرته »(٦).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٤٧) .
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/٢٤٥) ، تاريخ بغداد (١٢/٢٧١-٢٧٢) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/١٨٥) .
(٤) السير (٨/٤٣٢) . (٥) السير (٨/٤٧٣) .
(٦) رواه أحمد وأبو داود ، والضياء عن جابر ، وأبي طلحة بن سهل ، وحسنه الألباني =

قال المناوي :

« ما من امرىء يخذل » بذال معجمة مضمومة ، قال تعالى : ﴿ وإن يخذلكم ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

« امرءًا مسلمًا » أي : لم يحل بينه وبين من يظلمه ولا ينصره .

« في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته » بأن يتكلم فيه بما لا يحل ، والحرمة هنا ما لا يحل انتهاكه ، قال الجوهري : انتهك عرضه : بالغ في شتمه .

« إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته » أي : في موضع يكون فيه أحوج لنصرته وهو يوم القيامة . فخذلان المؤمن حرام شديد التحريم ، دنيويًا كان مثل أن يقدر على دَفع عدو يريد البطش به ، فلا يدفعه . أو أخرويًا كأن يقدر على نصحه من غيه بنحو وعظ فيترك .

« وما من أحد ينصر مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » وهو يوم القيامة[١] .

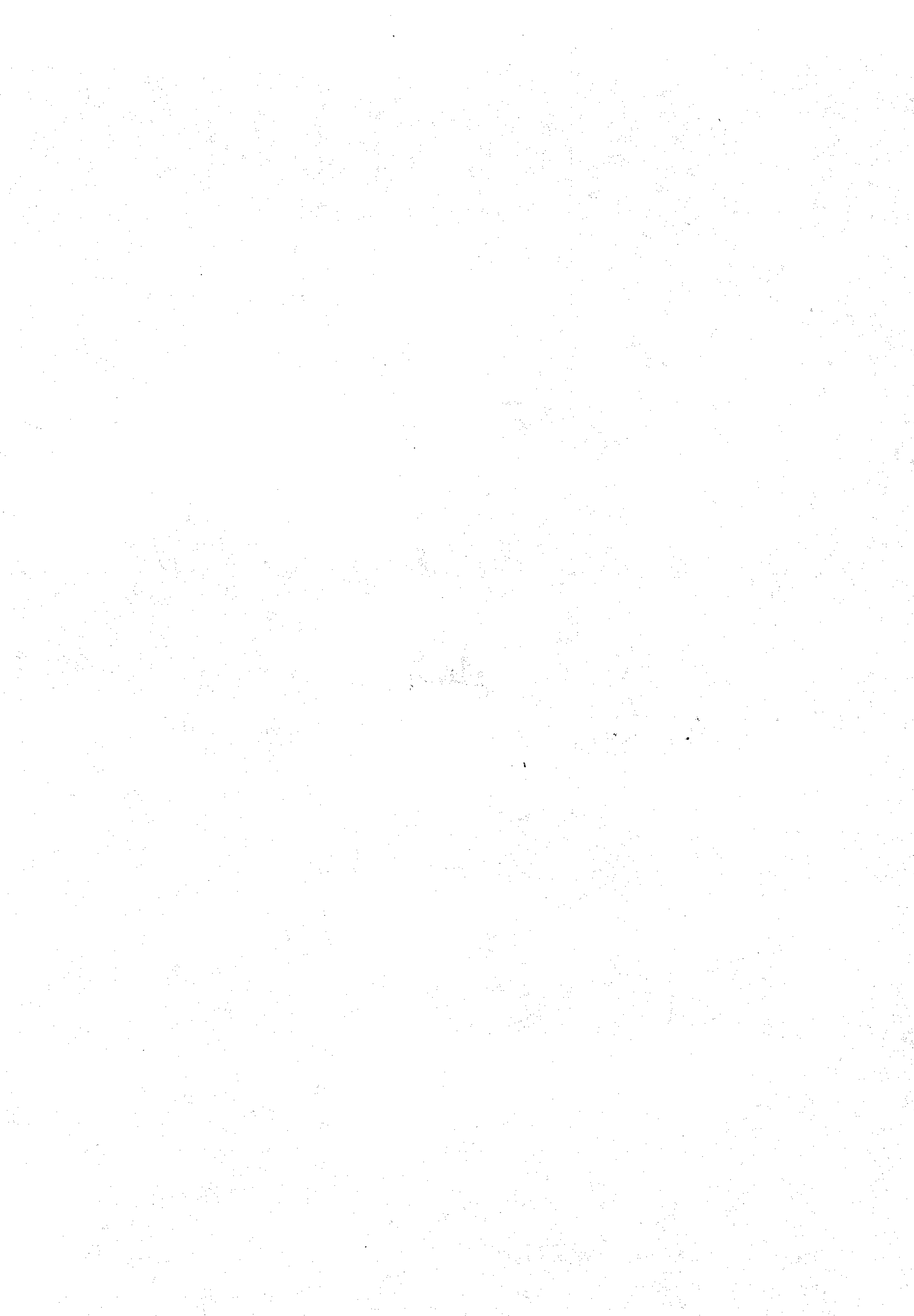
* * *

= في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٦ ، تخريج المشكاة ٤٩٨٣ ، ورواه الطبراني في الأوسط عن جابر وأبي أيوب الأنصاري .

(١) فيض القدير (٥/٤٧١) .



العِلْم



□ العلـم □

العلم جمال لا يخفى ، ونسب لا يُجفَى ، بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُورث عن الأعمام ، ولا يكتب للغلام .

فتوسل إليه بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، وإدمان السهر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ومتابعة السفر ، وركوب الخطر .

بحر لا يخوضه المُلّاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيّجه الرياح .

جبل لا يُتسنّم إلا بخطى الفكر ، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد ، لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، ولا يسقى إلا بالدرس .

قال ﷺ : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالمًا أو متعلمًا »[1].

وقال ﷺ : « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم »[2].

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »[3].

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[4].

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٠٨ .

(٢) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي سعيد، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤٥.

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٨.

وقال ﷺ : « فضل العلم أحبّ إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع »[١].

وقال ﷺ : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر »[٢].

وقال ﷺ : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه ، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومنْ جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »[٣].

وقال ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضًا بما يطلب»[٤].

وقال ﷺ : « إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير »[٥].

والعلماء سرج للناس ومصابيح في الدنيا والآخرة ، أعلى من القمرين والنجوم ، مع أنها أرفع وأنور في المشارق والمغارب ؛ لأنها يحجبها الغمام ، ونور العلم لا يحجبه سبع سموات ، والشمس تغيب ليلًا ، والقمر يخفى نهارًا ، والعلم لا يغيب ليلًا ولا نهارًا ، بل هو هو ، وهو في الليل آكد ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلا** ﴾ [المزمل : ٦] .

---

(١) صحيح : رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة ، والحاكم عن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٠٩٠ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، والبزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٦٠٦٠ .

(٤) صحيح : رواه الطيالسي عن صفوان بن عسال ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٥٢ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٣٤ .

والقمران يفنيان والعلم لا يفنى ، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف ، والقمران تارة يضران وتارة ينفعان ، والعلم ينفع ولا يضر بشرطه .

والقمران في السماء زينة لأهل الأرض ، والعلم في الأرض زينة لأهل السماء ، وهما في الفوق ويضيئان ما تحت ، والعلم في قلب المؤمن وهو في التحت ، ويضيء ما فوقه وتحته .

وبهما ينكشف وجود الخلق ، وبالعلم ينكشف وجود الخالق .

وضَوْءهما يقع على الوليّ والعدوّ ، والعلم ليس إلا للولي .

وشعاع الكواكب إلى أسفل ، وشعاع العلم يصعد إلى العلو .

والكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والعلم يطلع من خزانة الملك .

والكواكب علامة ، والعلم كرامة .

والكواكب موضع نظر المخلوقين ، والعلم موضع نظر رب العالمين .

والكواكب نفعها في الدنيا ، والعلم نفعه في الدنيا والآخرة .

والشمس تسوّد الأشياء والعلم يبيضها .

والشمس تحرق ، والعلم ينجي .

والقمر يبلي الثياب ، والعلم يجدد المعارف لأولي الألباب .

وإنما كانوا كالمصابيح في الآخرة ؛ لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف للشفاعة بل وبعد الدخول ، فينتفع بهم فيها كالمصابيح ولذا يقال : إن ذات العالم تكسى نورًا يضيء كالمصباح حقيقة ، ألا ترى أن هذه الأمة تدعى غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فالعالم يتميّز على آحاد المؤمنين بأن تصير جثته كلها مضيئة ، فنعمة العلم من أفخر النعم وأجزل القسم ، ومن أوتيه ، فقد أوتي خيرًا كثيرًا[1].

من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به

---

(١) فيض القدير (١٠٧/١) .

طريقًا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ، ولا درهمًا ، إنَّما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة »[2].

وقال ﷺ : « ما خرج رجل من بيته يطلب علمًا إلا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة »[3] .

قال المناوي :

« من سلك طريقًا » حسية أو معنوية ، ونكّره ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية .

والمعنى سهل الله له بسبب العلم طريقًا من طرق الجنة ، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب ، وأفضل الأعمال أحزمها ، فمن تحمل المشقة في طلبه سهلت له سبل الجنة سيما إن حصل المطلوب ، قال ابن جماعة : والأظهر أن المراد أن يجازيه يوم القيامة بأن يسلك به طريقًا لا صعوبة له فيه ولا هول ، إلى أن يدخله الجنة سالمًا ؛ فأبان أنّ العلم ساعد السعادة ، وأسّ السيادة ،

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائيُّ ، والترمذي ، وابن ماجة ، وأبو داود ، وابن حبان عن أبي الدرداء وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٣ ، تخريج الترغيب (١/٥٣) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، ورمز السيوطي لحسنه ، قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعفه الهيثمي بأن فيه هاشم بن عيسى وهو مجهول وحديثه منكر انتهى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩٣ .

والمرقاة إلى النجاة في الآخرة ، والمقوم لأخلاق النفوس الباطنة والظاهرة ، فهو نعم الدليل ، والمرشد إلى سواء السبيل ، وتقديم الظرفين للاختصاص ؛ لأن تسهيل طريق الجنة خاص بالله ، وغيره في مقابلته كالعدم ؛ لأنه في حقه غير مفيد ، وكذا بالنسبة لسببه ، فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم ؛ لأنه أقوى الأسباب المسهلة ، وفيه حجة باهرة على شرف العلم وأهله في الدنيا والآخرة ، لكن الكلام في العلم النافع لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور كما تقرر[١].

من كتم علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يحفظ علمًا فكتمه ، إلّا أتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار »[٢].

وقال ﷺ : « مَنْ سُئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[٣].

قال المناوي :

« من سئل عن علم » علمه قطعًا ، وهو علم يحتاج إليه سائل في أمر دينه ، وقيل : ما يلزم عليه تعليمه كمريد الإسلام يقول : علمني الإسلام ، والمفتي في حلال أو حرام ، وقيل : هو علم الشهادتين .

« فكتمه » عن أهله .

« ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » أي أدخل في فيه لجامًا من نار ، مكافأة له على فعله حيث ألجم نفسه بالسكوت في محل الكلام .

فالحديث خرج على مشاكلة العقوبة للذنب ؛ وذلك لأنه سبحانه أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

---

(١) فيض القدير (٦/١٥٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٩ .

(٣) صحيح : رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٠ ، وتخريج المشكاة ٢٢٣ .

وفيه حث على تعليم العلم ؛ لأن تعلم العلم إنما هو لنشره ، ودعوة الخلق إلى الحق ، والكاتم يزاول إبطال هذه الحكمة ، وهو بعيد عن الحكيم المتقن ، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم تشبيهًا له بالحيوان الذي سخر ومنع من قصد ما يريده ، فإن العالم شأنه دعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم[١].

وقال ﷺ : « أيما رجل آتاه الله علمًا فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[٢].

وقال ﷺ : « من كتم علمًا عن أهله ، أُلجم يوم القيامة لجامًا من نار »[٣].

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [البقرة : ١٧٤].

قال ابن كثير :

إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نار تأجج في بطونهم يوم القيامة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة وذلك لأنه غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب[٤].

قال البقاعي :

لما كانوا بعدوا عن مواطن الرحمة ببخلهم بما لا ينقصه الإنفاق أشار إليهم بأداة البعد فقال : ﴿ **أولئك** ﴾، وفي خطاب النبي ﷺ به إشعار بوقوع ذلك من طائفة من أمته حرصًا على الدنيا .

---

(١) فيض القدير (٦/١٤٦) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١١ .

(٣) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن ابن مسعود، وابن حبان في صحيحه والحاكم عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٩٥ .

﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النَّار ﴾ وفي ذكره بصيغة الحصر نفي لتأويل المتأول ولما قدم الوعيد في الثمن لكونه الحامل على الكتم ، أتبعه وعيد نفس الكتم ، فقال : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي من كلّمه أقبل كل شيء عليه كلامًا يدل على مرضى ؛ لكونهم لم يكلموا الناس بما كتب عليهم .

﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب أو يثني عليهم ، أو ينمي أعمالهم بما يحصل لهم من الميثاق في يوم التلاق ، كما يزكي بذلك من يشاء من عباده ؛ لأنهم كتموا عن العباد ما يزكيهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ لما أوقعوا فيه الناس من التعب ؛ بكتمهم عنهم ما يقيمهم على المحجة السهلة .

﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ ما أشد حبسهم أنفسهم ، أو ما أجرأهم على النار التي أكلوها في الدنيا فأحسوا بها في الآخرة .

أوّل مأكلهم نار وآخر أمرهم عذاب وترجمة حالهم عدم المغفرة[1].

ويصور قلم الأستاذ محمد رشيد رضا في المنار حال أولئك الذين كتموا دينهم ، ورفعوا طينهم .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ

يتكلم عن الذين كتموا العلم الإلهي ابتغاء الدنيا من اليهود والنصارى فما حصلوها ، ثم يعرّج على عمومية الآيات فيقول : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا ﴾ ، أي الذين يخفون شيئًا مما أنزل الله في كتابه ، فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه ، أو يخفون معناه عنهم بتأويله ، أو تحريفه ، أو وضع غيره في موضعه برأيهم ، واجتهادهم ، ويستبدلون بما يكتمونه ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا الفاني ، كالرشوة والجعل على الفتاوى الباطلة ، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع المؤقتة إذ اتخذوا الدين تجارة ، والثمن القليل منه ، ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرءوسين ومنه عكسه (قال

---

(١) نظم الدرر (٢/٣٥٣) .

شيخنا) هذا النوع من البيع والشراء في الدين عام في الرؤساء الضالين من جميع الأمم ، ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل وهو حفظ ما بيدهم الذي يتوهمون أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد ، واتباع ما أنزل الله بدلًا منها .

ماذا كان شأن اليهود في زمن البعثة ؟ ذل واضطهاد من جميع الأمم ولا سيما النصارى ، فقد كانوا يسومونهم سوء العذاب ، ومنعوهم من دخول مدينتهم المقدسة ، وأكرهوهم في بعض البلاد على التنصر .

ماذا كان شأن النصارى في زمن البعثة ؟ فقر حاضر ، وذل غالب ، وحجر على العقول ، ومنع للحرية في الرأي والعلم ، وتحكم في الإرادة ، وسيطرة على خطرات القلوب وأهواء النفوس كان هذا عامًّا في كل قطر وكل مملكة ، وكان بين الطوائف بعضها مع بعض حروب تشب ، وغارات تشن ، ودماء تسفك ، وحقوق تنتهك ، وكانوا على هذا كله يتوهمون أن الإسلام سيخرجهم من سعادة إلى شقاء ، ومن نعمة إلى بلاء ، هب أن بعضهم كان له شيء من المال ، وبقية من الجاه ، أليس هو من فخفخة الدنيا الزائلة ، ألم يكن منغصًا بالخوف عليه والمنازعة فيه ؟ هب أنه كان لبعض شعوبهم طائفة من القوة ، ألم تكن تشبه الزوبعة تعصف ولا تلبث أن تزول ؟ نعم إن ما كان يغر هؤلاء وهؤلاء لم يكن موضعًا للغرور ؛ لأنه متاع حقير ، وثمن قليل ، وهو غير قائم على أساس ثابت ، ولذلك زال بظهور الإسلام وانتشاره ، وتقوضت تلك السلطة ، واندكت صروح تلك العظمة ، وأجلي اليهود من جزيرة العرب ، وزال ملك غيرهم من كل بلاد رفضوا فيها دعوة الإسلام ، وهذا شأن الباطل لا يثبت أمام الحق .

وقال المفسرون : إن هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ؛ لأن الغرض تقرير الحكم ، وهو عام كما يدل لفظه ، وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين .

كل ثمن يؤخذ عوضًا عن الحق فهو قليل ، إن لم يكن قليلًا في ذاته ، فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها ، والدائمة بدوام

المحافظة على الحق ، ولو دام للمبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل إلى نهاية الأجل – وما هو إلا قصير – فماذا يفعل ، وقد فاتته سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد يعترض الناظر في التاريخ ما قرره الأستاذ الإمَام في هذا المقام من ذهاب عز الذين قاوموا دعوة الإسلام ، وكتموا الحق من اليهود والنصارى بأن عيشة اليهود كانت بعد الإسلام خيرًا منها قبله ؛ لأنهم كانوا مضطهدين مقهورين بحكم النصارى الشديد وتعصبهم الفاحش ، فساوى الإسلام بينهم ، وبين النصارى والمسلمين ، وأعطاهم كمال الحرية في دينهم ودنياهم فحسنت حالهم في الشرق والغرب وكثر ما بأيديهم ولم يقل ، وأن المسلمين لم يقووا على جميع نصارى أوربا فبقي لكثير من الممالك سلطانها وما تتمتع به ، وكذلك بعض الممالك الوثنية وهم أعرق في الباطل من النصارى ؟.

والجواب عن ذلك أن يهود الحجاز هم الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ، ويكتمون ما عرفوا من نعته ويظاهرون المشركين عليه ، فهم الذين قاوموا الحق بالباطل ، فلقوا جزاءهم الذي تم بجلائهم من جزيرة العرب أو الحجاز .

أما يهود سورية وغيرها (كالأندلس) فقد كانوا يساعدون الدعوة الإسلامية ودعاتها حتى من لم يؤمن منهم ليخلصوا من ظلم النصارى واستبدادهم فيهم ، فنالوا من حسن الجزاء بمقدار قربهم من الحق ، ولو آمنوا وقبلوا الحق كله ، وأيدوه لذاته ظاهرًا وباطنًا ؛ لأوتوا أجرهم مرتين ، وجزاءهم ضعفين ، وكانوا أئمة وارثين وسادة عالين .

وأما الذين سلم لهم ملكهم ومتاعهم فلم يكن لهم ذلك بضعف حق الإسلام عن باطلهم ، فإن الذين حاولوا فتح ما وراء الأندلس من أوربا لم يكن غرضهم كلهم نشر دعوة الحق ، وإنما كان غرضهم عظمة الملك والغنائم ، وليس من الحق أن يعتدي قوم على قوم لأجل سلب ما في أيديهم ، فإن المعتدي مبطل ، والمدافع محق في الدفاع عن نفسه وبلاده ، وإن كان مبطلًا في عمله واعتقاده ، فهو جدير بأن يكون له الظفر إذا أخذ أهبته ، وأعد له عدته .

ثم يقول الشيخ محمد رشيد رضا ناقلًا عن شيخه محمد عبده في وصف حال اليهود : كانوا يشعرون بجاذبين متعاكسين : جاذب الحق الذي عرفوه ، وجاذب الباطل الذي ألفوه ، ذلك يحدث لهم هزة وتأثيرًا ، وهذا يحدث لهم استكبارًا ونفورًا ، وقد غلب عقولهم ما عرفوا ، وغلب قلوبهم ما ألفوا ، فثبتوا على ما حرفوا وانحرفوا ، وصاروا إلى حرب عوان ، بين العقل والوجدان ، يتصورون الخطر الآجل ، فيتنغص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه ، فيؤثرونه على ما سيصيرون إليه ، أليس هذا الشعور بخذل الحق ونصر الباطل ، واختيار ما يفنى على ما يبقى ، نارًا تشبُّ في الضلوع ؟ أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعًا لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ بلى فإن عذاب الباطن أشد من عذاب الظاهر كما يومىء إليه قول الشاعر :

دخـول النـارِ للمهجـورِ خيـرٌ ... من الهجـرِ الـذي هـو يتقيـهِ
لأن دخولـه في النـار أدنـى ... عذابًا من دخـول النّارِ فيهِ[1]

يقول صاحب الظلال رحمه الله :

والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولًا أهل الكتاب ، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه ، ويشترون به ثمنًا قليلًا ، إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان ، ويخشون عليها من البيان ، وإما هو الدنيا كلها - وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضا الله ، ومن ثواب الآخرة .

﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ [البقرة : ١٧٤].

وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نارٌ في بطونهم !.

وكأنما هم يأكلون النار ! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة ، فإذا هي لهم لباس ، وإذا هي لهم طعام !.

---

(١) تفسير المنار (٢/١٠٢-١٠٦) .

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم في مهانة وازدراء ، لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران .

﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة** ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ! ويالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا ! وإنها لحقيقة ، فقد كان الهدى مبذولًا لهم فتركوه ، وأخذوا الضلالة . وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب ..

﴿ **فما أصبرهم على النار** ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فيالطول صبرهم على النار ، التي اختاروها اختيارًا ، وقصدوا إليها قصدًا .

فياللتهكم الساخر من طول صبرهم على النار !!

وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة ، جريمة كتمان الكتاب الذي أنزله الله ؛ ليعلن للناس ، وليحقق في واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجًا ، فمن كتمه فقد عطله عن العمل ، وهو الحق الذي جاء للعمل .

﴿ **ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق** ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو في وفاق مع الحق ، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل .

﴿ **وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد** ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولقد كانوا كذلك ، وما يزالون ، وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها . فلا تأخذ به جملة ، وتمزقه تفاريق .. وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ، ونحن نرى مصداقه واقعًا في هذا العالم الذي نعيش فيه[١].

ويرحم الله شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول :

---

(١) الظلال (١/١٥٧-١٥٨) .

رأيت الذنوب تميت القلوبَ ويورثك الذلَّ إدمانهُـا
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانهـا
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانُهـا
لقد رَتع القوم في جيفةٍ يبين لذي العقل إنتانُها

من تعلم العلم للدنيا :

قال رسول الله ﷺ : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار »[1].

وقال ﷺ : « من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله في النار »[2].

وقال ﷺ : « من تعلم العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله جهنم »[3].

وقال ﷺ : « من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا ، لم يجد عرْف الجنة يوم القيامة »[4].

قال المناوي :

« من طلب العلم ليجاري به العلماء » أي يجري معهم في المناظرة والجدال ؛ ليظهر علمه رياءً وسمعة « أو ليماري به السفهاء » أي يحاججهم ويجادلهم مباهاة وفخرًا .

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن كعب بن مالك ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٥ ، وتخريج اقتضاء العلم ١٠٢ .

قال القاضي : المجاراة المفاخرة من الجري ؛ لأن كلًّا من المتفاخرين يجري مجرى الآخر ، والمماراة المحاجة والمجادلة من المرية وهو الشك ، فإن كلًّا منهما يشك فيما يقوله صاحبه أو يُشكِّكه بما يورده على حجته ، أو من المريء ، وهو مسح الحالب الضرع ليستنزل منه اللبن ، فإن كلًّا من المتناظرين يستخرج ما عند صاحبه ، والسفهاء الجهال فإن عقولهم ناقصة مرجوحة بالإضافة إلى عقول العلماء .

« أدخله الله النار » جزاء بما عمل .

وإنما كان المراء وما معه سببًا لدخولها لظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة ، وهما من صفات الشيطنة[1].

وقال المناوي أيضًا :

قال ابن عطاء : جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسببًا في تحصيل العقوبة لديه ، ولا يغرنَّك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، وفي الخبر : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا والرفعة فيها كمن رفع العذرة بملعقة من الياقوت ، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه .

قال السيد السمهودي : وقد جرت العادة الإلهية بتمييز هذا القسم من المنتسبين للعلم عمن يعتني به منهم ، بإظهار ما يخفيه من مضمراته ، وكشف ما يستره من عوراته ، سيما المنهمك في الدنيا ، المستعبد لأهلها ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ [الأنفال : ٣٧] أوحى الله إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا فيصدك عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي[2].

فطالب العلم رياء وجدالًا وشهرة يحقره الله بأن يكون من أهل النار جزاءً وفاقًا ، ومن صرف العلم عمَّا أريد له وهو الجنة وطلب الدار الآخرة ؛ صُرِف

---

(١) فيض القدير (٦/١٧٦) .
(٢) فيض القدير (٦/١٠٧) .

عن عرف الجنة جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الفضيل بن عياض : لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار خير لي من أن أطلبها بعمل الآخرة .

فيا أخي ، لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلّا فهو وبال عليك يوم القيامة ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء » .

إنه لما كان العالِم سببًا في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورًا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه - جوزي من جنس عمله ، وجُعل مَنْ في السمٰواتِ والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن مَن في السمٰوات ومن في الأرض ، المستغفرين للعالم ، عام في الحيوانات ؛ ناطقها وبهيمها ، طيرها وغيره ، ويؤكد هذا قوله : « حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها » .فقد قيل : سبب هذا الاستغفار أنّ العالم يعلّم الخلق مراعاة هذا الحيوانات ، ويعرّفهم ما يحلّ منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها ، وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خُلق له . وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان ، وكتب لهما حظُّهما منه، إنما يُعرف بالعلم، فالعالم معرّف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم . والله أعلم[1].

فرضي الله عن العلماء جزاء خدمة دينهم ، وإرضاء ربهم .

وما أُغمضت منهم العيون لوداع هذه الدار الفانية حتى تلقتهم رحاب

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٦٤-٦٥) .

الخلد ، واستقبلتهم حورها في الدار الباقية ، فلَقُوا التكريم والهناء ، ونسوا الشقاء والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هناء مَحَا ذاك العزاءَ المقدَّما ... فما عبس المحزون حتى تَبسَّمَا[1]

ولِلَّهِ ما أحلى قول الجرجاني :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما ... رأَوْا رجلًا عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحجَمَا
أرى النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلَّما ... بدا مَطْمَع صَيَّرتُه لي سُلَّمَا
وما زِلتُ مُنحازًا بِعِرْضي جانبًا ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانة مَغْنَمَا
إذا قيل : هذا مَنْهَل قلتُ : قد أَرى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعض ما لا يَشينها ... مَخَافَة أقوال العِدَا : فيمَ أو لِمَا؟
فأصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّمًا ... وقد رُحْتُ في نفس الكريم مُعَظَّما
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتنَدِّمـا
ولكنه إن جاء عَفْوًا قبِلْتُه ... وإن مالَ لم أُتبِعْهُ : هَلَّا ولَيْتَمَا
وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافِر العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابسًا ... وأنْ أَتلَقَّى بالمديحِ مُذَمَّمـا
وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْمَاهُ لم يَصِل ... إليه وإن كان الرئيس المُعَظَّما
وكم نِعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلم مُهْجَتي ... لأَخدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخدَما
أأَشْقَى به غَرْسًا وأَجنيهِ ذلةً ... إذًا فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أحزما
وإني لَرَاضٍ عن فَتى مُتعَفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يملِكُ دِرهَما
يَبيتُ يُراعي النجم من سُوء حالِهِ ... ويُصبحُ طَلْقًا ضاحِكًا مُتَبسِّما
ولا يَسأَلُ المُثْرين ما بأكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوْعًا عِفَّةً وتكرُّما

---

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل ، لعبد الفتاح أبي غدة ص٣٧٨-٣٨٨ ، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

فإن قلتَ : زَنْدُ العلمِ كابٍ ، فَإنما كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعُظِّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُــوا ودَنَّسُوا مُحيَّاهُ بالأطماع حتى تجهَّما !
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يستفِزُّني ولا كلُّ من لاقَيْتُ أرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما آضطرَّني الضُرُّ لم أبِتْ أُقلِّبُ فِكري مُنْجِدًا ثم مُتْهما

من خدم العلم خدمه الناس .

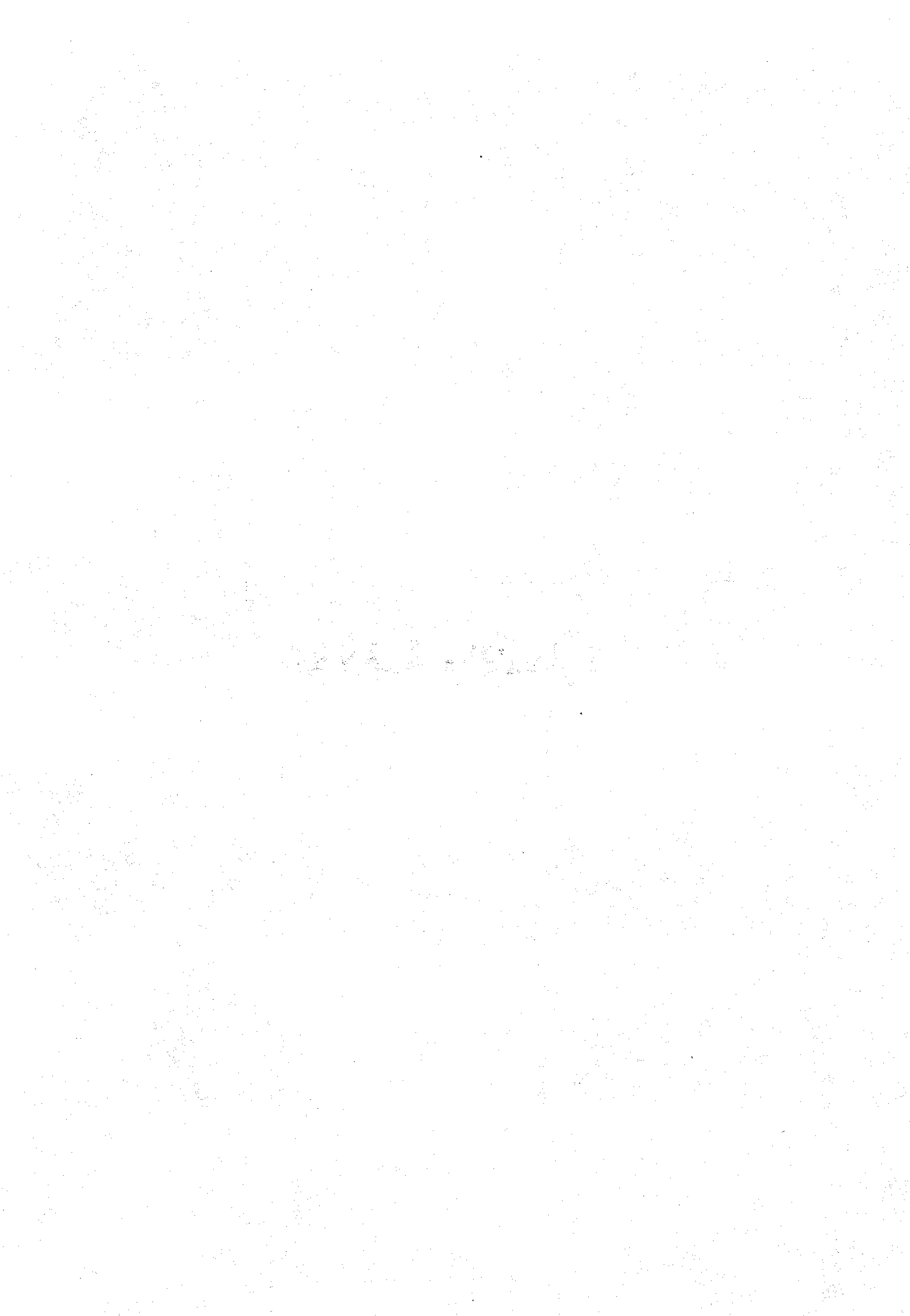
من خدم المحابر دانت له المنابر .

من صان العلم صانه العلم .

ومن أهان العلم هان على الناس .

* * *

الخلافـة والإمـارة



□ الخلافة والإمارة □

وهذا باب مهم من مهمات الدين، وقد مرّ بك في حديث لرسول الله ﷺ: « ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم شديدًا » .

قال ابن القيم :

تأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، كيف يسلّط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء ، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها .

أعمالكم عُمّالكم :

يقول ابن القيم :

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم ، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم فإن استقاموا استقامت ملوكهم ، وإن عدلوا عدلت عليهم ، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم ، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك ، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم ، وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه ، وضربت عليهم المكوس والوظائف ، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة ، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم ، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلّا من يكون من جنسهم ، ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك ، فلما شابوا شابت

لهم الولاة ، فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر ، بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم ، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ، ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ، ظاهرة وباطنة فيه ، كما في الخلق والأمر سواء ، فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عارٍ عن الحكمة البالغة ، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها ، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس ، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادف ظلام الليل طار وسار :

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولازمها قطع من الليل مظلم[(١)]

ويرحم الله عليَّ بن أبي طالب لما قال له أحد الخارجين عليه : لم كثرت الفتن في عصرك ، ولم تكثر في عهد الصديق ؟؟ قال :

لأن الصديق كان أميرًا على مثلي ، وأنا اليوم أمير على أمثالكم .

قال ابن كثير عن الحجاج بن يوسف الثقفي : وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، وخذلانهم لهم ، وعصيانهم ومخالفتهم ، والافتيات عليهم .

عن الحسن قال : قال علي بن أبي طالب : اللهم ، كما ائتمنتهم فخانوني ، ونصحت لهم فغشّوني ، فسلّط عليهم فتى ثقيف الذيّال الميّال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ[(٢)].

وكان الحسن يقول عن الحجاج : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف[(٣)].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٥٣- ٢٥٤). (٢) البداية والنهاية (٩/١٣٨) .
(٣) البداية والنهاية (٩/١٤٢) .

والعقوبة لا تغير بالسيف وإنما تُغيّر بالتوبة ، ولذلك لما رأى الحسن رجلا يدعو على الحجاج قال له : أخاف إن مات الحجّاج أن يولى عليكم القردة والخنازير . كما تكونوا يولّ عليكم ، وواقع الأمة التي اتخذت كتاب ربها وراءها ظهريًّا ، وتفشت فيها المعاصي ، وشكا ضوء النهار وظلمة الليل والكرام الكاتبون من ظهور البدع والفجور والفاحشة فسلّط الله عليهم مَنْ سامهم سوء العذاب من العلمانيين وصبيان الغرب ، فما رقبوا في الأمة إلًّا ولا ذمة وما ظالم إلا سيُبلى بظالم ، وصارت الأمة وحكامها بغالًا للغرب ..

نعم .. هذه الأمة الإمعة التي نسيت كتاب ربها ، وقلدت الغرب في فجوره وشذوذه ، وظهرت فيها الحانات والمراقص والمسارح والعري واختلاط الحابل بالنابل ، ابتلاها الله بحكام من جنس أعمالهم ، فساقوهم سوق البهائم إلى مستنقع الوحل والرذيلة، وضيعوا هم والأمة أمجاد الكرام وصدق فيهم قول القائل:

في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحة الحرب في الهيجا إذاعاتُ
وقادة العرب أموات بلا كفنٍ ... فهل يحرر أرضَ القدس أمواتُ

وقول الشاعر :

كوكبَ الشرق ! ضاع قومي لمّا ... تاه في حبلك القطيع وهاما
وإذا الشعر بالكؤوس تغنّى ... « والنواسي عانق الخيّاما »
وأنين الكمان صار أذانًا ... في حمى البيت والنديم إمامًا
لا تغني الخيّام يا «كوكب الشرق» ... وتسقى من راحتيه المداما
ففلسطين لا تحب السكارى ... ورُبَى القدس لا تريد النياما
ولو ان الخيّام يُبعث حيًّا ... هوت الكأس من يديه حطامًا[1]

وقال الشاعر :

ضاع قومي في الحادثات وذلّوا ... وتمادوا في خسّة وصغارِ

---

(١) في رحاب الأقصى يوسف العظم ص٢١٥-٢١٦ المكتب الإسلامي .

بين ذلٍّ يمليه صوت يمين وهوانٍ يمليه سوط اليسارِ
أسكرتهم خمر الضلال فباتوا في ضياع بصحبة الخمارِ
وطووا راية الجهاد سكارى وتلهوا بالطبل والمزمارِ

وقال الشاعر :

قد هجرنا منابع الخير فينا وارتوينا من كل نبع مكدرْ
وطمسنا مشاعل النور جهلًا وتبعنا الضلال ينهى ويأمرْ
والجموع الحيرى يضللها الكفـ ـر فتلهو بكل حقٍّ وتسخرْ

وقال الشاعر عن هذه الأمة :

وبعثرت رايات أمجادها ونكّست في العار أعلامها
واستسلمت للكفر مذعورة وضيعت في التيه إسلامها
وألّهت جلّادها وانثنت تسجد للسوط الذي سامها
فكيف نرجو النصر في غفلة يا أمة تصنع أصنامها

وقال الشاعر :

قسّموها قطعان ذُلٍّ مهين ورموا جمعها بشر سهامِ
فقطيع «لينين» يحمى حماه وقطيع يعتزُّ « بالعم سامِ »
وقطيع بات الرغيف هواه شارد اللب حائر الأفهامِ
ليس يدري من أمره غير دنيا ملئت بالطبول والأعلامِ
والزغاريد في الكوارث تعوى والهتافات في الليالي الدوامي
نام فيك الرعاةُ حتى استكانوا فهنيئًا لعصبة النوام
وأقاموا على الهوان وذلّوا يالقومي من ضيعة الحكام
أمة الذل والمهانة قومي وعلى الذل والمهانة نامي

ويقول الشاعر :

الزقّ والرّق والمزمار عدتنا والخصم عدته علم وآلاتُ
وشرعة الله في القرآن نهجرها وشرعة الخصم تلمود وتوراةُ
تقود أمتنا في الحرب غانية والجيش في الزحف قد ألهته مغناةُ

كم بدَّدوا المال هدرًا في مباذلهم   وفي ليالي الخنا ضاعت مروءاتُ
في كل يوم متاهات تضيعنا   وفي الكوارث تطوينا متاهاتُ
يا سوأة العمر في تاريخ أمتنا   لقد بدتْ منكمُ للعين سوءاتُ
من يزرع اليوم شرًّا فالحصادُ غدًا   وقدرة الله للطغيان مِذراتُ

وإذا أردت الجزاء من جنس العمل يلوح جليًّا ، فانظر الرعاة والرعية وسل ملاهي أوربا وأندية قمارها عن الكبار بل الأقزام .

فلا الصّدّيق يرعاها بحزم   ولا الفاروق يورثها فعالهْ
ولا عثمان يمنحها عطاءً   ويُرخص في سبيل الله مالَهْ
ولا سيف صقيل من علي   يفيئنا إلى « عدن » ظلالهْ
ولا زيد يقود الجمع فيها   لحرب أو يعدُّ لها رجالهْ
ولا القعقاع يهتف بالسرايا   فتخشى ساحة الهيجا نزالهْ
ولا حطين يصنعها صلاح   طوى الجبناء في خور هلالهْ
سرى صوت المؤذن في حمانا   وقد فقدت مآذننا بلالهْ
وشعب ضائع في كل أرضْ   وجل مناه أن يرضى « جَمالَهْ »
وحادي الركب بوم أو غراب   وقد قاد الجموعَ « أبو رغالهْ »
يرمرم من فتات الكفر قوتًا   ويلعق من كؤوسهم الثمالهْ
يقبِّل راحة الطاغوت حينا   ويلثم دونما خجل نعالَهْ
وهَمُّ الجمع ثوب أو رغيف   و «صك» من رصيد أوْ «حوالهْ»
وألقاب يتيه بها قرود   وليس لها معانٍ أو دَلالهْ
« سعادتُهْ » شقاء في شقاء   وقد رفعت « معاليه » السفالهْ
« سيادته » يقيمُ على هوان   « سماحته » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيل ليس يدري   بأن الناس قد فضحوا هزالهْ
و « دولته » يعيش مع الأماني   ويخشى أن تفاجئه الإقالهْ

قال رسول الله ﷺ : « ستكون أئمة من بعدي يقولون فلا يرد عليهم

قولهم ، يتقاحمون في النار كما يتقاحم القردة »[١].

قال المناوي :

« ستكون أئمة من بعدي » أي يقعون فيها كما يقتحم الإنسان الأمر العظيم ، وتقحمه رمى نفسه بلا روية وتثبت ، كما يتقاحم القردة .

قال بعضهم : إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق ، وانصبغ بذلك صبغة تامة ، صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما ، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدون خفية ، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا جليًّا عند مَنْ له فراسة ، فيرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها باطنًا ، فقلّ أن ترى مختالًا مكّارًا مخادعًا إلا على وجهه مسخة قرد ، وأنْ ترى شَرِها نَهِمًا إلّا وعلى وجهه مسخة كلب ، فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط[٢].

الخلافة في قريش :

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان »[٣].

وعن أبي هريرة يرفعه : « الناس تبع لقريش في هذا الشأن »[٤].

وقال ﷺ : «إن قريشًا أهل أمانة، لا يبغيهم العثرات إلا كبه الله لمنخريه»[٥][٦].

---

(١) حسن : رواه أبو يعلى ، والطبراني في « الكبير » عن معاوية ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٦٠٩ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٤/١٠٠) .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجاه في الصحيحين .

(٥) أي صرعه وألقاه على وجهه يعني أذله وأهانه ، وخص المنخرين جريًا على قولهم : رغم أنفه .

(٦) حسن : رواه ابن عساكر عن جابر ، والبخاري في الأدب المفرد ، والطبراني في الكبير عن رفاعة بن رافع ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع .

وقال ﷺ : « فضل الله قريشًا بسبع خصال ، لم يُعطها أحد قبلهم ، ولا يُعْطاها أحد بعدهم ، فضل الله قريشًا أني منهم ، وأن النبوة فيهم ، وأن الحجابة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، ونصرهم على الفيل ، وعبدوا الله عشر سنين ، لا يعبد غيره ، وأنزل الله فيهم سورة من القرآن لم يُذكر فيها أحد غيرهم ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ »(١) [قريش : ١].

والحجابة هي حجابة الكعبة ، وهي حفظها واستلام مفاتيحها .

وقال ﷺ : « فضّل الله قريشًا بسبع خصال ، فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين ، لا يعبدُ الله إلا قريش ، وفضّلهم بأنهم نصرهم يوم الفيل ، وهم مشركون ، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين، وهي ﴿**لإيلاف قريش**﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحجابة، والسقاية »(٢).

قال ﷺ : « من أهانَ قريشًا أهانه الله »(٣).

قال المناوي : « أي من حل بأحد من قريش هوانًا جازاه الله بمثله ، وقابل هوانه بهوانه ، ولكن هوان الله أشد وأعظم »(٤).

وقال ﷺ : « من يرد هوان قريش أهانه الله »(٥).

قال المناوي :

---

(١) حسن : رواه البخاري في التاريخ، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في «الخلافيات» عن أم هانىء ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٥ .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الأوسط » عن الزبير بن العوّام ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٤ .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والحاكم في المستدرك عن عثمان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٨ .

(٤) فيض القدير (٦/٩) .

(٥) صحيح : رواه أحمد، والترمذي، والحاكم عن سعد، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٩ .

هذا أعظم من الخبر المار « من أهان قريشًا ... » لأنه جعل هوان الله لمن أراد هوانها ، لكنه إنما خَرج مخرج الزجر والتغليظ ؛ ليكون الانتهاء عن أذاهم أسرع امتثالًا ، وإلا فحكم الله المطرد في عدله أنه لا يعَاقب على الإرادات[١].

وقال رسول الله ﷺ : « من أجلّ سلطان الله ، أجلّه الله يوم القيامة »[٢].

قال المناوي :

أراد بسلطان الله الإمام الأعظم ، أو المراد بسلطانه ما تقتضيه نواميس الإلهية ، وهذا خبر أو دعاء مفهومه أن من أهانه أهانه الله[٣].

وقال ﷺ : « من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله »[٤].

قتل ذو النورين عثمان بن عفان أمير المؤمنين :

الجهلة البغاة المتعنتون الخونة الظلمة المفترون الذين حاصروا أمير المؤمنين عثمان ، وضيّقوا عليه قبل قتله ، حتى منعوه الميرة والماء والخروج إلى المسجد ، ولهذا خاطبهم بما خاطبهم به من توسعة المسجد وهو أول من منع منه ، ومنْ وقفه بئر رومة على المسلمين وهو أول من مُنعْ ماءها ، ومن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . وذكر أنه لم يقتل نفسًا ، ولا ارتد بعد إيمانه ، ولا زنى في جاهلية ولا إسلام ، بل ولا مسّ فرجه بيمينه بعد أن بايع بها رسول الله ﷺ ، وفي رواية بعد أن كتب بها المفصل . ثم ذكر لهم من فضائله ومناقبه ما لعله ينجع فيهم بالكف عنه ،

---

(١) فيض القدير (٢٤٣/٦) .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن أبي بكرة ، وأحمد ، وابن أبي حاتم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٢٧ .

(٣) فيض القدير (٢٩/٦) .

(٤) حسن : رواه الترمذي عن أبي بكرة، والطيالسي، وأحمد، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٨٧ .

فأبوا إلا الاستمرار على ما هم عليه من البغي والعدوان ، ومنعوا الناس من الدخول إليه والخروج من عنده ، حتى اشتد عليه الحال ، وضاق المجال ، ونفد ما عنده من الماء ، فاستغاث بالمسلمين في ذلك ، فركب علي بنفسه وحمل معه قربا من الماء فبالجهد حتى أوصلها إليه بعد ما ناله من جهلة أولئك كلام غليظ ، وتنفير لدابته ، وإخراق عظيم بليغ ، وكان قد زجرهم أتم الزجر ، حتى قال لهم فيما قال : والله إن فارس والروم لا يفعلون كفعلكم هذا لهذا الرجل ، والله إنهم ليأسرون فيطعمون ويسقون ، فأبوا أن يقبلوا منه حتى رمى بعمامته في وسط الدار وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها ، فقالوا : ما جاء بك ؟ فقالت : إن عنده وصايا بني أمية ، لأيتام وأرامل ، فأحببت أن أذكره بها ، فكذّبوها في ذلك ونالها منهم شدة عظيمة ، وقطعوا حزام البغلة ، وندّت بها ، وكادت أن تسقط عنها ، وكادت تقتل لولا تلاحق الناس فأمسكوا بدابتها ، ووقع أمر كبير جدًّا ، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلا ما يوصله إليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلًا[1].

عن حميد بن هلال ، قال : لما حُصِر عثمان – رضي الله عنه – أتته أم المؤمنين فجاء رجل، فاطّلع في خدرها، فجعل ينعتها للناس، فقالت: ما له قطع الله يده، وأبدى عورته، قال: فدخل عليه داخل، فضربه بالسيف، فاتّقى بيمينه، فقطَعها، فانطلق هاربًا آخذًا إزاره بفيه أو بشماله ، باديًا عورته[2] والجزاء من جنس العمل .

واستخلف عثمان – رضي الله عنه – في هذه السنة على الحج عبد الله ابن عباس ، فقال له عبد الله بن عباس : إن مقامي على بابك ، أحاجف[3] عنك أفضل من الحج ، فعزم عليه ، فخرج بالناس إلى الحج ، واستمر الحصار بالدار حتى مضت أيام التشريق ورجع اليسير من الحج ، فأخبر بسلامة الناس ، وأخبر

---

(١) البداية والنهاية (١٩٥/٧-١٩٦) .

(٢) مجابو الدعوة لابن أبي الدنيا ص٦٨ ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم – مكتبة الفرقان .

(٣) أدافع عنك .

أولئك بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى المدينة ليكفوكم عن أمير المؤمنين . وبلغهم أيضًا أن معاوية قد بعث جيشًا مع حبيب بن مسلمة ، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد نفذ آخر مع معاوية بن خديج ، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش ، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعًا في جيش ، فعند ذلك صمموا على أمرهم وبالغوا فيه ، وانتهزوا الفرصة بقلة الناس وغيبتهم في الحج ، وأحاطوا بالدار ، وجدّوا في الحصار ، وأحرقوا الباب ، وتسوّروا من الدار المتاخمة للدار ، كدار عمرو بن حزم وغيرها ، وحاجف الناس عن عثمان أشد المحاجفة ، واقتتلوا على الباب قتالًا شديدًا ، وتبارزوا وتراجزوا الشعر في مبارزتهم ، وجعل أبو هريرة يقول : هذا يومٌ طاب الضراب فيه . وقتل طائفة من أهل الدار وآخرون من أولئك الفجار ، وجرح عبد الله بن الزبير جراحاتٍ كثيرة ، وكذلك جرح الحسن بن علي ومروان بن الحكم فقطع إحدى علباويه[1]، فعاش أوقـص[2] حتى مات . وقتل من أعيان أصحاب عثمان ، زياد بن نعيم الفهري ، والمغيرة بن الأخنس ، ونيار بن عبد الله الأسلمي ، في أناس وقت المعركة ، ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم ، فلم يبق عنده أحد سوى أهله ، فدخلوا علية من الباب ، ومن الجدران وفزع عثمان إلى الصلاة وافتتح سورة طه ، وكان سريع القراءة ، فقرأها والناس في غلبة عظيمة ، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده ، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال ، ثم فرغ عثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصحف .

ودخل عليه محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته ، فقال له عثمان : لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها ، فتركه وانصرف مستحييًا نادمًا ، فاستقبله القوم على باب الصفة فردّهم طويلًا حتى غلبوه ، فدخلوا وخرج محمد راجعًا ، فأتاه رجل بيده جريدة يقدمهم حتى قام على عثمان فضرب بها رأسه فشجّه ، فقطر دمه على المصحف حتى لطّخه ، ثم تعاوروا عليه فأتاه رجل فضربه على الثدي بالسيف ،

(١) العلباء : عصب العنق .

(٢) الوقص : قصر العنق .

ووثبت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة عثمان فصاحت وألقت نفسها عليه ، وقالت : يا بنت شيبة أيقتل أمير المؤمنين ؟ وأخذت السيف فقطع الرجل يدها ، وانتهبوا متاع الدار ، ومرّ رجل على عثمان ورأسه مع المصحف فضرب رأسه برجله ونحاه عن المصحف وقال : ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن ولا مضجع كافر أكرم . وما تركوا في داره شيئًا - حتى الأقداح - إلا ذهبوا به . وفي رواية : جاء رجل من كِنْدة من أهل مصر ، يلقب حمارًا ، ويكنى بأبي رومان وقال قتادة : اسمه رومان ، وقال غيره : كان أزرق أشقر ، وقيل : كان اسمه سودان بن رومان المرادي .

وعن ابن عمر قال : كان اسم الذي قتل عثمان أسود بن حمران ضربه بحربة وبيده السيف صلتًا ، قال : ثم جاء فضربه به في صدره حتى أقعصه ، ثم وضع ذباب السيف في بطنه ، واتكأ عليه وتحامل حتى قتله ، وقامت نائلة دونه فقطع السيف أصابعها ، رضي الله عنها .

وروى ابن عساكر عن ابن عون أن كنانة بن بشر ضرب جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد ، فخرّ لجنبيه ، وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله ، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منهن فللّه ، وست لما كان في صدري عليه .

وثبت من غير وجه أن أول قطرة من دمه سقطت على قوله تعالى : ﴿ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة : ١٣٧] ويروى أنه كان قد وصل إليها في التلاوة حين دخلوا عليه ، وليس ببعيد فإنه كان قد وضع المصحف يقرأ فيه القرآن .

وروى ابن عساكر أنه لما طعن قال : بسم الله توكلت على الله ، فلما قطر الدم قال : سبحان الله العظيم .

وفي رواية أخرى : كان أول من دخل عليه رجل يقال له : الموت الأسود ، فخنقه خنقًا شديدًا حتى غشي عليه ، وجعلت نفسه تتردد في حلقه ، فتركه وهو يظن أنه قتله . ثم دخل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها،

فقيل: إنه أبانها، وقيل: بل قطعها ولم يبنها، إلا أن عثمان قال: والله إنها أول يد كتبت المفصل، فكان أول قطرة دم منها سقطت على هذه الآية: ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾ ثم جاء آخر شاهرًا سيفه ، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه منه ، وأخذت السيف فانتزعه منها فقطع أصابعها .

وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه فضربه بحديدة في فيه ، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله ، فاستدار المصحف ثم استقر بين يدي عثمان - رضي الله عنه - وسالت عليه الدماء ، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف فمانعته نائلة فقطع أصابعها فولت فضرب عجيزتها بيده وقال : إنها لكبيرة العجيزة ، وضرب عثمان فقتله ، فجاء غلام عثمان فضرب سودان فقتله ، فضرب الغلام رجل يقال له : قترة ، فقتله .

وذكر ابن جرير أنهم أرادوا حزّ رأسه بعد قتله ، فصاح النساء وضربن وجوههن ، فيهن امرأتاه نائلة وأم البنين ، وبناته ، فقال ابن عديس : اتركوه اتركوه ، ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه ، وذلك أنه نادى منادٍ منهم : أيحلّ لنا دمه ولا يحلّ لنا ماله ، فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه ، فلما خرجوا إلى صحن الدار وثب غلام لعثمان على قترة فقتله ، وجعلوا لا يمرون على شيء إلّا أخذوه حتى استلب رجل يقال له كلثوم التجيبي ، ملاءة نائلة ، فضربه غلام لعثمان فقتله، وقتله الغلام أيضًا، وانتهبوا مال بيت المال.

ولم يكتف البغاة الخوارج بقتله بل لما رفع السرير أراد بعضهم رجمه ، وإلقاءه عن سريره ، وعزموا على أن يدفن بمقبرة اليهود بدير سلع ، حتى بعث علي - رضي الله عنه - إليهم من نهاهم عن ذلك .

ثم قال ابن كثير :

وذكر الواقدي أن عمير بن ضابي نزا[1] على سريره ، وهو موضوع للصلاة عليه ، فكسر ضلعًا من أضلاعه وقال : أحبست ضابيًا حتى مات في السجن،

---

(١) قفز ووثب .

وقد قتل الحجاج فيما بعد عمير بن ضابي هذا[١] .

وقال البخاري في التاريخ : حدثنا موسى بن إسماعيل عن عيسى بن منهال ثنا غالب عن محمد بن سيرين قال : كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول : اللهم اغفر لي ، وما أظن أن تغفر لي . فقلت : يا عبد الله ما سمعت أحدًا يقول ما تقول ، قال : كنت أعطيت لله عهدًا إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته ، فلما قتل وضع على سريره في البيت والناس يجيئون يصلون عليه ، فدخلت كأني أصلي عليه ، فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته ، وقد يبست يميني . قال ابن سيرين : فرأيتها يابسة كأنها عود .

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن شيخ من بني راسب قال : كنت أطوف بالبيت ، فإذا رجل أعمى يطوف بالبيت ويقول : اللهم اغفر لي ، وما أراك تفعل. قال: فقلت: أما تتقي الله! قال: إن لي شأنًا، آليت أنا وصاحب لي لئن قتل عثمان لنلطمن حرّ وجهه ، فدخلنا عليه ، وإذا رأسه في حجر امرأته ابنة الفرافصة ، فقال لها صاحبي : اكشفي عن وجهه ، قالت : لم ؟ قال : ألطم حر وجهه ، قالت : أما تذكر ما قال فيه رسول الله ﷺ ، قال فيه كذا ، وقال فيه كذا ، قال : فاستحيى صاحبي فرجع ، فقلت لها : اكشفي عن وجهه ، قال: فذهبت تدعو عليّ، فلطمت وجهه، فقالت: ما لك! يَبّس الله يديك، وأعمى بصرك ، ولا غفر لك ذنبك . قال : فوالله ما خرجت من الباب ، حتى يبست يدي ، وعمي بصري ، وما أرى الله يغفر لي ذنبي .

وعن سفيان بن عيينة ، عن طعمة بن عمرو ، وكان رجلًا قد يبس وشحب من العبادة ، فقيل له : ما شأنك . قال : إني كنت حلفت أن ألطم عثمان ، فلما قتل جئت فلطمته ، فقالت لي امرأته : أشلّ الله يمينك ، وصلّى وجهك النار ، فقد شلّت يميني ، وأنا أخاف[٢].

رضي الله عن عثمان أمير البررة ، وقتيل الفجرة ، مخذول من خذله ،

(١) البداية والنهاية (٧/١٩٩-٢٠٠) .

(٢) مجابو الدعوة ص٦٧-٦٨ .

منصور من نصره .

ولما وقع هذا الأمر العظيم ، الفظيع الشنيع ، أسقط في أيدي الناس ، فأعظموه جدًّا ، وندم أكثر هؤلاء الجهلة الخوارج بما صنعوا ، وأشبهوا من تقدمهم ممّن قصّ الله علينا خبرهم في كتابه العزيز ، من الذين عبدوا العجل في قوله تعالى : ﴿ **ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ [الأعراف : ١٤٩] .

ولما بلغ الزبير مقتل عثمان ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم ترحم على عثمان وبلغه أن الذين قتلوه ندموا فقال : تبا لهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ [يس : ٤٩] . وبلغ عليًّا قتله فترحم عليه ، وسمع بندم الذين قتلوه فتلا قوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ [الحشر : ١٦] ، ولما بلغ سعد ابن أبي وقاص قتل عثمان استغفر له وترحم عليه ، وتلا في حق الذين قتلوه : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا** ﴾ [الكهف : ١٠٣] . ثم قال سعد : اللهم ! أندمهم ثم خذهم .

وقد أقسم بعض السلف بالله إنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولًا . رواه ابن جرير .

وهكذا ينبغي أن يكون لوجوه منها دعوة سعد المستجابة كما ثبت في الحديث الصحيح .

وقال بعضهم : ما مات أحد منهم حتى جُنّ[1].

قال حذيفة بن اليمان : اللهم : إن كان قتل عثمان بن عفان خيـرًا فليس لي فيه نصيب ، وإن كان قتله شرًّا فأنا منه بريء ، والله لئن كان قتله خيرًا

---

(١) البداية والنهاية (٩/١٩٧-١٩٨) .

ليحلبنه لبنًا ، وإن كان قتله شرًّا ليمتص به دمًا .

قال ابن عباس : لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء .

عن سعيد بن المسيب قال : كانت المرأة تجيء في زمان عثمان إلى بيت المال ، فتحمل وقرها وتقول : اللهم بدل ، اللهم غير . فقال حسان بن ثابت حين قتل عثمان – رضي الله عنه –:

قلتم بدِّل فقد بدَّلكم   سنّة حرّى وحربًا كاللهبْ

ما نقمتم من ثياب خلقة   وعبيدٍ وإماءٍ وذهبْ

سمع عبد الله بن سلام رجلًا يقول لآخر : قتل عثمان بن عفان فلم ينتطح فيه عنزان ، فقال ابن سلام : أجل ! إن البقر والمعز لا تنتطح في قتل الخليفة ، ولكن ينتطح فيه الرجال بالسلاح ، والله لتقتلن به أقوام ، إنهم لفي أصلاب آبائهم ما ولدوا بعد .

وقال أبو بكرة : لأن أخرَّ من السماء إلى الأرض أحبّ إليّ من أن أشرك في قتل عثمان .

وقالت عائشة حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقيّ من الدنس، ثم قتلتموه.

وفي رواية : ثم قربتموه ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش ؟ فقال لها مسروق : هذا عملك ، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه ، فقالت : لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ؛ ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا . وهذا إسناد صحيح إليها .

وقال أبو مسلم الخولاني حين رأى الوفد الذين قدموا من قتله : إنكم مثلهم أو أعظم جرمًا ، أما مررتم ببلاد ثمود ، قالوا : نعم ! قال : فأشهد أنكم مثلهم ، لخليفة الله أكرم عليه من ناقته .

وقال الحسن : لو كان قتل عثمان هدًى لاحتلبت به الأمة لبنًا ، ولكنه كان ضلالًا فاحتلبت به الأمة دمًا .

عن الشعبي قال : ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب ابن مالك :

فكفّ يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافلِ
وقال لأهل الدار لا تقتلوهُمُ عفا الله عن كل امرىء لم يقاتلِ
فكيف رأيت الله صبَّ عليهمُ الـ ـعداوة والبغضاء بعد التواصلِ
وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس إدبار النعامِ الجوافلِ

وقال حسان :

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحًا وقرآنا
لتسمعنّ وشيكًا في ديارهمُ الله أكبر يا ثارات عثمانا

وقال أيضًا :

إن تمسِ دارُ ابن أروى منه خاوية باب صريع وباب محرق خربُ
فقد يصادف باغي العرفِ حاجتهُ فيها ويأوي إليها المجد والحسبُ
يا معشر الناس أبدوا ذات أنفسكم لا يستوي الصدق عند الله والكذبُ

وقال راعي الإبل النميري :

عشية يدخلون بغير إذن على متوكّل أوفى وطابا
خليل محمد ووزير صدق ورابع خير من وطىء الترابا(١)

كان محمد بن أبي بكر ممن اشترك في حصار عثمان ومنع الماء عنه ، وبعد أن تولى إمرة مصر من قبل علي بن أبي طالب أرسل إليه معاوية عمرًا لينتزعها منه ، ودارت حرب بين أنصار علي ومعاوية كانت الغلبة فيها لأنصار معاوية « وتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر ورجع يمشي ، فرأى خربة فأوى إليها ، ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر وذهب معاوية بن خديج في طلب محمد بن أبي بكر فمر بعلوج في الطريق فقال لهم : هل مرّ بكم أحد تستنكرونه ؟ قالوا : لا : فقال رجل منهم : إني رأيت رجلًا جالسًا في هذه الخربة ، فقال : هو هو ورب الكعبة : فدخلوا عليه فاستخرجوه منها وقد كاد يموت عطشًا » .

وقد سألهم محمد بن أبي بكر أن يسقوه شربة من الماء فقال معاوية :

---

(١) البداية والنهاية (٩/٢٠٣-٢٠٦) .

لاسقاني الله إن سقيتك قطرة من الماء أبدًا ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائمًا محرمًا فتلقاه الله بالرحيق المختوم .

وقد ذكر ابن جرير وغيره أن محمد بن أبي بكر نال من معاوية بن خديج هذا ومن عمرو بن العاص ومن معاوية ومن عثمان بن عفان أيضًا ، فعند ذلك غضب معاوية بن خديج ، فقدمه فقتله ، ثم جعله في جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار[1].

مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :

قال ابن كثير :

كان أهل الشام بعد التحكيم يسمون معاوية الأمير ، وكلما ازداد أهل الشام قوة ضعف جأش أهل العراق ، هذا وأميرهم علي بن أبي طالب خير أهل الأرض في ذلك الزمان ، أعبدهم وأزهدهم ، وأعلمهم وأخشاهم لله عز وجل ، ومع هذا كله خذلوه وتخلوا عنه حتى كره الحياة وتمنى الموت ، وذلك لكثرة الفتن وظهور المحن ، فكان يكثر أن يقول : ما يحبس أشقاها ، أي ما ينتظر ؟ ما له لا يقتل ؟ ثم يقول : والله لتخضبن هذه ويشير إلى لحيته مِنْ هذه ويشير إلى هامته ، فقال عبد الله بن سبع : والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلًا فعل ذلك لأبدنا عورته : فقال أنشدكم بالله أن يقتل غير قاتلي ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ألا تستخلف ؟ فقال : لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ . قالوا : فما تقول لربك إذا لقيته وقد تركتنا هملًا ؟ قال : أقول : اللهم ! استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم ، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[2].

قال ابن كثير :

ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس : أن ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن عمرو ، المعروف بابن ملجم الحميري ، ثم

---

(١) البداية والنهاية (٣٢٦/٧-٣٢٧) .
(٢) البداية والنهاية (٣٣٥/٧-٣٣٦) .

الكندي حليف بني حنيفة من كندة المصري وكان أسمر حسن الوجه وفي وجهه أثر السجود . والبرك بن عبد الله التميمي . وعمرو بن بكر التميمي أيضًا اجتمعوا فتذاكروا قتل علي إخوانهم من أهل النهروان فترحموا عليهم . وقالوا : ماذا نصنع بالبقاء بعدهم ؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد ، وأخذنا منهم ثأر إخواننا ؟ فقال ابن ملجم : أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب وقال البرك : وأنا أكفيكم معاوية ، وقال عمرو بن بكر : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص ، فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينقص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه .

فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها ، وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها ، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها : قطام بنت الشجنة ، قد قتل علي يوم النهروان أباها وأخاها ، وكانت فائقة الجمال مشهورة به ، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه ، فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله ونسي حاجته التي جاء لها ، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم وخادمًا وقينة . وأن يقتل لها علي بن أبي طالب قال : فهو لك والله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل علي ، فتزوجها ودخل بها ثم شرعت تحرضه على ذلك ، وندبت له رجلًا من قومها ، من تيم الرباب يقال له : وردان ، ليكون معه ردءًا ، واستمال عبد الرحمن بن ملجم رجلًا آخر يقال له : شبيب بن نجدة الأشجعي الحروري ، قال له ابن ملجم : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : قتل علي ، فقال : ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئًا إدًّا كيف تقدر عليه ؟ قال : أكمن له في المسجد فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا . فقال : ويحك لو غير عليّ كان أهون عليّ ؟ قد عرفت سابقته في الإسلام وقرابته من

رسول الله ﷺ، فما أجدني أنشرح صدرًا لقتله. فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان ؟ فقال : بلى. قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه إلى ذلك بعد لأي ، ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت ، وقال : هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو ابن العاص ، فجاء هؤلاء الثلاثة وهم مشتملون على سيوفهم ، فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي ، فلما خرج جعل ينهض الناس من النوم إلى الصلاة ، ويقول : الصلاة الصلاة فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق ، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه[1] ، فسال دمه على لحيته - رضي الله عنه - ولما ضربه ابن ملجم قال : لا حكم إلا لله ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى : ﴿ **ومن النـاس من يشـري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعبـاد** ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

ونادى علي : عليكم به ، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله ، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس ، ومسك ابن ملجم وقدّم عليٌّ جعدة بن هبيرة بن أبي وهب ، فصلى بالناس صلاة الفجر ، وحمل عليّ إلى منزله ، وحمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأوقف بين يديه وهو مكتوف - قبحه الله - فقال له : أي عدوّ الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى قال : فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحًا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه ، فقال له علي : لا أراك إلا مقتولًا به ، ولا أراك إلّا من شر خلق الله، ثم قال : إن مت فاقتلوه ، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به .

وروى الإمام عن أبي يحيى قال : لما ضرب ابن ملجم عليًّا قال لهم : افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله . فقال : « اقتلوه ثم أحرقوه » .

وقد روى أن أم كلثوم قالت لابن ملجم وهو واقف : ويحك ! لم ضربت أمير المؤمنين ؟ قال : إنما ضربت أباك . فقالت : إنه لا بأس عليه . فقال : لم تبكين ؟ والله لقد ضربته ضربة لو أصابت أهل المصر لماتوا أجمعين ، والله لقد

---

(١) الجانب الأعلى من الرأس .

سممت هذا السيف شهرًا ، ولقد اشتريته بألف وسممته بألف[١].

يقول ابن كثير :

استحضر الحسن بن علي عبد الرحمن بن ملجم من السجن ، فأحضر الناس النفط والبواري ليحرقوه ، فقالوا لهم أولاد علي : دعونا نشتفي منه ، فقطعت يداه ورجلاه ، فلم يجزع ولا فتر عن الذكر ، ثم كحلت عيناه وهو في ذلك يذكر الله ، وقرأ سورة اقرأ باسم ربك إلى آخرها ، وإن عينيه لتسيلان على خده ، ثم حاولوا لسانه ليقطعوه ، فجزع من ذلك جزعًا شديدًا ، فقتل عند ذلك وحرّق بالنار قبحه الله[٢].

قال رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بأشقى الناس رجلين ؟ أُحَيْمُر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا عليّ على هذه ، حتى يبلّ منها هذه »[٣] .

قال ابن مياس المرادي :

فلم أر مهرًا ساقهُ ذو سماحة كمهر قطام بيّنا غير معجم
ثلاثة آلاف وعبدٌ وقينَة وقتلُ علي بالحسام المصمَّمِ
فلا مهرَ أغلى من عليٍّ وإنْ غلا ولا فتْك إلا دون فتك ابن ملجمِ

وقد عزى ابن جرير هذه الأبيات إلى ابن شاس المرادي ، وأنشد له ابن جرير في قتلهم عليًّا :

ونحن ضربنا مالكَ الخير حيدرًا أبا حسن مأمومةً فتقطَّرا
ونحن خلعنا ملكه من نظامه بضربة سيفٍ إذْ علا وتجبرا
ونحن كرام في الهياج أعزّة إذا الموتُ بالموت ارتدى وتأزرا

وقال عمران بن حطان الخارجي :

---

(١) البداية والنهاية : (٧/٣٣٨-٣٤١) .

(٢) البداية والنهاية : (٨/١٤) .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك ، عن عمار بن ياسر ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٥٨٦ .

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يومًا فأحسن أوفى البرية عند الله ميزانًا

وردّ عبد القاهر البغدادي :

يا ضربة من كفورٍ ما استفاد بها إلا الجزاء بما يصليه نيرانا
إني لألعنه دينًا ، وألعنُ من يرجو له أبدًا عفوًا وغفرانا
ذاك الشقي لأشقى الناس كلهم أخفهم عند رب الناس ميزانا

أشقى الآخرين قاتل علي جزاءً وفاقًا .

عن مصعب بن سعد ، أن رجلًا نال من عليّ ، فنهاه سعد ، فلم ينته ، فقال سعد : أدعو الله عليك ، فلم ينته ، فدعا الله عليه ، فما برح حتى جاء بعير نادٌّ أو ناقة نادَّة فخبطته حتى مات[1].

ما توجبه الولاية :

قال رسول الله ﷺ : « اللهم ، من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به »[2].

قال المناوي :

« اللهم من ولي من أمر أمتي » أمة الإجابة ، ولا مانع من إرادة الأعم هنا . «شيئًا» من الولاية كخلافة وسلطنة وقضاء وإمارة ونظارة ووصاية وغير ذلك. « فشق عليهم » أي حملهم على ما يشق عليهم ، أو أوصل المشقة إليهم بقول أو فعل فهو من المشقة التي هي الإضرار ، لا من الشقاق الذي هو الخلاف . « فاشقق عليه » أي أوقعه في المشقة ، جزاءً وفاقًا . « ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم » أي عاملهم باللين والإحسان والشفقة . « فارفق به » أي افعل به ما فيه الرفق له مجازاة له بمثل فعله .

وهذا دعاء مجاب ، وقضيته لا يشك في حقيقتها عاقل ولا يرتاب ، فقلما

---

(١) مجابو الدعوة ص٧٢ .
(٢) رواه مسلم .

ذا ولاية عسف وجار وعامل عيال الله بالعتو والاستكبار ، إلا كان آخر أمره الوبال ، وانعكاس الأحوال ، فإن لم يعاقب بذلك في الدنيا قصرت مدته ، وعجل بروحه إلى بئس المستقر سقر .

ولهذا قالوا : الظلم لا يدوم وإن دام دمر ، والعدل لا يدوم وإن دام عمر .

وهذا كما ترى أبلغ زجر عن المشقة على الناس ، وأعظم حث على الرفق بهم ، وقد تظاهرت على ذلك الآيات والأخبار .

وقال رسول الله ﷺ : « ما من إمام أو وال يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته »[1].

قال المناوي :

« ما من إمام أو وال » يلي من أمور الناس شيئًا « يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة » أي يمنعهم من الولوج عليه وعرض أحوالهم عليه ، ويترفع عن استماع كلامهم « إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » يعني منعه عما يبتغيه ، وحجب دعاءه عن الصعود إليه جزاءً وفاقًا[2].

وقال ﷺ : « ما من أمير عشرة ، إلّا وهو يُؤتى به يوم القيامة مغلولًا ، حتى يفكه العدل ، أو يوبقه الجور »[3].

قال المناوي :

«ما من أمير عشرة» أي : فما فوقها «إلا وهو يؤتى يوم القيامة» للحساب. « ويده مغلولة » أي والحال أن يده مشدودة إلى عنقه « حتى يفكه العدل أو

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي عن عمرو بن مرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٦٢ والصحيحة رقم ٦٣٠ .

(٢) فيض القدير (٥/٤٧٠) .

(٣) صحيح : رواه البيهقي في سننه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٧١ ، والصحيحة ٣٤٤ .

يوبقه الجور » أي يهلكه الظلم .

لا يفكه من الغل إلا الهلاك بمعنى أنه يرى بعد الفك ما الغل في جنبه السلامة ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين** ﴾[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمور المسلمين شيئًا ، فاحتجب دون خلّتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة ، دون خلته ، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »[(٢)].

قطيع نحن والجزّار راعينا
ومنفيون نمشي في أراضينا
ونحمل نعشنا قسرًا بأيدينا ونعرب عن تعازينا لنا فينا
فوالينا أدام الله والينا ! رآنا أمة وسطا
فما أبقى لنا دنيا ولا أبقى لنا دينا
ولاة الأمر ما خنتم ولا هنتم ولا أبديتم اللينا
ففي تهديدكم حينا.. وفي تنديدكم حينا سحقتم أنف أمريكا
ولو نقلت سفارتها .. معاذ الله لو نقلت لضيّعنا فلسطينا
ولاة الأمر هذا النصر يكفيكم ويكفينا
تهانينا تهانينا

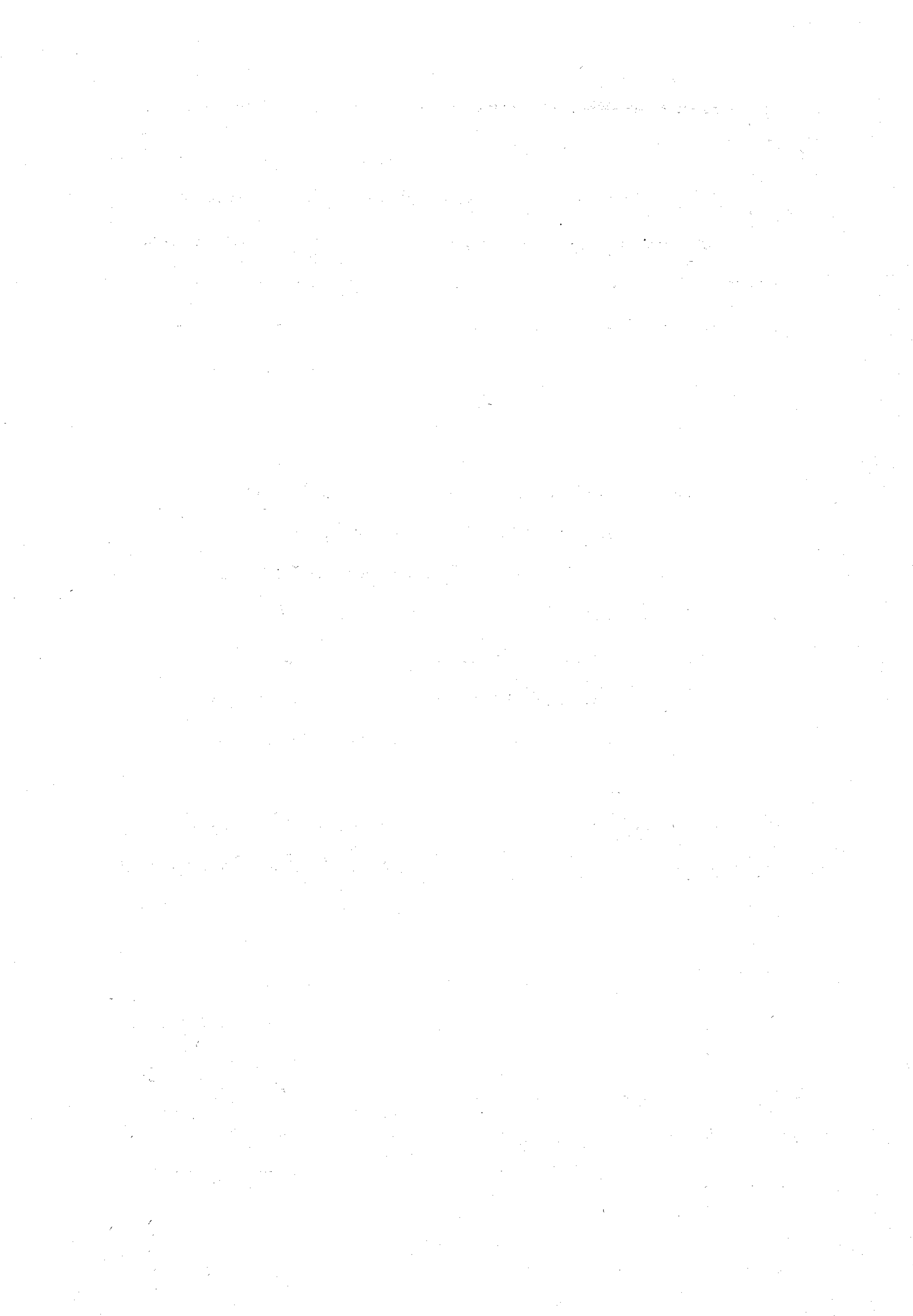
اللهم إن ولاتنا قد أصبحوا عبئًا ثقيلًا على أكتافنا ، فلا تطيقهم أبداننا ، وقذى في جفوننا فلا تطرق عليهم جفوننا ، وشجًى في أفواهنا لا تسيغهم حلوقنا ، فاكفنا مؤنتهم ، وفرّق بيننا وبينهم .

* * *

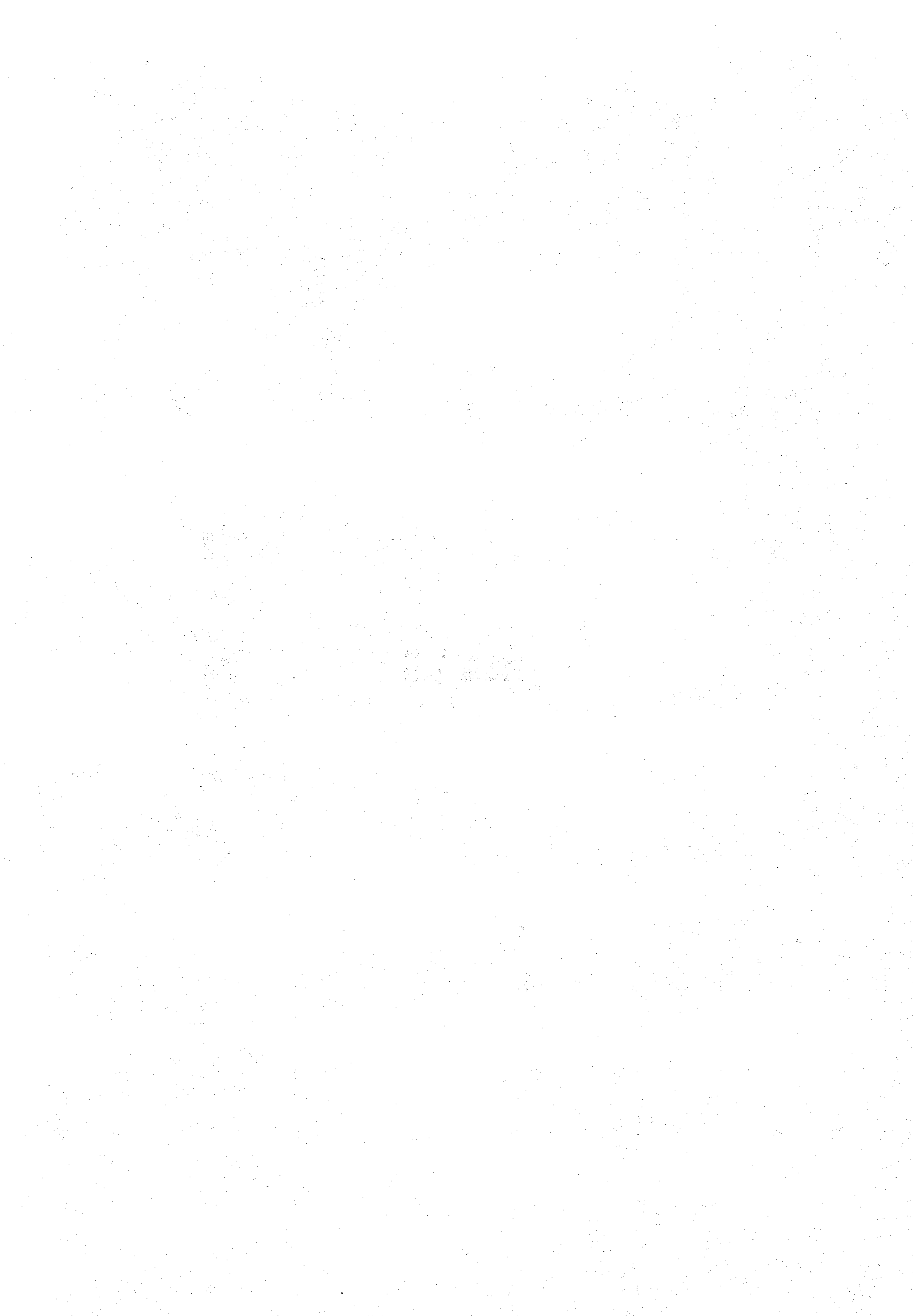
---

(١) فيض القدير (٤٧٣/٥) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الحاكم وقال : هذا إسناد شامي صحيح ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : هو كما قالا ، انظر صحيح الجامع ٩٤٧١ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٦٢٩ .



الزُّهـد



□ الزُّهد □

الدنيا هزيلة زهيدة ، فهوّن من شأنها ، وارفع نفسك عنها .

قال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠].

قال صاحب الظلال :

الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي ، وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمرًا عظيمًا هائلًا ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدُو شيئًا زهيدًا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ! لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل .

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ويستعد له : ﴿ **وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا ، إنها حساب .. وجزاء .. ودوام .. يستحق الاهتمام .

﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع . وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة ، حقيقة يقصد بها القرآن تصحيح المقاييس الشعورية ، والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض .

ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي ، للغاية التي تستحق السباق .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ﴿ **جنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ [الحديد : ٢١][(١)].

قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

قال سيد قطب رحمه الله :

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ، ويتمتع بها في أجل محدود ، ولكن ليس له في الآخرة إلا النَّار ؛ لأنه لم يقدم للآخرة شيئًا ، ولم يحسب لها حسابًا ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا ، ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن ، وحابط وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤدٍ إلى الهلاك ![(٢)] .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار ؛ لأن الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الأعمال[(٣)].

قال القشيري :

أولئك الذين خابت آمالهم ، وظهرت لهم بخلاف ما احتسبوا آلامهم ، حبطت أعمالهم ، وحاق بهم سوء حالهم[(٤)].

---

(١) الظلال (٣٤٩٢/٦) .
(٢) الظلال (١٨٦٢/٤) .
(٣) تفسير المنار (٤٨/١٢) .
(٤) لطائف الإشارات (١٢٩/٢) .

وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا** ﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ يعني الدنيا ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ، ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار ﴿ **مذمومًا مدحورًا** ﴾ أي مطردًا مبعدًا من رحمة الله[١] .

قال القشيري :

من رَضِيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقِي عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بقدر ما اشْتَمَّهُ ، ثم يكون آنس ما به قلبًا وأشد ما يكون به سكونًا ؛ ثم يُختطف عن نعمته ، ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه في الآخرة ، ولقد قيل :

يا غافلًا عن سماع الصوت ... إن لم تبادر فهو الفوتُ
من لم تزُل نعمته عاجلًا ... أزاله عن نعمته الموتُ[٢]

يقول الشيخ سيد قطب :

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق ، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم .

والذي يريد الآخرة إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض

---

(١) تفسير القرطبي (٣٨٥١/٦) .
(٢) لطائف الإشارات (١٤/٤) .

هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يريد الآخرة ، ويسعى لها سعيها ، ينتهي إليها مشكورًا ، يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوّاه ، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء ، وإن استقرت على الأرض قدماه .

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ، ورقعة الأرض محدودة ، فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول . كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟ .

فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل[١].

قال رسول الله ﷺ : « أقصر من جشائك ، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا في الآخرة »[٢].

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا في الآخرة »[٣].

---

(١) الظلال (٢٢١٩/٤) .

(٢) حسن : رواه الحاكم في المستدرك عن أبي جحيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٠ ، والصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٣) حسن : رواه أبو نعيم في الحلية عن سلمان ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢١٠ .

وقال رسول الله ﷺ لعمر : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « حلوة الدنيا مرّة الآخرة ، ومُرّة الدنيا حلوة الآخرة »[٢].

قال المناوي :

يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها ، ولا يسكن هاتان الرغبتان في محل واحد ، وإلا طردت إحداهما الأخرى ، واستبدت بالمسكن ، فإن النفس واحدة ، والقلب واحد ، فإذا اشتغلت بشيء انقطع ضده[٣].

ويحتمل أن يكون المراد : حلوة الدنيا : ما تشتهيه النفس في الدنيا، مرة الآخرة : أي يعاقب عليه في الآخرة ، ومرّة الدنيا : ما يشق عليه من الطاعات ، حلوة الآخرة: أي يثاب عليه في الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ : « من جعل الهموم همًّا واحدًا ؛ همّ المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك »[٤].

قال إدريس الحداد :

كان أحمد بن حنبل إذا ضاق به الأمر ، آجر نفسه من الحاكة . فسوّى لهم ، فلما كان أيام المحنة وصُرف إلى بيته ، حُمِل إليه مال ، فردّه وهو محتاج إلى رغيف ، فجعل عمه إسحاق يحسُب ما يردّ ، فإذا هو خمسمائة ألف . قال :

---

(١) رواه الشيخان ، وابن ماجة عن عمر .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٥٠ ، والصحيحة ١٨١٧ .

(٣) فيض القدير (٣/٣٩٦) .

(٤) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم عن ابن عمر وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٦٥ .

فقال : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه[١].

عن ابن المسيب قال : من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ، وعلى الطرف الآخر .

قال أبو بكر السدوسي : لما وُلدتُ دخل أبي على أمي ، فقال : إن المنجمين قد أخذوا مولد هذا الصبي ، وحسبوه فإذا هو يعيش كذا وكذا ، وقد حسبتها أيامًا ، وقد عزمت أن أعدّ لكل يوم دينارًا ، فأعد لي حُبا وملأه ، ثم قال أعدّي لي حُبًّا آخر فملأه استظهارًا ، ثم ملأ ثالثًا ودفنهم .

قال أبو بكر : وما نفعني ذلك مع حوادث الأيام ، وقد احتجت إلى ما ترون .

قال أبو بكر بن السقطي : رأيناه فقيرًا ، يجيئنا بلا إزار ، ونسمح عليه ويُبَرُّ بالشيء بعد الشيء[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « من كانت همّه الآخرة ، جمع الله له شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا راغمة ، ومن كانت همّه الدنيا ، فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي ، وعمار ، وسلمان »[٥].

عن سفيان : مَنْ يبرّ بالدنيا ، نزع خوف الآخرة من قلبه[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٠٠/١١) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣١٣/١٥) .
(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن زيد بن ثابت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٢ ، والصحيحة رقم ٩٤٨ .
(٤) رواه مسلم عن ابن عمرو .
(٥) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٥٩٤ .
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٦٨/٧) .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة »(١).

قال ابن القيم : والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ ، فقال : « إني شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » .

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه - قتل يوم أحد ، وترك بردة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها .

وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات ، فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ، ولم تنقصهم الدنيا ... وذكر الحديث .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم » .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : ما أوتي عبد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان كريمًا .

فاحذر الدنيا يا أخي ، فإنها كما قال يحيى بن معاذ : خمر الشيطان مَنْ سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى ، نادمًا بين الخاسرين.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ابن القيم في عدة الصابرين .

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تتخذوا الدنيا ربا ، فتتخذكم الدنيا عبيدًا ، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وإن صاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة »[1].

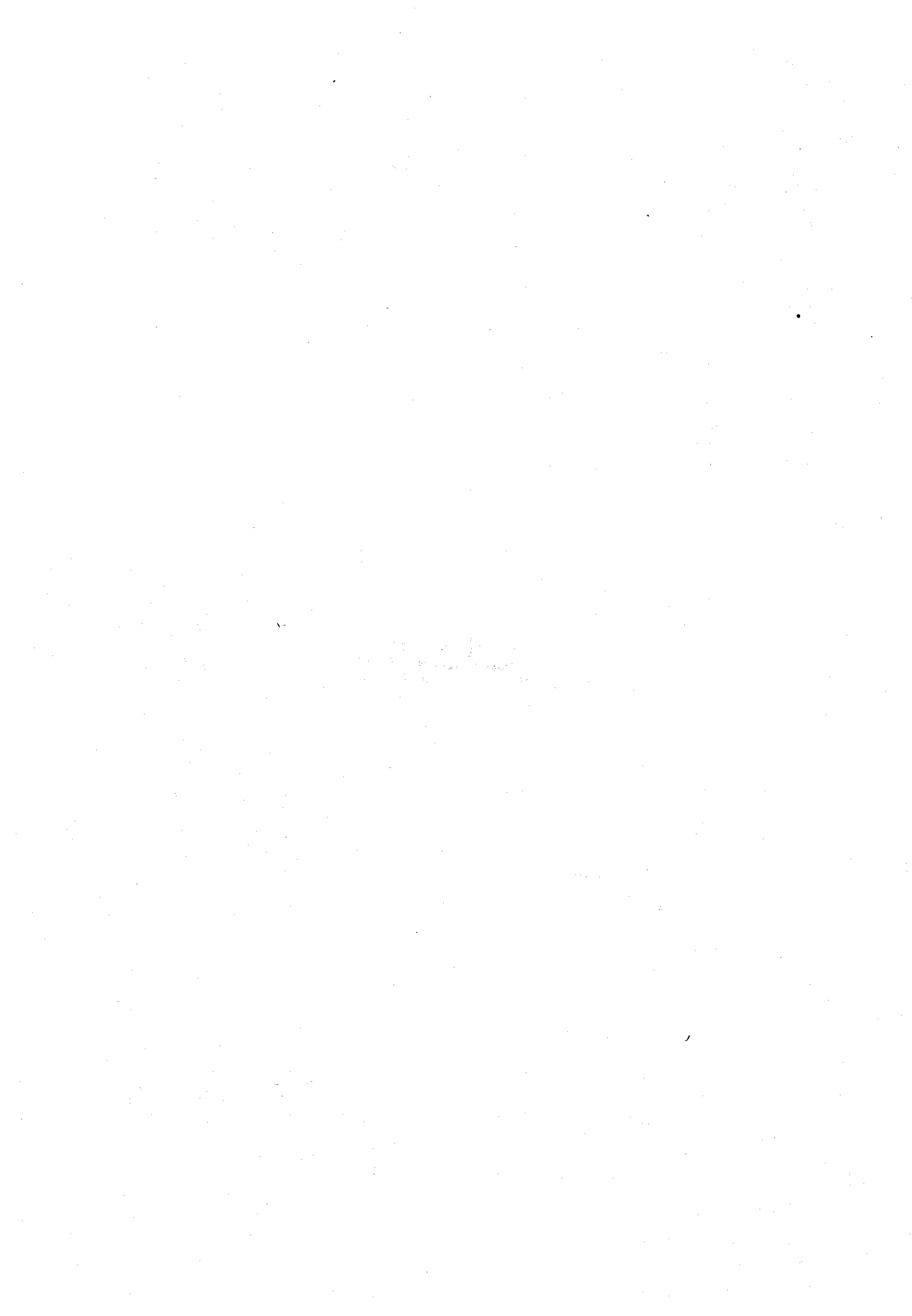
وعنه : « ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا وليط[2] قلبه منها بثلاث : شغل لا ينفك عناؤه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذه بعنقه »[3].

* * *

---

(١) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ص٢١ مكتبة القرآن .
(٢) أي التصق بقلبه .
(٣) ذم الدنيا ص٢٢ ، والإحياء (١٩٨/٣).

الجنـائـز



□ الجنائز □

جدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقرّه ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلّع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار ولا تربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ، ويراها في أهل القبور ، فإن كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب ، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبهات عليه[1].

فاحذر الموت فإنه الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس التي طعمها أكره وأبشع ، الهادم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات .

وبين يدي الموت رسل من أمراض وأوصاب وأشجان ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء »[2].

وقال ﷺ : « ما اختلج[3] عرق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر »[4].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٧٥) .

(٢) صحيح : رواه سعيد بن منصور في سننه ، وأبو نعيم في الحلية عن مسروق مرسل بسندٍ صححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥٩٣ .

(٣) اختلج : اضطرب وارتعد .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط والضياء عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٣٩٧ .

وقال ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق »[١].

وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم »[٢] .

والمؤمن الذي يبتليه الله بمرض فلا يشكو الله عز وجل إلى عوّاده ، ولو بأنين أدبًا مع الله عز وجل ولسان حاله يقول :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

فماذا يكون جزاؤه ؟

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »[٣].

وقال ﷺ : « ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله الحفظة : اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل ، ما دام محبوسًا في وثاقي »[٤].

قُطع إصبع امرأة فتح الموصلي فضحكت ، فقيل لها : يقطع إصبعك وتضحكين؟؟ فقالت : حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها .

وإذا ابتلى الله عبده بحمى فصبر ، فهي حظه من النار جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « أبشر فإن الله تعالى يقول : هي ناري ، أسلطها على عبدي

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣١٦ .

(٣) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الجامع والصحيحة رقم ٢٧٢ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٣٧.

المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار يوم القيامة »[١].

وقال ﷺ : « الحمى حظ المؤمن من النار يوم القيامة »[٢].

وقال ﷺ : « الحمى حظ كل مؤمن من النار »[٣].

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار »[٤].

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، وهي نصيب المؤمن من النار »[٥].

قال المناوي :

أي أنها تسهل عليه الورود حتى لا يشعر به أصلًا .

وقال : أي أنها تكفر ما يوجب من النار ، وهي سوط الجزاء الذي أهل الدنيا بأجمعهم مضروبون به .

وقال : « الحمى كير من نار جهنم » فإذا ذاق لهيبها في الدنيا لا يذوق لهب جهنم في الأخرى .

وقال أيضًا : « الحمى كير من جهنم » أي حقيقة أرسلت منها إلى الدنيا ، نذيرًا للجاحدين ، وبشيرًا للمقربين[٦].

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا عن عثمان ، ورواه ابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨١ .

(٣) صحيح : رواه البزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٢ ، والصحيحة رقم ١٨٢١ .

(٤) حسن : رواه أحمد عن أبي أمامة ، ورواه الطحاوي ، وأبو بكر الشافعي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٣ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي ريحانة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٥ .

(٦) فيض القدير (٤٢١/٣ ، ٤١٩/٣) .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة ، وسموه بيت الحمد »[١].

قال المناوي :

قال الطيبي : رجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد ؛ لأجل تصبره على المصائب ، وعدم تشكّيه ، بل إعداده إياها من النعم الموجبة للشكر ، ثم استرجاعه ، وأن نفسه ملك لله وإليه المصير .

وقال أولًا : ولد عبدي أي فرع شجرته ، ثم ترقى إلى « ثمرة فؤاده » أي نقاوة خلاصته ، فإن خلاصة المرء الفؤاد ، والفؤاد إنما يعتد به لمكان اللطيفة التي خلق لها فحقيق لمن فقد تلك النعمة ، فتلقاها بالحمد ، أن يكون هو محمودًا حتى المكان الذي يسكنه ولذلك ، قال : « فيقول الله تعالى » لملائكته أو لمن شاء من خلقه : « ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة » يسكنه في الآخرة « وسموه بيت الحمد » .

موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب ، وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب ، يا له من صدع لا يشعب ، يوهي القوى ويقوي الوهى ، ويوهن العظم ، ويعظم الوهن ، مرّ المذاق ، صعب لا يطاق ، يضيق عنه النطاق ، شديد على الإطلاق ، لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ، ووعد عليه بالأجر الجزيل ، وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « الرقوب التي لا يموت لها ولد »[٣].

---

(١) رواه الترمذي عن أبي موسى ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٨٠٧ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٠٨ .

(٢) فيض القدير (١/٤٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا عن بريدة ، ورواه البزار والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٥٥٠ ، وأحكام الجنائز ١٦٤ .

قال المناوي :

لا ما تعارفه الناس أنها التي لا يعيش لها ولد ، فإنه إذا مات ولدها قبلها تلقاها من أبواب الجنة ، فأعظم بها من منّة[١].

وقال ﷺ : « الرقوب التي لا فرط لها »[٢].

نزول الموت وأحواله[٣]:

احذر أن يفضحك ميراثك يوم موتك ، من صفّى صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدّر عليه ، فمن كان على الخير في حياته لقي الخير عند مماته .

قال رسول الله ﷺ : « من مات على شيء بعثه الله عليه »[٤] .

قال المناوي :

أي يموت على ما عاش عليه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله » . قيل : كيف يستعمله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا بين يديْ موته حتى يرضى عليه من حوله »[٥].

وقال ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرًا عسله » . قيل : وما عسله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا قبل موته ثم يقبضه عليه »[٦].

---

(١) فيض القدير (٥٧/٤) .

(٢) صحيح : رواه البخاري في التاريخ عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٥٠ .

(٣) انظر جمعي عن الموت المسمَّى بـ « سكب العبرات للموت والقبر والسكرات » .

(٤) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤١٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن عمرو بن الحمق ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠١ .

(٦) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي عِنَبَة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٤ .

وقال رسول الله ﷺ : « من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »(١).

قال ابن قيم الجوزية :

إن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بليّة خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإنْ ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان ، بحيث يؤثر الذكر ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إنْ ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافلٍ ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ، ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمنْ له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده ، وضيّعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثَمَّ أمر أخوف من ذلك ، وأدهى منه وأمرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين ، أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم:قل : لا إله إلا الله فقال : آه آه لا أستطيع أن أقولها .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاه رخ(٢) غلبتك ثم قضى .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى قضى .

وقيل لآخر ذلك فقال : ما ينفعني ما تقول ، ولم أدع معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : وما يغني عني ، وما أعرف أني صليت لله صلاة ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة وعن عبادة .

(٢) اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج ؛ لأنه كان في حياته مفتونًا بلعبه .

ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى .

وقيل لآخر فقال : كلما أردت أن أقولها ، ولساني يمسك عنها .

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول : لله فلس ، لله فلس ، لله حتى قضى .

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله ، وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشتري جيد ، هذه كذا حتى قضى .

فسبحان الله !! كم شاهد الناس من هذا عِبرًا ، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريد من معاصي الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ، وعطّل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ، فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يقوم عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة ، فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك **﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾** [إبراهيم : ٢٧].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة عن طاعته ، مشتغلة بمعصيته أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان : **﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾** [القلم : ٣٩-٤٠] .

كما قيل :

يا آمنا مع قبح الفعل منه أَهَلْ أتاك توقيع أمنٍ أنت تملكـه؟
جمعت شيئين : أمنا واتباع هوًى هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرّطت في الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذًا بالله ؟ أنت ، أم الـ ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه

لما نزل الموت بأبي شجاع فناخسرو بن عضد الدولة لم يسمع منه إلا قوله: ﴿ ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه ﴾[1] .

ويروى أنه قال قبل ذلك شعرًا يمدح به نفسه ؛ منه قوله :

ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحرْ
غالبـات سالبـات للنُّهى ناعمات في تضاعيف الوترْ
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح مَنْ فاق البشرْ
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلّاب القدرْ

قال أبو منصور الثعالبي : لم يفلح بعد هذا البيت[2] جزاءً وفاقًا .

انظر إلى المسيء العاصي الذي كان يتعلل بعسى ولعلّ ، ويرى جنده الأفلّ ، وحزبه الأقلّ ، وناصره الأذلّ ، فلا يرعوي ولا يزدجر ، ولا يفكر ولا يعتبر ، ولا ينظر ولا يستبصر ، حتى إذا وقعت رايته ، وقامت قيامته ، وهجمت عليه منيته، وأحاطت به خطيئته، فانكشف له الغطاء، وتبدت له موارد الشقاء، صاح واخيبتاه ! واثكل أماه ! واسُوء منقلباه !.

هيهات هيهات ، ندم والله حيث لا ينفعه الندم ، وأراد التثبيت بعدما زلّت

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي تحقيق د . محمد جميل غازي من ص١٣٠ – ١٣٣ ، طبع المدني .

(٢) العاقبة في ذكر الموت والآخرة لعبد الحق الأشبيلي تحقيق خضر محمد خضر ص١٣٠ مكتبة دار الأقصى الكويت .

به القدم ، فخرّ صريعًا لليدين والفم ، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[(١)].

في سنة (٥٥٠) هـ كان أحمد بن الحريزي يُعذِّب الناس بين يديه ، يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهنّ ، ويومىء إلى الجلاد : الرأس ، الوجه . ودخل الحمام فدخل عليه ثلاثة ، فضربوه بالسيوف حتى قطّعوه ، فحمل إلى بغداد ودفن بها ، فأصبح وقد خسف بقبره[(٢)] جزاءً وفاقًا .

وانظر نهاية شخصية كويتية كانت تسابق الشيطان إلى المعاصي والآثام ، فلم تكن هناك معصية قديمة أو حديثة إلا وكان هذا الشاب سباقًا إليها ، بل كان يدعو أصدقاءه لفعلها ، حتى مات ولم يجاوز عمره الثلاثين عامًا .

فقد كان همه الكأس والغانية ، ثم تطوّر حاله إلى الحشيش والمخدرات ، فجاء اليوم الذي ودّع فيه الحياة ، فشرب في ذلك اليوم شربًا كثيرًا حتى سكر ، فلم يكد يميّز بين سماء أو أرض ، وزاد في شربه حتى تناول المخدّر ، وأخذ يلتهم منه حتى تَقَيَّأَ ما في بطنه كله ، ومات بعد ذلك .

وشخصية كويتية دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف ، وبالأخص إلى دولة « تايلاند » ، فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال ، وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا ، إلّا أنه ما زال على عادته القديمة ، لا يفكر إلا في شهواته وملذاته سواء أكانت في الحلال أم في الحرام ، لقد سافر من دولة « الكويت » ووجهه أبيض من بياض البيض ، وكله شباب وقوة ، وفي إحدى الليالي الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة ، فرافقها إلى إحدى الشقق ، وكان بانتظاره ملك الموت ، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة نادى المنادي : الرحيل الرحيل .. فقبضه ملك الموت ، ورجع إلى بلده محملًا بالتابوت ، وفتح التابوت ، وإذا بالمفاجأة الكبرى ، وهي أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار، هكذا أخبرني أقرب الناس إليه، فالجزاء من جنس العمل، ومن حسنت

---

(١) كناية عن الموت .

(٢) شذرات الذهب للعماد الحنبلي (١٥٥/٤) .

بدايته حسنت نهايته ، وهذا جزاء من أساء بدايته فأسيئت نهايته[1].

قال الإمام عبد الحق الأشبيلي في كتابه العاقبة : مر بعض الصالحين بيهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس ، فقال : أيكابر هؤلاء الأقدار ؟ أما علموا أنهم لو دفنوا في الفردوس الأعلى ، لجاءت لظى بأنكالها حتى تأخذه إليها ، وتنطلق به معها .

ثم قال رحمه الله عن سوء الخاتمة : ربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ، ونصيب من الافتراء ، فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن أعاد عليه وأعاد .

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول له : قل:لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه ، فأعاد هو ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان ، الناصر إنما يعرفك بسيفك فالقتل القتل . ثم مات .

وقيل لآخر وقد نزل به الموت : قل : لا إله إلا الله فقال : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا .

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده ، وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده دوازده ، تفسير عشرة أحد عشر اثنا عشر ، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان ، فغلب عليه الحساب والميزان .

كما روي أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل:لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمّام منجاب ؟.

---

(١) الوقت عمار أو دمار (ج٢/٨٤-٨٧). جاسم محمد بدر المطوع ، دار الدعوة بالكويت.

وهذا الكلام فيه قصة ؛ وذلك أن رجلًا كان واقفًا على باب داره ، وكان بابها يشبه باب حمام ، فمرّت به جارية لها منظر ، وهي تقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال لها : هذا حمام منجاب ، وأشار إلى داره ، فدخلت الدار ، فدخل وراءها ، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام ، علمت أنه خدَعها ، فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار ، وقالت له : يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا ، وتقر به عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين ، وبكل ما تشتهين ، وخرج فتركها في الدار ولم يغلقها ، وتركها مفتوحة على حالها ، ومضى فأخذ ما يصلح لها ، ورجع ودخل الدار ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم يجد لها أثرًا ، فهام الرجل بها ، وأكثر الذكر لها ، والجزع عليها ، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول :

يا ربَّ قائلةٍ يومًا إذا بلغت أين الطريق إلى حمام مَنْجابِ

وبعد أشهر مرّ في بعض الأزقة ، وهو ينشد هذا البيت ، وإذا بجارية تجاوبه من طاقٍ وتقول :

هلّا جعلتَ لها إذْ ظفرتَ بها حرْزًا على الدارِ أو قُفْلًا على البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه ، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر . فنعوذ بالله من المحن والفتن .

ويروى أن رجلًا عشق شخصًا ، واشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه حتى وقع لما به ، ولزم الفراش من أجله ، وتمنع ذلك الشخص واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده ، فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمّه ، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضُربَ له ، فبينا هو على ذلك إذ جاءه الماشي بينهما ، وقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، فَرغّبت إليه وكلّمته في إنجاز وعده ، والوفاء بعهده ، فقال : إني أخاف الفضيحة ، ولا أدخل مداخل السوء والرّيب ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ، وسألته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس هذا سقط في يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت علائم الموت وأماراته عليه .

قال الراوي : فسمعته يقول وهو في تلك الحال :

سلـم يـا راحـة العليـلِ وبُرْءَ داءِ المُدنِفِ[1] النحيلِ
لقـاك أشهـى إلى فؤادي من رحمـةِ الخالـق الجليلِ

فقلت له : يا فلان ، اتق الله ، فقال : قد كان ، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه[2] .

وفي عصرنا هذا ممثل عاش عمره في السينما وعلى خشبة المسرح، فمات عليه.

وممثل آخر مُهرِّج ، كان يمثل دور الميت فحرّكوه على خشبة المسرح فإذا هو ميت . والجزاء من جنس العمل .

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ومن مات على شيء بعثه الله عليه .

وهذي نماذج من وفيّات السباقين إلى الرحمن ، تبين كون الجزاء من جنس العمل .

فهذا سعد بن معاذ يقول عن جرحه الذي مات به : اللهم افجره ؛ أي شوقًا إليك ، فيهتز عرش الرحمن فرحًا بموته .

وهذا حنظلة بن أبي عامر ، يخرج للجهاد ويترك فراشه وزوجه ، ملبيًا نداء رسول الله ﷺ فيصاب فتغسله الملائكة .

والربيع بن خثيم حليف الخوف والأحزان والأشجان ، تدخل عليه ابنته وهو في السياق فتقول : واكرب أبتاه ، فيقول لها : بل قولي : وافرحاه ، واطرباه ، لقي أبي الخير .

وربعي بن حِراش ، الذي عاهد الله ألا يراه ضاحكًا في دار الدنيا ، يبتسم على مغسله . انتهت الدنيا بأحزانها ، وأقبلت الآخرة بسرورها . والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الذي ثقل عليه المرض .

(٢) العاقبة للأشبيلي ص١٧٨/١٨٠ .

ومحمد بن المنكدر ، الذي عرفته الليالي متهجدًا باكيًا ، وكانت أمه تستعين عليه بأخيه عمر بن المنكدر وأبي حازم حتى يكف عن البكاء طوال الليل ، فلما جاءه الموت أتى صفوان بن سليم إليه ، فما زال يهوّن عليه الأمر ، وينجلي عن محمد ، حتى لكأن وجهه المصابيح ، ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرّت عينك . ثم قضى رحمه الله[1].

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير ، الإمام الرباني الذي اشترى نفسه من الله ست مرات ؛ يعني يتصدق كل مرة بديته .

والذي قال فيه الإمام مالك : ربما انصرف عامر من العتمة ، فيعرض له الدعاء ، فلا يزال يدعو إلى الفجر .

سمع المؤذن وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا بيدي . فقيل : إنك عليل . قال : أسمع داعي الله ، فلا أجيبه ؟! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ، ثم مات[2].

وشيخ الشافعية ابن الإسماعيلي ، إسماعيل بن شيخ الإسلام أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ، وكان إمام زمانه في الفقه وأصوله ، مع الورع الثخين ، والمجاهدة والنصح للإسلام ، والسخاء وحسن الخلق .

تُوفي إكرامًا من الله له في صلاة المغرب ، وهو يقرأ ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ففاضت نفسه ، رحمه الله[3].

وشيخ الإسلام ، الفقيه نصر المقدسي الشافعي ، صاحب التصانيف والأمالي ، حكى عنه تلميذه الفقيه نصر الله المصيصي أنه قبل موته بلحظة سمعه وهو يقول : يا سيدي أمهلوني ، أنا مأمور وأنتم مأمورون ، ثم سمعت المؤذن بالعصر ، فقلت : يا سيدي ، المؤذن يؤذن ، فقال : أجلسني ، فأجلسته فأحرم بالصلاة ، ووضع

---

(١) الثبات عند الممات ص ١٤١، ١٤٢ .

(٢) انظر ترجمه عامر في السير (٥/٢١٥-٢٢٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/٨٧-٨٨) .

يده على الأخرى وصلى ، ثم تُوفي من ساعته ، رحمه الله[1].

والإمام الزبيدي العابد الواعظ ، محمد بن يحيى بن علي القرشي .

قال ابن عساكر : قال ولده إسماعيل : كان أبي في كل يوم وليلة من أيام مرضه يقول: الله الله، نحوًا من خمسة عشر ألف مرة، فما زال يقولها حتى طَفِيء[2].

والإمام الحافظ عبد الغني المقدسي ، العابد الأثري ، علم الحفاظ . قال له ابنه أبو موسى في مرض موته ، ما تشتهي ؟ فيقول : أشتهي الجنة ، أشتهي رحمة الله . لا يزيد على ذلك ، أشتهي النظر إلى وجه الله سبحانه .

وجاء جماعة يعودونه ، فسلموا ، فردّ عليهم ، وجعلوا يتحدثون ، فقال : ما هذا ؟ اذكروا الله ، قولوا : لا إله إلا الله ، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ، ويشير بعينيه ، فقمت لأناول رجلًا كتابًا من جانب المسجد ، فرجعت وقد خرجت روحه[3].

وشيخ الإسلام حماد بن سلمة ، قال عفان : قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة ، لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير ، وقراءة القرآن ، والعمل لله تعالى منه .

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي : لو قلت لكم : إني ما رأيت حماد ابن سلمة ضاحكًا لصدقت ، كان مشغولًا ؛ إما أن يحدث ، أو يقرأ ، أو يسبح ، أو يصلي ، قد قسم النهار على ذلك . قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة في الصلاة في المسجد[4].

والجنيد رحمه الله ، يقول الجريري واصفًا وفاته : كنت واقفًا على رأس الجنيد في وقت وفاته ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت له : ارفق بنفسك . فقال لي :

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤٢/١٩-١٤٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣١٦/٢٠ -٣١٩) .

(٣) سير أعلام النبلاء ، ترجمة الحافظ (٤٤٣/٢١-٤٧١) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٤٤/٧-٤٥٦) .

يا أبا محمد ، أرأيت أحدًا أحوج إليه مني في هذا الوقت ، وها أنا ذا تطوى صحيفتي ، وكان قد ختم القرآن الكريم ، ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ثم مات ، رحمه الله .

وشيخ الإسلام ابن قدامة ، الذي لا يكاد يسمع دعاءً إلا حفظه ودعا به ، يموت وهو عاقد على أصابعه يسبح[١].

وعبد الله بن أبي السرح يموت وهو يصلي .

والإمام أبو الحسن علي بن مسلم بن محمد الفقيه ، توفي وهو ساجد في صلاة الفجر ، في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[٢].

والإمام إبراهيم بن هانيء النيسابوري ، صاحب الإمام أحمد ، الذي قال الإمام أحمد لولده : لستُ أطيق ما يطيق أبوك ؛ يعني من العبادة[٣]. والذي كان عرف بكثرة صومه ، انظر إلى خاتمته يرويها لنا أحد أصحابه : حضرت وفاة أبي إسحاق النيسابوري ، فجعل يقول لابنه إسحاق : ياإسحاق ، ارفع الستر . قال : يا أبت ، الستر مرفوع . قال : أنا عطشان . فجاءه بماء قال : غابت الشمس ؟ قال : لا . قال : فردّه ، ثم قال : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ [الصافات : ٦١] ، ثم خرجت روحه[٤] .

أبو جعفر القارىء ، أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات ، واسمه يزيد ابن القعقاع المدني ، والذي قرأ عليه نافع ، وحدث عنه مالك بن أنس ، وكان يقرىء قبل وقعة الحرة ، والذي مسحت على رأسه أم سلمة ، ودعت له ، وكان يصلي خلف القراء في رمضان ، يلقنهم يؤمر بذلك .

قال نافع : لما غُسِّل أبو جعفر ، نظروا ما بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف ، فما شك من حضره أنه نور القرآن[٥] .

---

(١) شذرات الذهب ، لابن عماد الحنبلي (٥/٢٨) .
(٢) طبقات الشافعية ، للسبكي (٤/٢٨٣) .
(٣) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .
(٤) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٧ ، ٢٨٨) .

وأسد الشام عبد الله اليونيني ، الذي كان دائم الذكر كثيره ، يحكي ابن كثير كيف كان موته فيقول : انصرف من الصلاة ، فقال للشيخ داود المؤذن ، وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدًا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ، ويتذكر أصحابه ، ومن أحسن إليه ، ولو بأدنى شيء ، يدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ، ثم استند يذكر الله وفي يده سبحة[1]. فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السبحة من يده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك ، فقال : لو بنينا عليه بنيانًا ، هكذا يشاهد الناس منه آية ، فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحي وكفن ، وصلي عليه ، ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى ، رحمه الله[2].

وانظر إلى حسن الخاتمة ، وكيف يكون الجزاء من جنس العمل فيما يحكيه الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في تباريحه .

حدثني أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي ، مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف ، عن شيخ القرّاء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رحمه الله تعالى أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته ، وكان يدرّس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء ، ثم مرض مرض الوفاة ، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى ، ففوجيء أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتيه يقعد ويدندن بكلام الله ، بصوت جهوري جذاب ، مدة ثلاثة أيام ختم فيهنّ القراءة، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها.

قال أبو عبد الرحمن : وكان خال أبي وابن عم جدي عمر بن محمد العقيل ، رحمهم الله ، مؤذنًا بمسجدنا الحسيني خمسة وثلاثين عامًا ، أدركت منها ربع قرن ، لم يتخلف عن فرض واحد لحرّ أوقرّ ، ومات في الرياض وعمره

---

(١) جوّزها ابن تيمية ، وللشيخ الألباني كُتيب في أنه لا يصح فيها حديث .

(٢) البداية والنهاية (١٠١/١٣) .

تسعون عامًا ، وكان مقعدًا ، فلما حضرته الوفاة بعد صحوة الموت وجده ابنه محمد واقفًا بعد أن كان مقعدًا ، يصدح بجمل الأذان : الله أكبر .. إلخ .

وأهل الرقائق والوعظ يذكرون كثيرًا من هِجِّيرى الشيوخ إذا خرفوا ، وأحسنهم هجيرى من كان سلوكه حميدًا ، ونيته سليمة ، ومعتقده محققًا ، فإنه يلهج بما كان عليه من النور والضياء(١).

حسن الظن بالله :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله »(٣).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه »(٤).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »(٥).

نزول الموت وأحواله :

قال الله تعالى :

﴿ فأما إن كان من المقربين فَرَوْح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين

---

(١) المجلة العربية ، العدد ١٧١ ، ص٧٠-٧١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٠١ .

(٣) رواه أحمد عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩١ .

(٤) رواه مالك والبخاري وأحمد والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن واثلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩٢ .

فنزلٌ من حميم وتصلية جحيم ﴾ [الواقعة : ٨٨-٩٤] .

قال ابن كثير :

﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ أي فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة ، في الجسد الطيب ؛ كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **فروح** ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حرزة : الراحة من الدنيا . وقال سعيد بن جبير والسدي : الروح : الفرح .

وعن مجاهد ﴿ **فروح وريحان** ﴾ جنة ورخاء ، وقال قتادة : فروح : فرحمة وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : وريحان : ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك ، من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن .

﴿ **وجنة نعيم** ﴾ وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين ، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه .

﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ فإذا بُشِّر بذلك أحب لقاء الله عز وجل ، والله تعالى للقائه أحب .

﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ قال البخاري : أي مُسَلَّم لك أنك من أصحاب اليمين .

﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ؛ أي لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، وهذا معنى حسن ويكون ذلك كقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**

تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلًا من غفور رحيم ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢][١].

عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «يُبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا حُضر المؤمن ، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضيًّا عنك ، إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان ؛ فيخرج كأطيب ريح المسك ؛ حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا ، حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذا الريح التي جاءتكم من الأرض ! فيأتون به أرواحَ المؤمنين ، فَلَهُمْ أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال : أما أتاكم ؟ قالوا : ذُهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا حُضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك ، إلى عذاب الله ، فيخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتوا بها باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ! حتى يأتوا بها أرواح الكفار »[٣].

وقال ﷺ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان ، يصعدان بها – فذكر من ريح طيبها – ويقول أهل السماء : روح طيبة ، جاءت من قِبل الأرض ، صلى الله عليك ، وعلى جسدٍ كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه – فذكر من نتنها – ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٠١/٤ - ٣٠٢) .
(٢) رواه أحمد ، وقال ابن كثير في التفسير ،(٤١٦/٤): إسناد صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .
(٣) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٤ .

به إلى آخر الأجل »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السِّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت . فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيّب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : ربِّ أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ؛ اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السُّفُّود[١] من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا . فيُستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ [الأعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحًا ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ؛ فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء : أن كذب عبدي ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها[٢] ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : ربِّ لا تقم الساعة »[٣] .

فانظر كيف يلوح الجزاء من جنس العمل واضحًا جليًّا ، كيف يتمثل له عمله أنيسًا له ، أو موحشًا له في قبره .

---

(١) عود من الحديد ، ساخن .

(٢) ريحها الشديدة الحرارة .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان والضياء عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٧٢ .

فإما خاتمة بيضاء كعَمَله الحسن ، وملائكة بيض الوجوه ، وكفن من حريرة بيضاء ، وريح طيبة ، كنفسه وروحه الطيبة ، ويأتيه عمله حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، للمؤمن طيب العمل .

وإن كان سيىء العمل أسوده ، فخاتمة سوداء كعمله الأسود ، وملائكة سود الوجوه ومسوح ، وريح جيفة ، ويأتيه عمله قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، للعاصي سيىء العمل . جزاءً وفاقًا .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحًا قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان . فيقال:مرحبًا بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى » .

فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر .

فيجلس الرجل الصالح في قبره ، غير فزع ولا مشغوف[1]، ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : كنت في الإسلام . [فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات من عند الله] فصدقناه ، فيقال له : هل رأيت الله ؟ فيقول : ما ينبغي لأحد أن يرى الله[2]. فيفرج له فرجة قبل النار ،

---

(١) مذعور . (٢) أي : يقظة في الدنيا .

فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها ، وما فيها ، فيقال له : هذا مقعدك ، ويقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله .

ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشغوفًا ، فيقال له : فيم كنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولًا فقلته . فيفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة إلى النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا فيقال : هذا مقعدك ، على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله[1].

فالصالح يقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله ، والطالح يقال له : على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله .

إذا كان الرجل صالحًا « يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ، ثم ينوّر له فيه ، ثم يقال : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

ينور له فيه كنور عمله ، والجزاء من جنس العمل ؛ « يملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون »[2] .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ غَسَّل ميتًا فستره ، ستره الله من الذنوب ، ومن كفنه كساه الله من السندس »[3].

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي : يحتمل أن يكون المراد ستر عورته ، ويحتمل أن المراد ستر

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٤ .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي وهو صحيح .

(٣) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٧٩ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٣٥٣ .

ما يبدو له من علامة ردية ؛ كظلمة ، ويحتمل الأمرين وهو أظهر .

« ومن كفنه كساه الله من السندس » قال النووي : فيه أنه يسن إذا رأى الغاسل ما يعجبه أن يذكره ، وإذا رأى ما يكره لا يحدث به ، وهكذا أطلقه أصحابنا ، لكن قال صاحب البيان : لو كان الميت مبتدعًا معلنًا ببدعته ، فينبغي ذكر ما يكره منه ؛ زجرًا للناس عن البدعة[1].

أخي ، لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك ، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم ، ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخي ، إن الموتى لم يبكوا من الموت ، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت ، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها ، فأي ساعة مرّت على من مضي ؟ وأي ساعة بقيت علينا ؟ .

أخي ، إن الآمال تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات ، ويسلي عن اللذات ، ويرغب في الباقيات الصالحات .

أخي ، اعمل ما وجدت سبيلًا للعمل ، وما دمت في فسحة ومَهَل ، ومهدّ المضجع ، ووطىء لذلك المصرع.

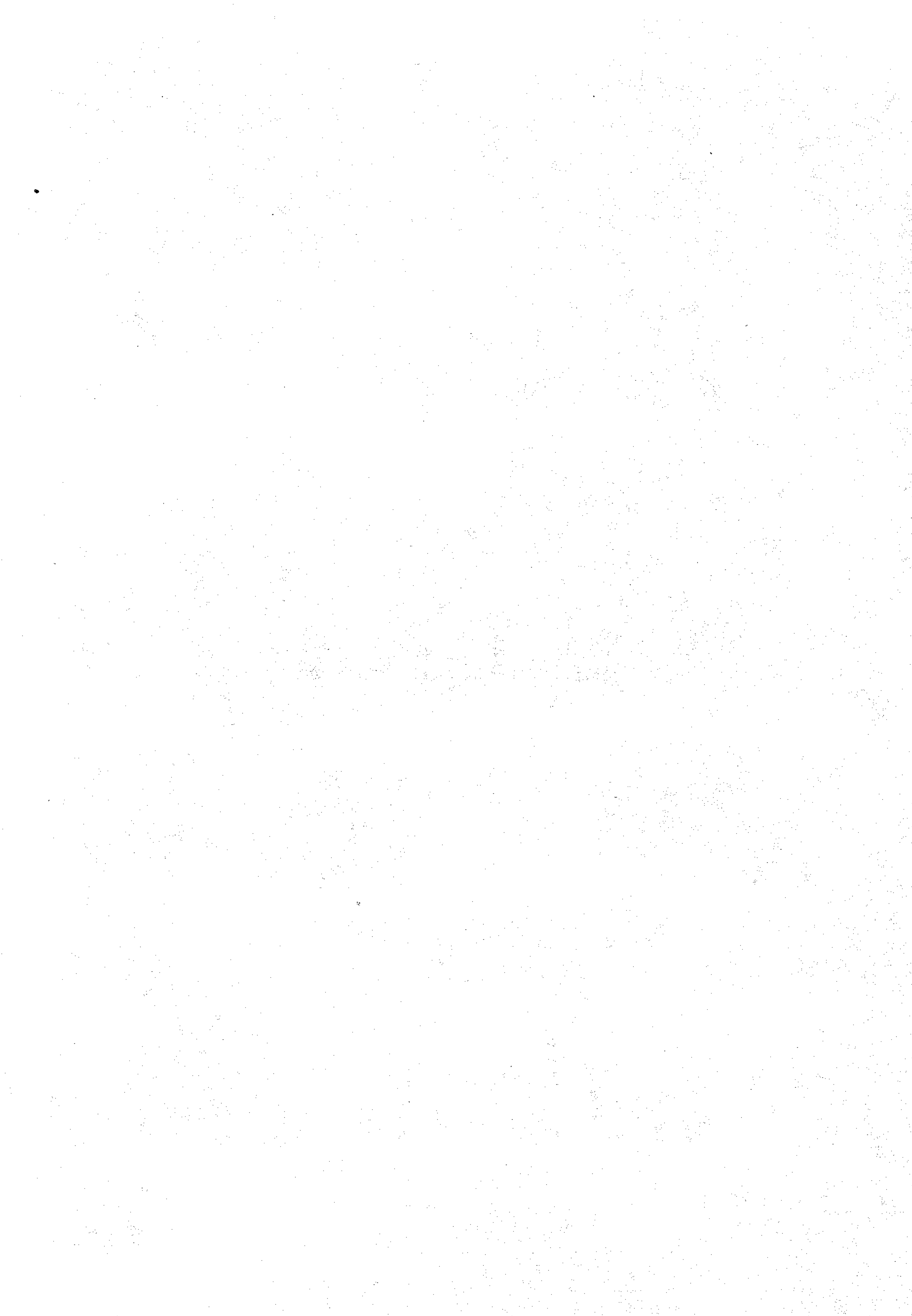
فياهذا سترحل عن قريب   إلى قوم كلامهمُ السكوتُ

* * *

---

(١) فيض القدير (٦/١٨٥) .

القيامة الجنة والنار



□ يوم القيامة □

هذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كوّرت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت . قد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها ؛ لتقف على كثرة معانيها[1].

توضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، بُرزت الجحيم ، وأُغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان .

فيأيها الإنسان ، ما غرّك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق ، فقارفت الفجور ، وظننت أن يوم الفصل بعيد ، وأن الجزاء ليس من جنس العمل ، وربك يا غافل ليس بظلام للعبيد .

قال تعالى : **﴿ ومن يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرًا ﴾** [الإسراء : ٩٧] .

قال ابن كثير :

وقوله : **﴿عميًا﴾** أي لا يبصرون. **﴿وبكمًا﴾** يعني لا ينطقون. **﴿وصمًّا﴾** لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ، جزاء لهم ، كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك ، أحوج ما يحتاجون إليه[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٤٩/٤) .
(٢) تفسير ابن كثير (١٢٠/٥ - ١٢١) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حُوّلت وجوههم أعضاء مشي، عوضًا عن الأرجل.

ثم كانوا ﴿**عميًا وبكمًا**﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن.

﴿ **وصمًا** ﴾ جزاء امتناعهم عن سماع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ [فصلت : ٥] ، وقال عنهم : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] وقال عنهم: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى**﴾ [الإسراء : ٧٢] ؛ أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محرومًا من متعة النظر ، وهذه حالتهم عند الحشر(١).

قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذِكْري فإن له معيشة ضَنْكًا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه :١٢٤- ١٢٦].

قال ابن كثير :

يقول : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ أي : في الدنيا ، ﴿ **قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ ؛ أي لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك معاملة من ينساك ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾(٢).

فإن الجزاء من جنس العمل .

قال ابن جرير :

قال الله حينئذٍ للقائل له : ﴿ **لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ :

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢١٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٣١٧) .

فعلتُ ذلك بك ، فحشرتك أعمى ، كما أتتك آياتي ، وهي حججه وأدلته ، وبيانه الذي بيّنه في كتابه ، ﴿ فنسيتها ﴾ يقول : فتركتها وأعرضت عنها ، فكذلك اليوم ننساك فتتركك في النار(١).

قال ابن القيم :

﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر ، وأنه جوزي من جنس عمله ، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله ، وعميت عنه بصيرته ؛ أعمى الله بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك هو الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته ، عمى بصره في الآخرة ، وعلى تركه ذكره . تركه في العذاب(٢).

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والإشارة في ﴿ **كذلك أتتك آياتنا** ﴾ راجعة إلى العمى المضمن في قوله : ﴿ **لم حشرتني أعمى** ﴾ ؛ أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها ، كنت نسيت آياتنا حين أتتك ، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تُدعى إليه ، فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاءً وفاقًا(٣).

قال سيد قطب :

﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ وذلك ضلال من نوع ضلالته في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى ، حتى إذا سأل : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ كان الجواب : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾.

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه ، وهو أنفسُ شراء وذخر ، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له ؛

---

(١) تفسير الطبري (٢٣١/٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٤٥/١) التفسير القيم ص٣٦١ .

(٣) التحرير والتنوير (٣٣٢/١٦) .

فلم يبصر من آيات الله شيئًا ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكًا ويحشر في يوم القيامة أعمى[(١)].

قال القشيري :

من كان بحالة لقي الله بها ، فمن كان في الدنيا أعمى القلب ، يحشر على حالته ، ومن يعش على جهل يحشر على جهل ، ولذا يقولون : ﴿ **مَنْ بعثنا من مرقدنا** ﴾ [يسٓ : ٥٢] إلى أن تصير معارفهم ضرورية ، وكما يتركون اليوم النذير في آياته، يُتركون غدًا في العقوبة من غير رحمة على ضعف حالاتهم»[(٢)].

جرت سنته بأن يجازي كلًّا بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسه سيلقى غبَّه على الخير خيرًا ، وعلى الشر شرًّا .

قال تعالى : ﴿ **يوم يُكشف عن ساقٍ ويدعَون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون** ﴾ [القلم : ٤٢-٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ أي في الدار الآخرة ، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه ، مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ : « يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُولُس ،

---

(١) الظلال (٤/٢٣٥٥-٢٣٥٦) . (٢) لطائف الإشارات (٢/٤٨٦) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/) .

تعلوهم نار الأنيار ، يُسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال »[١].

قال رسول الله ﷺ : « أَخْنَعُ الأسماءِ عند الله يوم القيامة رجل تَسمَّى ملك الأملاك لا مالك إلا الله »[٢].

قال المناوي :

« أخنع » أي : أفحش .

«الأسماء» أي: أقتلها لصاحبه، وأهلكها له؛ يعني أدخلها في الخنوع؛ وهو الذل والضعة والهوان .

« عند الله يوم القيامة » قيّد به مع كونه في الدنيا كذلك ؛ إشعارًا بترتب ما هو سبب عنه من إنزال الهوان وحلول العذاب .

« رجل » أي : اسم رجل ، وقال القرطبي : المراد بالاسم المسمى .

« تسمى » أي : سمى نفسه ، أو سماه غيره فأقره ورضي به .

« ملك الأملاك » أو ما في معناه ، نحو شاهٍ شاهان ، أو شاهان شاه .

وقال القرطبي : وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق ، لما ثبت في الفطرة أنه « لا مالك » لجميع الخلائق .

« إلا الله » ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق .

وقال الطيبي : فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ؛ لأن وصف المالكية مختص بالله لا يُتجاوز ، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه ، فمن تعدى طوره فله في الدنيا الخزي والعار ، وفي الآخرة الإلقاء في النار[٣].

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي عن ابن عمرو ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٧٨٩٦ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) فيض القدير (١/٢٢٠-٢٢١) .

وعيدُ منكري الرؤية :

قال تعالى : ﴿ **كلَّا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ [المطففين : ١٥] .

قال ابن القيم بعد ذكر هذه الآية :

قد تقدم قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون** ﴾ ، وقول عبد الله ابن المبارك : ما حَجَب الله عنه أحدًا إلا عذَّبه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون** ﴾ [المطففين : ١٦-١٧] قال : بالرؤية . وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ، ليست فيها سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « هل تُضَارّون في رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فيه سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « فوالذي نفس محمد بيده ، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . فيلقى العبدَ فيقول : أي قُل، ألم أكرمْك، وأسوِّدك ، وأزوّجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأُذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي . فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول لا . فيقول : أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني فيقول : أي قل ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : إني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا ربِّ ، آمنت بك وبكتبك ورسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذًا ، ثم يقال له : الآن نبعث شاهدًا عليك ، فيتفكر في نفسه : مَنْ الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي ، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » .

فاجمعْ بين قوله : « إنكم سترون ربكم » وقوله لمن ظن أنه غير ملاقيه : « فإني أنساك كما نسيتني » . وإجماع أهل اللغة على أن اللقاء المعاينة بالأبصار ، يحصل لك العلم بأن منكري الرؤية أحق بهذا الوعيد .

ومن تراجم أهل السنة على هذا الحديث : بابٌ في الوعيد لمنكري الرؤيه ،

كما فعل شيخ الإسلام وغيره ، وبالله التوفيق[١].

فمن أنكر الرؤيه لا يرى ربه جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس القول والعمل .

أفسحر هذا ؟ :

قال تعالى : ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٥- ١٦] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

تنبيه المخاطبين على فساد رأيهم ، إذ كذبوا بالحشر والعقاب ، فرأوا ذلك عيانًا .

وفرع على هذا التنبيه تنبيه آخر على ضلالهم في الدنيا بقوله : ﴿ **أفسحر هذا** ﴾ ، إذا كانوا حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء يقولون : هذا سحر ، وإذا عرض عليهم القرآن قالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم ، وبين التهكم عليهم بما كانوا يقولونه ، دخلت فاء التفريع ، وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر : تجزون مثل عملكم لا أكثر منه ، فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء ، كما انتفى الظلم عن أصله ، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء ، إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل[٢].

قال الشيخ سيد قطب عن الكافرين :

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : ﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ [الطور : ١٤] .

وبينما هم في هذا الكرب ، بين الدّع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم ، يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب ﴿**أفسحر**

---

(١) حادي الأرواح ص٣٤١-٣٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٤٣-٤٥) .

هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ؟ فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟! أم إنهم لا يبصرون هذه النار ، كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟! وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس : ﴿ **اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة ، من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر ، سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع ، فلا تغيير فيه ولا تبديل[1].

النـــار :

تأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ، ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البُرآء من سوء المنقلب . وخرج المنادي من الزبانية قائلًا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ [الدخان : ٤٩] فأسكنوه دارًا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم منها فكاك ، قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك ،

---

(١) الظلال (٦/٣٣٩٦) .

قد حق علينا الوعيد . يا مالك ، قد أثقلنا الحديد ، يا مالك ، قد نضجت منا الجلود ، يا مالك ، أخرجنا منها فإنا لا نعود ، فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان . لا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف فهم غرقى في النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضائقها ، ويتحطمون في دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، كسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، أعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، غُلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيبٌ سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم[1].

فالعجب منك حين تضحك ولست تدري بما سبق القضاء في حقك ، وإلى أي الدارين موردك ، فاعرض نفسك على الآيتين تعرف مستقرك من الدارين : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم** ﴾ [الانفطار : ١٣- ١٤] .

قال تعالى : ﴿ **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين** ﴾ [الأعراف : ٤١].

قال ابن جرير :

يقول جلّ ثناؤه: لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿**من جهنم مهاد**﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع كالفراش الذي يُفرش ، والبساط الذي يُبسط . ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ وهو جمع غاشية ، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم .

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٥٦٣-٥٦٤) .

وإنما معنى الكلام : لهم من جهنم مهاد ، من تحتهم فُرُش ، ومن فوقهم منها لُحُف ، وإنهم بين ذلك[١].

قال القشيري :

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا ، فتدنَّسَ بالغفلة باطنهم ، وتلوث بالزّلة ظاهرهم ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ، فمن فوقهم عذاب ، ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم ، في القلب من ضيق العيش ، واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل[٢].

قال تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ [الأعراف : ٤٦] .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] ، وهو الأعراف الذي قال الله تعالى : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾[٣].

قال القشيري :

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق ، لمَّا حُجبوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصّ به المؤمنون من الزلفة والقربة ؛ حُجبوا في الانتهاء عما خُصّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال : حجاب ، وأيّ حجاب ! لا يُرفع بحيلة ، ولا تنفع معه وسيلة ، حجاب سبق به الحكم ، قبل الطاعة والجُرم[٤].

قال تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم في خالدون** ﴾ [يونس : ٢٧].

---

(١) تفسير ابن جرير (١٨٢/٥) .

(٢) لطائف الإشارات (٥٣٤/١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤١٣/٣) .

(٤) لطائف الإشارات (٥٣٦/١) .

قال ابن جرير :

يقول تعالى ذكره : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ في الدنيا ، فعصوا الله فيها ، وكفروا به وبرسوله ، ﴿ جزاء سيئة ﴾ من عمله السيىء الذي عمله في الدنيا ﴿ بمثلها ﴾ من عقاب الله في الآخرة[1].

قال ابن كثير :

لما أخبر الله تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عَطَف بذكر حال الأشقياء ، فذكر عدله تعالى فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك[2].

قال القرطبي :

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعد مماثلًا لذنوبهم ؛ أي غير مظلومين ، وفعل الرب غير معلّل بعلة[3].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ جزاءً وفاقًا ، لا يزدادون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئًا[4].

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزداد عليهم السوء ، ولكن ﴿ جزاء سيئة بمثله ﴾[5].

قال القشيري :

والذين كسبوا السيئات ، وعملوا الزلّات ، لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء

---

(١) تفسير الطبري (٦/١٠٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٠٠) .

(٣) تفسير القرطبي (٥/٣١٧١) .

(٤) تفسير المنار (١١/٣٥١) .

(٥) تفسير الظلال (٣/١٧٧٩) .

في ﴿ بمثلها ﴾ صلة ؛ أي للواحد واحد . سيمُوا ذل الحجاب ، ومُنوا بتأييد العذاب، وأصابهم هوان البعاد، وآثار الحجاب على وجوههم لائحة، فإن الأسرة تدل على السريرة(١).

قال تعالى : **﴿ إن جهنم كانت مرصادًا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا جزاءً وفاقًا ﴾** [النبأ : ٢١-٢٦].

قال ابن كثير :

وقوله تعالى: **﴿جزاءً وفاقًا﴾** أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . قاله مجاهد وقتادة وغير واحد(٢).

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابًا وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ [النبأ : ٢٧- ٢٨]

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر ، وهما أصلان :

أحدهما : عَدَميّ ، وهو إنكار البعث .

والآخر : وجودي ، وهو نسبتهم الرسول ﷺ والقرآن للكذب .

فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي ، وهو حرمانهم من البرد والشراب . وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي ، وهو الحميم يراق على أجسادهم ، والغساق يمر على جراحهم(٣).

قال سيد قطب :

﴿ جزاء وفاقًا ﴾ يوافق ما أسلفوا وما قدموا(٤).

وقال تعالى عن أصحاب الشمال : **﴿ في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مُترفين ﴾** [الواقعة : ٤٢- ٤٥] .

---

(١) لطائف الإشارات (٩٢/٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤٦٥/٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٨/٣٠) .

(٤) الظلال (٦/٨-٣٨) .

قال البقاعي :

كانوا في الدنيا في سعة من العيش ، منهمكين في الشهوات ، مستمتعين بها ، متمكنين منها ، لترامي طباعهم إليها ، فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا ، والتكبر على الدعاة إلى الله ، وفي الآخرة شدة الألم ، لرقة أجسامهم المهيئة للترف بتعودها بالراحة ؛ بإخلادها إليها وتعويلها عليها[١] .

فجازاهم بطعام كانت تأنف منه البهائم في دار الدنيا ، وهو الزقوم ؛ الشجرة المنتنة البشعة المنظر ، يملئون منه البطون ، يشربون عليه من الحميم ، الذي ضوعف إحماؤه ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، جزاءً وفاقًا .

الجنــة :

لمّا علم الموفَّقون ما خُلقوا له ، وما أريد بإيجادهم ، فإذا عَلَمُ الجنة قد رُفع لهم ، فشمَّروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح ، فاستقاموا عليه ؛ علموا أن الربح ، كل الربح ، إذا حُشروا إلى الرحمن وفدًا ، والخسران كل الخسران إذا سيقوا إلى جهنم وردًا؛ فأوقفوا اللحظات والسكنات، ووجيب القلوب والأنفاس على الجنة حتى نالوها .

فهم في روضات الجنة يتقلبون ، وعلى أسرتها تحت الحِجَال يجلسون ، وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون ، وبالحور العين يتنعمون ، وبأنواع الثمار يتفكهون ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاءً بما كانوا يعملون[٢].

ينظرون إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ،

---

(١) نظم الدرر (٢١٣/١٩) .
(٢) حادي الأرواح ص٧ .

لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون ، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، لا يخافون ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون .

فياعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها .

تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد ، فما قلّب ولا استَامَ إلا أفرادٌ من العباد ، فواعجبا لها . كيف نام طالبها ؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها ؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ؟ وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها ؟ وكيف قرّت دونها أعين المشتاقين ؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين ؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين[1].

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان ، لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وألا يؤثر عليها الحظ الفاني الخسيس ، ولا يبيع جنة عرضها الأرض والسمٰوات بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات . ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم . وسماع الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والألحان . والجلوس على منابر اللؤلؤ والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد .

يقول يحيى بن معاذ : تَرْك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد ، وترك الدنيا مهر الآخرة .

وقال: في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فياعجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ، ويترك العز في طلب ما يبقى[2].

قال تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [يونس : ٢٦] .

---

(١) حادي الأرواح ص٧ .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٥٧٧) .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا ، بالإيمان والعمل الصالح ، أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾[١] [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن جرير :

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الحسنى والزيادة ، اللتين وعدهما المحسنين من خلقه ، فقال بعضهم : الحسنى هي الجنة ، جعلها الله للمحسنين من خلقه جزاء . والزيادة عليها : النظر إلى الله تعالى[٢].

قال الرازي :

وقال صاحب الكشاف : المراد : المثوبة الحسنى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[٣].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام ، فوصلوا بالسَّير عليه إلى غايته ، وهي دار السلام ؛ أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى ؛ أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم[٤].

قال سيد قطب :

فأما الذين أحسنوا ؛ أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩٨/٤) .
(٢) تفسير الطبري (١٠٤/٦) .
(٣) تفسير مفاتيح الغيب (٣٣٨/٨) .
(٤) تفسير المنار (٣٥٠/١١) .
(٥) الظلال (١٧٧٩/٣) .

المقربون من أهل الجنة :

بعد أن ذكر الله جزاءهم في سورة الواقعة قال تعالى : ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] .

قال الإمام البقاعي في كتابه نظم الدرر :

لما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء ، دلّ على أن أعمالهم كانت كذلك ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فقال تعالى : ﴿ **جزاء** ﴾ أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء ، ﴿ **بما كانوا** ﴾ جبلّة وطبعًا ﴿ **يعملون** ﴾ أي يجددون عمله على جهة الاستمرار[1] اهـ .

قال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرًا ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ [الإنسان : ١١- ١٨].

قال الزمخشري :

﴿ **ولقّاهم نضرة وسرورًا** ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه ، وسرورًا في القلوب .

﴿ **بما صبروا** ﴾ بصبرهم على الإيثار .

﴿ **جنة وحريرًا** ﴾ المعنى : وجزاهم بصبرهم على الإيثار ، وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستانًا فيه مأكل هنّي ، وحريرًا فيه ملبس بهي ؛ يعني أن هواءها معتدل ، لا حرّ شمس يحمي ، ولا شدة برد تؤذي .

قال البقاعي :

ولما كان فعلهم هذا خالصًا لله ، سبب عنه جزاءهم ، فقال مخبرًا أنه دفع

---

(١) نظم الدرر (٢٠٥/١٩) .

(٢) الكشاف للزمخشري (١٦٩/٤) .

عنهم المضار ، وجلب لهم المسار : ﴿ **فوقاهم الله** ﴾ أي الملك الأعظم ، بسبب خوفهم ﴿**شر ذلك اليوم**﴾ أي العظيم، وأشار إلى نعيم الظاهر بقوله: ﴿**ولقاهم**﴾ أي تلقية عظيمة ، فيه وفي غيره ﴿ **نضرة** ﴾ أي حسنًا ونعمة تظهر على وجوههم ، وعيشًا هنيئًا ، وإلى نعيم الباطن بقوله : ﴿ **وسرورًا** ﴾ أي دائمًا في قلوبهم ، في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في الآخرة وخزيهم .

وأشار إلى المسكن بقوله : ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أي بسبب ما أوجدوه من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة ، واجتناب المعصية ، ومنع أنفسهم الطيبات ، وبذل المحبوبات ﴿ **جنة** ﴾ أي بستانًا جامعًا يأكلون منه ما يشتهون ، جزاء على ما كانوا يطمعون ، ولما ذكر ما يكسو الباطن ، ذكر ما يكسو الظاهر فقال : ﴿ **وحريرًا** ﴾ أي هو في غاية العظمة .

وقال : ﴿ **تذليلًا** ﴾ أي سهل تناولها تسهيلًا عظيمًا ، لا يَردُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، لكل من يريد أخذها على أي حالة كان من اتكاء وغيره ، فإن كانوا قعودًا تدلت إليهم ، وإن كانوا قيامًا وكانت على الأرض ارتقت إليهم ، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله .

﴿ **ويطاف** ﴾ أي من أيّ طائف ، لكثرة الخدم .

﴿ **عليهم بآنية** ﴾ جمع إناء ؛ جزاء على طوافهم على المحتاجين بما يصلحهم[1].

قال ابن القيم :

قال تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا ، أن شراب الأبرار يمزج منها ؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله ، فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها**

---

(١) نظم الدرر (٢١/١٤١-١٤٢) .

المقربون ﴾ [المطففين : ٢٢-٢٨] .

فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين : بالكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة ، وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ، وما يحدث لهم باجتماع الشَّرابين ، ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى ، أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده ، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر ، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن شرابهم مزج أولًا بالكافور ، وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل فيعدله .

والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى ، وأنهما نوعان لذيذان من الشراب ، أحدهما : مزج بكافور . والثاني : مزج بزنجبيل ، وأيضًا فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرده في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا** ﴾ فإن في الصبر من الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : ﴿**عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة** ﴾ [الإنسان : ٢١] فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا** ﴾ فهذه زينة الباطن ، المطهر لهم من كل أذى ونقص .

ونظيره قوله تعالى لأبيهم آدم عليه السلام : ﴿ **إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ [طه : ١١٨-١١٩] فضمن له ألّا يصيبه ذل الباطن بالجوع ، ولا ذل الظاهر بالعري ، وألا يناله حَرُّ الباطن بالظمأ ، ولا حر الظاهر بالضحى[1].

---

(١) حادي الأرواح ص١٨٤-١٨٥ .

يقول ابن القيم :

وشرابهم من سَلْسَبيل مزجه الـ ... كافورُ ذاك شرابُ ذي الإحسانِ
هذا شرابُ أولي اليمين ولكن الْـ ... أبـرارُ شُرْبُهُـمُ شرابٌ ثـانِ
يُدْعى بتسنيمٍ سنامٌ شُرْبُهُـمْ ... شِرْبُ المقرَّبِ خيرةَ الرحمنِ
صَفّى المُقربُ سعْيَه فصفا له ... ذاك الشرابُ فتلك تَصفِيَتانِ
لكنّ أصحاب اليمين فأهل مزْ ... جٍ بالمباح وليس بالعصيـان
مُزِجَ الشرابُ لهم كما مزجوا هُمُ الْـ ... أعمالَ ذاك المزج بالميـزانِ[1]

ولباسهم فيها حرير :

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حِلْية الجنة وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا »[2].

قال المناوي :

« إن كنتم تحبون حلية الجنة » زينتها ، والمراد حلي الذهب والفضة .

« وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا » فإن من لبسهما من الرجال ، ومثلهم الخَنَاثَى في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة ، كما في خبر آخر ، ويحرم على الرجل والخُنْثى حلي النقدين ، والحرير لغير ضرورة أو حاجة[3].

نكاح أهل الجنة :

قال ابن القيم : وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام ، فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : « إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »

---

(١) النونية لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٣٨ ، وتخريج المشكاة رقم ٤٤٠٤ ، وصحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٣) فيض القدير (٣/٣٥-٣٦) .

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك . ومن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون ، ومن استوفاها هنا حرمها هناك ، أو نقص كمالها ، فلا يجعل الله لذة من أوضع في معاصيه ومحارمه كلذة من ترك شهوته لله أبدًا[١].

أولئك يجزون الغرفة :

قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] .

قال ابن القيم : تأمل كيف جعل جزاءَهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوءِ خطاب الجاهلين لهم ، فبُدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم[٢].

وقال تعالى : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] .

قال ابن الجوزي : تعبوا فأريحوا ، وزهدوا فأبيحوا ، زال نَصَبُهم ، وارتفع تعبهم ، وحصل مقصودهم ، ورضي معبودهم[٣].

سماع أهل الجنة :

قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ، ما سمعها أحد قط ، [إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قومٍ كرام ، ينظرن بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يَمُتْنَه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه] »[٤].

---

(١) حادي الأرواح ص٢٤٠ .

(٢) حادي الأرواح ص١٤٢ .

(٣) التبصرة (٢/٢١٤-٢١٥) .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ، وأبو نعيم ، والضياء في صفة الجنة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٥٧ ، والروض النضير ٤٩٦ .

وفي الصحيح من فوائد سمويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الحور العين لتغنين في الجنة ويقلن : نحن الحور الحسان ، خُبِّئْنا لأزواج كرام » .

قال المناوي :

إن أزواج أهل الجنة زاد في رواية : « من الحور » .

« ليغنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ ، ما سمعها أحد قط » أي بأصوات حسان ، ما سَمِع في الدنيا مثلها أحد قط[1].

فمن أراد سماع الحور فلينزهِ سمعه عن غناء أهل الفجور ، جزاءً وفاقًا .

يقول ابن القيم رحمه الله :

قال ابنُ عباسٍ ويُرْسلُ ربنا ... ريحًا تهزُّ ذوائبَ الأغصانِ
فَتُثير أصواتًا تَلَذ لِمسمع الْـ ... إنسانِ كالنَّغماتِ بالأوزانِ
يالذةَ الأسماع لا تتعوضي ... بلذاذةِ الأوتار والعيدانِ
أَوَمَا سمعت سماعهم فيها غنا ... ءالحور بالأصوات والألحانِ
وَاهًا لذيّاك السماعِ فإنه ... مُلئت به الأذنان بالإحسانِ
وَاها لذيّاك السماعِ وطيبه ... من مثل أقمارٍ على أغصانِ
وَاها لذيّاك السماعِ فكم به ... للقلب من طربٍ ومن أشجانِ
وَاها لذيّاك السماعِ ولم أقل ... ذيّاك تصغيرًا له بلسانِ
ما ظن سامعه بصوتٍ أطيب الْـ ... أصوات من حور الجنان حسانِ
نحن النواعم والخوالد خيِّرَا ... تٌ كاملات الحسن والإحسانِ
لسنا نموت ولا نخاف وما لنا ... سخطٌ ولا ضِغْنٌ من الأضغانِ
طوبى لمنْ كُنَّا له وكذاك طو ... بى للذي هو حظنا لفظانِ
في ذاك آثار رُوين وذكرها ... في الترمذي ومعجم الطبراني
ورواه يحيى شيخ الأوزاعيّ تفـ ... ـسيرًا للفظة يُحْبرون أغانِ

---

(١) فيض القدير (٢/٤٢٣) .

نزّه سماعَك إن أردت سماع ذيّـــــاك الغنا عن هذه الألحانِ
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فتُحْـــرم ذا وذا ياذِلَّةَ الحرمـانِ(١)

قال تعالى : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦].

قال ابن كثير :

﴿ **فاليوم** ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ **الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك .

﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أي إلى الله عز وجل ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، وليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟! .

يعني قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله(٢) .

قال القرطبي :

﴿ **من الكفار يضحكون** ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا(٣).

قال ابن جرير :

﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ يقول تعالى ذكره : هل أُثيب الكفار ، وجُزُوا ثواب ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين ، من سخريتهم منهم ، وضحكهم بهم ، بضحك المؤمنين منهم في الآخرة ، والمؤمنون على الأرائك ينظرون ، وهم في النار يعذبون(٤).

---

(١) النونية لابن القيم .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٧٢) .
(٣) تفسير القرطبي (١٠/٧٠٥٩) .
(٤) الطبري (١٢/١١٢) .

قال محمد الطاهر عاشور :

وأفادت فاء السببية في قوله : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ أن استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سببًا في جزائهم بما هو عليه من نوعه في الآخرة ، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين ، فكان جزاءً وفاقًا[١].

قال سيد قطب :

﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ . والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ ؟ .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا الثواب المعروف من الكلمة ، فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا ، فهو ثوابهم إذن . ويا للسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام[٢].

قال القاضي أبو السعود :

﴿ **يضحكون** ﴾ وتقديم الجار والمجرور تحقيقًا للقصر والمقابلة ؛ أي فاليوم هم من الكفار يضحكون ، لا الكفار منهم ، كما كانوا يفعلون في الدنيا .

﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ فإنه صريح في أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا ، فلابد من المجانسة والمشاكلة حتمًا ، والتثويب والإثابة والمجازاة[٣].

قال البقاعي :

﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير (٢١٤/٣٠) .
(٢) الظلال (٣٨٦١/٦) .
(٣) تفسير أبي السعود (١٣٠/٩) .

﴿ يضحكون ﴾ قصاصًا وجزاء ، حين يرون ما هم فيه من الذل ، سرورًا بحالهم ، شكرًا لله على ما أعطاهم من النجاة من النار والنقمة من أعدائهم . قال أبو صالح : تفتح لهم الأبواب ، ويقال : اخرجوا ، فيسرعون ، فإذا وصلوا إلى الأبواب غلقت في وجوههم ، وردوا على أقبح حال ، فيضحك المؤمنون . ويالها من خيبة وخجلة ، وسواد وجه ، وتعب قلب ، وتقريع نفس من العذاب بالنار ، وبالشماتة والعار .

﴿ هل ثُوب ﴾ بناه للمفعول لأن الملذذ مطلق مجازاتهم .

﴿ الكفار ﴾ أي وقع تثويب العريقين في الكفر ؛ أي إعطاؤهم الثواب والجزاء على أنهى ما يكون .

﴿ ما كانوا ﴾ أي نفس فعلهم بما هو لهم كالجبلات .

﴿ يفعلون ﴾ بدواعيهم الفاسدة ، ورغباتهم المعلولة .

وقد علم أن لهم الويل ، الذي افتتحت السورة بالتهديد لمن يفعل فعل من لا يظن أنه يجازى على فعله ، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء ، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك ، وجفاء العدل والوفاء ، والله الهادي للصواب ، وإليه المرجع والمآب[1].

يقول ابن القيم :

ضحكوا من الكفار يومئذٍ كما ... ضحكوا هُمُ منهم على الإيمانِ
وأثابهم نظرًا إليه ضِدَّ ما ... قد قَالَهُ فيهِمْ أولو الكفرانِ
فلذاك فسّرها الأئمة أنـه ... نظر إلى الرب العظيمِ الشأنِ
للَّهِ ذاك الفهمُ يؤتيه الذي ... هو أهله مَنْ جادَ بالإحسانِ
والله لولا رؤية الرحمن في الـ ... ـجناتِ ما طابت لذي العرفانِ
أعلى النعيمِ نعيمُ رؤية وجهه ... وخطابه في جنة الحيـوانِ
وأشدُّ شيءٍ في العذاب حجابه ... سبحانه عن ساكني النيران

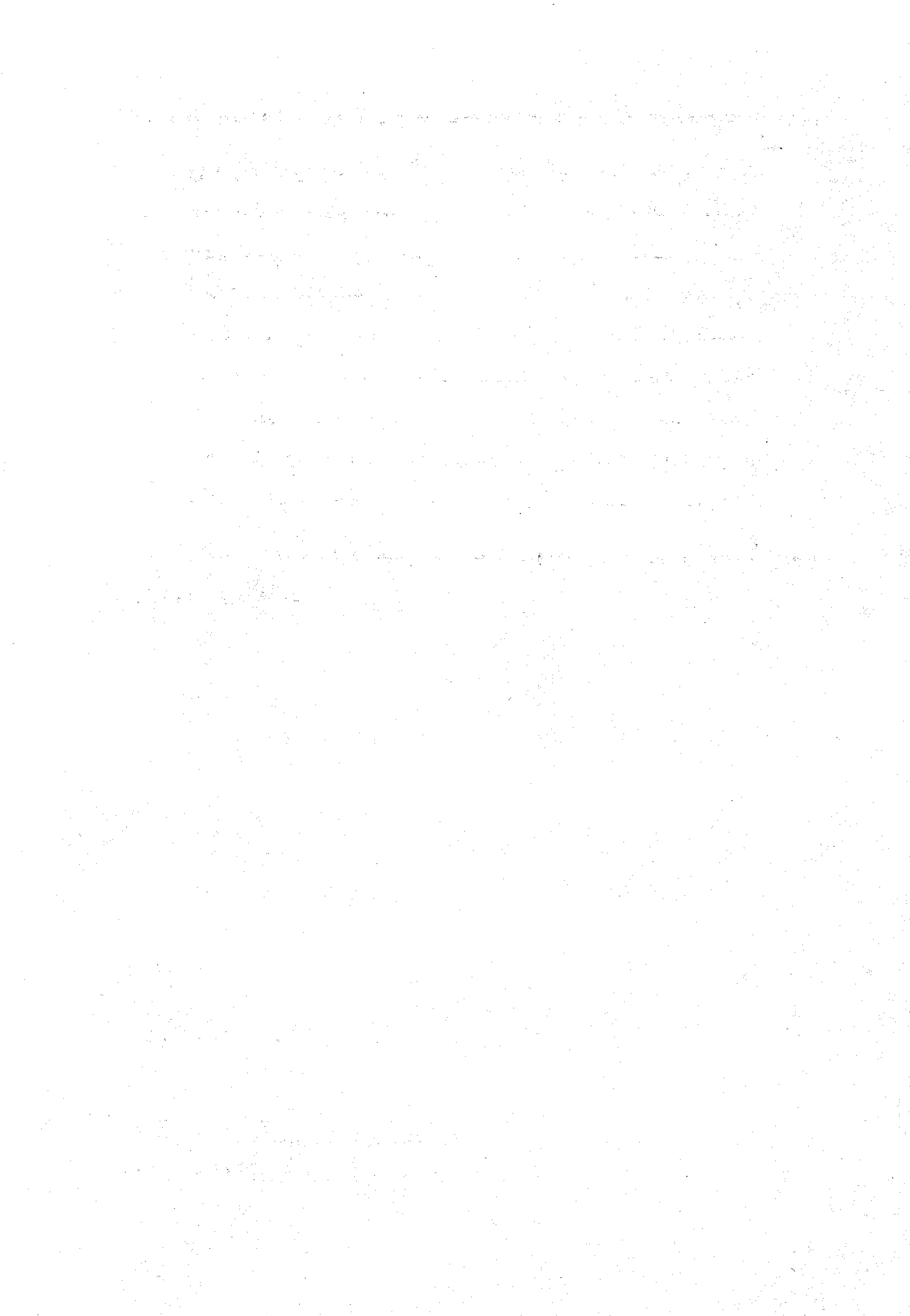
(١) نظم الدرر (٢١/٣٣٣-٣٣٤) .

وإذا رآه المؤمنون نَسُوا الذي ... هُمْ فيه مما نالتِ العَيْنانِ
فإذا توارى عنهمُ عادوا إلى ... لذاتهم من سائرِ الألوان
فلهم نعيمٌ عند رؤيتِهِ سوى ... هذا النعيمِ فحبَّذا الأمرانِ
أوَما سمعت سؤالَ أعرفِ خلقه ... بجلالة المبعوثِ بالقرآنِ
شوقًا إليه ولذة النظر التي ... بجلال وجه الرب ذي السلطانِ
فالشوقُ لذةُ روحه في هذه الـ ... ـدُّنيا ويوَم قيامةِ الأبدانِ
تلتذ بالنظر الذي فازت به ... دون الجوارحِ هذه العينانِ
والله ما في هذه الدنيا ألـ ... ـذٌّ من اشتياق العبد للرحمنِ
وكذاك رؤية وجهه سبحانه ... هي أكمل اللذات للإنسانِ[1].

اللهم إنا نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

* * *

(١) النونية لابن القيم .



احفظ الله يحفظك



□ احفظ الله يحفظك □

عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا ، فقال : « يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف »(1) .

وبلفظ آخر عن ابن عباس قال : كنت رديف النبي ﷺ فقال : « يا غلام – أو يا غليم – ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى . فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جفّ القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا »(2) .

---

(1) رواه أحمد والترمذي ، واللفظ له . وأبو يعلى في مسنده ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق حنش الصنعاني عن ابن عباس ، وإسناده حسن .

(2) إسناده حسن : رواه أحمد ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وفي الأسماء والصفات من طريق حنش أيضًا .
قال ابن رجب في نور الاقتباس : وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس . وهو إسناد حسن لا بأس به . نور الاقتباس ، لابن رجب الحنبلي تحقيق محمد بن ناصر العجمي ص٣٢، ٣٣ .

قال الإمام أبو الفرج في كتابه صيد الخاطر .

تدبرت هذا الحديث فأدهشني ، وكدت أطيش . ثم قال : فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث ، وقلة الفهم لمعناه .

يقول الشيخ عائض القرني : « احفظ الله يحفظك » لا تزال تكرر هذه الكلمة ، ما دام في الأرض إسلام ، وما دام في الأرض مسلمون .

مَنْ يتق الله يحُمد في عواقبهِ ويكفه شرَّ من عزّوا ومنْ هانُوا
من استجار بغير الله في فزعٍ فإن ناصرَه عجزٌ وخذلانُ
فالزم يديك بَحبلِ الله معتصمًا فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ

« احفظ الله يحفظك » قال ابن رجب الحنبلي : يعني أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله ، فإن الجزاء من جنس العمل[١].

وقال رحمه الله : يعني احفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده ، فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أُمر به إلى ما نهي عنه ، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعًا ، وترك المحرمات كلها . وذلك كله يدخل في حفظ حدود الله ، كما ذكره الله في قوله : ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ [التوبة : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ مَنْ خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ﴾ [ق : ٣٢ ، ٣٣] وفُسِّر الحفيظ هٰهنا بالحافظ لأوامر الله ، وفُسِّر بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها ، وكلاهما يدخل في الآية .

ومَن حفظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضًا ، والكل يرجع إلى معنى واحد . فأمره ﷺ لابن عباس أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله[٢].

ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات الصلوات الخمس ، ولقد سمى الله سبحانه المواظبة على الصلاة وأدائها حفظًا ، فقال سبحانه : ﴿ **والذين هم على**

---

(١) نور الاقتباس ص٣٩ طبع دار الأقصى ، الكويت .
(٢) نور الاقتباس ص٣٥ .

صلاتهم يحافظون ﴾ [المعارج : ٣٤] فمن حفظ الصلاة في أوقاتها وخشوعها وخضوعها وجماعتها حفظه الله يوم يضيع الناس . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مطعون ، وفي سكرات الموت ، وعيناه تهراق بالدموع يقول : الله الله في الصلاة ، لاحظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، من حفظ الصلاة حفظه الله ، ومنْ ضيَّع الصلاة ضيَّعه الله(١).

حفظ الأيْمان :

ومما أمر الله تعالى بحفظه حفظ الأيمان ، قال تعالى : **﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾** [المائدة : ٨٩] .

وكان السلف كثيرًا ما يحافظون على الأيمان ، فمنهم من كان لا يحلف بالله ألبتة ، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر عما شك في الحلف فيه .

ووصى الإمام أحمد عند موته أن يخرج عنه كفارة يمين . وقال: أظن أني حنثت في يمين حلفتها .

وقد روي عن أيوب – عليه السلام – كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب فكفّر عنهما يمينهما ؛ لئلا يأثما وهما لا يشعران . ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة ، أفتاه الله بالرخصة لحفظه لأيمانه وأيمان غيره(٢).

حفظ القلب :

ومن حِفْظ الله تعالى ، حفظ العبد لقلبه من الشهوات والشبهات . وحفظه بالذكر والطاعة يُسلم قلبه لله سبحانه ليهديه سواء السبيل **﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾** [ق : ٣٧] .

قلب سلم من الشك والشرك ، سلم من الرياء والنفاق ، والكبر والعجب ، والحقد والحسد، وامتلأ بالصدق والمراقبة، والتوكل والخوف، والتوحيد والإخلاص، مراد الله القلب الفقيه المبصر **﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب**

---

(١) احفظ الله يحفظك ، لعائض القرني ص٣٥ ، ٣٦ طبع دار الوطن للنشر .
(٢) نور الاقتباس ص٣٧ .

التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] .

وقال تعالى : **﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمَعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾** [الأعراف : ١٧٩] .

حفظ العبد لسانه :

يقول القرني : من حِفْظ العبد لربه أن يحفظ لسانه ، واللسان هذا أمره عجيب ، فكم هتك من عِرْض ، كم أوقع في معصية ، كم لطّخ من سمعة ، وكم هدم من بيت .

من حِفظ المرء للسانه أن يوجهه لكل ما يخدم هذا الدين ، والذبّ عن حياضه .

ها هو ذا حسان بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ الله تعالى بِشِعْره وبقصائده ، فحفظه الله . كان يمدح الدعوة ، ويمدح الرسول ﷺ ، وقد قال في سبّ مشركي قريش :

زعَمتْ سَخِينة[1] أن ستَغْلب ربها ... فليُغْلبنّ مغلّب الغَلّابِ

كان رسول الله ﷺ يقربه ويرفعه على المنبر ، وقال له : « اهجهم » أو قال : « هَاجهم ، وجبريل معك »[2] .

فكان رضي الله عنه يهجوهم ويقول :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فَشرُّكما لخيركما الفداءُ

قال الزهري : أفخر بيت قالته العرب ، بيت حسّان في بدر :

وبيوم بدر إذ يصد وجوههم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

---

(١) سخينة : مسبة لقريش ؛ لأن قريشًا تحب هذه الأكلة، فالعرب إذا سبّت قريشًا قالت : سخينة .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .

فهو قائد الشعراء إلى الجنة ؛ لأنه حفظ الله تعالى .

وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه أتى إلى رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله ،

فثبّتَ الله ما آتاك من حَسَن تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصِروا

باع نفسه ، كما يقول ابن القيم ، يوم العقبة ، والبيّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن تفرقا فقد وجب البيع .

وهو القائل في مدح الرسول ﷺ :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيِّنةٌ كانت بديهته تنبيك بالخبر

ذهب إلى مؤتة ، فلما أتت ساعة الصفر نزل وخلع درعه ، وأخذ سيفه وقال :

أقسمتُ يا نفس لَتنزِلنَّهْ لتنزلنَّ أو لتكرهنَّهْ
إن أجلب الناسُ وشدوا الرنَّهْ ما لي أراك تكرهين الجنَّةْ
هل أنت إلا نطفةٌ في شَنَّهْ

ودّع الرسول ﷺ وبكى ، ولما التفت إلى المدينة وهو على فرسه قال :

خَلَف السلامُ على امرىء ودّعته في النَّخل خيرِ مودّعٍ وخليلِ

لما قالوا له : نراك على خير . قال : لا .

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرة وطعنة ذات فَرغٍ تقذف الزَّبَدا
حتى يقال إذا مرّوا على جَدثي يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا

فكان الصحابة إذا مروا بقبره ، يسلمون عليه ، ثم يقولون : يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا . قتل هناك ابن رواحة ، وذهبت روحه إلى الجنة .

وفي المقابل امرؤ القيس ، حامل لواء الشعراء إلى النار ، ضيّع شبابه في المعصية ، فضيّعه الله !! ما عرف إلا النساء والخمر فضاع .

القروي : أحد الشعراء المنحرفين اللبنانيين الفجرة ، نزل في دمشق فحملوه على الأكتاف ، وصفقوا له فقال :

هَبوا لي دينًا يجعل العرب أمةً وسِيروا بجثماني على دين برهمِ

أيا مرحبًا كفرًا يوحّد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنمِ

فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأهانه ، فمات في حمام ، وما عُلم به إلا بعد أيام ، وقد أصبح جيفة كالكلب .

إيليا أبو ماضي ، الشاعر الفاسد يقول :

جئت لا أعلم من أين؟ ولكني أتيت ولقد أبصرت قدّامي طريقًا فمشيت

وسأبقى سائرًا إن شئت هذا أم أبيت لست أدري لست أدري

قلنا له : لا دريت ولا تليت ، وتوليت وعصيت ، وأذنبت وأخطأت وتعاليت[1] .

وكذا من حفظ العبد لربه أن يحفظه في سمعه ، وأن يحفظه في بصره ، وأن يحفظه في بطنه ، وفرجه ، وسائر جوارحه ، وأن يسخرها لطاعة الله قبل أن تشهد عليه يوم القيامة . ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٤] .

احفظ الله يحفظك :

وحفظ الله لعبده يتضمن نوعين :

أحدهما :

حفظه له في مصالح دنياه ؛ كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله .

حفظه من مكر الأعداء .

وحفظه من كيد الطغاة .

ونصره على الأعداء .

حفظه للجوارح .

تسخير الدواب والسباع وحفظه من شرها .

وتسخير الجمادات .

والنوع الثاني من الحفظ :

وهو أشرفهما وأفضلهما ؛ حفظ الله لعبده في دينه ، فيحفظ عليه دينه

(١) احفظ الله يحفظك ، شريط للشيخ عائض القرني .

وإيمانه في حياته من الشبهات المردية ، والبدع المضلة ، والشهوات المحرمة ؛ ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام .

أما حفظه له في مصالح دنياه

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »[1] .

ومنْ حفظ الله للعبد أن يحفظه في صحة بدنه ، وقوته وعقله ، وماله .

قال بعض السلف : العالم لا يخرف .

وقال بعضهم : من جمع القرآن مُتِّع بعقله .

وكان أبو الطيب الطبري قد جاوز المائة سنة ، وهو ممتع بعقله وقوته ، فوثب يومًا من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة ، فعوتب على ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر[2] .

وعكس هذا أن الجنيد رأى شيخًا يسأل الناس فقال : إن هذا ضيّع الله في صغره ، فضيعه الله في كبره .

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وكان أبوهما صالحًا ﴾ [الكهف : ٨٢] أنهما حُفظا بصلاح أبيهما[3].

نبيان يبنيان جدارًا لغلامين كان أبوهما صالحًا هل بعد هذا حفظ .

---

(١) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قال .

(٢) البداية والنهاية (١٢/٨٠) وسير أعلام النبلاء .

(٣) نور الاقتباس ، لابن رجب الحنبلي ص٣٩-٤١ .

قال محمد بن المكندر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وقريته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ من الله وستر .

وقال ابن المسيب لابنه : يا بني ، إني لأزيدن في صلاتي من أجلك ؛ رجاء أن أحفظ فيك ، وتلا هذه الآية ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه[1]، وعقب عقبه .

احفظ الله يحفظك :

عن حميد بن هلال عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ فإذا هو يريني بيتًا فقال : « إن امرأة كانت فيه ، فخرجت في سرية من المسلمين ، وتركت ثنتي عشرة عنزًا لها ، وصيصيتها ، كانت تنسج بها » قال : « ففقدت عنزًا من غنمها وصيصيتها ، فقالت : يا رب ، إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي وصيصيتي ، وإني أنشدك عنزي وصيصيتي » . قال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها ربها تبارك وتعالى . قال رسول الله ﷺ : « فأصبحت عنزها ومثلها وصيصيتها ومثلها ، وهاتيك ، فائتها فاسألها إن شئت » قال : قلت : بل أصدقك[2].

احفظ الله يحفظك :

وتذكرْ حفظ الله ليوسف بن يعقوب ، يعقوب الصابر الذي قال : فالله خير حافظًا ، وهو أرحم الراحمين .

قال الحسن البصري : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجري على خديه ، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[3].

---

(١) نور الاقتباس ص٤١ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٦٧) ، وإسناده جيد ، وقال الهيثمي في المجمع : ورجاله رجال الصحيح . والصيصية هي : الصنارة التي يغزل بها وينسج .

(٣) احفظ الله يحفظك ، للشيخ عائض القرني ص٢٠ .

وحفظ الله لعمر بن عبد العزيز في أولاده ؛ ما خلّف لهم مالًا ، فصاروا من أغنى الأغنياء .

احفظ الله يحفظك :

قال عروة بن الزبير : بلغت أسماء مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يُنكر لها عقل[١].

احفظ الله يحفظك :

كان شيبان الراعي يرعى غنمًا في البرية ، فإذا جاءت الجمعة خطّ عليها خطًّا ، وذهب إلى الجمعة ثم يرجع وهي كما تركها[٢].

وكان بعض السلف في يده الميزان ، يزن بها دراهم ، فسمع الأذان ، فنهض ونفضها عن الأرض وذهب إلى الصلاة ، فلما عاد جمعها فلم يذهب منها شيء[٣].

احفظ الله يحفظك :

كتب بعض السلف إلى أخيه : أما بعد ، فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيّع تقواه فقد ضيّع نفسه ، والله الغني عنه .

احفظ الله يحفظك :

ومن عجيب حفظ الله تعالى لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى ، وساعية في مصالحه ، كما جرى لسفينة ، مولى النبي ﷺ[٤].

عن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم ، أو أسر ، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد ، فقال : يا أبا الحارث[٥]، أنا مولى رسول الله ﷺ ، كان من أمري كَيْتَ وكَيْتَ فأقبل

---

(١) الإصابة (٨/٨) .

(٢) حلية الأولياء (٣١٧/٨) .

(٣) نور الاقتباس ص٤٢-٤٣ .

(٤) نور الاقتباس ص٤٣-٤٤ .

(٥) كنية الأسد .

الأسد له بصبصة[١] حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتًا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه ، حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد[٢].

وكان إبراهيم بن أدهم نائمًا في بستان ، وعنده حية في فمها طاقة نرجس فما زالت تذب عنه حتى استيقظ .

فمن حفظ الله حفظه من الحيوانات المؤذية بالطبع ، وجعل تلك الحيوانات حافظة له[٣].

ورويت هذه الحكاية عن مالك بن دينار قال : نمت في حديقة فاستيقظت من نومي ، وأنا في الحديقة ، وإذا بحيّة أخذت زهرة في فمها ، وهي تزيل الذباب والبعوض عن وجهي[٤].

احفظ الله يحفظك :

هذا شيخ الإسلام أبو الحسن الزاهد بنان الحمّال أنكر يومًا على ابن طولون شيئًا من المنكرات ، وأمره بالمعروف ، فأمر به فألقي بين يدي الأسد ، فكان الأسد يشمّه ويحجم عنه ، فأمر برفعه مِنْ بين يديه ، وعظّمه الناس جدًّا ، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد . فقال له : لم يكنْ عليّ بأس . قد كنت أفكر في سؤر السباع واختلاف العلماء فيه ، هل هو طاهر أم نجس[٥]؟!.

احفظ الله يحفظك :

أما تسخير الجمادات :

فهذا العلاء الحضرمي يقف بجيش المسلمين أمام النهر ويقول : اللهم إنا

---

(١) تحريك الذنب .

(٢) قال الألباني في تخريج المشكاة حديث رقم ٥٩٤٩ : رواه الحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(٣) نور الاقتباس ص ٤٤ .

(٤) احفظ الله يحفظك ، لعائض القرني ص٢٧ .

(٥) البداية والنهاية (١١/١٦٩) .

جندك ، ونقاتل في سبيلك ، فاحملنا كيف شئت ، ثم يدفع فرسه فيخوض الماء هو والجيش ، فوالله ما ابتلّ لهم سرج .

وهذا أبو ريحانة الصحابي الجليل ، وقد ركب البحر في إحدى المعارك ، فضاعت إبرته ، وكان يخيط بها ثوبه ، فقال : اللهم ردّ علي إبرتي ، فرآها على الموج[١] .

وانظر إلى حفظ الله لكليمه موسى ؛ بأن سخر البحر لحفظه ، وهو رضيع ، أنجاه الله من التلف بالتلف ... الآلاف من الجنود يبحثون عنه ، ويُذبَّح من الأطفال بسببه ما يذبَّح ، ويتمنى فرعون لو يجده ، فينجيه الله من ذبح فرعون وجنوده بالبحر ثم يُربّى في حجر فرعون .

لا تُدبِّر لك أمرًا فأولي التدبير هلكَى
سَلِّم الأمر تجدنــا نحن أولى بك منكا

احفظ الله يحفظك :

التقى خالد بن الوليد بالروم ، وظن أن عدد الروم يتناسب مع جيشه الذي كان عدده اثنين وثلاثين ألفًا ، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفًا ، وفي الصباح ومع طلوع الشمس ، أقبلت كتائب الروم تتهدر ، وقبيل المعركة قال أحد المسلمين لخالد : يا خالد ، ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، اليوم نفرّ إلى جبل أجاوسلي ، فدمعت عينا خالد ، وقال : بل إلى الله الملتجأ ، قُلْ : ما أكثر المسلمين ، وأقل الروم !! لوددت أن الأشقر[٢] .براء من توجيه[٣]، وأن الروم أضعفوا العدد . وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع الروم في كربة وفي سحق ومحق ، لا يعلمه إلا الله ، وانتصر عليهم[٤] .

---

(١) انظر المقامات الجلية ، لابن سيد الناس .

(٢) فرسه .

(٣) أي مرضه .

(٤) احفظ الله يحفظك ، للقرني ص١٨ ، ١٩ .

احفظ الله يحفظك

ذكر بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين الأيوبي في معرض حديثه عن وقعة الرمل ، فقال : ومن نوادر هذه الموقعة أن مملوكًا كان للسلطان يُدعى سراسنقر ، وكان شجاعًا ، قد قتل من أعداء الله خلقًا عظيمًا ، وفتك فيهم ، فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم ، فمكروا به ، وتجمعوا له ، وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم ، وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، ووثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسكوه ، وأخذ واحد بشعره ، وضرب الآخر رقبته بسيفه ، فإنه كان قتل له قريبًا ، فوقعت الضربة في يد الماسك بشعره ، فقطعت يده ، وخلّى عن شعره ، فاشتد هاربًا حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عَدْوًا خلفه ، فلم يلْحقه منهم أحد ، وعاد سالمًا ولله الحمد[1] .

احفظ الله يحفظك :

حُكي أن رجلًا أخذ رداء الشيخ أبي بكر الكتاني في حال صلاته ، ولم يشعر بذلك ؛ لشغل قلبه بالله تعالى ، فلمّا باع السارق ، وأراد أن يسلم الرداء إلى المشتري يبست يده ، فرجع بالرداء إلى أبي بكر الكتاني ويده شلّاء يابسة ، فأخبر الشيخ بذلك ، فدعا وقال : إلهي عبدك ردّ إلي ما أخذ منّي ، فاردد عليه ما أخذت منه . فعادت يده سليمة كما كانت .

حُكي أن سارقًا دخل حجرة رابعة العدوية - رحمها الله - فأخذ شيئًا من متاعها ، فلما قصد الخروج لم يجد سبيلًا ، فعاد فوضع المتاع فوجد سبيلًا ، هكذا فعل ثلاثًا ، فنودي : إنا نحفظ بيتها ، والله خير حافظًا[2].

احفظ الله يحفظك :

قال الحكم بن أبان عن أبي مكي : إذا حضر الرجل الموتُ يقال للملك :

---

(١) صفحات مشرقة من حياة السابقين ، جمع وتصنيف نذير محمد مكتبي ص٢١ طبع دار البشائر الإسلامية . نقلًا عن النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١١٧ .

(٢) صفحات مشرقة من حياة السابقين ص٢٢ نقلًا عن محاسن الإسلام للإمام أبي عبد الله البخاري ص٦٤-٦٥ .

شم رأسه . قال : أجد في رأسه القرآن ، قال : شم قلبه . قال : أجد في قلبه الصيام . قال : شم قدميه . قال : أجد في قدميه القيام . قال : حفظ نفسه فحفظه الله عز وجل[١] .

احفظ الله يحفظك :

ثبت في الصحيحين من حديث البراء بن عازب أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه : « اللهم إن قبضت نفسي فارحمها ، وإنْ أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

احفظ الله يحفظك :

قال مسروق : من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه[٢].

احفظ الله يحفظك :

ومَنْ ضيّع الله ضيّعه الله بين خلقه ، حتى يدخل عليه الضرر ممن كان يرجو نفعه ، ويصير أخص أهله به وأرفقهم به يؤذيه ، كما قال بعضهم : إني لأعصي الله فأجد ذلك في خُلق دابتي وامرأتي .

من فارق سُدّة سيده ، لم يجد لقدميه قرارًا أبدًا .

احفظ الله يحفظك :

ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا - إما الولايات أو التجارات أو غير ذلك - فيحول الله بينه وبين ما أراد لما يعلم له من الخيرة في ذلك ، وهو لا يشعر مع كراهته لذلك .

قال ابن مسعود : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة ، حتى ييسر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإني إن يسّرته له

---

(١) نور الاقتباس ص٤٥ نقلًا عن ابن أبي الدنيا .

(٢) نور الاقتباس ص٥٢ .

أدخلته النـار ، فيصرفه الله عنه ، فيظل يتطير ، يقول : سبقني فـلان ، دهاني فلان ، وما هو إلا فضل الله عز وجل[١].

عن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال : قال رَسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »[٢].

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب بابًا من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خيرة ، فيحول الله بينه وبينه صيانة له ، وهو لا يشعر[٣].

* * *

فاللهم أصلحنا لك .

اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحل بيننا وبين معاصيك .

اللهم يا ولي الإسلام وأهله ، مَسِّكْنا بالإسلام حتى نلقاك عليه .

اللهم إني أسالك من فضلك ورحمتك ، فإنه لا يملكها إلا أنت[٤].

اللهم اجعل ذكرك شعارنا ودثارنا ، ونومنا وقرارنا ، واشغلنا به عن الدنيا وأهلها .

اللهم ارزقنا حلاوة الطاعة وعزها ، وانقلنا إليها من المعصية وذلها .

اللهم متع قلوبنا بذكر جلالك ، وسهِّرْنا عمّا نامت عنه عيون الغافلين .

اللهم اجعلنا لخصائص أصفيائك أصحابًا ، وللتائبين المعتكفين ببابك أحبابًا .

اللهم اعقد قلوبنا بحبل محبتك ، واجعل العيون منّا فوّارة بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالحرقات .

---

(١) نور الاقتباس ص٤٩ .

(٢) صحيح : رواه أحمد عن محمود بن لبيد ، ورواه الحاكم في مستدركه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ١٨١٠ .

(٣) نور الاقتباس ص٥٠ .

(٤) حديث صحيح : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود .

اللهم ولا تشغلنا شغل من شغله عنك ما أراد منك ، إلا أن يكون لك .

اللهم املأ قلوبنا بك فرحًا، وألسنتنا لك ذكرًا، وجوارحنا فيما يرضيك شغلًا.

اللهم امح عن قلبي كل ذكر إلا ذكرك ، وكل حب إلا حبك ، وكل ود إلا ودك ، وكل إجلال إلا إجلالك ، وكل رجاء إلا لك ، وكل خوف إلا منك ، وكل رغبة إلا إليك ، وكل رهبة إلا لك ، وكل سؤال إلا منك .

اللهم استعملنا على النحو الذي تحب ، وأدم ذلك لنا ، وأكد على ذلك عزائمنا ، واشدد عليها نياتنا ، وأصلح لها سرائرنا ، وابعث لها جوارحنا ، وكن ولي توفيقنا وزيادتنا وكفايتنا .

اللهم هب لنا ما وهبت لصفوتك وأوليائك وأهل طاعتك من دائم الذكر لك ، وخالص العمل لوجهك على أكمله وأدومه وأصفاه وأحبه إليك .

اللهم إنا نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

اللهم إن لم أكن أهلًا أن أبلغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل أن تبلغني ، فإن رحمتك وسعت كل شيء ، وأنا شيء ، فلتسعني رحمتك ، يا أرحم الراحمين .

اللهم إن رجالًا قد أطاعوك فيما أمرتهم ، وانتهوا عما نهيتهم .

اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني .

اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك ، وهو التوحيد ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك ، وهو الكفر ، فاغفر لي ما بينهما .

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

سيد بن حسين العفاني



فهرس المراجع

(أ) التفسير

١ – تفسير الطبري : لابن جرير الطبري – طبعة ابن تيمية .

٢ – تفسير الطبري : لابن جرير الطبري – مطبعة مصطفى الحلبي .

٣ – تفسير الطبري : تحقيق : محمود شاكر – طبع دار المعارف .

٤ – تفسير ابن كثير : لابن كثير – كتاب الشعب .

٥ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن: لأبي السعود– طبعة محمد علي صبيح.

٦ – زاد المسير : لابن الجوزي – المكتب الإسلامي .

٧ – روح المعاني والسبع المثاني : للعلّامة الألوسي – طبع دار الفكر .

٨ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية. تحقيق : أحمد الملاح – طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٩ – الكشاف : للزمخشري .

١٠– محاسن التأويل : لجمال الدين القاسمي .

١١– أضواء البيان : للشنقيطي – مكتبة ابن تيمية .

١٢– لطائف الإشارات : للقشيري – طبع دار الكتاب العربي .

١٣– في ظلال القرآن : للشيخ سيد قطب – دار الشروق .

١٤– تفسير المنار : للشيخ محمد رشيد رضا .

١٥– نظم الدرر : للبقاعي .

١٦– التحرير والتنوير : للشيخ محمد طاهر عاشور – تونس .

١٧– التفسير القيم : لابن القيم – طبع أنصار السنة .

١٨– تفسير غرائب القرآن : للقمي النيسابوري .

(ب) السنة

١ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري : لابن حجر - طبع السلفية .
٢ - شرح مسلم : للنووي - دار الشعب .
٣ - تحفة الأحوذي في شرح سنن االترمذي: للمباركفوري - طبعة الهند .
٤ - تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي - طبع المكتبة السلفية بالمدينة .
٥ - عون المعبود شرح سنن أبي داود : للطيب أبادي .
٦ - بذل المجهود سنن أبي داود .
٧ - حاشية السيوطي على النسائي .
٨ - مختصر سنن أبي داود : للمنذري، ومعه معالم السنن : للخطابي - مكتبة أنصار السنة .
٩ - سنن ابن ماجه : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
١٠- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه .
١١- موارد الظمآن في زوائد ابن حبان .
١٢- مسند أحمد بن حنبل: تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر- طبع دار المعارف.
١٣- الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري : للساعاتي .
١٤- صحيح ابن خزيمة : تحقيق : د. مصطفى الأعظمي والشيخ الألباني - المكتب الإسلامي .
١٥- مجمع الزوائد : للهيثمي - مكتبة القدسي .
١٦- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : لابن حجر - المكتب الإسلامي .
١٧- صحيح الترغيب والترهيب : للألباني - المكتب الإسلامي .
١٨- صحيح الجامع الصغير : للألباني - المكتب الإسلامي .
١٩- السلسلة الصحيحة : للألباني - المكتب الإسلامي .
٢٠- صحيح سنن الترمذي : للألباني - المكتب الإسلامي .
٢١- صحيح سنن أبي داود : للألباني - المكتب الإسلامي .

٢٢- صحيح سنن النسائي : للألباني - المكتب الإسلامي .
٢٣- صحيح سنن ابن ماجه : للألباني : المكتب الإسلامي .
٢٤- مشكاة المصابيح: للتبريزي، تحقيق: الشيخ الألباني- المكتب الإسلامي.
٢٥- فيض القدير : للمناوي .
٢٦- شرح السنة : للبغوي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط - المكتب الإسلامي .
٢٧- المستدرك : للحاكم - الطبعة الهندية .
٢٨- مختصر المستدرك : لابن الملقن ، تحقيق : سعد بن حميد .
٢٩- المعجم الكبير : للطبراني، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي .
٣٠- السنن الكبرى : للبيهقي .
٣١- المصنف : لعبد الرزاق الصنعاني .
٣٢- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي .
٣٣- الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر - دار الكتاب العربي .
٣٤- شرف أصحاب الحديث : للخطيب البغدادي .
٣٥- طبقات الحنابلة : لأبي يعلى - طبعة دار المعرفة ببيروت .
٣٦- سير أعلام النبلاء : للذهبي .
٣٧- تذكرة الحفاظ : للذهبي .
٣٨- تجريد أسماء الصحابة .
٣٩- لسان الميزان : لابن حجر .
٤٠- ميزان الاعتدال : للذهبي .
٤١- الاستيعاب : لابن عبد البر .
٤٢- النهاية في غريب الحديث : لابن الأثير .

(جـ) الرقائق

١ - النونية : لابن القيم .
٢ - مدارج السالكين : لابن القيم - طبع أنصار السنة .
٣ - إغاثة اللهفان : لابن القيم .

٤ - روضة المحبين : لابن القيم .
٥ - المدهش : لابن الجوزي .
٦ - التبصرة : لابن الجوزي .
٧ - اقتضاء العلم العمل : للخطيب البغدادي .
٨ - صيد الخاطر : لابن الجوزي .
٩ - الفوائد : لابن القيم .
١٠- المقامات العلية : لابن سيد الناس .
١١- الذريعة إلى مكارم الشريعة : للأصفهاني .
١٢- المواعظ والمجالس : لابن الجوزي .
١٣- مجابو الدعوة : لابن أبي الدنيا .
١٤- الكبائر : للذهبي - طبع مكتبة السنة .
١٥- إحياء علوم الدين : للغزالي .
١٦- نزهة المجالس وأنس المجالس : لابن عبد البر .
١٧- مفتاح دار السعادة : لابن القيم .
١٨- جامع العلوم والحكم : لابن رجب .
١٩- ذمُّ الدنيا : لابن أبي الدنيا .
٢٠- الجواب الكافي : لابن القيم، تحقيق : محمد جميل غازي .
٢١- العاقبة في ذكر الموت والآخرة: لعبد الحق الأشبيلي، تحقيق: خضر محمد خضر.
٢٢- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم : لعبد الفتاح أبي غدة .
٢٣- الوقت عمار أو دمار : جاسم بدر المطوع .
٢٤- الثبات عند الممات : لابن رجب .
٢٥- نور الاقتباس من مشكاة ابن عباس - طبع دار الأقصى الكويت .
٢٦- صفحات مشرقة من حياة السابقين : جمع وتصنيف : نظير محمد .
٢٧- لطائف المعارف : لابن رجب .
٢٨- قصص واقعية لبعض الموتى : لمجموعة من العلماء « شريط » .
٢٩- شارع الأشواق إلى مصارع العُشَّاق : لابن النحاس .

٣٠- أحكام الجهاد وفضائله : لعز الدين بن عبد السلام .
٣١- التذكرة : للقرطبي .
٣٢- فضل العلم : لمحمد سعيد رسلان .
٣٣- تذكرة السامع والمتكلم : لابن جماعة .
٣٤- مواعظ ومواقف للعلماء الصالحين أمام الحكام والسلاطين : لأحمد رضوان .
٣٥- الآداب الشرعية : لابن مُفلح .
٣٦- الزهد : لابن حنبل .
٣٧- الرقائق : لمحمد أحمد الراشد .
٣٨- حادي الأرواح : لابن القيم .
٣٩- الآداب : للخلال .
٤٠- اليواقيت الجوزية : لابن الجوزي .
٤١- مختصر قيام الليل : لمحمد بن نصر المروزي والمقريزي .
٤٢- تلبيس إبليس : لابن الجوزي .
٤٣- اللطائف : لابن الجوزي .
٤٤- مفاتيح الغيب .
٤٥- الزهد لابن المبارك .
٤٦- احفظ الله يحفظك : لعائض القرني .

(د) التاريخ

١ - البداية والنهاية : ابن كثير .
٢ - النهاية في الفتن والملاحم : ابن كثير .
٣ - الروض الأُنُف : للسهيلي .
٤ - صور من حياة الصحابة : عبد الرحمن رأفت الباشا .
٥ - سلسلة معارك الإسلام الفاصلة : لبشاميل .

٦ – طبقات الشافعية : للسبكي .
٧ – سيرة ابن هشام .
٨ – الكامل : لابن الأثير .
٩ – سمط النجوم العوالي .
١٠– السيرة الحلبية .
١١– عصر الدول والإمارات : شوقي ضيف .
١٢– تاريخ الطبري .
١٣– مناقب الإمام أحمد : لابن الجوزي .
١٤– الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية .
١٥– العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : لابن عبد الهادي .
١٦– الطبقات الكبرى : لابن سعد .
١٧– الطبقات الكبرى – القسم المُتمِّم لتابعي أهل المدينة .
١٨– شذرات الذهب : للعماد الحنبلي .
١٩– الإبادة : لأحمد رائف .
٢٠– رسائل ابن حزم .
٢١– الذخيرة : لابن بسَّام .

(هـ) عقيدة

١ – كتاب السنة : للإمام عبد الله بن أحمد .
٢ – مصرع التصوف : للبقاعي ، تحقيق : الوكيل .
٣ – العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ .
٤ – القيامة الصغرى : لعمر سليمان الأشقر .
٥ – شفاء العليل : لابن القيم .
٦ – القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى : لابن عثيمين .
٧ – معارج القبول : للشيخ حافظ بن حكمي .

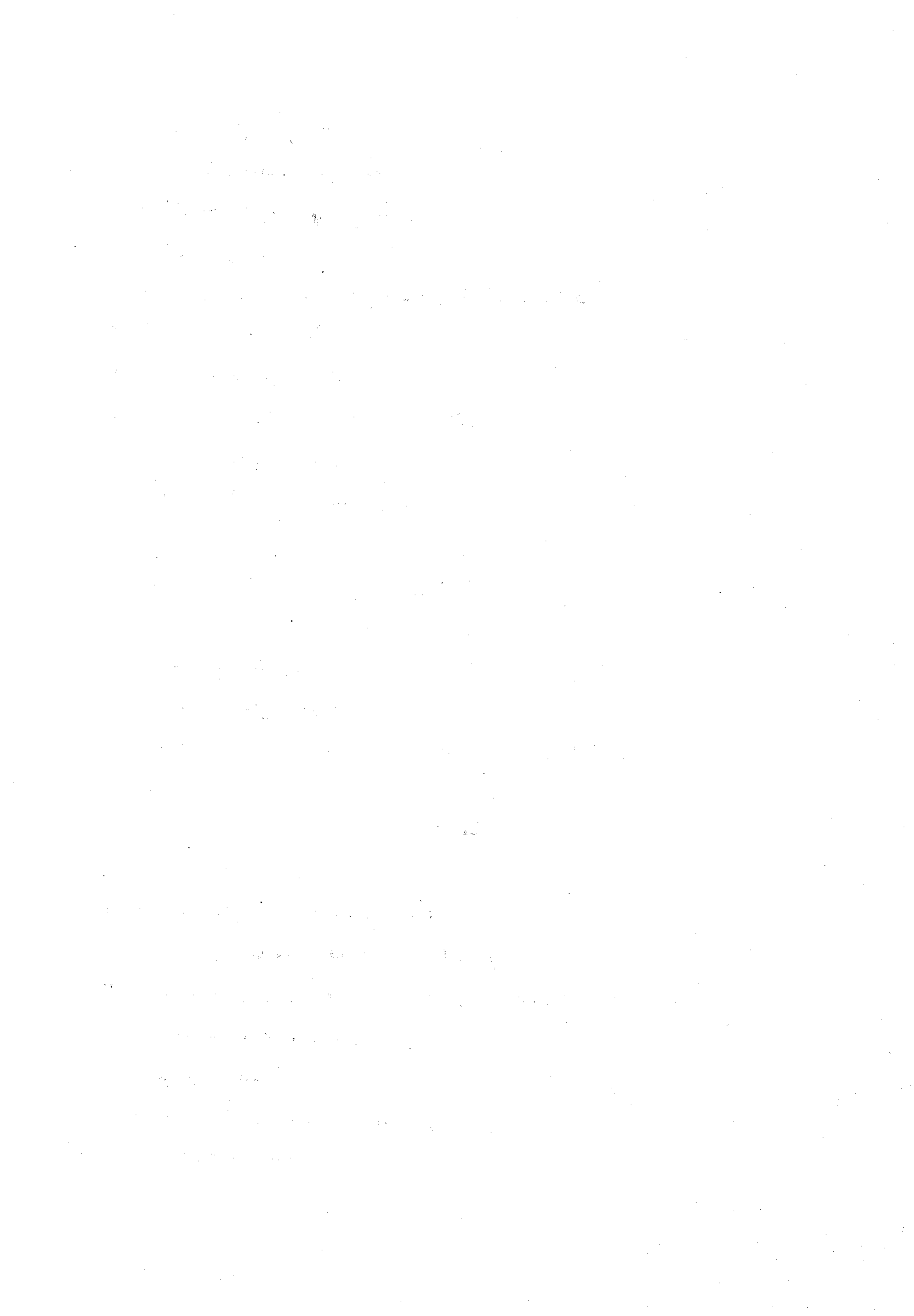
٨ - العقيدة في الله : للأشقر .
٩ - البهائية : إحسان إلهي ظهير .
١٠- القاديانية : إحسان إلهي ظهير .
١١- الفرق بين الفرق : لعبد القاهر البغدادي .
١٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : للالكائي .
١٣- درْء التعارض : لابن تيمية .
١٤- مجموع فتاوى ابن تيمية .
١٥- مختصر الصواعق المرسلة : لابن القيم .
١٦- مختصر العلو : للذهبي .
١٧- الرجل الصنم : لضابط تركي .

(و) فقه

١ - المجموع : للنووي .
٢ - الجامع لمسائل المدونة .
٣ - الفتاوى السعدية للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي .

(ز) لغة

١ - قيامة الثأر : محمود حسن إسماعيل .
٢ - الأعمال الكاملة : لمحمود حسن إسماعيل .
٣ - تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين - طبع دار المعارف .
٤ - نفحات ولفحات : للقرضاوي .
٥ - نونية القرضاوي .
٦ - ديوان الأرض المباركة : للنحوي .
٧ - ديوان ابن الفارض .



فهرس أطراف الحديث

المعرف بأل من حرف الألف

حرف الباء

المعرف بأل من حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

المعرف بأل من حرف الحاء

حرف الخاء

المعرف بأل من حرف الخاء

حرف الدال

المعرف بأل من حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

المعرف بأل من حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

المعرف بأل من حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

المعرف بأل من حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

عتق النسمة	البراء	صحيح	٥٢٤/١د
عثمان أحيى	ابن عمر	صحيح	٢٣/٢
عثمان حَيِيٌّ تستحِي	أبو هريرة	صحيح	٢٣/٢
عجبت لصبر أخي	ابن عباس	صحيح	١٠٧/١
عُرضت عليَّ الجنة	ابن عمر	صحيح	٢٣٠/٢
عصبة من أمتي	جابر بن سمرة	صحيح	٢٧٦/١
عليكم بالجهاد	أبو أمامة	صحيح	٥٧٠/١

حرف الفاء

فتنة الرجل في ماله	حذيفة	صحيح	٣٠٤/٢
فَضْل العَالِمِ على العابد كفضل	معاذ	صحيح	٣٦٥/٢
فضل العالم على العابد كفضلي	أبو أمامة	صحيح	٣٦٥/٢
فضل العلم أحبّ إليّ	حذيفة	صحيح	٣٦٦/٢
فضّل الله قريشًا	أم هانىء	حسن	٣٨٩/٢
فقراء المهاجرين	أبو سعيد	حسن	٤١٥/٢
في الجنة باب	سهل بن سعد	صحيح	٥٤٤/٢
في الجنة ثمانية	سهل بن سعد	صحيح	٥٤٥/٢

حرف القاف

قال الله تعالى : إذا ابتليت		صحيح	٤٢٠/٢
قال الله تعالى : إذا أحب	أبو هريرة	صحيح	٤٣٥/٢
قال الله تعالى : إذا سَلَبتُ	العرباض	حسن	١٣٠/٢
قال الله تعالى : أنا	واثلة	صحيح	٣٥٤/٢ ٤٣٥
قال الله عز وجل : أنفق	أبو هريرة	صحيح	٥٠٥/١
قال الله تعالى : عبدي إذا	ابن عباس، أبو هريرة	صحيح	٣٣٦/٢

المعرف بأل من حرف القاف

حرف الكاف

المعرف بأل من حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

المعرف بأل من حرف الميم

حرف النون

المعرف بأل من حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

المعرف بأل من حرف الواو

حرف لا

حرف الياء

المعرف بأل من حرف الياء

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *